وَاقِعُ المرْأةِ السُّوْدَانِيَّة

قَضَايا الحُبِّ والزَّواجِ





وَاقعُ المرأةِ السَّودَانِيَّةِ

قَضَايا الحُبِّ والزَّواجِ

الكتاب: وَاقِعُ المرْأةِ السُّوْدَانِيَّة- قَضَايا الحُبِّ والزَّواجِ
الكاتب: د.مجدي إسحق

تاريخ النشر : الطبعة الأولى 2020
رقم الإيداع:000/000

المدير المسؤول: اسامة عوض الريح

التصميم والإخراج الفني:الفنان التشكيلي بكري خضر

الناشر
دار المصورات
للنشر والطباعة والتوزيع



الخرطوم غرب
شارع الشريف الهندي
المتفرع من شارع الحرية
ت:+249912294714
elrayah1995@gmail.com

وَاقعُ المرْأَةِ السَّودَانِيَّة

قَضَايا الحُبِّ والزَّواجِ

دكتور مجدي إسحق



الإهـــداء....

إلى....

اِبتسام ، زوجتي

المعنى المُتجسِّدُ

للمَرأةِ الإنسَانِ

المحتويات

مقدمة

حروفي بكل الفخر والاعتزاز قد رضعت من الوالده الحاجه سعديه عثمان نور..(لها الرحمه).التي لم تقرأ كتاب أصل العائلة، ولا أبحاث مورغان . ولم تسمع بكلارازدكن ولا روزا لوكسمبرج.ولم تتصفح حروف نوال السعداوي أو فاطمه المرنيسي.بعفويتها الفطرية واهتمامها بضرورة تعليم النساء، وتقديسها لعمل المرأة، واعتدادها بذاتها، وقناعتها بأن دور المرأه يجب أن يتجاو ز جدران منزلها. فزرعت في دواخلنا أول بذور احترام المرأه الإنسان، ومن هذه البذره قامت فروعنا وجذورنا اليوم، والتي تنادي بحق المرأه المتساوي في الحياة وتحتفي به.

هي التي جعلتني منذ طفولتي أقف مع حقوق المرأة، وهي تبتسم بوداعةٍ ومحبةٍ في يوم العيد (العيد حق الرجال، ليهم الريحه والجلاليب النضيفه، ونحنا لينا الضبيحه، ومصاقرتْ الكانون وعمل الكمونيه). عليها الرحمة، كانت تبتسم من مداعباتي، لذا كنت أستزيد منها. وأذكر أنني كنت أداعبها قائلاً: «تدَّهورتي في الطبيخ»، فترد ساخرً : (ما يتدهور ليه ،خمسين سنه. دي وظيفة شنو ؟ ،يومي لا إجازه لا مرتب ولا ترقيه). هذه الحروف العفويه كم فتحت في دواخلي تساؤلاتٍ، وكم دفعتني للقراءة. وجعلتني أسطر أفكاري، فكان هذا الكتاب، الذي لم أكتبه في أيام ولا شهور بل كان مقالات متفرقةً بدأت قبل ثلاثين عاماً أو تزيد. منذ تخرجي في كلية الطب وحتى الآن متخصصاً في الطب النفسي، وفي قضايا الأسرة والعلاقات. لقد كانت رحلة بحث في النفس والتاريخ وسكةً للتعلم كم فوجئتُ عندما تكشَّف لي مقدار الظلم التاريخي الذي وقع على المرأة، وكيف أنَّ في عمر الإنسانيةِ الطويل - حتى قبل قرن أو يزيد قليلاً- كان نصف المجتمع

(المرأة)، لا يتمتَّعُ بحق التعليم ولا بحق امتلاك العقارات، ولايحق لها إدارة أموالها، وليس لها حق الترشيح والتصويت، بل في بعض المجتمعات، ليس لها حق الخروج من المنزل إلا لبيت الزوج، أو القبر.بدأت أسطر ما أقرأه، وعندما تخصصت في الطب النفسي زاد الاهتمامُ، وجعلت من تخصص قضايا الأسرة والعلاقات العاطفيةِ، مجالا لاهتمامي وعملي، حيث في البال خاطرةُ أنَّ بناء واقع يحترم المرأة، سيمر من خلال بوابة أسرة متوازنةٍ ينشأ الأطفال فيها على قيم احترام المرأة سلوكاً وممارسة وحياةً يعيشونها.

جلست أنظر إلى ما أكتب عبر السنين، وقدمته لزوجتي وتوأم روحي، فشجعتني بأنَّ فيه ما يستحق أن يطبع وينشر. ترددت وفي البال تساؤلاتٌ، فالمقالات رغم وحدتها الفكرية، وعدم تبدل رؤيتي وقناعاتي، لكنها، أي المقالات، أشعرتني أن خبرتي ولغتي قد تغيرتا ، وهذا لم يكن هاجساً كبيراً، لكنَّ ما أقلقني، هو أنَ في مقالاتي الأولى لم أكن أهتم أثناء كتابتها بتسجيل أسماء المراجع والمصادر بالطريقة العلمية المطلوبة. لذا أدفع بحروفي للقراء،متمنياً أن لا يؤثر ذلك على قراءة القارئ الأكاديمي، و هو «حتماً» لن يغير كثيراً، ولن يؤثر على قراءة الأغلبية الذين يبحثون عن المعرفة العلميه ليستوعبوا أسرار المشاعر الإنسانية،ويساعدهم ذلك في الحصول على فهمٍ علمي وموضوعي لقضايا الحب والزواج.

يجد القارئ أن هذا الكتاب ينقسم إلى ثلاثة أجزاء وإحدعشر فصلا .

الجزء الأول، يبحث عن إجابة للتساؤل المطروح، هل حقيقة المرأة أنها مخلوق مساوٍ للرجل؟ للإجابة عن هذا التساؤل، بحثنا في حقيقة المرأة ووضعها عبر التاريخ، وحاولنا أن نجيب عن التساؤل القائلِ بهل كان وضعها متدنياً عبر التاريخ؟ ثم دلفنا إلى المقارنه بين الرجل والمرأه تركيبياً، وفي سماتهما النفسية، محاولين الإجابةَ عن سؤال: هل مقدرات المرأة ومشاعرها جزء تركيبي في ذاتها، أم سمات اكتسبتها من المجتمع؟.

هذا التساؤل يقودنا للجزء الثاني، وذلك بطرح بعض النماذج لواقع

المرأة السودانيه تركيبتها وتطورها وجذورها القبلية، ثم نختم هذا الفصل بمتابعةعملية تشكيل المرأة منذ الطفولة و حتى الزواج، ووضعها ،وشخصيتها في كل مرحلة. هذا الطرح هو محاولة لاستقراء الواقع استناداً على مدرسة التنميطِ والتَّشيؤِ التي تستند على فكرة أن المجتمع هو الذي يشكل شخصية المرأة، وسلوكها عندما يختزلها لمجرد جسدٍ، أو التركيز على ذلك مع تجاهل لقيمها الإنسانية الجوهرية.

في الجزء الثالث، حاولت طرح المفاهيم العلمية للحب والجنس والزواج، من حيث التعريف العلمي والمكونات التركيبية والعوامل المؤثرة في كلٍّ من هذه المفاهيم، اِستناداً على التركيبة الاجتماعية للمرأة، ومتابعة تأثيرها على علاقاتها، ومحاولة رسم خطوط عريضة لتساعد الزوجين في تجاوز العقبات، وبناء علاقة متكافئةٍ، ومتوازنة.

وقد جاءَ الختام في خلاصةٍ تعكس نصائحَ من عصارة مدارس علم النفس للعوامل، والتي وضعتها كوصايا وفرائض في ضرورة الالتزام بها، وكبائر يجب علينا تحاشيها حتى نكتب لعلاقاتنا ماتستحق من تطور سلس ونهايات سعيده.

لا أزعم بأنه سفر يحوي كل مافي البال من قضايا، ولكنني اِجتهدت - بقدر الطَّاقة والمعرفة والخبرة- أن أجعله يضم الخطوط العريضة ليكون نقطة انطلاق لكل فرد في استكشاف ذاته، والنظر إلى علاقاته، ومحاولة البناء على ذلك من القراءة والممارسة، وهكذا نبني مجتمع العدالةِ، والمساواةِ، للمرأة، وبه نرسم لأنفسنا دروب السعادة والتوازن النفسي.



الفصل الأول

هلْ للمرأةِ قضيةٌ؟



هلْ للمرأةِ قضيةٌ؟

المرأةُ صنو الرجل ونصف المجتمع.إذن نتوقع من هذه الصفة أن يكونَ النِّصفان متساويين، لكن الحقيقة عكس ذلك تماماً. فقد كانت رحلة وعرةً عبر التاريخ مليئةً بالظلم، وعدم المساواة، اتَّسمتْ بالاضطهاد البدني والنفسي، ولم تعترف الحضارةُ الإنسانية بأحقية المرأة في حياة متساويةٍ مع الرجل،إلا في القرن الماضي، حيث أُعْتُرِف لها بحق التعليم التصويت والانتخاب والأجر المتساوي في العمل. ورغماً عن ذلك، ظلَّتِ المرأة ومازالت تعاني عدمَ المساواه في كثير من القضايا في كثير من البلدان.

يتبادر للبعض سؤالٌ عن ماهية قضية المرأة، وأين أزمة الرجل، وما علاقته بها؟ وقد يتساءل القارئ، إذا اتفقنا جدلاً أن المرأة مظلومةٌ، أليسَ من الأوجبِ عليها الدفاع لتغيير هذا الظلم، والنضال من أجله ؟. فما دخل الرجل في كل هذا ؟ فالواقع الاجتماعي لا يعكس أي اضطهاد على الرجل؟ فما دام ليس للرجل حقٌ مهضومٌ ليناضل من أجله، ففيم الحديث عن مشكلة الرجل؟ إذن يحق للبعض أن يتساءل عن هل قضية المرأة قضية خاصة بجمهرة النساء، ولها خصوصيتها وانعزالها عن واقع الرجل وهمومه ؟

كما نرى، فإن التساؤل يحمل الإجابة بين طياته، لأنه إذا سلمنا أن للمرأة قضيةً فحتماً لم تنبع من فراغ. فإذا كانت دعوة النساء للتحرر والمساواة، فإن المساواة ليست مع دافع خيالي، بل مع الرجل شريكها في الحياة الاجتماعية. وكما أسلفنا فإن الواقع المتدني للمرأة غير المتكافئ مع الرجل، هو إفراز لظروف تاريخية محددةٍ، جعلت الرجل في مركز السيادة

والسيطرة. إذاً، مع اضمحلال هذه الشروط التاريخية، وتغير البينة الاقتصادية، فإنه من الحتمي أن يصاحبه تطور في مفاهيم المجتمع وقيمة الفكرية، والاجتماعية للجنسين.

من الطبيعي والمنطقي أننا لا نستطيع أن نفصل بين الرجل وقضية المرأة. فجوهر القضية ليس أزمة المرأة في ذاتها بمعزل عن واقعها الاجتماعي، إنما هي تعكس وضع المرأة في المجتمع وعلاقتها بالرجل باعتباره المكون الآخر للمجتمع. إن أي حديث عن قضية المرأة، هو حديث عن قضية اجتماعية لها جذورها وانعكاساتها الاقتصادية والفلسفية التي ترمي بظلالها على واقع الرجل. لذا - إن جاز لنا التعبير-، فإن قضية المرأة هي بالتحديد قضية الرجل والمرأة على حد سواء. فواقع المرأة المضطهدة هو خير دليل على مستوى الوعي الاجتماعي، وتطور الرجل الحضاري والسلوكي. وبما أن الرجل والمرأة يمثلان قطبي القضية، فحتماً إن أي تحرك لمعالجة المشكلة سيساهم في تغيير نوعية العلاقات بين الطرفين. فأي تطورٍ لواقع المرأة، يجب أن يوازيه تطورٌ في الفهم الذكوري، لأن التطور يتم على مستوى البنية الفكرية للصراع الاجتماعي، مما يجعله ينعكس على أفراد المجتمع رجالاً كانوا أم نساءا. لذا فإن أي خط يقود لحل التناقض الاجتماعي على مستواه الاقتصادي، وانعكاساته الفكرية والسياسية، فإنه سيساهم بصورة إيجابية في إزدياد الوعي النسائي والذكوري على حدٍّ سواء، مع تغيير واضح في بنية العلاقة بين الرجل والمرأة لتنطلق هذه العلاقة إلى رحاب أفقٍ جديد من الندية والتكافؤ.

قد يتقبل الرجل بصورة سلبية كل صور التقدم والنجاح الذي تحرزه المرأة في سبيل تحقيق وضع يحفظ لها إنسانيتها وكرامتها، ولكن، هل هذا هو طموحنا؟ وهل يكفي أن يصبح الرجل غير مساهمٍ في دعم مسيرة المرأة باعتبارها قضية أنثوية تخصها وَحْدَها؟ كما أسلفنا، فإنه ليس هناك قضية امرأة منفصلة عن التخلف الأيديولوجي وجذوره

الاقتصادية، وعليه، يجب أن يعي الرجل دوره المساهمَ في تبنّي الدعوة للتغيير الاجتماعي، وذلك لجعل قضيةِ المرأةِ قضيةً للرجل.

إن الواقع المتدني الذي تعيشه المرأة، يعبر عن الواقع غير المتوازن بين الجنسين، والذي من الواضح أن يصبح أحد الأطراف فيه مظلوماً ومضطهداً، بقدر ما يجعل الطرف الثاني يمثل قطب الاستبداد والاضطهاد. فانتفاء هذه المبررات التاريخية مع تطور المفاهيم التابعة لها، تجعل المجتمع متأهِّباً للدخول في مراحل أوسع من سلم التطور، وليس فيها دونية لأحد الطرفين. لا نستطيع أن نصف الرجل الذي يشعر بالرضا والتفوق في فرض سيطرته، وإيجاد ذاته في إبراز هيمنته على أنثاه أو أي أنثى أخرى، بأنه إنسان سويٌّ ومتوازن.

واقعُ المرأةِ بين الدِّين والمجتمع

نجد أن هناك مدرستين في النظر لقضية المرأة، إحداهما ترى أن وضع المرأة هو نتاج لخلق الله لها لتلعب دوراً ثابتاً ومحدداً، و ما عليها سوى الالتزام به. وقد خلقها الله بقدرات وإمكانات تتناسب مع دورها ووظيفتها (المدرسة الدينية)، ومدرسة أخرى ترى أن الاختلاف بين الجنسين في التركيب والوظيفة موجودٌ، ولكنَّ هذا لا يبرر وضعها المتدنِّي عن الرجل، وترى أن ذلك قد حدث نتيجةً لعوامل تاريخيةٍ، هي أكثر من طبيعتها وتركيبتها (المدرسة التاريخية).

المدرسةُ الدينيةُ

أصحاب المدرسةِ الدينية في مجتمعاتنا المسلمة، هم أكثر الأصوات ضد مساواة المرأة. ونجدهم دائماً يستندون على الفقه الإسلامي في تفسيرهم ودعمهم لرؤيتهم لوضع المرأة المتدني. هنا يجب التأكيد على وجود تيارات واسعة وسط الفكر الإسلامي، تقف ضد هذا التيار، وتؤمن أن الإسلام قد كرَّم المرأة وأعطاها من الحقوق والواجبات تتساوى فيها مع الرجل. فهذا

التباين ناتج من الفرق بين مقصد الدين في جوهر الإسلام، وبين الإرث الفقهي الذي يعكس الفهم التاريخي والتفسيرات له. فالمعروف أن الإرث الفقهي - رغم اختلافه الواضح أحياناً من مقصد الدين- لكنه يتَّسِمُ بقوة تأثيره وسلطته المعرفية على كثير من المجتمعات، نتجة عوامل متعدد، من سلطة الدولة، والعرف... إلخ. وذلك على الرغم من أن الفقهاء ظلُّوا دوماً يقولون إنَّ كلمتنا ليست هي الأخيرة والفَصْل، وإنما هي اجتهاداتٌ مِنَّا، فإن رأيتم فيها مفارقة أو وجدتم خيراً منها، فاتركوها، إلا أننا نجد أن الفهم الذكوري العام قد جعل من كل الفتاوى الفقهية التي تتناسب مع رؤيتهم الذكوريه لواقع المرأة، حقائقَ لا يأتيها الباطلُ، متناسين البُعدَ التاريخي والاجتماعي للفتوى، والعامل الذاتي والنفسي للفقيه.

إن أي بحث سريع في الإرث الفقهي، سينجد أمثلة كثيرةً تثبت لنا ذلك، وسنرى تأثير العُرف والفهم الذكوري وبُعدِهما عن مقصد الدين وجوهره، في ترسيخ قيم العدالة والمنطق.

هناك جزء من الإرث الفقهي الذكوري يتعامل مع المرأة باعتبارها جسداً أولاً وأخيراً، وما الزواج إلا مؤسسة لإباحة الاستمتاع بها. لذا لا نستغرب ورودَ بعض التعريفات الشائعة للزواج، مثلما نجده عند الحنفية في تناولهم لمفهوم الزواج، على حسب تعريف الكمال بن همام، والذي يقول عن عقد الزواجِ، بأنَّه : «عقدٌ لتمليك المتعة بالأنثى قصداً».أما عند بعض الشافعية، فتعريف عقد الزواج ، بأنه «عقد يتضمن إباحية الوطء».

كما نرى، فإننا لا نحتاج لأن نقول إن الفهم لا يمكن أن يمثل مقصد الدين، الذي جعل من الزواج مؤسسة للتوازن النفسي والاجتماعي والبيولوجي، بتوصيفٍ راقٍ وشامل ودقيقٍ، بأنه مشيدٌ على المودةِ والرحمة. إذن فالفهم الحقيقي والشامل للزواج ومقصد الدين، لا يمكن أن يتطابق مع هذا التعريف الفقهي الذي لا يعرف من الزواج إلا أنه علاقة جسدية. لذا لا نستغرب كثيراً عندما نجد ابن عابدين يقول: «إن ملك الزوج للمتعة

بالعقد، هو ملك شرعي كملك المستأجر للمنفعة من الشخص الذي يستأجره للخدمة». ولا أظن أنَّ هذا الكلام يحتاج إلى تعليقٍ، فهو «وَحْدَهُ» يعكس نفسه ويفضح فهمه.

كما أننا نجد أن مفهوم «المهر» لا ينفصل عن سياق الفهم الذكوري، ولا ينفصل عن النظرة السلفية للمرأة، حيث نجد أنَّ أبا داؤود الظواهري يعرف المهر بأنه: «هو المال الذي يجب للمرأة على الرجل، مقابل ملكة الاستمتاع بها بسبب الزواج». ويعكس هذا التعريف للمهر كسعر شراء للمرأة، يجعل من المرأة أداةً للمتعة الجسدية مقابل مبلغ من المال، ويتناسى هذا الفهم رسالة الدين أن خير النساء أقلهن مهوراً، بل تأتي قمة التطور في نماذج من النساء كان مهرهن آيات من القرآن الكريم، وليس قيمة مادية. قياساً على ذلك، نجد أن بعض مدارس الفقه قد ضيقت على المرأة، و حاشانا أن نتهم علماءها بسوء القصد، ولكن نقول إن ثقافتهم الذكورية لم تساعدهم على فهم مقاصد الدين وما وجدته المرأة من حقوق، حيث نرى إن المرأة قد حُرمت - تحت هذه النظرة في بعض المجتمعات- من الخروج من المنزل تارةً، ومن التعليم تارةً أخرى، ومن العمل في أحيان أخرى، وفُرض عليها الزواج بدون مشورتها في أحيان أخرى. ولقد تناسوا أن جوهر الدين هو مساواة في التكليف والحساب، لا فرق بين ذكر وأنثى، حيث لم تُعطَ حقها في الحياة بعد أن أنقذها من الدفن حيةً، بل أعطاها حق التملك والتجارة والتعليم والتعلم، وفي بالنا أحاديثُ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في تكريم المرأة وإكرامها. (خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء).

في هذا الكتاب سنستند على حقيقة أن الدين الإسلامي في جوهره قد كان نقلةً في واقع المرأة تاريخياً، وأن التقييد والحرمان من الحقوق مثل التعليم والعمل والترشيح والانتخابِ، كانت مراحل ردةٍ تعكس التفسيرات الفقهية في زمنٍ محددٍ، ولا تعكس مقصد الدين. لذا نجد أن المنطق ينفي

بأن أي تردي في وضع المرأة هو نتاجٌ للفهم الديني، بل المنطق يعكس لنا أن التقييد والحرمان من الحقوق، كان واقعاً اجتماعياً استولد الإرث الفقهي ليقنن لهذا الفهم ويعطيه قدسيةً دينيةً، وعندما تغير الواقع الاجتماعي، تغير الإرث الفقهي ليدافع عن الواقع الجديد. وفي تاريخنا أمثلة كثيرة تثبت ذلك، مثل خروج المرأة، وحق المرأة في الترشيح والتصويت. إذن، يمكننا الجزم بأن الإرث الفقهي رغم تقنينه لواقع المرأة في الزمن المحدد، لكنه ليس هو الذي يشكله أو يحدده. فهو ليس مسؤولاً عن تدني وضع المرأة، ولن يفسر أسباب اضمحلال حقوقها في بعض الحقب.

إن التَّغيُّر والتباين في وضع المرأة بين الحقب، وبين المجتمعات والتي لها المرجعية الدينية نفسها، إسلاميةً كانت أم مسيحية، تؤكد خطأ الرؤية الدينية، حيث إن الدين حتماً ليس هو العامل المحدد لوضع المرأة، لأنه إن كان كذلك، لتشابه وضع المرأة في كل الأقطار الإسلامية، وفي القُطرِ نفسه، أو الدولة نفسها، وذلكَ لتشابه وضع المرأة اليومَ، وقبل قرن أو خمسة قرون مضت.

المدرسةُ التاريخيةُ

ترى المدرسة التاريخية أن وضع المرأة الاقتصادي المضطهد لم يحدث من فراغ، ولا يمكن أن يوجد في مجتمع بمعزل عن قوانين وأعراف ومفاهيم وُضِعتْ لتخدم هذه السيطرة. فالمفاهيم التي سادت عن تفوق الرجل لم تأت من فراغ، كما أن انتشارها بين الأمم والحقب، لابد وأن تكون وراءه عوامل ساعدت في ذلك وقادت إليه.

لقد نجحَ علم التاريخ في الوصول إلى قلب الحقيقة عندما أكد أن الثقافة هي عبارة عن بنية فوقية لأساسٍ اقتصاديٍّ واجتماعي. فالبنية التحتية الاقتصادية والاجتماعية تُؤَثِّرُ في تشكيل البنية الثقافية الفوقية، إلا أن هذه العلاقة ليست ميكانيكيةً، بل نجد أن البنية الفوقية تؤثر في هذه القاعدة، بمعنى أن الثقافه والوعي يُغيرِّان التركيبة الاقتصادية وما

يصاحبها من بنية اجتماعية مثلاً في الاقتصاد الزراعي. فإذا كان وضع الرجل في الزراعة طول اليوم، والمرأة في المنزل لا تختلط بمجتمع الرجال، سيصنعُ ثقافةً مختلفةً عن الاقتصاد الرعوي الذي تتحرك المرآة فيه مع الرجل، وقد تساعد في الرعي وتحتك به عاملةً معه يومياً. لذا عندما نجد مجتمعات ثقافتها تقلل من قيمة المرأة، وجب علينا أن نعري هذه السيطرة الثقافية التي استندت عليها، ونبحث عن الظرف الاقتصادي والاجتماعي الذي أنتج هذه الثقافة.

إذا أردنا أن نحلل الوضع الاجتماعي للمرأة، يجب علينا في البدء أن نغوص في أعماق التاريخ لنسترجع كل صور المجتمعات البدائية، لنقارن وضع المرأة قديماً وحديثاً، ونرصد ما طرأ عليها من تقدم أو تأخر، مع رصد وملاحظة العوامل التي أسهمت في الارتقاء بوضع المرأة تارةً، والانحطاط به مرةً أخرى.

لذا، بالرجوع للبُعد التاريخي، وتحليل العوامل التي ساهمت طوال هذه الحقب، وفي معظم فتراته في جعل المرأة تعيش وضعاً منحطاً كمخلوق من الدرجة الثانية، نثبت أنه بانتفاء هذه الأسباب، تنتفي كل القيود التي كبلت المرأة طويلاً ومنعتها من الانطلاق خارج هذا الإطار، لتظهر المرأة كإنسان له كينونته وذاته المتفردة. إن استخلاص هذه العوامل وتحديد قوة تأثيرها على وضع المرأة يسهم في إثبات أن وضع المرأة هو نتاجٌ لصراع تاريخي يرتبط بصورة مباشرة بموضوع النساء ومواقعهم الاقتصادي، ودورهنَّ في تنمية المجتمع وتطوره. هذا التباين الذي امتد طوال حقب التاريخ من أقدم العصور، ومراحل ما قبل الحضارة إلى يومنا هذا. ولندحض الرأي القائل بأن وضع المرأة طبيعي ومنطقي يتطابق مع تكوين المرأة الجسدي والنفسي، مما يبرر للوضع المتدني للمرأة باعتباره الوضع الأنسب لها، لأنه يطابق إمكاناتها الفطرية، ولهدم خرافة أن المرأة مخلوق ضعيف بالفطرة، قطعاً نحن لا نسعى لإنكار الوجود المادي للمرأة وتكوينها

الجسدي المختلف عن الرجل، إلا أننا نؤمن بأنه لا يمثل سبباً يدفع بالمرأة كي تتبوأ هذا الوضع المتدني والمستلب في السلم الاجتماعي.

ستضيء لنا هذه العوامل الطريق لإثبات أن وضع المرأة لم يكن متدنياً على إطلاقه، أي طوال مسيرة التاريخ، بل تأرجح وضعها صعوداً وهبوطاً، وعلى الرغم من أن الهبوط كان الصفة السائدة لواقع المرأة، إلا أن مراحل الصعود تعطي الدليل الحاسم بأن وضع المرأة المتدني ليس تنمية فسيولوجيةً، إنما انعكاس لظرف موضوعي كان له هذا الانعكاس الاجتماعي المتخلف. أي أن التخلفَ، والوضع المتدني هو الصورة وليس الأصل، هو الظل لعوامل عديدة ساهمت في رسم هذا الواقع.

هذه النقطة هي الخطوة الأولى لاستخلاص الأسباب الموضوعية التي ارتبطت بواقع المرأة، وأثرت عليه سلباً وإيجاباً في كل مراحل التاريخ المتعاقبة، جاعلة عجلة الحياة تسير للأمام، ووضع المرأة يتقدم تارةً، ويتراجع للوراء في معظم فتراته.

واقعُ المرأةِ عَبْرَ التّاريخ

بدايةُ التّاريخ

في بداية تاريخ الوجود البشري، عاش الإنسان فترةً مازال العلمُ يجهل عنها الكثيرَ، ولا يمتلك ما يكفي من المعلومات ليقطع فيها برأيٍ جازم ونهائيٍّ. مازالت الأقوال عنها فرضيات يكتنفها ظلامٌ كثيفٌ، لكن الحقيقة شبهَ المؤكدة، والتي يتفق عليها كثير من علماء الاجتماع، أن الإنسان الأول لم يكن يعاني من أيَّةِ فوارق بين الجنسين، ولم يكن هناك ما يُعرف بسيادة جنس على الآخر. رغم الاختلاف التكويني، فقد كان الإنسان يعيش على نظام بدائي لا يعرف تقسيم العمل استناداً على الاختلاف البيولوجي. فقد كان الاقتصاد بسيطاً، ويعتمد على ما تجود به الطبيعة من ثمار لمأكله وملبسه ومسكنه، ويمكننا القول إنه عهد الاعتماد السلبي والكلي على الطبيعة، وقد كانت كل احتياجات الإنسان تجود بها الطبيعة، وتحت متناول يده. وكما أسلفنا فإن أي حديث عن ذلك العهد هو أقرب إلى التكهنات التي لا يسندها دليل مادي محسوس، لذا نجد أن المقولات السابقة قد استندت على استقراء التاريخِ، في محاولةٍ لوضع التسلسل المنطقي الذي يُفسر كل الحقب التي تلت تلك الفترة المجهولة.

يؤكد علماء التاريخ أن أول صورة متكاملة لدينا للعالم القديمِ، هي صورةُ مجتمعٍ مكتملٍ «نسبياً»، فيه كثير من الأخلاق والتقاليد والقوانين الاجتماعية، حيث يظهر لنا تقسيم العمل على أساسٍ جنسيٍّ، كما نجد صورة الأسر الأحادية التي تعيش تحت هيمنة الرجل وسيطرته. هذه الظاهرة جعلت العلماء يستنتجون بأن وجود مجتمعاتٍ للتعدد والإباحية الجنسية،هو التسلسل المنطقي الذي أفرز هذا المجتمع بصورته المتطورة التي تظهر فيها بصماتُ الإنسان، ومحاولاتُه وَضْعَ نظامٍ لحياةٍ ومجتمعٍ

حيث لا يُعقل أن تكون هذه البنية الاجتماعية هي الصورة الأولية الابتدائية التي لم تسبقها صور لمجتمعات أقل تعقيداً وأكثر عفوية وبساطة. لذا نجد أن صورة المجتمع المشاعي الأول (الذي سنتطرق له لاحقاً) الذي تنتفي فيه القيود الجنسية، ولا نرى أثراً فيه لمفهوم الأسرة، هي التفسير المنطقي الوحيد المقبول .هذاالتصور يفتح الباب للتساؤل عن هل كانت هناك أنماط من الحياة للبشر قبل وجود أبي البشريةِ (آدم) أول نموذج للإنسان؟

رغم تعدد المدارس واختلاف الآراء في تفسير هذا العهد المظلم، وتحليل واقع الأسرة ومنشأ القوانين الاجتماعية والمفاهيم الجنسية، إلا أنه يمكننا أن نقول بأن الوضع الاقتصادي، لم يرد فيه اختلاف، بل هناك شبه إجماع بأن الاقتصاد البدائي لم يعرف الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، ويكاد نجزمُ أنَّنا قد وجدنا اتفاقاً تامّاً على انتفاء أيِّ تمايز طبقي، حيث إنه لا توجد طبقاتٌ ابتداءً، وذلكَ لانعدام تقييم الناس إلى شرائح وطبقاتٍ حسب موقعهم من وسائل الإنتاج. لذا يمكننا القول إنَّ الاقتصاد كان اقتصاداً بسيطاً اكتفائياً لا يعرف معنى الاكتناز، ولم يعرف النقود بَعْدُ، حيث كان الإنتاج للجماعة ولمصلحة العشيرة.

في هذا المجتمع ليس هنالك أي احتمال بوجود اختلاف اجتماعي بين الجنسين استناداً على حقيقة أن تقسيم العمل لم يظهر بَعْدُ على صفحة التاريخ، فكان الرجال والنساء يخرجون سوياً لالتقاط رزقهم، وكان عائد جمعهم والتقاطهم يعود للجماعة، حيث يقتسمون نتاج مجهودهم سوياً، وقد عُرفتْ هذه الحقبة من التاريخ بالمجتمع المشاعي. و عليه، يمكننا القول إن الرجل والمرأة كانا يشتركان في أوجهِ الحياة كلِّها على قدر المساواة، حيث كانت الحياة الجنسية لا يحكمها أي عرف أو تقسيم أو وازع اجتماعي، وكان الاقتصاد لا يعرف معنى الاستغلال أو الاكتناز.

اكتشافُ الأدواتِ الحَجَريّة

مع بداية اكتشاف الأدوات الحجرية، بدأت مظاهر الانفصال بين الجنسين تطفو على السطحِ، وبدأ يظهر ما يُعرف بالاقتصاد المنزليِّ، والاقتصاد الاجتماعي. والمقصود بالاقتصاد المنزلي هو العمل التحويلي الذي يتم داخل الأسرة وفي نطاق المنزل، بغض النظر عن دافع الاستهلاك أو الكسب المادي، أما الاقتصاد الاجتماعي، فهو أي عمل خارج مؤسسة الأسرة والمنزل، والملاحظ أنه كلما كان للنشاط المنزلي أثرٌ واضحٌ في دعم حركة الإنتاج الاقتصادي، كلما تطور وضع المرأة، وازداد علواً، والعكس صحيح. ففي مجتمع اليوم، حيث يمثل النشاط المنزلي نشاطاً استهلاكياً لا يلعب أي دور إيجابي ملحوظ في دعم الوضع الاقتصادي للأسرة، نجد أن وضع المرأة يحتل مركزاً متدنياً وحقيراً.

قبل الاسترسال في التسلسل التاريخي، يجب أن نقف أمام سؤالٍ يفرض نفسه، وهو كيف نشأ هذا التقسيمُ للعمل؟

لماذا كان الاقتصاد المنزلي من نصيب المرأةِ، والاقتصادالاجتماعي من نصيب الرجل؟

يختلف العلماء كثيراً في منشأ هذا التقسيم، ونجد أن أكثر الآراء التي وجدت رواجاً هي «نظرية الاختلاف التكويني» ونظرية الاختلاف التركيبي.

(أ) نظريةُ الاختلافِ التّكوينيّ

هناك نظرية يقول بها بعض العلماءِ، تتمثَّلُ في أنَّ التكوين العضلي للرجل - باعتباره تكويناً أقوى فسيولوجياً- هو الذي جعله يلعب هذا الدور، خاصة أن تقسيم العمل بدأ في مرحلةٍ قاسيةٍ تتطلب مجهوداً خارقاً لا يستطيعه إلا الرجلُ مع صعوباتِ الحياةِ، مما أوجب على المرأة أن تنزويَ في المنزل، وتُديرَ الاقتصاد المنزلي، بينما يقوم الرجل بعبء الاقتصاد الاجتماعي.

فهذه النظرية تحاول إثبات مصداقيتها بالاستناد على ظرفٍ يختلف

«جذرياً» مع التصور التاريخي لها. إنَّها محاولة لمحاكمة امرأة عهودٍ وحشيةٍ بامرأةِ القرن العشرين، متناسين الفارقَ التاريخي بينهما، مما جعل متبنُّوها ينسون أن امرأة عهد الالتقاط والجمع كانت تعمل جنباً إلى جنبٍ مع الرجل، وكانت تعرف كيف تدافع عن نفسها في مُواجهةِ تلك الطبيعة المتوحشة، عكس امرأة القرن العشرين والتي كبلها ظرفها التاريخي في قالب من الترهل والخمول الجسدي. يجب الانتباه إلى حقيقة أنه على الرغم من عدم ضعف قوة المرأة العضليه في ذلك الزمن، إلا أنَّ ذلكَ لا ينفي تفوق الرجل العضلي حينها.

ويحق لنا أن نتساءلُ مُفترِضينَ «جدلاً» صوابَ هذه النظرية التي تدعم حرمان المرأة من الاقتصادِ الاجتماعيّ نظراً لحاجة هذا الضرب من الاقتصاد إلى قوةٍ عضلية تفتقدها المرأةُ، قائلينَ: ما هو التبرير المنطقيُّ للوضع المتردي الذي تعيشه المرأةُ اليومَ؟ و ما أسبابُ تضاؤلِ دورها الاجتماعي رغم أن الاقتصادالاجتماعي أصبح يحترم المجهودَ الفكريَّ أكثرَ من المجهود العضلي ؟.

(ب) نظريةُ الاختلافِ التّركيبي

يرى البعض أن السبب الحقيقي لهذا التقسيمِ، ناتجٌ عن ارتباط المرأة بالمنزل نظراً لظرفها الفسيولوجي الذي يفرض عليها أن تَمكُثَ لفترات طويلةٍ بالمنزل «لخصوصية تركيبها» في فترات الولادة والحمل والرضاعة، مما يجعلها غَيْرَ حرة طوال الوقت، فلا يستطيع المجتمع أن يعتمد عليها في تسيير عجلة اقتصاده.

قد ينسى من يتبنُّونَ هذه الفكرة أن العمل في ذلك العهد كان لمصلحة المجتمع، وليس لمصلحة أسرة واحدة، وأن النساء لا يحملن ولا يلدن في وقت واحد حتى يؤثرن في مسيرة الاقتصاد الاجتماعي، ما يستوجب ألا يتأثر العمل النسوي كله بأي ظرف فسيولوجي لأي فرد من أفراده. وإذا سلَّمنا «جدلاً» بهذا الفهمِ، فإننا لا نجد التبرير المنطقي للسؤال الذي

يفرض نفسه بالمنع والإبعاد عن العمل الاجتماعي، وعدم الابتعاد عن العمل المنزلي؟

فإذا كان الارتباط بالعمل المنزلي هو نتاج لهذه الفترات ِالعَرَضية القصيرة، والتي ترتبط بمرحلة عمرية محددةٍ من عمر المرأة، ألنْ يفرضَ المنطقُ أن تبتعد المرأة في هذه المرحلة حتى عن الاقتصاد المنزلي،خاصةً وأننا نعلم الدور الإنتاجي المتعاظم للاقتصاد المنزلي في تلك المرحلة.؟.

في المرحلة الأولى للتاريخِ، كان الاقتصاد المنزلي يمثل ركيزةً أساسية للاقتصاد البدائي. وكان دور المرأة يتمثل في جمع الثمارِ، وصُنع الطعامِ وحفظه، وكان الصيد من نصيب الرجل. إذا وضعنا في اعتبارنا أن الاقتصاد في تلك الحقبة كان اكتفائياً يسعى لتحقيق إشباع غريزة البقاء، ولم يكن هناك أي فهم استثماري أو تجاري، يمكننا أن نفهم لماذا كان وضع المرأة مكافئاً لوضع الرجل، وهو انعكاس لأهمية دور الاقتصاد المنزلي.

كان لبدائية أدوات الصيد وارتباط هذه الحرفة بوجود الطريدة أو عدمها، مع خطورة هذه الحرفة، مما جعلها غير ثابتة من حيث المردود الاقتصادي، وبالتالي صار ميزان القوى الاقتصادي يميل تجاه الاقتصاد المنزلي في معظم الأحيان. وأصبح خط تطور مكانة المرأة يتزايدُ بصورة تصاعدية، ويتعاظم دورها خاصةً في عهد الزراعة الأول، حيث أصبحت المرأة هي المحرك الأساسي لاقتصاد المجتمع، مما أدى إلى تنامي وضع المرأة وتطوره بصورة ملحوظة، لقد كانت الزراعة حول المسكن هي من اختصاصات المرأة، لذا ظلتْ تلعب الدور الأساسي في توفير الغذاء للجميع بغرضِ الاستهلاك وتخزين الفائض للاستفادة منه وقت الحاجة والضرورة. لهذا، كان لتأرجح حرفة الصيد ، مع ثبات حرفة الزراعة النسبي، دورٌ حاسمٌ في تصاعد مكانة المرأة.

في مثلِ هذا الوضعِ، كانت المرأة تعيش في واقع اقتصادي أتاحَ لها واقعاً اجتماعياً يحترم ذاتها كإنسان، حيث لعبتْ دورها المؤثر اقتصادياً، والذي

يجعلها تساهم في تشكيل عادات وأخلاق القبيلة، وبالتالي أبعدها عن الوقوعِ تحت سيطرة الرجل، أو تحت أية أخلاق تعسفية تبيح للرجل ما تحرمه على المرأة، لها فيه من الحرية ما يوازي حرية الرجل. في هذا الوضع لا نجد قانونيين للأخلاق الاجتماعية أو الحقوق الإنسانية لكل جنس. إنه وضع مختلف، بل نجد مجتمعاً متوازناً يحترم كينونة أفراده دون تفضيل جنس على الآخر.

في هذا المجتمع، نجد انعكاساً آخرَ له دلالته في تطور وضع المرأة، حيث ما يعرف «بخط الوراثة الأمومي» ، والذي ينسب الأطفال لأمهم، ولا يلعب الرجل «الأب» أي دور يُذكرُ، بل كان الخَالُ «شَقِيقُ الأُمِّ» يقوم بدور الأب بالنسبة للأطفال. حاول بعض العلماء الانتقاص من دلالة الخط الأمومي على تطور وضع المرأة باعتباره لا يمثل أي مكسب اجتماعي للمرأة، بل هو عبارة عن «تحديد بيولوجي» فرضه عدم معرفة المجتمع للأب الحقيقي للطفل نظراً للمشاعية الجنسية التي كان يعيشها المجتمع. بينما يرى البعض الآخر أن السبب هو عدم معرفة المجتمع أساساً لمعنى الأبوة، وعدم تفهمه لدور الرجل في الآنجاب، والاعتقاد بأن المرأة هي الإنسان الخالق المبدع الذي ينتج الأطفالَ، لذا من الطبيعي أن يُنسب الأطفال إليهنَّ.

الرأي الثاني، إذا كان حقيقةً، فهذا دليلُ صحَّةٍ على النظرية، وليس دليل ضعف. فإذا كان المجتمع الأول يظن أن الحياة أصلها المرأة، وأن استمرارية الوجود البشري يعتمد على وجودها، فهذا وَحْدَهُ يكفي ليقومَ دليلاً على الوضع المتميّز إيجابيّاً، والفهم المقدس الذي أصبغ على المرأة، مقارنةً بالمفاهيم المتخلفة التي تُمرْكِزُ دورَ المرأة «فقط» في الإنجابِ باعتبارها وعاءً يحمل أطفال الرجل فقط.

المجتمعُ الأُمُوميُّ، وسُلطةُ والمرأةِ

لا يستطيعُ علماءُ الاجتماع كلهم، والذين يهاجمون قضية الخط الأمومي، إنكارَ حقيقةٍ مُحدَّدة وهي أن المرأة في المجتمع الأمومي تمتلك وضعاً لا يكافئ الرجل فقط، بل يتجاوزه. هذه الحقيقة جعلت بعض العلماء لا يؤمنون بالمجتمع الأمومي فحسب، بل يتعدى قولهُم وجودَ ما يُعرف بمجتمع «سلطة المرأة»، وهو مجتمع كان للمرأة فيه السلطةُ والكلمةُ العليا، ولا يجد الرجل إلا دوراً ثانوياً تحت سيطرة المرأة، بل تتبدل فيه الأوضاع الاجتماعيةُ، حيث يعود الرجل إلى المنزل للاهتمام بالأطفال، وتهيئة المناخ الملائم للمرأة للعمل في إدارة شؤون العشيرة. ويستند العلماء في إثبات هذه النظريةِ، على مجموعةٍ من الأمثلة العلمية المتناثرة في أرجاء العالم من آثار ذلك العهد بين الهنود الحمُر وسكان أستراليا الأصليين، وفي جزر سومطرة وجاوا بإندونسيا.

ويجدرُ بالذِّكر هنا، أنَّ المرأة - كانت في هذه المجتمعات- تستطيع الزواج من أكثر من رجلٍ، وعادةً يتراوح عددهم بين أربعة وخمسة أزواج في وقت واحد، وقد أعطت القوانينُ المرأةَ حرية الخيانة، بينما يُعاقب الرجل إذا ارتكب جرم الخيانة، بل يقال إن التي انفجرت في في اوائل القرن دعت إلى الاعتراف بحقوق الرجال ومطالبتهم بالمساواة، إلا أن النساء عارضن تغيير الأوضاع، وقد كانت حجتهن أن الآلهة خلقت الرجل ناقصاً، وأوجبت عليه أن يظل خاضعاً للمرأة سيدة الكون.

على هذا النحوِ، نجد أمثلة متنوعة للمجتمعات الأمومية في العالم، كما نجد بعض الأفعال التي تثير دهشتنا واستغرابنا نظراً للثقافة الذكورية التي تشربنا بها، وجعلتنا لا نفكر إلا في خط وحد للأشياء. فمثلاً في الأورغواي، عندما تختار امرأةٌ زوجاً لها، ولم يُعجبُ هذا الزَّوج أهل المرأةِ، تقوم هي بسحبه من شعره أمام الناس معلنةً عن اختيارها بصورة واضحةٍ أمام القبيلة، ليصبح الزواجُ أمراً نافذاً وملزماً، خاصةً للأبوين

«وبالتحديد الأم»، وتضعهما أمام الأمر الواقع. أما في غينيا الجديدة، فنجد أنَّ الفتاةَ - في بعض القبائل- هي التي تختار زوجها، وما على الرجل إلا الانتظار حتى يروق في نظر أحد فتيات القبيلة لتختاره زوجاً، وليس العكس. كما أن البنت التي تعجب بفتى ما، فإنها تطارده وتغمره بالهدايا وأنواع الطعام كسباً وخَطْباً لوُدِّه، وللرجل الحق في رفض هذه الهدايا، أو حتى رفض الفكرة من أساسها، ولكن ليس عليه سوى الانتظار، أو اختيار واحدةً ممن قامت باختياره، كما أنه ليس له حق المبادرة بالإعجاب، والاختيار، لأن هذا يُعدُّ مخالفاً لتكوين الرجل، وجارحاً لحيائه.

هناك كثير من مجتمعات اليومِ تعكس بوضوح سيطرة الخط الأمومي عليها، وهي عبارة عن مجتمعات معزولة عن المجتمع الذكوري الأبوي الذي يسود العالم اليوم. فنجد هذه المجتمعات محافظة على تقاليد المجتمع الأمومي، وهذا يُعدُّ خير دليل على ظهور مثل هذه المجتمعات في العهود الغابرة، ويدعم قضيتنا بأن واقع المرأة يتغير حسب موقعها من العلاقات الاقتصادية التي تحكمها كفرد، و كذا سير القوانين الاجتماعية.

اكتشف علماء الاجتماع واغنر(١)وجود قبيلة في أمريكا تعرف بقبيلة «الايركوا» مازالت تعيش في مرحلة المجتمع الأمومي، وبمقارنة وضع المرأة في هذه القبيلة مع وضع المرأة في حضارة القرن العشرين وُجِدَ أن لها وضعاً أكثر تميزاً في قبيلة الايركوا، وتُصنَّفُ هذه القبيلة في سلم التطور التاريخي ضمنَ مراحل التاريخ الأول، والثابت علمياً أنها قد تجاوزت مرحلة الوحشية الأولى حيث نجد كثيراً من الظواهر الدالة على انعتاقها من هذه المرحلة، ونلاحظ أن للفنون دوراً واضحاً في حياتها الاجتماعية. ينقسم نظام القبيلة إلى عشائر، فكل عشيرة تعيش معاً، ولا يتزاوج أفرادها من العشيرة نفسها، بل من خارجها حيث يسود ما يعرف بالزواج الخارجي. عادةً تكون العشيرة فيها هي عشيرة الزوجة، أما الزوج فهو الذي يعدُّ غريباً لأنه ينتقل للحياة معها من خارج العشيرة، ويسكن مع عشيرة الزوجة. وتتكون الأسرة في هذه

القبيلة من الأم والأب والأطفال، كما أنَّ الأطفال ينتسبون لأمهم، وليس هنا أي ذكر لخطٍّ أبوي. أمَا النظام الاقتصادي الذي يحكم القبيلة فهو نظامٌ اقتصادي اكتفائيٌّ بسيطٌ ليس فيه أثر للملكية الفردية. ونجد أنَّ المرأة هي ملكة الاقتصاد المنزلي الذي يشمل الزراعة والصناعة التحويلية البسيطة للمنتوج الزراعي، مع الاهتمام بالمسكن. ولا توجد ملكية فردية للأرض أو للمحصول بل تُعدُّ الأرض والمحصول عائداً جماعياً يرجع لجميع الأفراد في القبيلة.

تساهم المرأة في توفير الطعام لكل العشيرة بالتساوي حيث يحق لأي فرد أن يطلب طعاماً في أي وقت من أي أسرة، فتقوم الزوجة أو الأم بتوفيره له. ما تبقى من محصول يزيد عن حاجة الاكتفاء اليومي، فإنه يُقسم على الأسر بالتساوي، ويحفظ عند الأم أو كبيرة العائلة كما يطلق عليها. يلاحظ هنا أن هذا الاقتصاد - رغم عدم تعقيده وبساطته- لا يقوم بصورة عشوائية، بل تقوم المرأة فيه بدور فعّال يوضح أثر انتظام هذه القبيلة في خط اقتصادي يوافق حياة أفرادها بصورة ممتازة. فالمرأة تقوم بتطوير الموارد الذاتية للقبيلة، ثم ادخار الفائض وتقسيم الإنتاج وتحويله إلى سلعة استهلاكيةٍ، أي يمكننا القول إنَّ المرأة تقوم من خلال تعاظم الاقتصاد المنزلي، بالدور الأول والحاسم في التشكيلة الاقتصادية للقبيلة.

يُلاحظُ أن عشائرَ قبيلة الايركوا لا تعرف التَّعدد في الزواجِ كما ذكرت توكر(٢) بل إن الرجل لا يُسمح له بأية حال من الأحوال بأكثرَ من زوجة. إن الالتزام بعدم التعددِ يعد قانوناً صارماً رغم أن نساء الابركوا يَقضيْنَ زمناً أطول «نسبياً» مع أطفالهنَّ مقارنة بغيرهِنَّ من النِّساء، وبالتَّالِي يقل لديها الاهتمام بالزوج. ولكن بالرغم من ذلكَ، لا تُوجد أيةُ فرصةٍ للتعدد، حيث إن مفهوم العلاقة بين الرجل والمرأة يعتمد على الفهم الموضوعي مع الاحترام لدور الآخر المتكافئ، بل يكونُ ميزان العدل في هذه القضية مائلاً نحو المرأة في صورة تعسفيةٍ تقلل من مكانة الرجل، حيث نجد أن عشيرة

سبينكا وهي أحد عشائر الابركوا تعطي المرأة الحق في التعدد، بينما لا يسمح به للرجل. أما في اختيار الزوج، فإن المرأة لها مطلق الحرية في اختيار من تريد زواجاً لها دون قيد أو شرط أو ضغط اجتماعي، ويمكنها أن تُطَلِّقَ نفسَها متى ما أرادت ذلك بكامل رضاها. أما النظام السياسي، فهوَ نظامٌ متطورٌ ومتقدمٌ بكل المعأيير، حيث يحكم القبيلةَ مجلسٌ يُعرف بمجلس العشيرة يتم بواسطة الانتخابِ، ولكل فرد في القبيلة الحقُ في الإدلاء بصوته لاختيار مجلس العشيرة « مع ملاحظة أن حق المرأة في كل بلدان العالم، لم يتجاوز القرن. بل كثير من بلدان العالم لم يتجاوز ربع القرن». ولكبيرة العائلة الحقُ في التمثيل في مجلس العشيرة، كما ولَهُنَّ الحق نفسه والسلطات نفسها التي يجدها الرجل داخل مجلس العشيرة، بل إن النساء في مجلس العشيرة لهن حقٌ إضافيٌّ على حقوق الرجل، ألا وهوَ الحق في الكلمة النهائية، والاعتراض على إعلان الحرب،ويُعَدُّ هذا الحق نافذاً حتى على الأغلبية، كما أن لها حق النقض ، وحقوق إضافية للبناء، وأيضا الحق في إعلان السلام والإعداد له والسعي لتنفيذه بغض النظر عن رأي الأغلبية. وبما أن للمرأة الحق في منع الحرب وإعلان السلام، فيمكننا أن نقول إن لها فوق سلطتها الاجتماعية والسياسية سلطةً استثنائيةً في المحافظة على كيان القبيلة من خطر الحرب والقتال. في عشيرة وابندوت وهي أحد عشائر الابركوا أيضاً، هناك منهجٌ خاص في الحكم، حيث يتم اختيار أربعِ نساء من أمهات الأسر يمثلن رؤوس العشائرَ، يَقُمْنَ أَرْبَعتُهُنَّ باختيار زعيم القبيلة، ويصبح بذلك أربعة أخماس مجلس القبيلة من النساء، وخُمْسٌ «فقط» من الرجال. كما أسلفنا فإن المرأة لها الحق الأعلى في إقرار السلام ودورها ايمثل السلطة الفعلية في اتجاه تأثيث حياة آمنة مستقرة للقبيلة.

يعيش مجتمع الايركوا نظاماً اقتصادياً اشتراكياً لا أثر فيه للملكية الفردية، ولكننا نلاحظ أن الأسر تعطى أرضاً للزراعة حسب عدد أفرادها

ومجهودها، ويقوم بهذا التقسيم للأراضي السطلة السائدة. ورغم أن العائد يعدُّ عائداً جماعياً، إلا أن دور المرأة الفعلي يظهر في تنظيم العمل وتقسيم الأرض. كما نلاحظ أن قبيلة الابركوا رغم التمايز بين عشائرها وبطونها، فإنها تعكس بصورة واضحة الوضعَ المتميز الذي تجده المرأة في المجتمع الأمومي الذي يتجاوز كل المجتمعات الذكورية الحديثة، والتي ما زالت النساء فيها يناضلْنَ لنَيْلِ جزء مما نالته المرأة في قبيلة الايركوا.

إذا انتقلنا جنوباً، فإننا نجد مثالاً آخر للمجتمع الأمومي، ألا وهوَ قبيلة بيبو في منطقة نيو ميكسيكو حيث نظام القبيلة يعيش وضعاً اقتصادياً أكثر تطوراً، من حيثُ العيش في مساكن من حجر مقارنةً بالخيام عند عشيرة الابركوا، وتكون ملكية هذه المنازل عامة للقبيلة، وليست لأي فرد أياً كان. فهو بيت خاص يساهم الجميع في بنائه نساءً ورجالاً. أمَّا نظام الوراثة والنسب فيجري على الخط الأمومي، حيث يسكن أزواج البنات مع أهل زوجاتهم، وحينما يأتي زوج البنت تقوم الأسرة ببناء غرفة إضافية له، مما يجعل الأسرة التي لديها بنات أكثر هي الأسرة ذات القابلية للنمو والازدياد، بعكس الأسرة المكونة من الذكور والتي عادة ما تتوزع على العشائر الأخرى. لا يخفى على أحد أن وجود النساء في العشيرة له أهميته، حيث يساهم وجودهم في ازدياد أعداد أفراد العشيرة ونموِّها،مقارنة بالرجل الذي يعدُّ زائراً عابراً مصيره أن يرحل لأهل زوجته.

تجدر الملاحظة هنا، أن مراسم الزواج وطقوسه هي عادات وأعراف نسائية ليس للرجل فيها وجود أو صوت مع انعدام ظاهرة التعدد بصورة قاطعة. فالمرأةُ تساهم في الاقتصاد بصورة ملموسة حيث لا يقل دورها أهمية عن دور الرجل إن لم نقل تتجاوزه في بعض الأحيان.

أما إذا تحركنا شرقاً فنجد مثالاً ساطعاً للمجتمع الأمومي، حيث يوجد في شمال شرق الهند قبيلة خاس،بيرد(٣) ولا نستبعد أن الوضع الجغرافي ووقوعها داخل سلسلة جبالٍ، قد ساهم في عزل هذا المجتمع كما هو

بدون تغيير يذكر، وبدون تأثر واضح بالحضارة الذكورية المنتشرة. ولهذه القبيلة تقاليد مازالت ممارسَة رغم استمرارها لعدة قرون كما هي دون أي تغيير عليها. تتحدث كل القبيلة لغةً واحدة، وعلى الرغم من أنها كأي لغة لها تصريفاتها المذكرة والمؤنثة، إلا أننا نجد أن التصريفات الأنثوية هي الطاغية والسائدة، والتي ترمز للسلطة والسيطرة. بينما نجد الضمائر ذات تصريف واحد وهو تصريف مؤنث. هذا الطابع الأنثوي الذي يصبغ القبيلة، كان له دوره الواضح في تشكيل لغة القبيلة وجعلها تكتسب هذه الصفة الأنثوية. وبالطَّبعِ، لا يمكن أن نصف ثقافةً أو لغةً ما بصفةٍ جنسية محددة، إذا لم يكن هذا الجنس هو السائد. نلاحظ هذه الحقيقة بصورة واضحة في المجتمع الذكوري الذي يسود العالم اليوم ، مثلاً في اللغة الإنجليزية نجد لفظ إنسان كنوع يُرمز إليه بجنس الرجل حين نجد «Mankind»، أما صفة الإنسان كصفة فهي «Human» بل حتى كلمة امرأة نجدها مشتقة من أساس كلمة رجل حيث يطلق عليها «Woman» ولا نحتاج للاسترسال كثيراً في اختيار الأمثلة، فهي حقيقة لا جدال فيها، وما دام اللغة هي بنية فوقيه لواقع موضوعي محدد، فإننا عندما نجد لغة أنثوية، أي تسود فيها التصريفات المؤنثة، فإن هذا يعني أن التركيبة الاجتماعية في هذه القبيلة، للأنثى فيها مكان متميز.

تعيش القبيلة في نظام عشائري، وكل عشيرة تعيش كوحدة اقتصادية واجتماعية منفردة. نظام الزواج هو الزواج الخارجي، حيث يعدُّ الزواج من داخل العشيرة من الخطايا التي لا تغتفر، كما أن الطفل ينسب لأمه، تحيقاً لمقولتهم الأساسية القائلة: «إن القبيلة خرجت من رحم امرأة». ولا تعني هذه المقولة التقدير لدور المرأة الفسيولوجي في الولادة، فهذه بديهية أن تصبح مثلاً، لكنهم يثبتون حقيقة موضوعية وهي أن تاريخهم وحاضرهم يدين بالفضل لملكاتهم الأوائل اللائي علَمنَ الشعب تربية الأبقار وصناعة الحديد.

يقوم النظام الاجتماعي على الإيمان بوجود آلهة متعددة أنثوية وذكورية، لكن الهيمنة والسيطرة للآلهة الإناث. أما الآلهةُ الذكور «إن صحت التسمية» فلا يرمز لها، أو تُذكر إلا بأخ الإلة الأنثى، كما أنَّ كل الآلهة ذات الجبروت هي آلهة أنثوية مثل إله الحرب والسلام . تُقدم القرابين للآلهة بواسطة الراهبات المسؤولات، بل تصل المغالاة لبعض المنشدات حيث لا يُقبل القربان إلا من امرأة. ونجد للراهبة الكبرى أو الراهبة الأم سلطة روحية وسياسية واضحة في حياة القبيلة.

ولا يشترط في رأس القبيلة أي تحديد جنسي، ولكن إذا كان رجلاً فإنه عادةً يُزكّى لأنه شقيق امرأة محددة.

في الزواج، يكون للمرأة الحقُّ في اختيار من تريد زوجاً لها، ولها حق الطلاق متى ما أرادت ذلك، على الرغم من سهولة الطلاق باعتباره حقاً مشتركاً متساوياً بين الجنسين. كما انَّ هناك انخفاضاً ملحوظاً في نسبة الطلاق «مقارنة بالفهم عند البعض الآن، بأن إعطاء المرأة حق الطلاق سيؤدي إلى تدمير الأسرة، وذلك يرجعُ لعاطفيتها، وعدم مقدرتها على التصرف. فبعد الزواج، مثل كل المجتمعات الأمومية، يرحل الزوج للسكن مع أهل زوجته، ونثبت هنا دور المرأة في ازدياد العشيرة من القوى البشرية، وعندما يتم طلاق بين الزوجين، فإن الأطفال - بصورة طبيعية - يذهبون مع أمهم، ويرجع الزوج إلى عشيرته رغم ضآلة ما تملكه كل أسرة في أي عشيرة، ولكن في حالة الوفاة فإن الورثة لا توزع بين الأولاد والبنات بالتساوي، فالبنت يكون نصيبها أكبر من نصيب أخيها بحكم أنها تبقى داخل العشيرة، عكس الفتى الذي يرحل بعد الزواج من عشيرة زوجته، لذا تعدُّ المرأة في العشيرة الرصيد المضمون الذي يبقى ليحمي ملكية العشيرة من التفتت والتقسيم، وعليه، صارت الرغبة في إنجاب البنات قويةً، وتمثل هاجساً حقيقياً لكُلِّ أسرة.تلعب المرأة أيضاً دوراً أساسياً في مراسم الوفاة والدفن وفي الصلاة اليومية، حيث تقود الدعاء. وتعاني الأسرة التي ليس لديها بنات من عنتٍ

شديدٍ، فتضطرٌّ للتبني لتحافظ على طقوس العائلة وملكيتها. الملاحظ أن هذه المهام في المجتمع الذكوري محرومةٌ منها الأنثى، ومحصورة على الذكر فقط، وعادة تمنع منها المرأة لدونيتها أولبخاستها أو لأنها فتنة في حد ذاتها.

كان باهوفن،غوسمان(٤) وهو أحد علماء الأجناس البارزين يقول إن الحضارة مدينةٌ للمرأة بالكثير، وإن شكل الأسرة الأحادية هو نتاج للتطور في الفهم والوعي النسائي، حيث نشأت من رغبة المرأة في التحرر من الواقع المشاعي الذي تعيشه وترزح تحته، باعتبار أن المرأة أكثر نبلاً وطهراً، وأكثر رغبة في بناء علاقات أحادية، وهي ظاهرةٌ تشْخصُ واضحةً أمامَ أعيننا اليوم.حيث إنَّ المرأة ناضلت لتغير واقع المرأة الذي يعاني من المشاعية الجنسية، و وقوع عبء التعدد عليها، من جهد نفسي وجسدي، ولترسم بذلك أول الخطوات لبناء الأسرة الأحادية ،والتحرر من المشاعية.

كما نرى، فإن باهوفن استند على نظرةٍ مثالية تُعِدُّ المرأة أكثر التصاقاً بالدين والأخلاق، وأقوى رغبة في التوحد، وهي نظرة ليس لها سند علمي أو منطقي، لذا كان تحليله يشوبه كثير من نقاط الضعف، خاصةً تناوله للمشاعية الجنسية بإعتبارها واقعاً فاسداً تحاول النساء بما لهم من فضيلة فطرية التَّخلصَ منها، والتَّحررَ من هذا العار، لكنه نسى أنه يحاكم المجتمع بأخلاقيات القرن التاسع عشر، والإباحية الجنسية التي عاشها باهوفن، وما ارتبطت بمفاهيم برجوازية من الانحلالِ، لا تشبه ما كان يجري في ذلك العهد من قريب أو بعيد.

فلكل مجتمعٍ ظرفُهُ وسلوكُهُ وأخلاقياتُهُ التي تحكمه، والأخلاق ليست قوالب جاهزةً مرتبطة بأفعال مجردةٍ، إنما انعكاس لواقع موضوعي يفرض أخلاقه، ويحدد ما هو الصواب والخطأ. فالمشاعية البدائية، لم تكن تربط أبداً بين الإباحية الجنسية وعدم الأخلاق. لذا محاولة وضع المرأة كرائدة للتغيير الاجتماعي، وحاملةٍ للواء الفضيلةِ، قضيةٌ ليس لها أساس موضوعي ولا تخدم قضية المرأة. فالمجتمع البدائي لم يكن مجتمعاً

لا أخلاقياً، بل كانت أخلاقياته تتفق مع الواقع الموضوعي الذي يعيشه أفراده ومستوى وعيهم.

يرى ماكليانان(٥) نشوء الأسرة الأحادية التي تقع تحت سيطرة الرجل، هو إفراز لتطورٍ بدأ بالمشاعية الجنسية ومجتمع المرأة. فارتباط الطفل بأمه يعدُّ لبنة العلاقات الأسرية بحكم الارتباط البيولوجي والفسيولوجي في الحمل والرضاعة، وارتباطهما معاً أدى إلى الارتباط العاطفي ونشوء بوادر التربية الأسرية، بينما كان دور الأب يفتقد إلى الأساس الموضوعي للتطور، وذلكَ لعدم وضوح دور الأب في الإنجاب، والمساهمة في الخلق، لذا كان الذكر الموجود في أولى لبنات الأسرة و الابن، وكان تحت مظلة حماية الأم وسيطرتها، فظهرت الأم بكل معاني الحماية والتقديس، فظهرت الأم الآلهة والكاهنة في هذا الجو، وبدأت تتشكل العلاقات حول مركز واحد هو الأم، فتَبَدَّى النسب الأمومي وسيطرة المرأة، وبدأ دور الخال يتعاظمُ، وكان الأب يأتي كزائر ليس له سلطة في الأسرة إلا علاقته الجسدية مع الأم، ونتيجة لهذا الواقع الموضوعي كانت سلطة المرأة هي الأعلى،حتى على الأب، لذا عندما بدأت تظهر مفاهيم المجتمع الأبوي، أخذت وقتاً طويلاً حتى تتحول هذه المفاهيم إلى تطور طبيعي لتقدم لنا بعده لبنات المجتمع الأبوي.حيث إن أطفال الإنسان هم أكثر الأطفال احتياجاً لذويهم، وأكثرهم اعتماداً عليهم لفترة أعوام، وبما أن المرأة هي المسؤول الأول والقائمُ على تحقيق احتياجاتهم، لذا صارت لها مكانة خاصة طوال هذه الفتره .

ساعد وضع المرأة بوجودها في واقع محصورةٌ مطالبُهُ، على أن تستفيد منه لأقصى صورة، وأن تكون أكثر ابتكاراً، ويساعدها في أن تكون أكثر التصاقاً، والاستفادة من ذلك لحمايتها من نِيْرِ الاضطهاد الذكوري، فبحثت عن الأمن والسلطه من خلال وجودها الاجتماعي وتزايد الحاجةِ إليها.

شرعت المرأة في استغلال ما يعرف «بالقوة السلبية»، أوحاجة الرجل

الجسدية لها، فبدأت في استغلال هذا الوضع، و زَرْعِ بذرة ما يعرف تاريخياً بالدلال والضعف الأنثوي، وهو ضعف يشتهيه الرجل ويتمناه ويسعى إليه، في الوقت نفسهِ هو الحبل الذي يقيد الرجل، ويجعل المرأة تفرض سلطانها عليه «الثابت تاريخياً أن هذه القوة السلبية، رغم أنها بدأت في هذا العهد، لكنها حتماً لم تلعب دوراً حاسماً في تطور وضع المرأة، وتأسيس المجتمع الأمومي، لأن ظاهرة استغلال المرأة لجسدها كسلاحٍ، هي قيمة حديثة «نسبياً»، حيث ارتبطت فيه المرأة بأدوات الزينة والمكياج بل تطابق مفهوم الزينة مع المفردات الأنثوية، بينما نلاحظ أن الزينة في المجتمع الأول لم ترتبط بجنسٍ دون الآخر، حيث تُظهر الحفريات أنَّ لكل جنس أدواتٍ مكياجةً، بل نجد في بعض القبائل أن الزينة مرتبطة بالرجل أكثر. وكما أسلفنا، فإن القوة السلبية هذه لم تظهر إلا مؤخراً في عهد استلاب المرأة واختزالها لمجرد جسد، لذا فإن وضع المرأة المتنامي لا يمكن أن يكون نتاج ضعفها الأنثوي، بل نتيجة لدورها الاقتصادي والاجتماعي».

كما رأينا، فإن التناقض الانتباذي في علاقة الرجل بالأسرة، والانجذاب في علاقة الأنثى بالأسرة،

هو تناقضٌ أفرز ديناميكية الصراع داخل بنية المجتمع البدائي البسيط، وقد أفرز هذا التناقض في نتاج محصلته، اضمحلالَ سلطة الرجل لمصلحة المجتمع الأمومي. حيث نلاحظ أن دور الأم المتعاظم عند أطفالها المتعاطفين ضد استلاب الأب لها، جعلهم يرفضون هذا الاستلاب الواقع عليها، وهي التي وفرت لهم حماية فترة الطفولة. هذه النظرة أضفت على المرأة قدسية ومكانة جديدتين، ساعد في دعم هذه النظرة، موقفُ الرجل الأب الذي استكان لعدم الدخول في منافسة ليست في مصلحته. فقد ساهم الزمن في جعل الأب يتنازل من جعل بناته حريماً يمتلكهم ويحارب في الذود عنهم مما كان يسبب لهم كثير من الأذى خاصة أمام الفتيان الذكور الذين يرغبون في امتلاك بناته .كان ذلك أفضل للفتيات،

و من مصلحتهن أن يرتبطن بشباب يستطيعونَ توفير الحماية والغذاء لهنَّ، وهو خيرٌ لها من أن تصبح جزء من حريمٍ كهلٍ لا يستطيع توفير الحماية حتى لنفسه.وعليه،نرى أنه داخل العائلة ذات الغيرة الذكورية، كيف تتحلل سلطة الأب، وتحول موازين القوى نحو المرأة لينبثق من داخل مجتمع الذكورة المجتمعُ الأموميُّ، حيث نشاهد توريث الأم لأطفالها ممتلكات الأسرة باعتبارهم الأجدرَ والأكثرَ اهتماماً باستمرارية الأسرة، مما أدى إلى ظهور الخط الوراثي الأمومي.

قام بعض علماء الاجتماع الذين يرفضون فكرة المجتمع الأمومي بمحاولة هدم هذه النظرية استناداً على عدم وجود المشاعية الجنسية باعتبارها غير ممكنة موضوعياً. ويفسرون عدم الإمكانية استناداً على ما يُعرف بالغيرة الذكورية، التي ترفض التعدد ،وتعمق داخل الذكر رغبة التملك والسيطرة على أنثاه.

وتستند هذه النظرية بصورة أساسية على نظرية داروين وأصل الإنسان، ومقارنة ذلك مع مملكة الحيوان التي تتصف بصورة مطلقة بغيرةِ الحيوان الذكر على أنثاه، مما يُشَكِّلُ المرتكزات الأساسية للتناحر والعدوان في مجتمع الحيوان. فإذا وصفنا الإنسان بأنه ينتسب إلى إحدى فصائل مملكة الحيوان، فمن المنطقي ألا يستطيع كبح جماح غيرته، والرغبة بالاستئثار بالأنثى. لذا يصبح وجود مجتمع مشاع،ي يتناقض بصورة حادة مع هذه النظرة الذكورية خاصةً وأن إنسان اليوم كثيراً ما يفشل في السيطرة على غيرته، فما بالك بالإنسان البدائي وهو أقرب في سلم التطور لحياة الحيوان وسيادة روح القطيع.

العلماء المناصرون للنظرية التي تستند على المشاعية الجنسية، يدحضونَ المقولة السابقة بقولهم إن الفهم للمشاعية الجنسية ينفي صفة الملكية أولاً، أي أنه لا يوجد ذكر محدد يمتلك أنثى محددة، ثم يبيح للآخرين مشاركته فراشها . فرغم أن هذا السلوك موجود في بعض

المجتمعات البدائية في نهاية الطور الأمومي، إلا أن القضية هي تحليل ممارسة الجنس بين أي رجل وأية أنث،ى دون الدخول في ملكية أحدهم للآخر. وهنا لا يصبح للرجل أنثى يمتلكها حتى يغير عليها. إننا لا ننكر حدُوثَ التقاء ذكرين في رغبة ممارسة الجنس مع أنثى محددة، وهنا تظهر رغبة التملك التي تؤدي إلى الصراع. ولكن، لا يعني ممارسة الجنس امتلاكها، ثانياً إنه لا يمكن اعتبار أن الإنسان الأول أقرب للحيوان في سلم التطورِن دون النظر إلى الطفرة التي حدثت، والتي جعلت الإنسان الأول يختلف «جذرياً» عن الحيوان بمحاولاته تطويعَ الطبيعة بالسيطرة على قوانينها. فقدم كثير من التضحيات وتنازل عن روح المنافسة الحيوانية، ليعيش في مجتمع واحد، مقدماً أكبر تنازلٍ ألا وهو حريته الفردية لصالح حرية الجميع. ونجد حب العشيرة والدفاع عنها وطاعة الزعماء، كلها مظاهر اجتماعية توضح التطور الحضاري لمصلحة الإنسان الأول.

بغض النظر عن أن المرأة قد حكمت يوماً، واضطهدت الرجل، أو لم تفعل فهذا لا يمثل لنا نقطة أساسية في مسار قضيتنا، لأننا نؤمن بأن على التاريخ أن يعيد نفسه لتلعب المرأة الدور نفسه الذي لعبته في مجتمع سلطة المرأة لإثبات تفوق المرأة، لأننا حتماً لا نسعى لتغيير الأدوار لتصبح المرأة مكان الرجل ويصير المظلوم، بل نسعى لنفي الظروف الموضوعية للظلم لكليهما.

لذا، بسعينا لإثبات «سلطة المرأة» أو «المجتمع الأمومي» نساهم في إثبات أن القهر والظلم ليس حتمية على المرأة، وصفة قد لازمتها طوال العهود، إنما هما انعكاس ونتاج طبيعي لواقع المرأة المتدني اقتصادياً. وحينما تنتفي هذه المسببات، تنتفي دواعي السيطرة، بل عندما تتحول في خط ضد واقع الرجل، تصبح النساء هُنَّ الجنس السائدَ، أي أن من يملك مفاتيح السيطرة الاقتصادية، يملك حق السيطرة والاضطهاد، ويتبوأ وضعاً اجتماعياً أفضل من الآخر.

المُجتمعُ الأَبَويُّ

إن واقـعَ مجتمعاتنـا اليـوم، هـو أنّهـا مجتمعـات أبويـة، حيـث العائلـةُ، والـوراثةُ تسـير في خـط الأب ، والسـلطه إلى الجانـب الذكوري. هـذا وضـع قـد خـرج من رحـم المجتمـع الأمومي، ولـم يكن للرجـال السـيطرة دائمـاً على طـول الزمـن. يتـم الانتقـال من أي مجتمـع أموي إلى مجتمـع أبوي خلال زمـن طويـل، ونتيجـةً لبعـض القوانين العامـة التي تحكـم المجتمعـات الأخـرى، وبعضهـا الخـاص الـذي يحكـم مجتمـع دون الآخـر. ذكـر علمـاء الاجتمـاع العديـد من النظريـات التي تحـاول وضـع تفسـير شـامل لسـبب انتقـال المجتمـع الأمومي إلى مجتمـع أبـوي.

وأهـم النظريـات التي قدمـت تفسـيراً للانتقـال من المجتمـع الأمومي إلى الأبـوي، هيَ خمسُ نظرياتٍ قـد نختلـف فيهـا مـع أربـعٍ، ونتفـق فيهـا مـع واحـدةٍ «فقـط»، وهي التي قـدمـت التفسـير المنطقي للتغيير

أولاً: نجـد نظريـة (النُّـدرة) التي تبناهـا ماكلينـان(٦) والـذي يقـول فيهـا إن التحـول من الإباحيـة للأحاديـة، من الحـق الأمومي للمجتمـع الأبـوي، كان نتاجـاً طبيعيـاً لقلـة عـدد النسـاء مقارنـةً بعـدد الرجـال، وترجـع النـدرة إلى ممارسـة عـادة قتل البنـات. فقـد بنى ماك لينـان نظريتـه على فرضيـة ضعيفـة تاريخيـاً، وهي ظاهـرة قتل الفتيـات التي لـم تكن يومـاً صفـة للمجتمـع المشـاعي الأول، ولـم يـرد لهـا أي ذكـر في أيٍّ من المجتمعـات الأموميـة، بـل هي ظاهـرة اتصفـت بهـا لمجتمعـات الأبويـة الذكوريـة. الغريـب أن قانـون النـدرة ، و لـو ثبـت صدقـه تاريخيـاً، فإنـه لا يسـتطيع تقديـم تفسـيرٍ منطقيٍّ للانتقـال من المشـاعية إلى لمجتمـع الأحـادي، بـل العكـس صحيـح، فالنـدرة حيـث يسـتحيل أن يكـون لـكل رجـل امـرأة، عندهـا، تكـون المشـاعية هي الحـل الأمثـل، إذا لا يمكـن أن يكـون قلـة النسـاء سـبباً لإلغـاء التعـدد.

أمّـا النظريـة الثانيـة، فيتبناهـا مورغـان(٧) الـذي كان يعتقـد أن التطـور بصـورة منظمـة، جاءتْ دواعيـه من المجتمـع الأول بصـورة مقصـودة ليتجـاوز

المشاعية الجنسية. فمنع التعدد، وأوصد الباب أمام كل العلاقات الجنسية داخل العشيرة الواحدة، ليقدم ما يُعرف بالزواج الخارجي، ويقيم سلطاناً يعرف بنظام المحارم. الملاحظ أن مورغان كان يستند على فهم أن المشاعية الجنسية نظام لا أخلاقي حاول المجتمع البدائي بصورة مقصودة التخلص منه. كما نرى، فإن مورغان قد حاكم المجتمع البدائي بأخلاقيات زمانه هو، ونسى أن هذا النظام في وقته لم يكن شاذاً، أو غريباً، بل يتناسب مع الواقع الموضوعي الذي كانوا يعيشونه.

كما أننا نجد ڤيستمارك(٨) يتبنى ما يعرف بالنظرية البيولوجية، والتي قسمها إلى جزءَين: الأول يقول فيه إن الشعوب البدائية قد أقامت نظام المحارمِ لاتقاء ما يسببه الزواج بين الأقارب من ضعف النسل من الناحيتين العضلية والجنسية. يلاحظ هنا أن ڤيستمارك قد افترض في الشعوب البدائية فهماً متطوراً لعلم الوراثة، حتى يستطيعوا أن يربطوا بين زواج الأقارب وضعف النسل، وأعطاهم وعياً يفوق المجتمعات الحديثة التي رغم علمها بمضار زواج الأقارب، إلا أنها لم تَستطعْ إصدار قانون يمنعه. فإذا أخذنا «جدلاً» بمقولته، فما هو تفسير الرجوع لإباحة زواج الأقارب؟

الجزء الثاني من النظرية، به طَرَفٌ نسبي من الصحة ،حيث يقول إن التحريم نشأ من النفور الجنسي الذي يوجد عادة بين الأقارب وبين ساكني منزل واحد.

تقوم النظرية الرابعة، وهي ما تعرف بالنظرية الدينية، وهي التي تعرضنا لجزء منها عند باهوفن الذي ربط التحول بنقاء المرأة الفطري الذي يرفض التعدد، ويسعى نحو التوحد. يقول دوركايم(١٠)(٩) إن التحول هو نتيجة حلول عبادة أرواح الموتى والطوطم، وما يتبع ذلك من تقديس لبعض الكائنات، وارتباط التحريم بكل من يمتلك طوطماً أو إلهاً مشتركاً.

أخيراً، نجد أكثر النظريات تماسكاً ومنطقية، هي التي استندنا عليها

كمنهجٍ، وهي النظرية الاقتصادية، والتي تقول ،باختصار، إن تغيير وضع المرأة الاقتصادي، وتحول الملكية الفردية لوسائل الإنتاج من جنس لآخرَ، ساهم في تغيير وضع المرأة إيجاباً وسلباً ، في تناسب طردي مع دورها في تشكيل الحياة الاقتصادية للمجتمع المحدد، أي أن الذي يمتلك مقاليد الاقتصاد يمتلك مفاتيح السلم الاجتماعي.

تقول إلر(١١) إن الزراعة كانت ذات تأثير إيجابي واضح على واقع المرأة، حيثُ ساهمت في تطور وضع المرأة، واحتلالها موقعاً اجتماعيّاً مؤثراً، وتعزي ذلك إلى أن حرفة الصيد كانت حِكراً على الرجل، ولم تكن مضمونة العائد لبدائية أدوات الصيد، واعتمادها على الصدفة في إيجاد طريدة أو عدمها، وعكس المرأة التي ساهمت ديمومة حرفة الزراعة، وثبات عائدها النسبي مقارنة بالصيد، جعل الزراعة هي الاقتصاد السائد، وأن تتبوأ المرأة الوضع الاجتماعي المميز وذلكَ لعملها على توفير موردٍ غذائيٍّ ثابتٍ للعشيرة ، مما جعها ، أي المرأة، رمزاً للأرض والماء والغذاء والقوة، وأصبحت هي المسيطر الأول على الحياة الاقتصاديةوالاجتماعية.

إن الخط الفاصل للتحول الاجتماعي لمصلحة الرجل، هو الحقبة بين المرحلتين البربرية والحضارية، حيث ظهر المحراث الذي باكتشافه تغير الواقعانِ الاجتماعي والاقتصادي بصورة جذرية، وذلك بالتحول للزراعة وجعلها أكثر من اقتصادٍ اكتفائيٍّ، حيث أصبحت الزراعة الواسعة هي السائدة، وصارَ هناك فائض للمحصول، وبدأ ما يُعرف بتخزين الإنتاج وتكديس الثروة. ونتيجة للتقسيم الأول للعمل، حيث كانت للرجل ملكية الحيوان، أصبح المحراث تابعاً لأدوات الرجل، وبدأ يتصاعد موقعه كمالك لوسائل الإنتاج، ومكتنز لفائض القيمة. كما بدأ التسلسل التاريخي للاستغلال، حيث أصبح الإنسان نفسه جزءً من وسائل الإنتاج، وكانت أولى الخطوات نحو مجتمع العبودية، هيَ هيمنة الرجل الاقتصادية التي جعلت له الكلمة العليا، حيث بدأت تذوي التقاليد الأمومية، لتناسب

مصالح المالك الجديد خاصةً وأن النظام الأمومي القديم متناقضٌ مع الوضع الجديد. فبدأ خط النسب الأبوي الذي يتوازى مع خط الوراثة الأبوي، في الظهورِ ليحافظ على الثروة داخل عشيرته، ويمنع تفتتها أو انسيابها لعشيرة الأم. بعدها صارتْ معاني العفة الآنثوية تتعاظمُ حتى يحافظ الرجل على ملكيته الفردية داخل نسله، بل إن المرأة نفسها أصبحت جزءً من الملكية الفردية التابعة له، تُنجب الأطفال لتحافظ على تسلسل الثروة في أبناء الزوج . ونستطيعُ القول، إنه في داخل النظام الزراعي بدأ وضع المرأة يعلو عندما كانت الزراعة اكتفائيةً وجزءً من الاقتصاد المنزلي، ثم تقلَّصَ وضعها مُتراجعاً مع بواكيرِ ظهور المحراث، وتحول الزراعة للاقتصاد الاجتماعي، وأصبحت سلعاً تجارية. و هنا يظهر ما في هذه النظرية من تماسك وقوة لبنيان منطقي وفلسفي في رأينا.

إذا تتبعنا واقع المرأة في مجتمعات الحضارات القديمة، نجد تبايناً واضحاً فيه، من حضارة لأخرى، بل إننا نجد التباين في داخل الحضارة الواحدة في عهود مختلفة، ليقوم دليلاً على أن سبب الاختلاف ليس تكوينياً، ولكنه نتاج لظرف موضوعي محدد، هو الواقع الاقتصادي، وعلاقة المرأة فيه، وأثر ما تفرزه تلك البنية من تقاليد اجتماعية وقوانين.

الحَضَارةُ الفِرْعَونيّةُ

يذكر هيلفنق(١٢)في الحضارة الفرعونية، تصادفُنا بقايا آثارِ مجتمعٍ أُموْمِيٍّ مازالت بصماته واضحة في مسار هذه الحضارة. ويرى بعض علماء الاجتماع أن الحضارة الفرعونية يجب أن تكون قد انبثقت من صلب مجتمع أمومي، حيث نلاحظ وضعاً متميزاً للمرأة في الحضارة المصرية، خاصةً أول عهود الحضارة الفرعونية، حيث نجد هيروديت يسجل استغرابه لواقع الحياة الاجتماعية الذي تجد فيه المرأة وضعاً متميزاً لا يكافئ الرجل فحسب، بل يتعداه. وقد دلل على ذلك مسجلاً خروج المرأة للسوق والعمل، ووجود الرجل في المنزل يغزل الصوف، على أنها صورة طبيعية.

وفي نظام الحكم،، ليس هناك غضاضة في أن تتولى امرأة الحكم بل

حدث أن كانت بعض الملكات أقوى من كل الملوك الذين عاصروها مثل الملكة حتشبسوت وإنجازاتها التي تجاوزت حدود المملكة، حيث حققت انتصارات عسكرية، وحاربت للدولة، وجعلت اسمها على كل لسان. ويروى عنها أنها كانت ترتدي دوماً زي الحرب. فالمرأة على المستوى الفردي، كان لها حق العمل والزواج والطلاق وحرية التعامل في أموالها ، والحق في إضافة أي شرط لوثيقة الزواج. قال هيروديت:»إن المرأة لم تكن تعمل فحسب، بل كانت تتسكع في الأسواق، بينما الرجال يعملون في غزل الصوف في المنازل»، بل ذهبَ أكثر في أن لفظ زوج أُشتُقَّ ،حديثاً نسبياً، حيث تقوم المرأةُ «الزَّوجةُ» بالمعاملات والتوقيعات حتى في نقوش المعابد، كما أنَّ صورة الزوجة عادةً تكون أكبر من صورة الزوج.

في العهد الوسيط للحضارة الفرعونية، نلاحظ تدهوراً ملحوظاً لواقع المرأة ، حيث بدأ بترسخ أقدام النظام الاقطاعي، مما أدى إلى تضاؤل الدور الذي تلعبه في حركة الاقتصاد، والمساهمة في دفع عجلةِ الإنتاج. على الرغم من التراجع الواضح لوضع المرأة، إلا أنها احتفظت ببعض الامتيازات التي لم تتأثر، مثل الملكية وحرية التصرف في أموالها، مع حق كامل للميراث، بل ما زالت صورة المرأة كرمزٍ للتماسك الاجتماعي حيَّةً في ذهن مجتمع أواخر عهد الحضارة الفرعونية، وغزوة الحضارة اليونانية ،حيث سيطرت على الوَعْي الاجتماعيِّ المفاهيمُ المتخلفة عن المرأة، فبدأت الأنثى تفقد كل امتيازاتها، لتدخل في دائرة الجنس الأضعف، ويُمارس عليها القمع الاجتماعي الذي يمارس عادةً على الجنس الأضعف.

الحَضَارةُ اليُونانِيّةُ

أعطت الحضارة اليونانية للرجل امتيازات لا محدودة،على حسب كوهين(١٣)فإنها تجعل له الحق في تبني أي سلوك اجتماعي ليصبح عرفاً وقانوناً، وما على المرأة إلا الطاعة والرضوخ. فالزوج هو رب الأسرة الذي عليه تقوم أواصر الأسرة، ويقوم اعتمادها الاقتصادي عليه أولاً وأخيراً. أما المرأة، فلم تكن أكثر من كونها جزءً من أثاث منزلها. وبما أنَّ للمرأة في الطبقات الأرستقراطية ميزةَ أنها أعلى مرتبة من العبيد، إلا أنها لا تختلف

عن الأخرياتِ في موقعها داخل طبقتها حيث تظهر لنا بقوة صورة المرأة الجسد التي ليس لها دور سوى إشباع حاجات زوجها الجنسية. وعلى الرغم من أن بعض حقوق الملكية كان مسموح بها للمرأة، إلا أنها ملكية صورية، حيث إن الملكية والتصرف الحقيقي فيها للرجل. كان الرجل يقدس الذكورة، ويحتقر الأنوثة ويربطها بالعمل المنزلي والجنس وعزف الموسيقى.

نجد أن دور المرأة في هذه الحضارة ، رغم تطورها في العلوم الإنسانية، دورٌ منحطٌّ، ويصدق عليها المثل الذكوري الذي يقول «وراء كل عظيم امرأة»، أي أن المرأة التي تريد أن تحقق لذاتها وضعاً اجتماعياً له كينونته، فإنها تحقق ذلك من خلال فرض نفسها على رجل له وضعه الاجتماعي المميز. ونظراً لأن المرأة لم يكن لها الوعي التاريخي في تلك المرحلة، والذي يجعل لها أثراً فكرياً أو اجتماعياً في المجتمع الذكوري، لذا ظهر للوجود بصورة عميقة الاستلاب الحاد للمرأة كجسد، حيث أصبحت حاجة الرجل لها تتمركزُ في جسدها، والذي صار سلاحها الذي به تفرض وجودها، وقد اُشْتُهِرتْ كثير من النساء من واقع تأثيرهم الجسدي على المجتمع الذكوري، ليتعاظم هذا الدور،لنشاهد في القرون اللاحقة انتشار أسماء عشيقات الملوك والاقطاعيين اللائي كُنّ يفرضن إرادتهن بواسطة وجودهم كأداة جنسية.

رغم التقدم والتطور الفلسفي والفكري الذي ارتبطت به الحضارة اليونانية، إلا أن وضع المرأة يسجل تراجعاً ملحوظاً كنتاج طبيعي لواقعها المستلب، حيث نجد مفكراً وفيلسوفاً له بصماته في الحياة الإنسانية مثل أرسطو يقول:» إن المرأة مخلوق من الدرجة الثانية، لا يوازي الرجال فحسب، بل يعوق تقدمهم». كما ينادي إفلاطون بأن يتقاسم الأصدقاء ممتلكاتهم وزوجاتهم. ولا يخفى هنا هذه المرادفة بين الممتلكات والنساء. إننا لا نستغرب ما قاله هؤلاء الفلاسفة الكبار، حيثُ لا يمكن أن يتجاوز وعيهم الظرف الموضوعي والتاريخي للمشكلة.

كان وضع المرأة في القانون انعكاساً طبيعياً لموقعها الاجتماعي والاقتصادي، حيث لا يحق لها إرث زوجها، ولا يحق لها الطلاق إلا بواسطة القاضيُ. وتعاقب من ترتكب جريمة الزنا بالإعدام، بينما لا يعاقب الزوج على هذه الجريمة. كان للرجل مطلق الحق القانوني على زوجته ضرباً، وحبساً، ومنعاً لها من الخروج، بل له حق قتلها دون مساءلة قانونية أو اجتماعية.

بين القرن الرابع والثاني قبل الميلادِ، ومع ازدياد ثراء الطبقات المسيطرة، وابتعادها عن العمل الفعلي سوى ملكية الأرض والإشراف، بدأ تصاعد وضع المرأة في الطبقات العليا بحكم تطور الموقع الطبقي وإمكانياتها في مباشرة مهام زوجها الإشرافية بحكم انتمائها الطبقي. هذا الوضع المتصاعد أدى إلى ظهور مدارس متطورة نسبياً في تفهمها لواقع المرأة، كالكلدانيين، والروافيين. ولا ننكر أثر الاتصال بالحضارة المصرية في ازدياد الوعي بالظلم الواقع على المرأة. لقد ظهر تراجع في تقديس القوة الذكورية، فمع انتشار التماثيل العارية لرجال مفتولي العضلات، ظهرتْ تماثيل تعكس الجمال الأنثوي. ورغم أن هذا الاهتمام انصب على جسد المرأة فقط، إلا أنه يُعَدُّ تطوراً نسبيّاً للمرأة كموضوع مهمل لمخلوق من الدرجة الثانية له ذاتيته وقيمه التي تستحق أن تعكس. ورغم المفهوم الجنسي للمرأة، إلا أنه كان بداية الإشارة بوجود إنسانٍ له رغباتُهُ وقيمه الجمالية.

الحَضارةُ الرُّومانِيّةُ

تُعَدُّ الحضارة الرومانية حَضارة ذكورية بكل ما تحمل هذه الكلمةمن معنى هاليت(١٤)، فيها سيطرة ذكورية واسعة على كل أوجه الحياة،بل يمكن أن نقول «سلطة ذُكوريَّة مطلقة «.كان الرجل يمتلك حق الحياة والموت لأولاده.عادةً يمارسُ الأب هذا الحق عندالولادة، فإذَا رَفَعَ الطفل وقَبَّلَهُ، فقد كُتبت له الحياة.أما إذا تركه على الأرض،فهي دلالة على الهجران والرفض ومصيره القتل.لانحتاج للقول بأن المرفوضين هم عادة

من الأطفال الإناث.وكان عادةً أيضاً أن يحتفظ الأب ببنت واحدة لا أكثر، ويندر وجود من يحتفظ بأكثر من واحدة، وكانت المولودة يطلق عليها اسم الأب زائداً اسم العشيرة، أي اسم جماعي يلغي أي صورة لقيمتها كفرد. وكان للرجل سلطة قضائية مطلقة على منزله وأسرته، يحاكم فيها من يريد ويصور الأحكام وينفذها، وليس هناك من رادع أو مانع.

رغم حدة المجتمع الروماني وقوانينه تجاه المرأة، إلا أننا نجد لها دوراً أفضلَ «نسبياً» من دورها في بداية عهود الحضارة اليونانية، وتقوم بالعديد من الأدوار والأعمال الاجتماعية، بل لها الحق في العمل في الأسواق. وهذا العمل النسبي جعل لها وضعاً مميزاً في المنزل مقارَنة بالحضارة اليونانية تقوم فيه بوضع الطعام، ومشاركة زوجها في تناوله على قدم المساواة، ولها حق الخروج من المنزل وارتياد الأسواق وحلقات الرياضة. هذه الحقوق لا تنفي وضعها المتدني مقارنةً بالرجل، لكننا ننظر إليها في سياق التطور في خلق مجتمع مختلف، ومنفتح مقارنة بالمجتمع اليوناني المنفصل المتخلف، حيث كان لدور المرأة الواضح في الاقتصاد الاجتماعي، والذي صار جواز مرور ليعيش في هذا الاستقلال والتطور النسبي.

ساهم واقع المرأة في الطبقات الأرستقراطية، مع ارتفاع الوعي النسبي لخط الحضارة الرومانية، في تحقيق مكسب تشريعي مهمٍ، ألا وهو النص القانوني الذي يُقِرُّ «صراحة» بمساواة الزوجين في الحقوق والواجبات، لكن تحت وصاية الزوج. هذا النص ساهم في تراجع سلطة الرجل «المطلقة» والتي منحته الحق في التصرف في بناته وأملاكهن وزواجهن كيفما شاء ومتى ما أراد، واضمحلالها. هذه المفاهيم استمرت لفترة طويلة كأعراف عشائرية أسرية، لا يحق للدولة التدخل فيها. مما جعل القانون عبارة عن عرف اجتماعي أسري سائد، يُقنن لدونية المرأة واضطهادها استناداً على الفهم العشائري لضعف المرأة الفكري والجسدي. كان العرف الاجتماعي يضع المرأة في وضع غير المؤهل لعمل أي شيء نافع دون وصاية عليها، بل نلاحظ أنه حتى عندما تطور القانون لم يستطع

الانعتاق من جملة الحقوق المتساوية تحت وصاية الرجل. كانت الأنوثة قبل صدور التشريع وحدها كافيةً للدلالة على عدم الأهلية، مثل عدم البلوغ ،أوالجنون، أوالعبودية.

مع تطور إيقاع الحياة اليومية، حاول المُشَرِّعُ أن يخلق توافقاً بين قانون الدولة والأعراف الأسرية، في محاولة لضبط السلوك الاجتماعي الذي أصبح يمثل تناقضاً بين سلطة الرجل وسلطة الدولة. حيثُ ظهر ما يُعرف بإصلاحات أوغسطس، وهي أول محاولة يقوم بها مُشرّع بالدخول في النقطة المحرمة، منطقة الأسرة، ليجعلها تحت سلطة الدولة. وقد منع القانونُ الآباءَ من فسخ زواج بناتهم، وعاقبه إذا قتل أطفاله. وأعطى العلاقات الرحمية وضعاً خاصاً، حيث للأم الحق في إدارة أموال أطفالها، وتعيين وصيٍّ عليهم منعاً لِذوبان مَهْرِ الزوجة في أموال الزوج، بل لها الحق فيه كاملاً في حالة الطلاق. أيضاً منع المشرّع الرجل من الطلاق التعسفي غير المبرر، كما ألغى عقوبة إعدام الزوجة الزانية، وحاكمَ الزوج الذي يَأخُذُ القانون بيده. هذه الإصلاحات جعلت المرأة في حرية نسبيةٍ غير ملزمة بالطاعة المطلقة، وَسحب من الرجل حق تأديبها. أما المشاركة في الحياة الاجتماعية، فقد كان حظٌّ المرأة فيها ضعيفاً،وظلَّ العمل الاجتماعي طابعه العام تطغى عليه السيادة الذكورية، بل ساهم المشرّع في التقنين لذلك، وجعله مملكة الرجل الخاصة التي لا تدخلها المرأة رغم عدم التشدد في التعليم النسوي. فقد اقتصر تعليم المرأة وثقافتها على ما يزيد وعيها الأنثوي كأداةِ متعةٍ، ولإشباع حاجةِ المجتمع الذكوري. فالحرية ليست هدفاً في حد ذاتها، إنما هي وسيلة تساهم في تطور الفرد، وتقدم المجتمع، لذا يصبح الحديث عن أيةِ حرية مشروطةٍ أو موجهةٍ لإشباع حاجاتٍ ذكورية، يكونُ حديثاً مُفْرغاً من أي مدلول فكري ومنطقي. فهذه الحرية النسبية كما أسلفنا، كانت حرية إزجاء وقت الفراغ فقط في خط يلبي احتياجات المجتمع وأمانيه، بالمرأة الجسد، والتي ليس لها أي دور أو مساهمة في تنمية المجتمع سوى مساهمتها الجنسية.

عَهْدُ الاقْطاعِ

عاشت أوربا في الفترة من القرن العاشر حتى الخامس عشر، ما يعرف «تاريخياً» بعهد الاقطاع. يتميز عهد الاقطاع كما ذكرت شوز(١٥) بصورٍوحقبٍ متداخلة لكنَّ القانون السائد الذي صبغ هذا العهد هو نظامه الاقتصادي الذي يعتمد على تقسيم المجتمع إلى قسمين، فئة قليلة تمتلك كلَّ شيء وتحكم،والأغلبية من المحكومين التي تعيش فقط سخرة تعمل لتجد ما تسد به رمقها، وليس لها أي حقوق سوى العمل لإسعاد السيد وطاعته.

كانت وضعية المرأة متدنِّيةً في الطبقتين رغم الاختلاف في الوضع الطبقي لكلٍّ منهما. حيث نجد أن المرأة في طبقة السادةِ أو طبقة ملاك الأرضِ، تعدُّ جزءً من مملكة الاقطاعي، و له مطلقُ الحق في التصرف فيها كما يشاءُ كأيِّ جزءٍ من ممتلكاته، وليس لها أي دور في التركيبةِ الاقتصادية، كما لم يكن لها دور سوى وجودها كجزءٍ من جيشٍ طويل من النساءِ، يُوفِّرن المتعةَ للسيدِ، وربما تتفوق باعتبارها مستودعاً يحمل أطفال السيد، فتنجب له أطفالاً. كانت المرأةُ تقوم بالإشراف على العمل المنزلي، وقضاء وقتها في التطريز، وسماع الأناشيد الدينية. ولم يكن للمرأة أيُّ حق في التعليم سوى بعض الدروس والمواعظ الدينية عن طاعة الزوج وإسعاده. استمر وضعُ المرأة هذا طويلاً باعتبارها وجوداً يُقدِّم المتعة الجسدية للرجل، دون أي دور في المساهمة في الحياة الاجتماعية، أو الاقتصادية. كانت الحروب تمثل جزءً رئيساً في تشكيلة الواقع الاقتصادي والاجتماعي، مما فرض على الزوج الاقطاعي وجوده خارج أرضه لفترات طويلة، قد تصل إلى أعوام، ولم يكن هناك مفر أن يتنازل لزوجته عن بعض سلطاته، فيعطيها حق الإشراف والمتابعة للاقطاعية. هذا الغياب الطويل والمتكرر للزوج، جعل إشراف المرأة على الأرض عرفاً اجتماعياً مقبولاً، ساهم في تثبيت حق المرأة مستقلاً في التملك وإدارة أرضها. ورغم أن الزوج كان يعطي المرأة

الضوء الأخضر للإشراف على الاقطاعية وكل أمواله، إلا أنه كان لا يثق في عدم ممارستها الجنس في غيابه. فقد ظهر في تلك المجتمعات، ما يُعرف «بحِزَام العِفَّةِ» حيث تلبس المرأة حزاماً حديدياً يُغلق بواسطة مفتاحٍ يحمله الزوجُ معه حتى يعود، حيث يمنع هذا الحزام المرأة من ممارسة الجنس لاستحالة ذلك «ولا نريد الخوضَ في رواج تجارة صانعي المفاتيح المزورة في تلك الحقبة، كما يُروى في الأقاصيص الغرامية». فقد كانت صناعة أحزمة العِفَّة عمليةً علنيةً ليس فيها سريةٌ أو خجلٌ كما يتبادر للذهن، فلم يكن عدم الثقة عيباً أو قضية يخجل منها الزوج باعتبار أن سوء المرأةِ وتعشقها الشهوات شيءٌ طبيعيٌّ. فالمفارقةُ هُنا، أنَ هذا الحزام «حزام العفة» يؤكد عدم ثقة الزوج في زوجته، ويطعنُ في عفتها، بينما «من ناحيةٍ أخرى» يعطي الزوجُ زوجتَهُ الثقةَ والحق في الإشراف على أمواله، مما يُظهر بوضوح المفهوم الضيق للعفة والشرف المرتبط بالجنس فقط.

هذا الفهم المتدني للمرأة كان يشكل الوعي الاجتماعي في تلك الفترة بصورة صارمة، وقد شكله الفكر الديني الذكوري والذي بدوره قد رسخ هذه الآراء والمفاهيم، حيث نجد النص الكنسي الذي يقول بأن المرأة هي الخطيئة الأولى، ومنبع الشر، وكذا نجده في أدبيات الكنيسة التي تجري هذا الخط.

كان للاقطاعي حقٌّ يُعرف بِ»حق الليلة الأولى»، وهو أن يضاجع الاقطاعيُّ زوجة الفلاح يوم زفافها دون أن يرى الفلاح في ذلك أي غضاضة أو عيب، أو تأخذُهُ غِيرةٌ ذكورية!. ونلاحظ هنا مفهوم الحقوق الذي يتطابق مع الواقع الاجتماعي والاقتصادي الذي يعيشه المجتمع.

بعد خروج أوربا من الحروب الصليبية، بدأ يسود فيها نوع من الاستقرار النسبي ساهم في ازدهار الحياة الاقتصادية، وبدأ الإنتاج ينمو ويتضاعف، فظهرتْ للوجودِ طبقةٌ جديدة من الناس تقوم بعملية تبادل الإنتاج الفائض، وبدأت التجارة تأخذ لها موقعاً في الحياة الاقتصادية.

فأنتجتْ هذه الطبقة أخلاقها وأعرافها التي ساهمت المرأة فيها على قدم المسـاواة مع زوجها، في العمل ونمو الثروة، مما أدى لأن يكون وضعها متميزاً أكثر من بقية نساء تلك الحقبة. أدى ازدهار التجارة لنشوءِ أسواق عامة وتجمعات سكانية حولها، كانت النواة الأولى لإنشاء المدن والتحرك نحوها من الريف، ليقل أثر المجتمع الريفي بسلطانه التسلطي على المرأة. ورغم بروز هذه الفترة الجديدة بمتغيراتها الاقتصادية والاجتماعية، إلا أنها كانت إرهاصاتٌ، بينما ما زال الفكر الاقطاعي هو المُتحكِّمُ في المفاهيم الاجتماعية.

مع بداية عهد النهضة، ظلَّ الفكر الاقطاعي سائداً، وكانت أوربا تعيش حياةً اقتصاديةً رغدةً ورخيَّةً واضحةً، مع التدني البائنِ لواقع المرأة، والذي ساهم في تعميق دور المرأة الأرستقراطية كأداة متعة وزينة للمجتمعات الراقية، حيثُ كانت الحياة الاجتماعية تصب في هذا الفهم، لذا نجد الكاردينال بمبو يقول «إن تعلم المرأةِ اللغةَ اللاتينية يزيد من مفاتنها» ، فقد كان يصاحب تعلمَ اللغة اللاتينية الرقصُ والموسيقى، وقليْل من السياسة، لتستطيع أن تقدم كلمة أو كلمتين تزين بها أحاديث الرجال في السياسة،وفي الأمور العامة، لم تكن للمرأة كينونةٌ أو ذاتية تنفصل عن فهم المجتمع لها كأنثى، وقد استغلت المرأة هذا الوضع ،بكل قوةٍ، إذ حاولت بكل جهدها أن تجد لها مكاناً في الحياة الاجتماعية من خلال تأثيرها الجسدي، بل يقول البعض «مبالغة» إن عصر النهضة كان يحكمه عشيقاتُ الملوك والنبلاء، أي يمكننا أن نطلق عليه «عهد الضعف الأنثوي» ،حيث ساهمت المرأة في تعميق هذا الفهم ليساهم في تشكيل وعي المجتمع حتى اليوم (رجاله ونسائه)، وذلك باستغلال المرأة «المبتذل» لجسدها كسلاح.

أدى تطور مجتمعات المدن لنزوح الكثيرين هرباً من الاضطهادِ، وبحثاً عن عمل أفضل، مما ساهم في خلق جيوشٍ من العطالة خًاصة بين

النساءِ، تجوب المدن. وكوضع طبيعي لهذا الفقر المذل، لم يكن أمامَ المرأة التي لاتمتلك تعليمًا ولا حرفةً، سوى الوقوعِ في براثن الدعارةِ، فانتشرت البغايا والعاهرات في المجتمعات المدنية.

قام علماء ذلك القرن، بإرجاع كل الذي حدثَ إلى ابتعاد المجتمع عن الفضيلةِ بخروج المرأة للعمل، وقام رجال الدين بالهجوم على المرأة ،رأس الشرور، حيث نجد انتشار تعاليم كالڤن التي تنادي بالفصل التام بين الرجال والنساء في الحياة العملية والاجتماعية، باعتباره الضمان الوحيد للوقاية من مجتمع الفاحشة.أما لوثر (المصلح البروتستاني)، فلم يقف مكتوفاً في وضع مسؤولية الفساد على المرأةِ، حيث دعا لتمجيد المرأة القابعة في منزلها بعيدةً عن الحياة الاجتماعية. وهكذا، إلى يومنا هذا، تَوَاترتْ عشراتُ الأصوات التي تدافع عن مقولاته.

فإذا كان المجتمع يتغاضى عن الظرفين الاقتصادي والاجتماعي الذي يساهم في البغاء، فإننا لا نجد تبريراً بعدم التعرض لدور الرجل في البغاء. فالرجل ليس بالمخلوق الطاهر النقي الذي يقع فريسة غواية المرأة الشيطان. حيثُ يكون التبريرُ الوحيد هو أن المجتمع الذكوري لا يحاكم الرجل باعتباره الجنس السائد وصاحب الكلمة العليا، لأنه هو الذي يضع القانون والعرف الاجتماعي، لذا نجد دائماً الحديث عن شرور المرأة على المجتمع الذي يلعب فيه الرجل دورَ الضحيه.

كان للتعليم القليل الذي وفر للمرأة، أثره في شحْذِ أذهان البعض، وانفتاحها على الوضع المضطهد والجاهل الذي تعيشه المرأة. فازداد إهتمامهم الثقافي بتطوير إمكاناتهنَّ، ورغم أنها كانت محاولات فردية وليست ظاهرةً اجتماعية، إلا أننا نجد بعضهن قد استطعن أن يفرضن وجودهن في الحياة الفكرية، وذلكَ عبرَ انتشار الصالونات الأدبية في أوربا لمناقشة الأدب والفكر، فقد كانت بعض النساء يحضرن هذه المجالس، بل اشتهرت بعضهنَّ بصالوناتهِنَّ ومنتدياتهِنَّ الخاصة بهن مثل مدام لاڤييت،

ومدام سكوديري. ولا يخفى على أحدٍ ما ساهمت به هذه الصالونات في ازدياد وعي النساء، على الرغمِ من محدودية فرص المشاركة ، حيث كان حقاً أرستقراطياً ضعيفاً في أثره، وغيرَ فعّالٍ في تشكيل وعي المجتمع كله ، أو وعي جمهرة النساء.

في هذا العهد، ظهرت لأول مرةٍ، بعضُ الدعوات الإصلاحية الاقتصادية ،حيث دعا الفرنسي كولبير لمساواة المرأة في العمل مع رصيفها الرجل. ورغم أنها كانت دعوةً خافتةً لم تجد أُذناً صاغية، إلا أنها كانت مؤشراً له دلالته المستقبلية.

بدأت تباشير قضية المرأة تظهر للوجود، وأصبح الحديث عنها يكثر، وبدأ دور المرأة يتبلورُ في التغيير الاجتماعي، فوصلَ هذا المد أشده في نضال الثورة الفرنسية، حيث شاركت المرأة وعلى قدم المساواة مع الرجلِ في النضال، ولا يُنكرُ ، إلا جاحدٌ، دورها الفعّال في هذا النضال لتحقيق أهدافِ الثورةِ وانتصارها. ورغماً عن ذلك، لم تجد المرأةُ من الثورة الفرنسية من الامتيازات ما يوازي دورها الفعلي في النضال.

قدمت الثورةُ وُعُوداً كثيرةً ،في أيامها الأولى على الصعيد التشريعي، من الامتيازاتِ عرفاناً لها واعترافاً بدورها في النضال، حيث رفعت سن الرشد للفتاة إلى (٢١) عاماً، وتركت لها حق اختيار زوجها وحق الطلاق، وجعلتها نصف الرجل في الميراث، ولها حق التصرف في أموالها قبل الزواج، والتنازل عن قليل من سلطاتها للرجل بعد الزواج. وبعد أن استقرت السلطة في يد الرجالِ، سرعان ما نكصوا عن هذه الوعود، وعادوا للفهم السلفي الذي يعكسه رد رئيس المجلس العام عندما اقتحمت جماهيرُ النساء المجلسَ مطالباتٍ بالمساواة، حيث قال لهنَّ «هل أعطتنا الطبيعةُ حلماتٍ لنُرضعَ أطفالنا ؟».

عَهْدُ الصِّنَاعة

مع بدايةِ عهد الصناعة، تَبَدَّتْ بعض التنازلات «النسبية» بشأنِ وضع المرأة، مقارنةً بما بعدَ الثورةِ الفرنسية، حيث أدى ظهور الآلات في الصناعة إلى تزايدِ الإنتاج وَوَفَرتِهِ، وهو إنتاجٌ ذو تكاليف قليلة مقارنةً، بالصناعات اليدوية البدائية. وطغى الإنتاج الصناعي على الإنتاج المنزلي بصورة واضحة، فازداد الفاصل بين الاقتصاد المنزلي والاقتصادالاجتماعي، مما جعل الأعمال التي كانت تقوم بها المرأة مثل صناعة الملابس والطعام والخمور تضمحلُّ. هذا الفارق الكبير، جعل الأسر التي تعيش على الاقتصاد المنزلي تعاني من تدهورٍ مريع، وجعل الجميع يحلمون بالعمل في الصناعة خاصةً النساء، مما زاد جيش العطالة النسوي. وقد كان هذا الجيش رصيداً احتياطياً للطبقة الرأسمالية النامية، حيث مَثَّلتِ النساء «كتيبة استراتيجية» يقوم الرأسمالي بتهديد العمال بهنَّ عند أول بادرة إضراب، أو تفكيرٍ في زيادة الأجور، حيث يقوم بتشغيلهُنَّ بأجور زهيدة بإعتبارها عمالة رخيصة لم تجد فرص العمل.

على صعيدٍ آخر، بدأ الوضع القانوني يتراجع منذ إصلاحات الثورة، حيث توَهَّجَ وعَلا نجمُ قوانين نابليون الذي قنن لوضع سيئ للمرأة، وساهم في التقنين لاضطهادها بصورة بشعة. فقد كان للقانون صدى طيباً في الحضارة الذكورية، مما جعل كل أوربا تشتق منه قوانينها. وضع القانون ثلاث نقاط أساسية هي، هيمنة الرجل، والدونية القانونية للمرأة المتزوجة، وحق المرأة في الطلاق.

في النقطة الأولى، يقول القانون إن هيمنة الرجل ناجمة عن تكوين كيانه، وطاعة المرأة له ولاءً للسلطة التي تحميها. ويصرح نابليون نفسه أمام مجلس الدولة «إن الطبيعة جعلت نساءنا إماءً لنا، ومن حق الزوج أن يقول لزوجه سيدتي لن تخرجي من البيت، لن تري هذا الشخص أو ذاك. سيدتي أنت ملكي روحاً وجسداً». أما النقطة الثانية، فهي الدونية

القانونية، والتي جعلت المرأة قاصراً تحت وصاية زوجها مدى الحياة، وجرّدها من الشهادة والمقاضاة والتوقيع على العقود، أو ممارسة أي مهنة ،أو الحصول على أي وثيقة رسمية دون إذن زوجها وموافقته. وإذا عملت، فإن رِيْعَ عملها يكون من نصيب زوجها. الزوجة الزانيةُ، تعاقب بالحبس، بينما الزوج الزاني يدفع غرامةً مالية بسيطة، أو لا يُحاسب. وثالثُ النقاطِ هي حق الطلاق والذي ألغاه هذا القانونُ تماماً.

على نحوٍ مُتَّصلٍ، نجد القانون الإنجليزي ، في ذلك الوقت، لم يكن أحسن حالاً من رصيفه الفرنسي في التقنين لهيمنة الرجل، حيث يقرر إلغاء شخصية المرأة المتزوجة، وذوبانها في شخصية زوجها. وفي هذا التلاشي تفقد المرأةُ حقوقها الشخصية، فلَمْ يَعُدْ لها حقٌّ فيما تملك أو تكسب، وليس لها الحق في أن توقع عقداً، أو أن تتصرف في مالها، ولا تضم أولادها إليها إذا انفصلت عن زوجها، كما أنَّ لزوجهَا الحق في تأديبها وضربها.

رغم هذه الصورة القاتمة، تظهر لنا بعض المدارس الإصلاحية التي تنادي بوضعٍ جديد للمرأة، حيث ظهر أوين في إنجلترا، وفورييه وسان سايمون في فرنسا، وفورييه هو صاحب المقولة المشهورة ذائعة الصِيتِ، والتي تقول: «إنَّ أيَّةَ حضارةٍ تُقاسُ بِمِقدار ما تَنالُ المَرأةُ من حُرّية».

وقد حاولَ هؤلاءِ جهدهم تحرير المرأة وإعطائها وضعاً اجتماعياً مميزاً وانعتاقها من الأسر الاقتصادي الاجتماعي.

لم يكن تاريخ المرأةِ مُعَبَّداً بالورود، بل كانَ طريقاً من النضال والصعاب لانتزاع حقوقهنَّ .حيث لم يسمح للمرأةِ في بريطانيا بامتلاك عقار حتى قانون ١٨٧٠، واحتاجت إلى قرابة العشرةِ أعوامٍ بعد ذلك، ليسمح لها أن تتجاوز الدراسات الابتدائية، وتطالب بالالتحاق بالدراسات العليا. قبل ذلك العام، كان على الزوجه أن تتنازل عن كل ممتلكاتها وأموالها لزوجها. لقد كان نضال المرأة الإنجليزية من أجلِ حقوقها درباً مليئاً بالصعاب،

كالاعتقالات والتعذيب والإضراب عن الطعام، بل والانتحار والقتل.

في عام ١٩٠٨م، خرجت أضخم مسيرةٍ للنساء في لندن، يُقَدَّرُ عدد المشاركات فيها بنصف مليون إمرأةٍ، يطالبن بحقوقهنَّ. واستمر النضال، وتوالت والاحتجاجات، وبعد عامٍ، كانت حملات الإضراب عن الطعاًم خاصة لقيادات الحركةِ النسوية المعتقلات في السجون. يذكر التاريخ يوم الجمعة الحزين الذي تعاملت فيه الشُّرطةُ بوحشيه مع المتظاهرات، واعتقلتْ وسجنت أكثر من مائة متظاهرةٍ، وقتلت اثنتين من الناشطات. يذكر في تلك الفتره انتحارُ أحد الناشطات عندما ألقت بنفسها أمام موكب الملك جورج، وهي تطالب بحقوق المرأةِ، وإطلاق سراح قيادات الحركة النسوية من السجون. استمرت الا،حتجاجات وبعد خمسة، أعوام من المسيرات تم تعديل الدستور، وسُمح للمرأةِ بحق التصويت في عمر للرجل، وقد أخذت من النساء جهد ونضالات عشر سنواتٍ أخرى قبل الموافقهة على حق التصويت المتساوي للرجل في عمر الواحد والعشرين عاماً.

رغم أنه تم تعيين أول امرأةٍ في منصب وزير كان في عام ١٩٢٩م، ولكنَّ الحركةَ النسويةَ احتاجت لحوالي ثلاثين عاماً من النضال لإصدار قانونٍ يعطي المعلمات وموظفات الخدمة المدنيةِ، الحق في الأجر المتساوي. كما احتاجت لخمسة عشر عاماً أخرى لتصبح ضد القانون الذي يُمَيِّزُ ،في كل الوظائف، بين الجنسين في المرتب والامتيازات. ولقد ساهمت الحرب في أوربا في تثبيت المرأة لدورها كقوة عاملة فرضت وجودها على المجتمع. ومع توسع هياكل الدولة، ودخول المرأة مجال العمل بصورة أوسع، أصبح ذلكَ أمراً مرغوباً فيه، بل أصبحت بعضُ المهن حكراً للمرأة كالتمريض والتعليم والأعمال المكتبية. وانعكاساً لهذه المكاسب «العملية»، تَهاوتِ القوانينُ القديمة البالية، لتقوم ، بديلاً لها، قوانينُ جديدة تُواكب الفهم المعاصر، وذلكَ حينما أُلغيَ في عام ١٩٤٢م بفرنسا حقُ الطاعة الأبدي للرجل،

وجُعلَ للمرأةِ حصة في أملاك الأسرة وأعطيتِ الحق في ممارسة المهنة التي تريد. ومع تصاعد الأصوات المدافعة عن حق المرأة، وازدياد مشاركتها في الاقتصادالاجتماعي، أعطيت المرأة عام ١٩٦٥م الحق في التَّصرُّف الكامل في أملاكها.وفي إنجلترا أَباحَ قانون ١٩٤٨م للمرأة العمل، وحق الانتخابات لمن تجاوزت الثلاثين عاماً من عمرها، ثم مُنحت حق الترشيح بعد عامٍ، وبعد عشرةِ أعوام، دخلت أول امرأة سلك الوزارة في سويسرا التي لم تحصل فيها المرأة على حق الانتخاب الفدرالي إلا في عام ١٩٧١م. أما في السويد، فنجد أن المرأة قد بلغت مرحلةً متقدمةً، حيث انتهى الصراع الكلاسيكي حَوْلَ حق المرأة في العمل والزواج والتمليك، وقد تجاوز مجتمع اليوم هذه النقاط، وأصبح الحوار الآنَ، يدور حول طريقة إدارة النظام البيتي لكي يكفل للمرأة أقصى درجات الحرية، وللطفل أحسن أنواع الرعاية. حيث نجد الصراع بين مؤيدي نظام التربية والرعاية الاجتماعية، بينما يتبنى الآخرون أفضلية نظام الرعاية المنزلية، وهؤلاء لا ينادون بعودة المرأة للمنزل فهذه قضية قد حُسمت، بل يضعون بدائل محددة مثل تقليص يوم العمل لأحد الزوجين الذي يبقى في المنزل مع الطفل، أو إعطاء حافزِ نصف مرتب للذي يبقى في المنزل، أو إنشاء صندوق للطفولة يُقدم مرتباً ثابتاً لأحد الزوجين لمدة الثلاثِ (٣) سنواتٍ الأُولى مِن عُمْرِ الطِّفل ليبقى معه في المنزل.

هذه التغييرات التي تمت في الفكر الليبرالي، وصاحبتها تغييرات في واقع المرأه في المعسكر الغربي، تزامن معها «تطوراً» مستوى المعسكر الشرقي استناداً على المدرسة الاشتراكية.

حيث إنَّ أهمَّ نقاط التحول في قضية المرأة بالمعسكر الشرقي وفي العالم، برزت مع كِتاب (أصل العائلة) لانجلز(١٦)، والذي وضع خطوطه العريضة ومساهمته الفاعلة في قضية المرأة، ربطاً بين واقع المرأة وموقعها من وسائل الإنتاج، وتدهور المرأة التاريخي عندما ارتبطت الحضارة بخط

تطور رأسمالي، وأنه ليس هناك إمكانيةٌ للتَّحرُّر الكامل للمرأة إلا بانتهاء الاستغلال الأكبرِ، ألا وهو استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وانتهاء الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج. على الخطِّ الفكري نفسِهِ، سَارَ كارل ماركس، والذي ربط نضال التحرر النسائي، بالنضال لتحقيق أفضل وضعٍ للمرأة من خلال الصراع الاجتماعي ضد الملكية الخاصةِ، وكلِّ أنواع الاستغلال. وهنا، نلاحظُ أنَّ المدارس الليبرالية قد هاجمت المدرسة الماركسية، واتهمتها باختزال قضية المرأة في الصراع الطبقي، وأهملت خصوصية قضيتها كنوعٍ له أزماتُهُ المختلفة. هذه الاختلافات مازالت قائمةً بين المدرستين، ولكنْ رغم التباين المنهجي، نجد أن قضية المرأة قد حققت نجاحاتٍ ملموسةً في هذه المرحله.

يمكن القولُ إنَّ العالم مع أعتاب القرن العشرين في معسكره الشرقي والغربي، قد حقَّقَ خطواتٍ متقدمةً في قضية المرأة. ونستطيع إِجْمالَها في الآتي:

- الرجل والمرأة متساويان أمام القانون وفي الحياة الاجتماعية.
- منحُ المرأةِ فرصةً متكافئة في الثقافة والفكر والتكنولوجيا.
- المساواة في مجال العمل فرصةً وأجراً، إضافةً إلى بعض القوانين التي لها خصوصيات.
- تحديد ساعات العمل للمرأة بسبع ساعاتٍ يومياً لمدة خمسة أيام أسبوعياً.
- توفير دُوْرِ الحضانة ورياض أطفالٍ كافية.
- منع تشغيل النساء في الأعمال التي تضر بصحتهن مثل مصانع البيوكيميائيات أو التي تتعرض فيها لإشعاعات تؤثر على الحمل والإنجاب.
- منحهن إجازة حمل وولادة وأمومة مدفوعة الأجر.

رغم أن القانون ،في معظم بقاع العالم، قد أصبح واضحاً في منع التمييز، لكنَّ الواقعَ كانَ عكس ذلك، حيثُ مازلنا نجد التمايز على المستوى الاقتصادي، والاستلاب على المستوى الاجتماعي. ومازالت الثقافة المبنية على التمايز قائمةً بوجودها، وليس غريبا أن تكون هناك عديد من الشركات والمؤسسات لا تلتزم بذلك، وتتحايل لإعطاء الرجال حوافز أعلى. ففي بريطانيا مثالاً، في عامِ ٢٠١٧م، كشف تقريرٌ أن مؤسسةً حكوميةً عملاقةً مثل هيئة الإذاعةِ البريطانية (BBC)، تُمارس التمييز ضد النساءِ، وأنَّ معظم المرتبات العليا من نصيبِ الرجالِ، بل أحياناً تتجاوز ضعفي وثلاثة أضعاب ما تَمنحهُ للمرأة. وقد أدى هذا الكشفُ، والغضب النسوي العارم على هذا التستر، إلى إصدار قانونٍ يُطالب الشركات والمؤسسات بالكشفِ والنشر لمرتباتِ موظفيها (رجالاً ونساءً) للعلن في شفافية تسمح للمجتمع، والقانون مراقبةَ ومعرفةَ أي مفارقة أو تمييز.

وَاقِعُ المَرأةِ في السُودَان

في السودانِ الحديثِ، لا يختلف الوضعُ عَن بقية العالم.حتى بداية القرنِ، حيث ظلَّ وضعُ المرأةِ محدوداً، ومرتبطاً بالعمل المنزلي، وعدم التعليم. ومع نشوْءِ المدن، وبدايةِ ظهور المؤسسات الحكوميةِ، أفردَ اقتصادالدولة الوليدِة مساحةً محدودة لتعليم المرأةِ وعملها.

لم يكن الوضع عامةً مختلفاً أو متغيراً كثيراً عَمَّا سبق، فقد كان تحت نير المستعمر الإنجليزي الذي هو نفسه يعاني من التخلُّفِ في قضايا حقوق المرأة. حيثُ لا يذكر تاريخ الحركة النسوية وبداية التعليم الابتدائي، ومجاهدات الشيخ بابكر بدري في إقناع الإنجليز والمواطنين، حتى تم ذلك في ١٩٠٧م. وقد انتظرت المرأة لأكثر من عشرين عاماً للحصول على فرصة في التعلم الجامعي، لتتخرَّج خالدة زاهر، وزوري سركسيان كأول طبيبتينِ سودانيتين. ويذكر لخالدة زاهر دورها في حركه السياسية ضد الاستعمار، حيث قادت مظاهرةَ نادي الخريجين ضد الجمعية التشريعية

في عام ١٩٤٦م.

تأسس الاتحاد النسائي السُّوداني كجمعيةٍ نسويةٍ في عامِ ١٩٥٢م، ويُشهد له مجاهداته في الدفاع عن قضايا المرأة السُّودانية. فقد أعطيت المرأة السودانيةُ حق التصويت في انتخابات عامِ ١٩٥٣م، ولكن لم تكسب حقَّ الترشيح حتى عامِ ١٩٦٤م. وتلا ذلك دخول أول امرأة سُودانيةٍ البرلمانَ بعد ذلك في عامِ ١٩٦٥م، لتصبح الأستاذة فاطمة أحمد إبراهيم أولَ عضوٍ نسائيٍّ في البرلمان السُّوداني. كما أنَّها أيضاً (الأستاذة فاطمة) أصبحت أولَ رئيسةٍ أفريقية لاتحاد المرأة العالمي، فكرمتها الأمم المتحده في عامِ ١٩٩٣م، لنضالها، وأسبقية الاتحاد النسائي السوداني التاريخية في قضايا حقوق المراة.

وانتظرت المرأة السودانية ستَّ سنواتٍ بعد دخول البرلمانِ، لتدخل مجلس الوزراء كوزيرةٍ ، بلا أعباءٍ، بعدَ تَعْيِيْنِ الأستاذة نفيسة محمد الأمين ، وتلتها بعدَ عامين فاطمه عبدالمحمود كأولِ امرأةٍ تتقلد حقيبةً وزاريةً بوصفها وزيرةً للشؤون الاجتماعية. بعد ذلك بعشرين عاماً، أصبحت أغنيس لوكونو حاكمةً للولاية الاستوائية كأول حاكم من النِّساءِ لولاية سودانية.

في عامِ ١٩٧٠م، حصلت المرأة على الحق الدستوري في الأجر المتساوي للعمل المتساوي مع الرجل،مع الاحتفاظِ بالحق في امتيازات خاصةٍ تتعلق بالحمل والولادة والرضاعه. انتظرت المرأةُ السودانيةُ حتى ديسمبر من عامِ ٢٠٠٦م، لتصيْرَ هالة محمد عبدالحليم أوَّلَ رئيسةٍ لحزبٍ سودانيٍّ، هُوَ حركة القوى الجديدة الديمقراطية (حق).

في ختام تناولنا للتسلسل التاريخي السريع لواقع المرأة، نقف قليلاً أمام بعض النقاط لتضيء لنا الصورة العامة التي سنهتدي بها في معالجتنا لهذه القضية.والنقطة الأساسية التي يمكن أن نستخلصها من هذه الرحلة، هي أن المرأة لم تتبوأ وضعاً متدنياً وثابتاً على مدار التاريخ، بل تأرجح وَضعها

صعوداً وهبوطاً. ورغم أن الهبوط كان الصفة السائدة، إلا أننا لا يمكننا أن نفصل «تحديداً» الأوقات التي كان للمرأة فيها وضعٌ متميزٌ.

يمكننا أن نقول بكل الثقةٍ، مدعومين بسندنا التاريخي، أن وضع المرأة تأرجح مع تغير علاقةِ وضع المرأة بوسائل الإنتاجِ، ومساهمتها في دعم عجلة الاقتصاد. فكلما كانت مشاركتها فاعلةً في تشكيل الحياة اقتصادياً، كان دورها إيجابيّاً ومتميزاً. وكلما تصاعد الاقتصاد المنزلي، تَبعهُ تصاعدُ دور المرأة و بانَ أثرُهُ في الحياة الاجتماعية.

فقد وضَّحتِ القراءةُ التاريخيه لنا، أن وضع المرأة في مجتمعات «الحق الأمومي» ترتبط دائماً بدور المرأة المؤثر في الحياة الاقتصادية، وخير مثال على ذلكَ هو المجتمع الأمومي الأول، حيث تبوأت المرأة مكاناً ممتازاً عندما كان اقتصاد العشيرة يعتمد عليها أولاً وأخيراً، نظراً لارتباط الاقتصاد المنزلي بالزراعة كحرفة أساسية تُوفِّر الغذاء. وكما أسلفنا، أدى اكتشاف المحراث إلى أن تصبح الزراعة من نصيب الرجل، وتنتقل معه مقاليد السلطة، وكذا، تراجع وضع المرأة مع تراجع دورها الاقتصادي.

إن متابعتنا لتغير وضع المرأة بين عهود الاقطاع والصناعة، حتى عصرنا اليوم، أظهر لنا تطوراً في واقع المرأة موازياً لواقعها الاقتصادي، ودورها الاجتماعي الناتج من ذلك.

الفصل الثاني

الاختلافُ التّركيبيٌ والتّكوينيٌ ، و وَاقعُ المرأةِ



الاختلافُ التّركيبيُّ والتّكوينيُّ، و وَاقعُ المرأةِ

تذكر ألوي(١٧) تأكيدا معمليا بتفوق الرجل عضلياً، حيث إن معظم الدراسات المعملية قد أثبتت، في معايير القوة، تفوُّق الرجال على النساء. هذه النتائج ليستْ مستغربةً، فهي تتوافق مع ما نرى في الحياةاليومية، وما نرى في المسابقات الرياضية التي نشاهد فيها تفوقاً في الأرقام القياسية التي يحققها الرجالُ مقارنةً بالنساء. إن الدراساتِ المعمليةَ قد أثبتت أيضاً أن هذا التفوق نتيجةٌ لعاملين أساسيين، هما: حجم كتلة العضلاتِ، وكمية الدهون. فالدراسات في معظم المقارناتِ كانت تؤكد ازدياد كتلة العضلات عند الرجال، ونقص مستوى الدهون مقارنةً بالنساء. وهذا لا يعني أنَّ الرجلَ «مُطلقاً»، يتفوق على المرأة على الإطلاق، بل أشارت الدراسات إلى أنَّه إذا تشابه رجل وإمراةٌ في توزيع كتلة العضلات وكمية الدهون، فلا يُتوقع أن يكون هناك فارقٌ ملموس في القوة بين الجنسين.

وقد أثبت علم التشريح الحديث أن العضلات والعظام التي يمتلكها الإنسان ،بغض النظر عن الاختلاف الجنسي، هي واحدةٌ «تكوينياً»، وإن اختلف توزيعها وحجمها. فهذا التوزيع والتَّضخم المحكوم جينياً على حسب النوعِ،، له علاقة بعاملين هما: التركيَةُ الهرمونيةُ والحركيةُ للذكر و الأنثى . ويجب التأكيد على أنَّ التأثير الهرموني ليس الوحيدَ أو الحاسمَ، بل يتفاعل مع العامل الحركي بصورةٍ متبادلة.ففي الأعوام الماضيه قد شاهدنا بعض النساءُ اللاتي قُمنَ بِمحاولة لكسر احتكار الرجل مسابقات رفع الأثقال وكمال الأجسام، وذلكَ بتنظيم مسابقة لكمال الأجسام للنساء. وقد فوجئ العالم بنساءٍ ذوات عضلاتٍ فولاذيةٍ مفتولةٍ ومستديرةٍ بصورةٍ

يتفوقنَ بها على معظم رجال العالم. ومع أن دخول المرأة معظم مجالات الرياضة حديثاً نسبياً، إلا أنها حققت في هذا المضمارِ كثيراً من الإنجازات. ففي الألعاب الأولمبية «مثلاً» نجد أن الأرقام مازالت تثبت تفوق الرجل جسدياً. كما نجد في معيار التنافس الرياضي نقطةً جديرةً بالإهتمام، ألا وهي أنَّ النساء قد استطعن أن يحطمن كثيراً من أرقام الرجال التي حققوها في الستينات مثلاً، وبهذا المنطق، هل نقول إنَّ النساءَ «اليوم» أكثرُ رجولةً من رجالِ السِّتينات من القرن الماضي؟

لا يخفى علينا الفرق بين الحياة الخاملة المفروضة على المرأة، وبين المجهود العضلي العنيف الذي يعيشه الرجلُ، وتتَّصفُ به أنماطُ حياته. حين نجد المرأة حبيسة العمل المنزلي أو العمل الاجتماعي الذي لا يتطلب مجهوداً عضلياً، مع ضعفٍ واضحٍ في التعامل مع معظم ضروب الرياضة، نجد في الجانب الآخر أن الرجل يمارس المجهود العضلي كضرورةٍ حتمية متصلةٍ بوضعه الاجتماعي في العمل، أو في الرياضة. هذا التقسيم والاهتمامُ بالرياضةِ، ينشأ منذ الطفولةِ، وينمو ويتطور مع الزمن.

هذا الواقعُ، جعل التكوين الجسدي للمرأة أقربَ للضعف والليونةِ منه للقوةِ، متطابقاً مع الصورة الذكورية للمرأة التي يشتهيها (صورة الأنثى الضعيفة الرقيقة)، ويُزين لها هذه الصورةَ باعتبارها واحدةً من المعايير الأساسية لقيم الجمال الذكوري، وإنَّ أيَّ محاولة تقوم بها المرأة للخروج من هذا القالب الأنثوي، تُعرِّضُها لهجوم قاسٍ، ابتداءً من تدهور قيمتها الجمالية كأنثى، وانتهاءً بوصفها متشبهةً بالرجال أو جنس ثالث. هذا التنميط قد بدأ في التراجع في وسطَ شرائحَ كثيرةٍ باهتمام المرأة بالرياضة مع استمرارية التخوف الداخلي عند كثير من النساء في بناء كتلة عضلية متضخمة. كما نلاحظ مفارقةً تتعلَّقُ بجسد المرأة، والذي هو سلاح ذو حدَّين يستغله المجتمع الذكوري لتحجيمها، ووضعها في قالبٍ من الخنوع. حيثُ تَتجلَّى كمية التناقض الحادث عندما يُدافعُ المجتمع

الذكوري عن الجسد الأنثوي الناعمِ غيرِ مُتماسكِ العضلات، بينما يأتي ليحاكم المرأة بالقالب نفسِهِ عَادّاً إيَّاها مخلوقاً تكوينُه الجسديُّ ضعيفٌ مترهلٌ يحتاج للحماية العضلية الذكورية. وإذاحاولت المرأة الانفلات من القالب المرسوم لها، ستقابل بالاستهجان والانتقاد عندَ بُرُزِ عضلاتٍ لها، ووصمها بافتقاد الجمال والأنوثه. و هذا التنميط لمفهوم العضلات يُؤمِنُ به الجِنسان (الرجل والمرأة)، حيثُ نرى ارتباط مفهوم الرجولة ،كقيمة عضلية، والافتتان به، سائداً في معظم طبقات مجتمعنا التي قد تَشَكَّلَ وعيها وتشرَّبَ بهذا الفهم الذكوري. كما أننا نلاحظُ أنَّ التَّغني بالرجل الطويل، كَثِّ الشاربِ، صاحب العيون الحمراء (دلالة على البطش)، صارَ مِعياراً للرجولة والفحولة، وقد أصبح من حكم المنطق أن تبحث المرأة دوماً في زوجها ،في المقام الأول، عن الطُّولِ، حيث إنَّ كثيراً ما ترفض المرأة المتقدمين لها لاعتباراتِ أنهم أقصر منها طولاً، وذلكَ لأن المجتمع يتعامل مع الزوجة الطويلة وزوجها القصير، باعتبارهما مثار تندُّر واستغراب وسخرية. وهكذا،نجد أن المرأة تنساق وراء هذا الفهم الاجتماعي استناداً على الخوف والضعف التاريخي المغروس في المرأة وحاجتها للحماية. لذا لا نستغرب عندما يصيرُ العُرفُ هو أن تختار الفتاة للزواج من هو أطول منها، وأكثر بنيةً عضليةً، وأكبر عمراً، وأعلى مكانةً اجتماعيةً أو اقتصاديةً، وأكثر خبرةً، حتى تشعر الفتاة بالأمان تحت كنفه. و بذا، صارتِ القيمةُ الرجوليةُ للإنسان، تزيد في معايير الثقة، حيث يُقَدِّمُ التكوينُ العضلي إضافةً نفسيةً واضحةً. فكلما ازداد طول الرجلِ، واستدارت عضلاتُهُ، كلما ازداد إحساسُهُ بالرجولةِ، وتصاعدتْ قيمتُهُ كذكر. وهنا، تَتَجلَّى بوضوحٍ سطحيةُ الفهم السائد لقيمة الرجولة، حيث تصبح عبارةً عن ممارسة التسلط أو القهر والسيطرة، وفرض الذات على الواقع بقوته العضلية. كما يَتَّضِحُ هنا «جلِيّاً» مدى ابتذال القيمة المعنوية، والإنسانية للرجلِ، بمقدار ما يملك من عضلاتٍ، لِتعكِسَ تراثاً تاريخيّاً حين كان

للتكوين العضلي دورُهُ الاجتماعي في حفظ القانونِ، ومنع البَغي والظلم. بعد انتفاء الظرف التاريخي المحدد الذي يحتاج للحماية بواسطة عضلات الرجلِ، ومع تنامي دور الدولة ومؤسساتها، أصبحت القوة العضليةُ قيمةً مجرَّدةً من أي دور اجتماعيّ ٍله علاقةٌ بالأمن والحمايه. إن الحضارة اليومَ، تكرس للانفصال الحاد بين القوة العضليةِ، والأخلاقِ، والشَّرف.

ولا نُنكر أن التأثير التاريخي للقيمة العضليةِ، مازال يعشعش في الأذهان، ولا ننسى أن هناك جانباً إيجابيّاً بتقدير الجانب الصِّحي في الجسم العضليّ، كدلالةٍ على خُلُوِّ الجسم من التَّرهُّل والأمراض. إنَّ أيَّ تفضيل لِلرجل ذي العضلاتِ بعيداً عن التقييم الصحيحِ، واعتباره ذا مدلولٍ اجتماعي مرتبطٍ بقيم الشجاعة والحماية، يعكسُ ردَّ فعل طبيعي للوعي المشوه الذي أفرزه هذا التشكيلُ التاريخي.يعتقد بعض الرجال ،استناداً على فهم مبسط، أن إعجاب المرأة بالرجل مَفتولِ العضلاتِ، نابعٌ من ارتباط القوة العضلية بِازدياد النشاط الجنسي، وهنا لا نريد أن نحلل هذه النظريةَ التي يَسندُها أساس علميٌّ وذلكَ لقيامها على فهم خاطئ عن الجنس بوَصْفهِ علاقةً ميكانيكية بين جسدين،تتناسب «طَرْدِيّاً» مع حجم الرجل. فهذه النظرية التي تستلب المفهوم الإنسانيَّ للجنس، وسنتعرض لها لاحقاً عندما نتعرض للجنس.

خلاصةُ القولِ إن تفوق الرجل العضلي، يجب ألا يصبح صواباً على إطلاقه، مع مراعاة الفوارق الفردية، وضرورة مراجعة مفهوم التفوق العضلي وأهميته. إن استغلال الرجل لتكوينه العضلي قد ساهم في توفير الكسب الاقتصاديّ، والحماية في عهود التاريخ السابقة، مما أعطاه قيمته ومدلوله الاجتماعي. إلا أننا لا نجد لها مردوداً اقتصاديّاً، ولاحاجةً اجتماعيةً في حضارة اليوم. ففي المجال الاقتصادي، فإن الأعمال التي تحتاج لمجهود فكريٍّ، هي التي تُقدِّم عائداً مادياً أعلى من التي تحتاج لمجهود عضلي. أما بالنسبة للدور الاجتماعي، فإن الحاجةَ إلى عضلات

من أجل الحمايةِ، قد إنتفت تماماً. فالمجتمع أصبحتْ تحكمُهُ مؤسساتٌ ليس للأفراد دٍ، فإنه يتعرض للمحاسبةِ، وأن كان على صواب.

فعَالَمُ اليومِ، لا يدعو إلى أن تصبح كل النساء لاعباتِ حَمْلِ أثقالٍ ليفرضنَ شخصياتهنَ، ويَنَلنَ حقوقهنَ، لكنه يطالب أن ينال كل إنسان حقوقاً مساويةً للآخرِ، دون سيطرةِ أحدهما استناداً على قواه العضلية. ولا نطالب بأن تتغير المراكزُ ليصبحَ مَفْتُوْلُ العضلاتِ، المكتنزُ شحماً، هُوَ المظلوم أو الظالم، ولكن كما أسلفنا، هذه ليست القضيةَ، بل هي ابتذال لها، وتحويلٌ للصراع إلى غير أرض المعركة، ولا نسعى لتشكيل أيّ من الجنسين في قوالبَ.

يتضح لنا أن سيطرة الرجل على المرأة بغرض الحماية والأمن والرعاية الاقتصادية مستقلاً تكوينه العضليَّ، أصبحت في حكم التاريخ. وصورة الرجل الفارس الواقف للحماية والإعاشةِ، صارت بلا قيمة، وهي تناسب إنسان القرون الوسطى.

لايختلف العلماء اليوم أن القوة العضلية هي المحك. فالعصر ليس عصر إنسان الغاب الذي يعتمد على جسده، ومجهوده العضلي، إنما هي حضارة العقلِ، وسيطرة الفكر على قوى الطبيعة. فلا يستغرب سيطرة الرجل عليها، وهذا قد يفسر أن الرجل ربما يمتلك من الإمكانات العقلية التي تؤهله لذلك.

الذّكاءُ والإمكاناتُ العقليةُ ووَاقعُ المرأة

ظهرت بعض التيارات والمدارس التي تزعم أن الرجل أعلى ذكاءً، ويفوق المرأة في هذه الناحية هيلاري(١٨) مما جعله في موقع الريادةِ، والسيطره في العالم فالحقيقةُ التشريحيةُ تقولُ إنَّ وزن دماغ الرجل وحجمه، يفوقان وزنَ دماغ المرأة وحجمَهُ . فقد حاول بعض العلماء تطويع علم التشريح ليطابق هذه المقولةَ، في محاولةٍ لإثباتِ أنَّ حجم مخ المرأة أقل من وزن مخ الرجل، مما يعني انخفاض مستوى ذكائها مقارنةً بالرجل. لم تجد

هذه الدعوى أيَّ صدى، وذلكَ لعدم استنادها على واقعٍ علمي أو حقيقة مثبتةٍ، مما جعلها جزءً من الفهم الأسطوري الذي يحاولُ طَمْسَ الحقائق لمصلحة المجتمعِ، حيث إنَّ وزن دماغ الرجل وحجمه أكبر من دماغ المرأة، ولكنَّ هذا لا يعني مُطلقاً التطابق بين وزن الدماغ والعقل والذكاء. فلا يوجد أيُّ سند علمي يدعم هذا الفهم، بل إنَّنا إذا أخذنا بهذا القانون، لَكَانَ الفيلُ أكثرَ ذكاءً من الإنسانِ، ولاشْتُهِرَ العلماءُ برؤوسٍ ضخمة تتناسب مع ذكائهم. و من الواضح أنها دعوة فطيره.

الحقيقة العلمية المثبتة، هي أن وزن المخ في تناسبه مع حجم الجسم وطوله، يُعطي صورة عن ذكاء الإنسان، وهذه المعلومة في مصلحة المرأةِ لأن التناسب يجعل عقل المرأة هو الأكبر. وبهذه الفرضية، يمكننا الزعمُ «قياساً» بأن المرأة أذكى من الرجل، وبذا يَرْتَدُّ الفهم الذكوري لصدر قائليه. ولكنَّ القضية ليس إثبات تفوق جِنس على الآخر، إنما هي دحض كل الدعاوى العلمية الزائفة التي تريد تكبيل المرأة في قالب أدنى من مرتبة الرجل.

إن محاولة البعض تطويعَ العلم لتبرير الممارسات غيرِ المنطقية للفكر البرجوازي عن المرأة، هي من فصيلة البحوث والإحصائيات «العلمية» نفسها، والتي تقرر أن الجنس الأبيض أذكى من سواه، وأن الزنوج يمتلكون عظاماً غليظةً تؤدي بنضوجها المبكر، إلى حرمان المخ من النموِّ، مما يُؤَدِّي إلى أن يتصف الزنوج بالغباء.

بعد فشل أصحاب هذه الفكرة في إثبات ضعف ذكاء المرأة، وقلة عقلها، خرجوا بادِّعاءٍ جديدٍ فحواه أن الذكاء بين الجنسين ،بصورةٍ عامة، لا اختلاف فيه، ولكنْ في تفاصيله نجد فروقاً واضحة بين الجنسين. فالرجل يتميز بالذكاء الاستدلالي على المرأة، فيما تتفوق المرأةُ في ضروب أخرى من المقدرات العقلية، مثل النظامِ، والدقة. فتفوُّق الرجل في الذكاء الاستدلالي، يجعله أكثر مقدرةً على تحليل الواقع والظروف، واستنتاج

القيم والمفاهيم الجديدة. لذا فهو أقدرُ على فهم الواقعِ، وأكثر استيعاباً لتجارب الحياة، لذلكَ تُصبحُ هيمنتُهُ على الحياة العَامةِ وَضْعَاً مَنطقيّاً وطبيعيّاً. أما امتيازات المرأة العقليةِ، فتؤهِّلُها لإدارة المنزلِ، ورعاية أطفالها باعتباره الوضع المناسب لملكاتها العقلية. كما نلاحظ، فإن هذه النظرية هي محاولة لإضفاء العلمية والمنطق على الواقع الاجتماعي.

لم يعش هذا الرأي طويلاً، فقد هاجمه علماءُ النفس بصورة مكثفة، ليس دفاعاً عن المرأةِ ولكنْ انتقاداً للفهم الخاطئ غير العلمي عن الذكاء. إذْ لا يمكن تحليل الذكاء لأنواعٍ إلا على منضدة الدراسة والتحليل، بحيثُ لا نستطيع التعامل مع أي وحدة بصورة منفصلةٍ، واعتبارها تُمثِّل نوعاً أو ضرباً من أصناف الذكاء. فالذكاء وحدة متكاملةً، فمثلاً إذا تحدثنا عن الاستفادة من أحداث التاريخ، واستنتاج المقولات منها، لا يمكن أن نطلق عليه صفة الذكاء الاستدلالي، بل هي مجموعة من المقدرات الأولية، يُعَدُّ الاستدلالُ جزءاً منها يتكامل فيها الإدراك والاسترجاع وغيرها، لتتجمع كلها في وحدةٍ متجانسةٍ تُقدِّم للإنسان أداةً يستفيد منها في تعامله مع الطبيعة.

قد يتفوق الإنسان في أحد المقدراتِ، وذلك نتيجةً للاستعمال المتواصل لها، وامتلاكه مَفاتيحَها، وهذه المقدرة تأتي بالتدريب والتعلُّم، وليس بالفروق الجنسية. أما الحديث عن تطور مقدرةٍ ما على حساب بقيَّةِ المقدراتِ، فإنه ليس بامتيازٍ، بل هو اختلال يُضرُّ بصاحبه. فإذا افترضنا جدلاً أنَّ فرداً ما يتَّصف بقدرته الاستدلاليةِ، فما جدواها إذا لم يواكبها تطوُّر في بقية القدرات ؟ وكذلك الذي يملك قدرة استدلالية وتضعف لديه إمكانية استرجاع التجارب، أو تَقلُّ عنده سرعة الإدراك أو ضعف مقدرته في التصور!، بل يمكننا القول إن القدرات غير المتوازنة تضر بصاحبها، ويجعل إمكانية استفادته من مقدرةٍ ذكائيةٍ يتفوق فيها بصورة منفردة، شبهَ معدومة لأن الأساس هو تجانسٌ هارموني بين كل المقدرات.

لا يشك علماء النفس في اختلاف مقدرات الأفراد العقلية، وتفوق مقدرة

فرد على الآخر، لكنَّ هذا لا يعني ضعف بقية الإمكانات، وذلكَ لطبيعية عملها التكاملي. لذا يصبح الحديث عن التفوق في المقدرة الاستدلالية، حديثاً فجاً عديمَ المعنى.

يحاول بعض العلماء الحديث عن الاختلاف بين الجنسين في استقراء الواقعِ، ووضع قوانين عامة تحكم حركة الجنسين. لذا نجد خطأً يؤمن بأنَّ للرجل مقدرةً فطريةً تجعله مهيأ للحرب والقيادة والسياسة والأعمال التي تحتاج لمجهود عضلي وذهني، أما المرأة فلها مقدرة التفوق في الأمور العاطفية والإنسانية والأعمال المتصلة بهما، والتي تفتقر إلى أي مجهود عضلي وفكري، وتفوق في التعبير.

نلاحظ أن المقولة السابقة رغم القبول الكبير الذي وجدته، إلا أنها تعاني خطأً منهجياً كبيراً وذلك باستنادِ النظرية السابقة على العلم الإحصائي، وقراءة الواقع دون تكليف أنفسهم عناء الغوص في هذا الواقع، أو تحليل الأرقام الإحصائية. كما أن هذه النظرية قد خلطت بصورة واضحة وساذجة بين القدرة والاستعداد، وهو اختلاف جذري بين المعنيين يؤدي لفهم متناقض مع الواقع.

باستعداد فرد محدد لاكتساب خبرة في مجال ما، لا يعني «أن مقدراته في هذا المجال أكبر من سواها. وهذا لا يعني أنَّ مقدرة الرجل في الإدارةِ، نتيجةً لاستعداده الفطري للإدارة ،وبالمنطقِ نفسه، لا يعني إجادة المرأة لأعمال الطهي. فعيب هذه النظرية كما نرى، هو التعامل مع الإنسان خارج إطاره التاريخي، وظرفه الاجتماعي، حيث يتعامل مع الظاهرة كحقيقة موضوعية دون النظر إلى الأسباب التي أفرزت هذه الظاهرة. أي أن القانون لم يستند على تحليلٍ منطقي للواقع، بل وضعَ الواقعَ كما هوَ، وصارَ يُفَصِّلُ عليه أحكامه.

من عُيوبِ العلم الإحصائي، أنَّهُ يُقدم أكبر مجموعة من الاحتمالات التي تقع في إطارٍ يحكم البقيةَ، وينطبق على الجميع في كل زمانٍ ومكانٍ

بغض النظر عن المجموعة التي تقع خارج إطاره، أو الإطار التاريخي الذي يحكمها.

نلاحظ اليوم تناقضاً بين هذا القانون الإحصائي ووَاقع اليوم، ليس في العالم فحسب، بل حتى لدينا في السُّودانِ. فقد اكتسحت المرأة مجالات الطب والهندسة والحسابات والعلوم «مجالات التفوق الذهني»، بل كادَتْ في الجامعات السودانية أن تتساوى في عدد الفرص، دون فوارق بين الجنسين. وقد يدافع البعض بأن هؤلاء من النساء حادَّات الذكاء شاذات، والشاذ لا حكم له، ولكنْ أي شذوذ هذا الذي يصبح قاعدةً عامةً وظاهرةً تتكرر على مدى سنواتٍ طوال؟.

أما في الجانب الآخر، فأن وجود المرأة في مجالات الإبداع اللغويِّ، من شعر ونثر وقصة، يُعَدُّ ضعيفاً جداً. فإذا صدقنا جدلاً بتفوق الاستعداد الفطري للمرأة في التركيب اللغوي، لا نجد تبريراً لعدم تطابق تلك المقولة والواقع، إلا بالاستناد على الفهم الاجتماعي الذي يفرض على المرأة عدم التصريح بمشاعرها وأحاسيسها، بالإضافة إلى ضعف مشاركتها الاجتماعية، والتي بدورها، تُقلِّل من فرص إثبات ذاتها في مجال الآداب. وعليه، إذا رَضِيَ المدافعون عن هذه المقولة بهذا التبرير، فإنَّنا نكون قد هدمنا المقولة الأولية من أساسها، لأننا بهذا نثبت أن الاستعداد الفكري هو مجرد إمكانيةٍ يساهم التَّنوع الثقافيُّ، والحضاريُّ في تشكيلها، سلباً وإيجاباً، ويصبح الاختلاف في المقدرات الفعلية بين الجنسين ،إن وجد، ليس ذا أثرٍ إلا بمقدار الاختلاف في النظرة الاجتماعيةِ تجاه كلٍّ منهم. إذن، فالقضية ليست إمكاناتٍ فطريةً، بقدر ما هي عوامل اجتماعية بيئية. فليست هي إمكانات الرجل التي أتاحتْ له الفرصة أن يتبوأ وضعاً اجتماعياً مميزاً، بقدر ما ساهم المجتمع الذكوري في إعطاء الرجل فرصة التعبير عن مواهبه وإمكاناته، بينما ساهم في قمع كل إمكانات المرأةِ، ليحبسها أسيرةَ العمل المنزلي.

إن الذكاء ليس قيمة فطريةً، بل ولا ينبغي لها أن تكون، فلا يوجد عقل وذكاء بمعزل عن المجتمع، كما لا يوجد فكر أو ذكاء مجرد من الإمكانات والمقدرات المكتسبة. فأي نظرية تقيس مستوى التطور أو المقدرة العقلية لأيِّ فردٍ بمعزل عن الثقافة والبيئة والمفاهيم العامة، لا يمكن أن تكون نظرية علمية، بل لا يمكن الاعتداد بها، والاعتراف بوجودها أصلاً.

فلا يمكن أن تتضمن اختبارات الذكاء لطفل عاش في الاسكيمو، أسئلةً عن الصحراءِ، والنخيل. أو نسأل طفلَ المناطق الحارَّة عن جبال الجليدِ، وطائر البطريقِ، وهي أشياءُ لم يسمع عنها، ولم يدرسها. فمقياس الذكاء العامِ يعتمد على المعلومة التي يستطيع أن يحصل عليها أيُّ فردٍ محدَّد في مجتمعٍ ما تُجْرَى فيه هذه الاختباراتُ، حيث لا ينفصل عن الخبرة الحياتية اليومية التي يقابلها. ولا يمكننا أن ننسى أنه حتى الأسئلة تكون بلغة معلومة للطفلِ المُخْتَبَر بالأسئلةِ، وهذه كلها تجارب مكتسبة لا يمكن عزلها لقياس ذكاء فرد بمعزل عن لغته أو خبرته الحياتية. كما أنَّ هنالك عاملاً هامّاً لقياس الذكاء ألا وهو الحماس والاستعداد النفسي في لحظة القياس، مع مراعاة وضعه الصحي والاجتماعي.

إذن لا يمكن قياس ذكاء فرد دون مراعاة واقعه وبيئته، ومدى احتكاكه مع خبرات الحياة اليومية. فلا يوجد ذلكَ كمعنى مجرد بمعزل عن الواقع الموضوعي الذي يتعامل معه، ويكتسب منه الخبرات لزيادة إمكاناته العقلية. لا يخفى علينا أنَّ عزل المرأة من الحياة الاجتماعية، وقلة فرص الاحتكاك والتعليم، قد ساهمتْ جميعها في جعل قطاعات كبيرة من النساء لا تجد فرصة كافية لتنمية مقدراتها العقلية.

وعلى الرغم كل المفارقات في مفهوم الذكاء ومقاييسه، إلا أنَّ العلم الحديث لم يستطع حتى الآن إثبات تفوق الذكور على الإناث في مقدراتهم العقلية، بل الواقع يعكس تكافوءاً نسبياً يتناسب مع الفرص المتاحة لتعليم المرأة، مع الحرية الاجتماعية النسبية التي تعيشها المرأة، ويمكننا

ملاحظة التفوق في إمكانيات النساء، كلما ازدادت فرصهنَّ في التعليم والاحتكاك بالحياة.

إذن، يمكننا القولُ إنَّ الذكاء ،كمقدرة عقلية في صورته المجردة، لا يوجد إلا في أذهان العلماء والباحثين، و على هذا المستوى يتساوى العقل الأنثوي مع العقل الذكوري، حيث يكمن الاختلاف على المستوى الفردي اعتماداً على مدى الحرية الاجتماعية التي يعطيها المجتمع للفرد في استغلال إمكاناته. فلا يعقل أن نحاكم المرأة ونعدَّها ذات استعداد فطري وذكاء يناسب الأعمال المنزلية، بينما يفرض المجتمعُ عليها سيف القهر والتسلط والحرمان من كل ضروب الثقافة، وصور الاحتكاك بالمجتمع، ويطالبها بأن تكون أحسن مما هي عليه. فمن المنطقي أن تجد نفسها في المكان الذي يكافئ واقعها المستلب، وإمكاناتها المقهورة. فلا يعقل أن تُحرم المرأة من تنمية ملكاتها، ثم نحاكمها بذلك. لذا إذا كان المجتمع منطقياً في بحثه عن التوازن، فَلْيمنح المرأة واقعاً اجتماعياً أفضل، وفرصة حركة أوسع، ثم يأتي متسائلاً عن مقاييس الذكاء إن وجدت.

فمثل هذه المقولات قد تجاوزها الزمن والواقع على مستوى العالم، حيث عفا الزمن عن الحديث عن تدني ذكاء المرأة، بل أصبح واقعنا المحلي يكسب «يومياً» أرضاً جديدةً، مثبتاً أن المرأة لا تقل ذكاءً عن أي رجلٍ، إلا على مستوى الاختلاف بين أي فرد وآخر.

جدير بالذكر في هذا المقام، أن نشير إلى أنَّ قضية البيئة والواقع الاجتماعي وأثرها في معدل الذكاء، قد وجدتْ دفعة قوية على يد سنكيلر(١٩) الذي أجرى بحثه العالمي دَارساً أثر البيئة على ذكاء الفرد، فكانت تجربته كالآتي:-

أحضر مجموعتين من الأطفال (أ) و(ب)، ثلاثة عشر طفلاً لكل مجموعةٍ، حيث يتماثل أفراد المجموعتين وذلك بأنهم يعانون من تخلف عقليٍّ، ونسبة ذكاءٍ منخفضةٍ، وكلهم يعيشون في أحد الملاجئ.

قام سكيلر بتوزيع كل أطفال المجموعة (أ) إلى أسر بديلة، أو ملاجئ بها نظام رعاية أسرية، وترك أطفال المجموعة (ب) كما هم في الملجأ. وجد بعد واحد وعشرين عاماً أن المجموعة (أ) قد اكتسبت زيادة في متوسط ذكائها، ما يعادل (٢٥,٨) نقطة، بينما وجد أن المجموعة (ب) قد فقدت في المتوسط (٢٦,٢) نقطة. كما وجد أن الحد الأدنى للمجموعة (أ) في المستوى التعليمي هو الصف الثاني عشر، ولم يكن أيٌّ منهم في مؤسسة لضعاف العقول. وصل أربعة منهم مستوى أولى جامعة ،وواحد أكمل الجامعة، وواحد حصل على دراسات عليا، وكلهم كانوا يعولون أنفسهم. أما المجموعة (ب)، فكان الحد الأقصى التعليمي هو الصف الثالث، وكلهم في مؤسسات لضعاف العقول.

لا تحتاج تجربة سكيلر إلى شرح أو توضيح، لأنها تعكس بجلاء دور البيئة في تنمية الملكات الفطرية وتطورها، باعتبار أن العلاقة بين العقل والبيئة علاقة جدلية لا يمكن أن نفصل أحدهما عن الآخر.

كما ذكر فاين(٢٠) يمكننا القول إن العلم الحديث لم يثبت أيَّ فارقٍ تركيبيٍّ في المقدرات العقليه والذهنية بين الجنسين. وعلى الرغم من هذا، يطرحُ التساؤل نفسه، وهو ، إذا كان ذلكَ كذلكَ، فلماذا تختلفُ شخصية المرأةِ عن شخصيةِ الرجل، ومن أين أتى هذا الاختلاف ؟.

نَمَطُ الشّخصيّةِ، ووَاقعُ المرأة

يتحدث العلماء عن أنه حتى ولو اتفقنا على مساواة المرأة التركيبية، لكنَّنا نُواجَهُ ببعضِ السمات الأقرب إلى شخصية المرأة، أكثر من قربها إلى شخصية الرجل. فقد أصبح مقبولاً لدى المجتمعات والمحافل العلمية كُلِّها، أن المرأةَ ذات شخصيةٍ تتصف بالرقةِ والعاطفية، بينما تتصف شخصية الرجل بالعمليةِ والعنفِ الذي لا يختلف فيه اثنان. فهذه السمات ليست قانوناً حتميّاً تتصف به كل النساء، وكل الرجال. هذاالتباين والتدرج في وجود هذه السمات من عدمها، وعدم ثباتها، وقابليتها للتغيير مع الزمن و

المواقف، يجعلها سمات مكتسبة.

إذن، لكي نفهم السمات العامة التي تشكل شخصية المرأة، علينا النظر إلى هذه العوامل، وقراءة مدى تأثيرها. هناكَ نظرياتٌ متباينةٌ في هذا المضمارِ، سنحاول هنا التطرق لعدد محدود من هذه العوامل المؤثر في تشكيل شخصية المرأة.

(١) أَثَرُ الشّكلِ المَلامحِ في الشّخصية

قامت كثير من الدراسات تَبحثُ في معرفة شخصية الإنسان من خلالِ شكلِهِ وملامِحِهِ، ومحاولة معرفة تكوين الفرد النفسي على حسب تكوينه الظاهريّ، من طُولٍ وقِصرٍ وبدانةٍ، حيث وَرَدَ أنَّ الطويل يكون متميزاً بالانطواء، والاكتئاب، والبدين يكون اجتماعياً طيباً، أما الرياضي فيكون عدوانياً يميل للسيطرة، وهذه النقطة استند عليها البعض كحتميةِ سيطرة الرجل على المرأة. أثبتت الإحصائيات والواقع أن هذه الافتراضات ليس لها أي سند من الحقيقة، وهي لا تخلو من جانب أسطوري ضاربٍ في القِدَمِ، متأثرٍ بتقسيم هيقراط الذي قسم الناس إلى أربعة أقسام، وجعل كل قسم يتميز بصفات محددةٍ على مزاجه العام الذي يعدُّ أن أحد المواد هي الطاغية في تكوين هذا الجسم. فالطراز الدموي متفائلٌ متقلبُ الأهواءِ، والصفراوي قوي الجسم طموح، حاد الطبع سريع الغضب، والسَّوداوي كثير الوجوم والتشاؤم، يجد الناس صعوبة في التعامل معه، أما الليمفاوي، فَبَدِيْنٌ يميل للشَّره. وكما ذكرنا، هذا الفهم الأسطوري أصبح خارج التاريخِ، لكنه يشكل جزءاً من وعي بعض الناس. كما أنَّ المستخدمينَ الأساسيّينَ لهذا التصنيفِ، هم المنجمونَ، وأصحاب الأبراجِ، وحظك اليوم، ويجد قبولاً عند كل المؤمنين بهذا العبث.

إن تقسيم شخصية الفرد استناداً على الطول والقصر والبدانة، يغفل عاملاً بسيطاً هُوَ أن هذه الصفاتِ مكتسبةٌ ومتغيرةٌ، وليست ثابتةً في حياة الإنسان. فهيَ تعتمد على الوراثة، والبيئة، ونوعِ الغذاء، والمجهود العضلي.

فهل نستطيع القول إنَّ التغيير في وزن أي فرد سيقابله تغيُّرٌ في شخصيتِه ؟. يمكننا أن نقول إن التقسيم الذي يعتمد على التكوين الجسمي لقياس نوع سلوك الفردِ، هوَ مُجرَّدُ خرافةٍ، ويعيشُ خارج التاريخ الآن.

في القرن التاسع عشر انتشرت النظريةُ الآيضية، أو نظرية استهلاك الطاقةِ، حيث جاء فيدس وتومسون بنظريةٍ تؤكد أن جسد المرأةِ يقوم باختزانِ الطاقةِ، لذا فهي مترهلةٌ، وأضعف من الرجل، وأقل نشاطاً، بينما الرجل بُنِيَ جسدُهُ على حرق الطاقة، مما جعله أكثر نشاطاً وحركة ورغبة في العمل والتغيير. استناداً على هذه النظريةِ، ساد الفهم بعدم صلاحية المرأة للإدارة، وأَنْ ليس لها مقدرةٌ على فهم الحكم والسياسةِ، لذا صارَ من الضرورةِ حمايةُ المجتمع بحرمانها من التصويت والانتخاب والعمل. ورغم أن مثل هذه الآراءِ المتطرفةِ ليس لها وجودٌ في عالمنا اليوم، إلا أنه تظهرُ كل فترةٍ وأخرى نظريةٌ جديدةٌ تستند على محاولة إثبات أن المرأة فيها ضعف تكويني يجعلها أقل من الرجل، وللغرابةِ دائماً ما نجد مَنْ يتقبلها ويؤيدها بلا تحفظ.

بعض علماء النفس وضعوا فرضية ارتباط التركيبةِ الجسديةِ بِسِمَاتٍ شخصيةٍ محددة،حيث قسَّموا السِّماتِ الإنسانيةَ على طرفي نقيضٍ على طرفيْهِ، الرجلُ، وسميت سماتُه musculinity أو العضلية من جانب، و على الطرفِ الآخرِ، وُضعت المرأةُ femininty أو الأنثوية.

ففي طرف العضلية، نجد سماتِ القوة، والسيطرة، والاستقلالية، والحزم، والشجاعة، والابتكار... إلخ، بينما في طرف الأنثوية، نجد سمات العاطفية، والرعاية، والتعاون، والضعف. والمُلاحظُ أن معظم الأبحاث قد هدمت الفكرةَ التي في أذهان المجتمعِ، بوجود ذكرٍ نقيٍّ بسماتٍ ذكوريٍ، وأُنثى بسماتٍ أنثويةٍ، بل وُجِدَ أن هذا أقرب للاستحالة، إذ إنَّ كل إنسان تتداخل فيه سمات من الطرفين، فليس غريباً ان تجد رجلاً ترتفع فيه سماتُ الرِّعايةِ، والاهتمامِ، وتقلُّ فيه سماتُ القوةِ. بينما هناكَ

امرأة ترتفع لديها سمات الحزمِ، وتقل فيها سمات الضعف. فالنقطة المهمةُ هنا، هيَ أن علماء النفس قد توصلوا لحقيقةِ أن كل هذه السمات مكتسبةٌ، والمجتمع هو الذي يساهم في زراعتها وغرسها في الأطفال، ليجعل لهم سماتٍ أكثرَ رجولةً أو نسوية.كما أن هذه السمات في ذاتها، ليس لها لون أو صبغة جنسية. فهي قابلةٌ لِأنْ يتبناها الرجل أو المرأةُ دون أن تنفي تصنيفه الجنسي. وعليهِ، يمكننا القول إن العلم لم يجد أي علاقة تركيبيةٍ، ونمطيَّةٍ للشخصيةِ، يمكنها تفسر أدنى اختلاف ،في الشخصية، بين الجنسين.

(ب) أثرُ التركيبةِ الهرمونيةِ في الشّخصية

يوضح العلم الحديث أنه لا يوجد رجل مطلق أو أنثى مطلقة، بل يوجد في التكوين البشري جزءٌ من الآخر، وتتحكم الصفة الغالبة لجنس الوجود. فكل رجل به كمية من الأنوثة والعكس صحيح. حيث نجد كميةً من الهرمونات الذَكريَّة عند الأنثى، و قَدْراً كبيراً من الهرمونات الأُنثويَّة عند الذكر، وهذا الاختلاف في التركيب الهرموني، جعل البعض يفسر بأن السيطرة والتسلط الذكوري، هما نتاجٌ طبيعي لازدياد كمية الهرمون الذكوري عند الإنسان. فقد أُجريتْ عديد من التجارب لإثبات هذه النظرية، وأكثرها شهرة هِيَ التي قام بها بعض العلماء بحَقْنِ إناث الفئران بهرمونات ذكورية، ووضعوها تحت الملاحظة. وقد رصدوا تأثيراً واضحاً، إذ أصبحت الإناث أكثر عدوانية.

وهناك علماءُ آخرونَ قاموا بتجربة أخرى لإثبات فرضياتهم، حيث لاحظوا أن الفئران من سلالة الفأر النرويجي، والتي تُعرف بالفئران المتوحشة، أثبتت الفحوصاتُ التشريحية تضخُّماً ملحوظاً في غددها الكظرية التي تفرز موادَ ترتفع وتزدادُ عند التَّعرُّضِ لعمليتي الخوف والغضب، وتعدُّ هذه التجربة سنداً قوياً للزعم القائل بسيطرة العمليات البيوكيميائية على سلوك الإنسانِ، ووضعه تحت رحمة إفرازه

البيوكيميائي. فهذه النظرية قد وجدت صدى قوياً في المجتمع الذكوري، وقد بلغ التَّفاؤلُ والحماسُ مداهُما لدى بعض العلماء، عندما جعلوها الأساس لحركة الإنسان والتاريخ، وذلكَ حينما ضربوا مثلاً بأن التغيير الذي حدث في حملة نابليون لروسيا، يرجع لقصور عمل غدة نابليون النخامية، فَلَو تعاطى علاجاً لهذا النقص، لتغيَّرَ «حتماً» وجهُ التاريخ. ولكننا، لا نحتاج إلى توضيح سذاجة هذا التحليل للتاريخ الذي يهمل دور الظروف الموضوعية التي حددت مسار تلك الحملة، ليصبح التاريخ مجرد مرآة لمدى زيادة ونقصان الهرمونات.

تناسى هؤلاءِ العلماءُ أن الاختلاف بين الإنسان والحيوان، ليس اختلافاً بسيطاً، بل له جذوره الإجتماعية والثقافية، وأنَّ تأثير الهرمونات عند الحيوانات ،إذا كان يشكل سلوكه، فإن أي فعل للإنسان يمر بمراحل معقدة من التحليل الاجتماعي والثقافي، قبل أن يبرز لحيز الوجود. لذا يصبح الحديث عن التأثير الهرموني للحيوانات، غيرَ مُنطبقٍ ،بصورة ميكانيكية، على الإنسان. فإذا افترضنا جدلاً بأن التأثير البيوكيميائي هو المحرك للنشاط الإنساني، وأن الغضب هو نتيجة لازدياد إفرازٍ محدودٍ في الغُدَّة، يَحقُّ لنا أن نتساءل: كيف تحدث الاستجابة للمؤثر المحدد؟ فإذا كانت عمليةَ انعكاسٍ، وردَّ فعلٍ مُنْعكسٍ مُبسَّط، كما يحدث عند الحيوان، فإننا نجد تفسيراً لماذا يغضب أحدهم في موقفٍ ما، بينما لا يُثير عند الآخر أيَّ انفعال؟

هل الاختلاف بينهما، أن الثاني يعاني نقصاً في الهرمونات؟ وهل تصبح صفات التسامح وضبط النفس هي ردود فعل نتيجة لنقصٍ في الهرمونات؟

نلاحظ أن هذه النظرية قد تجاهلت دور الوعي والثقافة في تشكيل شخصية الفرد، وهما من المكونات الأساسية للإنسان، والتي تجعل ردود فعله تختلف عن الحيوان. فالحيوان يحكمه قانون الانفعال البسيط، أما الإنسان، بوَصْفِهِ حيواناً اجتماعيّاً، فيقوم وعيه بالتعامل مع المؤثرات،

وإفراز ردود فعلٍ تتوافق مع وُجُوده في مجتمع تحكمه أعرافٌ وثقافة. فحين يُشبعُ الحيوانُ غريزتي الجوع والجنسِ كيفما اتفقَ، دون وازعٍ محدَّد، إلا أننا نجد الإنسان يعبر عن هذه الغرائز كسلوك اجتماعيٍّ، تحت ضوابطَ ثقافيةٍ وفكرية محدَّدة. وهُنا يَحْضُرُنا قَولُ علماء الأجناس، إن بعض القبائل الأفريقية إذا تخاصم بعض أفرادها، حملا عصاتيْن وذهبا سوياً ليضربا معاً أيَّ جسم صلب أو شجرةٍ، لتفريغ شحناتِ انفعالاتهما، وكما ترى فهي صورة اجتماعية محددة للتعبير عن الغضب، دون أن تؤثر في العلاقات بين أفراد القبيلة. كما نرى أنه لا يمكن فصل السلوك الإنساني من وجوده الاجتماعي وإرثه الثقافي، حتى لو كان هذا الإرث ضد الانفعال الذاتي للفرد، ونلاحظ أن الانفعال ،بوصفِهِ قيمةً مجرَّدةً، يتم التعبير عنها حسب التغير والتطور الثقافي ما نلاحظه في انفعال الغضب حيث يختلف رد الفعل على حسب وعي الفرد وثقافته، مثل اختلافه عند فرسان القرون الوسطى ، وإنسان القرن العشرين.

قام نفر من العلماء بوضع الفأر النرويجي المتوحش في المعمل، وأُخضع لتمارين كثيرة، ودروس ترويض وتهذيب، وقد تَوصَل هؤلاء العلماء إلى نتائج مدهشة مَفادُها، أنَّ الفأر المتوحش صارَ حيواناً وديعاً، تقلَّ،صت فيه كمية الميول العدوانية إلى درجة بعيدة. ويمكننا ملاحظة ذلك عند ترويضنا الحيوانات المفترسة لتصبح أليفة. كل هذه النماذج تعكس بوضوح أن التكوين البيولوجي، يمكن أن يوضع تحت مفاهيم، وتقاليد لتعبر عنه بالطريقة المقبولة اجتماعياً.

يورد بعض العلماء ،في محاولة لإثبات سيطرة الهرمونات على الفرد، التغييرات التي تحدث في مراحل التغير الهرموني في المراهقة، وسن اليأس. حيث يُلاحظ أن الطفل الذكر، وهو على أعتاب المراهقة، يصبح أكثر عدوانية ومشاكسة، ويعزى هؤلاء العلماء هذا التغير إلى ازدياد الهرمونات الذكورية. نحن لا ننكر التغير السلوكي الذي يحدث للمراهق،

لكنْ في الوقت نفسِهِ، يحدث هذا التغيير السلوكي للبنتِ المراهقة على قدر المساواة مع المراهق، ليصبح الاثنان (المُراهِقَانِ) أكثر انفعالاً وميولاً للإثارة. لكننا لا نؤمن بأن هذا التغيير ناتِجٌ عن التغيير الهرموني فقط، إلا وتجدنا قد عمَّمنا توقعاتنا بأن يتصف به كل المراهقين دونَ اختلاف أو تمييز. فالملاحظ أن فترة الانفعال هذه، هي فترة زمنية محددةٌ، بعدها يدخل الفرد في مرحلة النضج أو البلوغ. ولنا أن نسألهم: طالما أنَّ الإفراز الهرموني مستمرٌ، فما الذي يجعل المراهق يتجاوز هذه المرحلة ليصل إلى بر الأمان؟ وكيف يستطيع أن يتجاوز هذا الحصار الهرموني ليصل إلى مرحلة البلوغ؟، ولماذا لا يمر بعض الأطفال بسلوك المراهق؟ وهل لأنَّ الهرمونات لم تَزدْ أم ماذا؟

إذاً، لابد من وجود إمكانية للإنسان تجعله لا يعيش تحت هذا الغطاء البيولوجي، وتحت حتمية هرمونية تشكل سلوكه.

المراهقة كمرحلة ليستْ ظاهرة هرمونية فقط كما حاول هؤلاء العلماء طرحها، بل هي مرحلة وسطية، وحالة تأرجح بين الطفولة والبلوغ، بين التبعية والتفرُّد. حيث يعيش الفرد مرحلتين، إذ يَشدُّه إرثه الطفولي الذي يحمله، والمستقبل الناضج المنفتح أمامه، فيحاول التوفيق بينهما، مما يخلق هذا التوتر الانفعالي الذي يعيشه المراهق.

ينشأ الصراع بين الرغبات الجديدة، والقيود الاجتماعية التي تحدد كيفية التعبير عنها، كما يَتَولَّدُ الصراع بين محاولات إثبات ذاته كرجلٍ، مع نظرة المجتمع له كطفل كبير. ولا ننسى الصراع بين طموحه وذاته المتطلعة، مع الإمكانات الضيقة التي يقابلها به المجتمعُ، كما يجب ألا ننسى الرغبة الذكورية التي يخلقها المجتمع في عقل الطفل المذكر، بإثبات شخصيته كرجل له السيطرة والأمر والنهي، والتي تجعل شخصيته مَصْبوغَةً برغبة نزوعية نحو التسلط. كل هذه التناقضات تفرز كمية من الانفعالات المتباينة، تشكل شخصية المراهق.

إذاً، المراهقة رغبة نزوعية نحو تحقيق وضع اجتماعي، أكثر من أن تكون دافعاً بيولوجيّا. هذه النزعة تختلف بين الأنثى والذكرِ باختلاف الفهم الاجتماعي لدور كلٍّ منهما، وليس لاختلاف نوع الهرمون، مع ملاحظة الحرية الاجتماعية التي تعطي المراهق فرصةً أوسع، لتظهر هذه الانفعالات والتناقضاتُ، بينما لا يَسمح القمع الاجتماعي بِظهورها عند المُرَاهِقَةِ إلا في حدودٍ ضيقة.

من الحقائق المُسَلَّمِ بها، أن الهرمونات الأنثوية تبدأ في الانخفاض في العقد الخامس من عمر المرأة، وهي مرحلةٌ تَعارفَ عليها باسم «سن اليأس»، ويدعي بعض العلماء أن سبب ظهور بعض أعراض الفتور، وحدة الطبع، وكثرة الشكوى، تأتي كلُّها نتيجةً مباشرة لقلة الهرمون الأنثوي الذي كان يساهم في تشكيل شخصية المرأة ورقتها، لذا فإن نقصان هذا الهرمون يؤدي لظهور أعراض بعيدة عن الأنوثة والرِّقة.

أمَّا الطب فيعُدُّ «سن اليأس» وما يصاحبها من اكتئابٍ، هي مرض نفسيٌّ أكثر من كَوْنِهِ مرضاً عضوياً كما حاول البعض إثباته، بل إن محاولة العلاج التعويضي بتقديم هرمونات لم تُقدم أي تحسُّنٍ في الحالة العامة، كما هو واضح من التسمية التي ينظر بها المجتمع للمرأة. فكلمة «سن اليأس»، تعكس بوضوحٍ الفهمَ الساذج للمرأة، حيث يتمُّ التعامل مع المرأة مع انتهاء دورها في الإنجابِ، بوصفه نهايةً لدورها في الحياة، وهو انعكاس حقيقي لمفهوم المجتمع عن المرأة باعتبارها أداةً بيولوجيةً لِإنتاج الأطفال، لذا يصبح عدم مقدرتها على القيام بهذا الدور، هو تغذية شعورها بأنها أصبحت غير مرغوبٍ فيها. وهذا الإحساس يُغذي بعض السلوك شعورياً كان أو لا شعوري من جانب الزوج، عندما يتعامل معها كمن انتهت وظيفته وجاذبيته كأنثى. لذا يصبح الصراع الحقيقي داخلَ المرأة التي شُكِّلت لتكونَ ماكينة تفريخٍ، وغُذِّيَ وَعْيُها بهذا الفهم، عندما تفقد هذه المقدرة. ولا نحتاج أن نقول إنَّ التسمية وحدها كافيةٌ لأن تُمثِّل حكماً بالإعدام على المرأة.

إن التركيب الهرموني باختلاف تأثيره صعوداً وهبوطاً في مرحلة المراهقة، وما يعرف ظلماً بسن اليأس، ليس هو المسبب الرئيسي للاختلافات والتغيرات الحادثة في سلوك الفرد، إنما هي تفاعل طبيعي بين تركيب الفرد البيولوجي، والقيم الحضارية والثقافية التي تحكم الفرد والمجتمع. وعليهِ، مهما كان تأثير التغييرات الهرمونية في الجسم، فهي ليست العامل الحاسم في سلوك الإنسان وتصرفه، لأنها قد تُحدِّد قابلية الإنسان للسلوك، ولكن حتماً لا تسيطر عليه، ولا تلغي عوامل التجربة، والعقلِ، والإرادةِ الذاتية.

(ج) أثرُ الجانبِ النَفسيّ في الشّخصيّة

يُعَدُّ سيغْمون فرويد(٢١) أحد دعامات علم النفس، وقد أثَّرتْ مدرسة التحليل النفسي الذي هُوَ مؤسسها، على علم النفس، وقدمت له مادة خصبة، بل يمكننا القول إنه لا تستطيع أي مدرسة جديدة في علم النفس أن تقومَ دون أن تضع رأياً محدداً في مدرسة التحليل النفسي، تأييداً أو معارضة.

رغم النقد العنيف الذي تعرَّض له فكرُ فرويد، جَعْلِ مذهبه أقرب للمرحلة التاريخية التي تجاوزها علم النفس، لكنْ نظراً للأثر الكبير الذي أفرزه هذا الفكر على الواقع الذكوري دفاعاً عنه، وتبريراً لمقولاته، يجعل التعرض له، ونقد مفاهيمه، ضرورةً حتمية حتى نزيل الادعاء بعلمية الفهم السيكولوجي، ومنطقيته لواقع المرأة.

تعتمد فلسفة فرويد بصورة مبسطةٍ على نظريةٍ تقول: إنَّ الإنسان يعيش في مستويين، مستوى الذات الاجتماعية التي تطورت من أصلها الحيواني، ولها رغباتها الفطرية، وتحركها رغبة الحياة واللذة، والابتعاد عن الألم، وهي أنانية في تكوينها، يُقابلها في المستوى الآخر، الذاتُ العليا التي تشكَّلت نتيجةً للواقع الاجتماعي بقيوده، وقوانينه التي تسمح بتحقيق رغباتٍ محدودة، وتحجر البقية التي تتعارض مع الأعراف والتقاليد الاجتماعية، هذه الرغبات الممنوعة بفضل الذات العليا أي

منطقة اللا وعي، أو ما يعرف باللاشعور، ويمثل اللاشعور حجر الزاوية لمدرسة التحليل النفسي، ففيه توجد كل الرغبات الممنوعة والمكبوتة التي لو انكشفت، أو انطلقت من عقال الذات العليا، لرأينا إنساناً مسعوراً لا يعرف معنى الأعراف أو الأخلاق الاجتماعية. وهذه الرغبات المكبوتة لا تكون في مرحلة سكون خاضعة للذات العليا، بل تكون في حركة دائمة في محاولة للتحايل والظهورِ، رغم حصار الذات العليا التي تمثل الأخلاق العامة. فمقدرة الذات العليا في كبت هذه الرغبات أو فشلها، هو المعيار الحقيقي للتطور النفسي للفرد. ويُشيرُ فرويد إلى أن تطور الفردِ يُقاس بمقدرته على تجاوز مناطقِ كبتٍ مُحدَّدة ، هيَ «كبت جنسي طفولي».

يمثل الجنسُ الرَّكيزةَ الأولى والأخيرة في النظرة الفرويدية للإنسان، حيث يُعِدُّ كل نشاط الفرد وإبداعه مُنطلقاً من هذه النقطة، وذلكَ في محاولة دراسة أثر تطور الجنس عند الإنسانِ، وأثره في تكوين شخصيته، وتطوره السيكولوجي، حيث قسم حياة الإنسان إلى ثلاث مراحلَ، كل مرحلة لها صفاتها، وخصائصها، وتطور الفرد يأتي بتجاوزه لأي مرحلة. أما عدم مقدرة الفرد على تجاوز أيٍّ من تلك المراحل، يُعَدُّ دلالة مرضية محددةً ترتبط بالسلوك الجنسي للفرد في هذه المرحلة.

تبدأ المرحلة الأولى في التطور، وهي ما تعرف بالمرحلة الجنسية، وتعكس تطور مراحل الإحساس الجنسي لثلاث مناطقَ هي الفم ، والشرج، والأعضاء التناسلية. يبدأ الطفل الإحساس الجنسي بكل جسمه دون تحديد منطقة معَيَّنةٍ، ثم يبدأ الظهور في المناطق الثلاثِ تدريجياً. تبدأ أولاً المرحلة الفَمِيَّ،ةُ وتظهر باستمتاع الطفل بالرضاعةِ، والاستمتاع بالعملية نفسها، حيث يعتبرها أول ما يكشف فيها الإنسان عن إحساسه الجنسي، ثم تبدأ بعد ذلك عادةُ مصِّ الأصابعِ، أي الاستمتاع بإثارة الفم بمؤثر آخرَ غيرِ ثدي الأمِّ، ومنها يظهر الإحساس الجنسي عند البالغين للإثارة الفمية، وتسمى هذه المرحلة بالتعشق الفمي. المنطقة الثانية هي انتقال الإحساس

للشرج، واستمتاع الطفل بتفريغ عضلاته الإخراجية، وتستمر هذه الفترة والتي تليها فترة كمون، حتى نصل للطور الثالث مع فترة المراهقة، وهي تنقسم إلى قسمين، هُما:

(أ) مرحلة انتباه الطفل لامتلاكه قضيباً أو عدمه.

(ب) المرحلة التناسلية، حيث يبدأ التطابق بين وظيفة التناسل وأعضائه، والأحاسيس الجنسية وهي قمة التطور الجنسي للإنسان.

التقسيم الثاني الذي تستند عليه مدرسة التحليل النفسي، هو مراحل التطور للموضوع الذي يُسقط عليه الإنسان إحساسه الجنسي، وينقسم إلى ثلاث مراحل: أولاً مرحلة العشق الذاتي، وهنا لا يكون الطفل قد بدأ في الشعور بذاته كموضوعٍ، فلا يستطيع أن يدرك نفسه كوحدة متكاملة، فيوجه إحساسه تجاه بعض الأجزاء من جسمه.

ثانياً، يبدأ الطفل إدراك نفسه كموضوعٍ، فيجعل منها مادةً لتعشقه، فيولع بنفسه كوحدة واحدةٍ يأخذها كموضوع للتعشق الجنسي، وتُعرف هذه المرحلة بالنرجسية.

ثالثاً، يبدأ هذا الطور عندما تبدأ ميوله في التَّحوُّل نحو الآخرين كموضوع لتعشقه، وتبدأ هذه الأحاسيس تتجه أولاً لمن يماثلونه في الجنس، وتعرف بالجنسية المثلية التي تتطور ليتم الانعتاق منها، ليصل الفرد لمرحلة الغيرية أو عشق الفرد من الجنس الآخر.

هذه النظرية يَعتمد عليها فرويد كثيراً في تحليل الواقعِ، وتفسيره لدونية المرأةِ، ووجوب سيطرة الرجل على هذه الحياة.

تختلف مرحلة الجنسية الغَيْرِيَّة عند الطفل باختلاف تكوينه الجنسي ذكراً كان أم أنثى. حيث نجد الطفل الذكر، أن أمه هي موضوع تعشُّقِه الجنسي، وتظهر في هذه المرحلة ما يعرف بعقدة أوديب «مشتقة من أسطورة الملك أوديب بن لايوس ملك طيبة الذي كتبت عليه الآلهة أن يقتل أباه ويتزوج أمه «، واشتقَّ منها فرويد هذه التسمية للدلالة على

الغَيرة التي يشعر بها الطفل نحو أبيه لمشاركته في حبِّ أمه. لا يفكر الطفل في طرح هذا الشعور بصورة صريحةٍ، لأنه يعلم أنه ليس كفءاً لهذا الصراع، و لا يسعى لقمع هذا الصراع حتى لا يفقد واقعه الذكوري الذي يفتخر به باعتباره يمتلك قضيباً، يوفر له السيطرة الاجتماعية التي تفتقدها أمه نتيجةَ افتقادها القضيب. ويحاول الطفل تناسي حب أمه والتشبه بأبيه لضمان جانبه، حتى لا يفقد امتيازه كذكرٍ، وتُعرف هذه العملية «بالخصاء الذهني»، وهي مرحلة ضرورية في تطور الطفل الذكر. أما الطفل الأنثى فتمر بمرحلة مشابهة تُعرف (بعُقدة الكتر) حيث تبدأ الفتاة بعشق والدها لأنه يمتلك قضيباً، ولأنه يعطيها الأمان الذي تفتقده لافتقادها القضيب، فانعتاق الفتاة من عقدة الكتر هو الأساس المِفْصليُّ لتعيشَ حياةً جنسيةً، وفكرية ناضجة ومستوية.

من هذه النظرية، بنى فرويد قوانينَ عامةً كثيرةً تُقنِّن لسيطرة الرجل، وتُعِدُّ دونية المرأة وضعاً طبيعياً. يقول فرويد: إن امتلاك الرجل قضيباً، يُنمي إحساسه بالقوة، مما يجعل ميوله الجنسية تنطلق في خط الامتلاء والافتخارِ، لأنه يمتلك ما يعتبره أداةَ السيطرة الاجتماعية، وهو المهيمن على الأسرة، وهو صاحب المركز والسيطرة. تنتقل هذه المفاهيم إلى الطفل الذكر في مرحلة «الخصاء الذهني»، باعتبارها تطوراً طبيعيّاً ومنطقيّاً له. حيثُ يُلاحظ الطفل أن أمه تفتقد القضيبَ، وتفتقد المكانة الاجتماعية والسيطرة والهيمنة على الأسرة. ومن هذه النقطة تتكون شخصية الطفل الذكر ،وإحساسه أنه الأقوى، وأن الطبيعة تقف بجانبه، وقد زودته بمكونات القوة والسيطرة. في الجانب الآخرِ، نجدُ أن الطفلة عندما تفتح أعينها تلاحظ أن وضع المرأة بعيدٌ عن مركز القوة والسيطرة، فينتابها مُركَّبُ نقصٍ لعدم امتلاكها قضيباً يساهم في دعم موقعها الاجتماعي. هذا الفرق البيولوجي، والتطور السيكولوجي يساهم في تشكيل وعي المرأة باعتبار أنها إنسان ناقص بيولوجياً، وذو مكانة أقلَّ من الذكر، وبذا

يتعمق لديها هذا الإحساس بالنقص يومياً، ليُمثِّلَ جزءً كبيراً من تكوينها اللا شعوري. لذا، فمهما تطورت إمكاناتها الإبداعية والفكرية، إلا أنَّ اللا شُعورَ يجذبها نحو مكانها الطبيعي الأقل من الذَّكر.

ينعدم وجود مرحلة «الخصاء الذهني» عند الأنثى، لأنها أصلاً لا تمتلك قضيباً حتى تخاف من فقدانه، لذا تكون الأنا العليا لديها ضعيفةً، عكس الذكر الذي يخاف من فقدانه قضيبه، فيقمع كل رغباته المرفوضة اجتماعياً، لتقوى عنده الأنا العليا، فيكون أكثر انضباطاً واحتراماً للأعراف والأخلاق العامة، عكس الأنثى، والتي يجعل منها ضعف الأنا العليا إنساناً لا يلتزم كثيراً بالأعراف والتقاليد والأخلاق والقيم الاجتماعية.

يساهم نقص المرأة البيولوجي وفشلها، في إثبات ذاتها، فتعكس كل الأحاسيس في بالاضطهاد والنقص لقوة داخلية، وذلكَ لعدم مقدرتها على مجابهة المجتمع، وعدم امتلاكها التكوين اللازم لذلك، فنجد انعكاس هذه الرغبات للداخل، وتظهر في شكل تعبير «ماسوشيستي»، وهو ما يُعرف بحب تعذيب النفس، وهي ظاهرة تدميرية خطرة. لذا يَزعمُ فرويد أن الوضع الطبيعي هو مجتمع سلطة ذكورية، ذو قوانين تحترم هيمنة الرجل، وتقنن لدونية المرأة.

لا شك أن نظرية فرويد قد وجدت صدى وقبولاً كبيراً في وقتها، مما جعل بصماتها تَتعدى العلمَ لِتشملَ كلَّ ضروب الحياة. وقد تعرضت لانتقادات عنيفةٍ أدَّت إلى أن لا يستطيع أحد الدفاع عنها إلا بإضافة مفردات جديدة عليها لتكمل مناطق الضعف. رغم هذا إلا أنها تجد صدى وسط المثقفينَ، ليس لعلميتها، ولكنْ لمقدرتها على تقديم التبرير لكل مظاهر القمع والانحطاط الذكوري الذي تعيشه المرأة. ونجد الكثيرين مِمَّن أعجبوا باختزال الإنسان في القيمة الجنسية، قد وجدوا تبريراً وراحةً نفسيةً، تسمح لهم بالانغماس في شهوانيتهم.

أول من حُوكم بنظرية التحليل النفسي، هو سيموند فرويد نفسه. فقد

هاجمه بعض العلماء مُنتقدينه بالنظر إلى شخصه، والرجوع إلى طفولته، حيث يُظهِرُ نظام الأسرة في القرن التاسع عشر بوضوحٍ سافر السيطرةَ الذكورية، وتعاظم شخصية الأب في تلك الأسرة اليهودية ذات التربية الصارمة، وهي التي جعلت من فرويد يتربى على سيطرة الرجل، ودونية المرأة مع تضخيم دور الجنس في الحياة الإنسانية.

فنظرية فرويد(٢٢) تُعدُّ نظرية اختزاليةً، تختزل كل الصراع الإنساني والثقافة الإنسانية في صراع جنسي محورُه وجودُ قضيبٍ أو عدمه. فإذا آمنا جدلاً بأن لهذا العضو من مكانة تجعل مَن يمتلكه يتبوأ وضعاً اجتماعياً مميزاً، ومن يفتقده يعيش في مركب نقص مدى حياته، فإنَّ السؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو: ما هي العلاقة بين القضيب والواقع الاجتماعي؟ هل هي خاصية سحرية تعطي لمالكه مفاتيح السيطرة والقوة ؟. الثابت علمياً أن الارتباط، هو ارتباطٌ بين إحدى صفات الذكورة بالوضع الاجتماعي الذي يناله الذكرُ في المجتمع المحدد، مما يجعل الصورة تصبح بطلاً والعكس، حيثُ تصبح الصفة هي السبب. لذا لا نستغرب عندما نجد القِصَرَ، وعدم وجود شارب، والنحافة كلها قد أصبحتْ قضية يحاول المجتمع الذكوري تجاوزها لإثبات رجولته.

عندما تسعى امرأة لكي تحقق امتيازاتٍ أو مكاسبَ لجنس النساءِن لا يَعْني «مُطلقاً» رفضها لجنسها، أو رغبة لتغيير جنسها، أو أن الدافع كان مركب نقصٍ، إنما هي رغبة طبيعية أن يسعى الإنسان لإزالةِ الظلم الواقع عليه،فهي تريد امتيازاتِ الرجولةِ، و لا تريد أن تصبح رجلاً.

لذا نجد أن فرويد قد تبنى الخط نفسه، حيث اختلطت الرؤيا عليه، لنرى أن الرغبة في التغيير الاجتماعي لكسب واقع اجتماعي، ولتحقيق مساواة مع الرجل، هي رغبة أن تصبح رجلاً ويحركها مركب نقص عدم امتلاك قضيب، وقد جرَّدَ هذه القضية من أبعادها الاجتماعية لتصبح صراعاً بيولوجياً فقط.

فالهجوم الذي تعرض له فرويد، تمثَّل في ربطه التعسفي بين تطور الإنسان وثقافته، بالغريزة الجنسية. والذي جعل كثيراً من تلاميذه ،في محاولة توفيقيه منهم، أن يعطوا الإنسان القليل من الاستقلالية، وأن يجد منفذاً آخر غير الحتمية الجنسية، مما أدى لظهور بعض المصطلحات الجديدة لدى هذه المدرسة، مثل الهوية، والانتماء، واستقلالية الثقافة النسبي.

وعليهِ، نتيجةً للانتقاد الواسع لنظرية فرويد، بدأ يظهر من بينِ المؤيدين لها، تيارٌ جديدٌ يحاول نقدَ بعض الجوانب، ويتبنى حلولاً لبعض الانتقادات الموجهة للفرويدية. فظهرت على السطح الفرويدية الجديدة التي يرفع لواءَها «كارين هورني، ويلهامرايح»، وكل منهما يتبنى خطاً مختلفاً عن خطِّ الآخر. وهذا الابتعاد من المدرسةِ الكلاسيكيةِ، قد وضع اللبنات الأولى لمدرسة دراسات المرأة أو الفيمنزم، والتي تستند على استعمال علم الاجتماع وعلم النفس في تحليل واقع المراه.

(د) المدارسُ النِّسويةُ (الفيمنيزم Feminism) وشخصيةُ المرأةِ

من المقولات التي غيَّرت التاريخَ، وأسست للحضارةِ الإنسانيِ، مقولةُ إميل كانت(إنَّ الإنسانَ أعظمُ قيمةً في الوجودِ، لذا يَجبُ أنْ يَكونَ غايةَ الكَونِ في نفسِهِ، وألا يُستَغلَّ، لأنْ يُصبحَ وسيلةً لأيِّ هدفٍ آخرَ).

هذه المقول' الراسخه في ميزان القيم والأخلاقِ، تؤكد أن أي تعامل مع الآخر كوسيلةٍ، وليس كهدف في حد ذاته، يُعدُّ سلوكاً غير أخلاقيٍّ وغير مقبولٍ بِمعايير الإنسانية. إن التعامل مع الآخر كوسيلةٍ، يعكس بالضرورة دوافعَ استغلاليةً تخلو من النقاء والعداله. ومثالاً لذلكَ، الشَّخص الذي يتقرب لجاره ليس محبةً في شخصه (هدفاً لذاته) إنما للاستفادة من علاقاته(وسيلة)، يُعدُّ تعامله هذا سلوكاً غيرَ أخلاقيٍّ وغير مقبولٍ إنسانياً. مثلُ هذا السلوك مرفوضٌ لأنه يلغي الجار كإنسانٍ له قيمتُه في ذاته، لِيُحيلهُ إلى مجرد شئ يخدم وظيفةً أو رغبةً محدَّدة. وهذا السلوك

المرفوض أخلاقياً، والمتمثل في النظرة أو التعامل مع الإنسان بِوصفِهِ مجردَ شيءٍ، قد أطلق عليه الفيلسوف الألماني كَانْط Immanuel Kant التَّشَيُّؤَ (Objectification)

التّشَيُّؤُ عندَ المرْأةِ

تُعدُّ نظرية التشيؤِ حجرَ الزاوية Cornerstone في الفكر النِّسوي. وعلى الرغم من أن كَانط نفسه قد ذكر أن عملية التشيؤ قد تقع كثيراً على الرجل، لكننا نجد أن الرؤية المتكاملة قد صاغتها باربارە فريدكسون(٢٣) في قانون التشيؤ الجنسي(sexual objectification) الذي تقول فيه: إن المرأة هي ضحية لهذا التقييم والسلوك المجتمعي الذي ينظر إليها كأداةٍ للجنسِ، ووجودٍ لمتعة الرجل. هذه النظره تجعل من المرأة مجردَ شيءٍ يُسْتَغَلُّ لتحقيق وظيفة أو مصلحةٍ محدده، ويُلغي وجودها الإنساني المتكامل، فتصبح مجرد شئ مختزلٍ لوظيفة جنسيةٍ لمصلحة الرجل والمجتمع. إن عملية التشيؤ هذه، في داخلها تحمل بذرة التحقير باستلابها البُعْدَ الإنسانيَّ للمرأة، وإلغائها وجودها المتكامل. فَمِن سلبيات عملية التشيؤِ، أنَّ قيمة الإنسان أيضاً تُختزل مُرتبطةً بنجاحه في تحقيق وظيفته، وتنتهي قيمته بانتهاءالوظيفه. أي أن المرأة تصبح قيمتها بمقدار نجاحها في أن تصبح وجبةً جنسيَّةً مُرْضِيَةً للرجل وللمجتمع.

لِعمليةِ التشيؤ تأثيرها العميق والملموس، حيث تكونُ لها أبعاد كثيرة ومتعددةٌ، تظهر في الآتي:

أولاً: تَتجلَّى بظهورها في التعامل مع المرأة بوصفها مجرَّدَ آلةٍ لها وظيفة واحدةٌ، ودور واحد.

ثانياً: هذه النظرةُ تجعل من المرأة إنساناً ليس له إرادةٌ أو مقدرةٌ على تحقق ما يريد، بل مغلوب على أمره، يُنَفِّذُ ما يريده منه المحتمع، أي أن تكون المرأةُ مسلوبة الإرادة والمقدرة، ومُزعنة.

ثالثاً: التعامل مع المرأة كمخلوق قابل للتغيير والاستبدال. فإذا كان من

الصعوبةِ استبدال إنسان بآخر شبيهٍ له،إلا أنَّ المرأة، ونظراً لفقدانها إنسانيتها، وصيرُورتها «وظيفةً»، يكون من السهل إيجاد البديل الذي له المواصفات التي تسمح له بأداء تلكَ الوظيفة. نجد هذا الاختزال متجسداً في تبريرَ ،كثيرٍ من الرجالِ، سبب الزِواج الثاني (خلاص كبرت وعاوز واحده شابه).

رابعاً: هذه النظرة تغذي إحساس الضعف عند المرأة، والقوة والملكية عند الرجل الذي صنعت لخدمته وتحقيق متعته.

خامساً: نلاحظُ أن هذه النظرة تلغي ،بشكلٍ كبيرٍ، رغباتِ المرأةِ، و رؤيتها الخاصة، وأحلامها الذاتية، فهي مطالبةٌ بتحقيق ذاتية الرجل، وليس ذاتيتها.

سادساً: في هذه النظرةِ اختزال الإنسان في مجرد جسدٍ ومظهر، وإلغاءٌ كبير لجوهر المرأة وذاتها.

أخيراً: هذه النظر تجعل من المرأة «قَارَّةً» في موقع الصمت الدائم، أو التعايش مع عدم التعبير عن رغباتها وعن ذاتها.

إن عمليات التشيؤ تحدث للمرأة على ثلاثةِ مستويات، وهِيَ: المستوى الأول: يكونُ على مستوى تركيبتها الجسدية، من طولٍ وقِصرٍ، و وزنٍ، وتناسق في الأجزاء. والمستوى الثاني: هو مستوى المظهرِ الذي يتَجلَّى في طريقة الزينة والمكياج، والملبس، ونوع البشرةِ. أما المستوى الثالث: فهو مستوى الحركةِ المُتمثِّلِ في الوقوفِ، والجلوسِ، والمشي، والضحك، الابتسامِ، وتعابير الوجه.

تَجدُرُ الإشارةُ هُنا، إلى أن المجتمع الذكوري قد يختار أيَّاً من هذه المستويات ليختزل المرأة فيها. حيث لا نستغرب عندما نجد لافتةً دعائيةً أمام مطار الخرطوم عاصمةِ السودانِ، تُبَشِّرُ الفتيات بالوظيفة والمستقبل الباهرِ، إذا حَصُلْنَ على بَشْرَةٍ ناصعة البياضِ باستعمال هذا النَّوعِ المُعْلَنِ عنهُ من الصَّابونِ !. ويمكننا أن نرى إلى أيِّ دَرجةٍ وَصَلَ مستوى الاختزال

لإنسـان متكامل الشـخصيةِ والسـمات، من أفكار ومشـاعرَ، ليصبح نجـاحُ المرأةِ معتمداً على لـون البشـرة!. هـذا التشـيؤ واختزال المرأةِ، يتم يومياً في الإعلام والدِّعايةِ، وربط نجاحها وسعادتها بنوعِ الشَّعْرِ والعطرِ، ونوع الثياب. إن عملية التشيؤِ، هي عملية تشكيلٍ يمارسها المجتمع على المرأةِ منذ يوم ولادتها إلى يوم مماتها. وسنتطرق لذلك بالتفصيل لاحقاً، ولكننا فقط نشير إلى يومِ الاحتفاء بولادة (العروسة، والأميرة)، والنظر إلى ملامحها الشكليةِ، والبدء في مكياجها، ووضع الحُلِي. بعدَ ذلك ستَتبعها عملية التشيؤِ، والتشكيل خلال حياتها، من وزنها ولونها وشعرها وملبسها، ليحقق بها المجتمعُ مفهومه عنها كجسدٍ يُحتفى به.

إن عملية التشيؤ نجدها واضحةً في ماكينة الإعلام، وثقافة المجتمع وتقاليده التى تفرض كثيراً من الممارسات تحت سيف العادات والتقاليد الواجب احترامُها، والانصياع لها.

على المستوى الفردي، نجد أننا ،في تعاملنا اليومي دون أن نشعر بتغذية معاني التشيؤ، نجعل المرأة تبتلع الطُّعم، وتشعر بالرِّضاءِ عن هذه النظرة، وذلك من خلال الاعجاب والاحتفاء بالشكل.فالتعليق على المظهر، وتسريحة الشعر والزينة، كلها بداية الانزلاق في درب الاحتفاء بهذا التشيؤ.

إن ذلك السلوك يجعل المرأة نفسها تتبنى هذه النظرة، وتصبح هذه القيم جزءاً من وعيها، وتمارس التشيؤ على نفسها. فنجد المرأة التى لا ترى نفسها إلا من خلال جسدها، ومِن ثَمَّ تبرز ما يعجب الآخرين من شعر وعيون وملامح. وهذا يقود الفتيات للهوس بجسدهم من مكياج و وزن ولون البشرة،، فتصبح المرأة أسيرة فكرة التشيؤ الذي تبنته ويصبح هاجسها أن تنجح في أن تصبح شكلاً بالمواصفات التي يحددها المجتمع. لذا قد نجد امْرأةً تُحطِّمُ ذاتها، وتلغي قيمتها كإنسانٍ لتُظهرَ جسدَها باعتباره قيمتها الحقيقية، وعلى الواقع، نجد الكثير من النساء لا يتورعون في

استعمال المستحضرات والوسائل التي قد تؤثر على ذاتهم وصحتهنَّ، وذلكَ من أجل مواصفات جسديةٍ مُحدَّدة.

إن التشيؤ يتم على كل المستويات، من أبسط محاوله لترتيب الشعر، ولبس الملابس، وهي جزء من السلوك الإنساني المقبول في تعامل الانسان مع نفسه كجسدٍ، ولا تصبح قضية أو أزمةً إلا في مرحلتين: الأولى، وهي عندما يحدث التشيؤ الكامل الذي لا يرى في المرأة إلا جسداً، أو التشيؤ الجنسي، حيث تصبح المرأة، وكل جزء منها عبارةً عن أداةٍ جنسيَّة.

إن التشيؤ الجنسي، يَظهر بعمق في العلاقات العابرةِ مع العاهرات، أو العلاقات الجسدية خارج الزواج، حيث تصبح المرأة هنا مجردَ وجبةٍ جنسيةٍ تنتهي قيمتها بانتهاء وظيفتها، ودورها الجنسي. فالجنسُ غير المرتبط بالحبِ، حتى في الزواج، نجد به كثيراً من التشيؤ، حيث تكون الزوجة مجرد وسيلة إشباعٍ ينتهي الحماس إليها مع انتهاءالممارسة. إن التشيؤ لا يجد له مكاناً في علاقات الحب، حيث إنَّ المرأة ليستْ وسيلة إشباعٍ، والجنسَ ليس طريقاً لتفريغ توتر هرموني، بل هنا الجنس هو تعبير عن تواصل روحي مع الآخر، ونهاية الممارسة الجسدية لا تعني نهاية قيمته، أو نهاية دور الزوجة، بل يعني زيادة الحوطة وزيادة التقارب.

ونُذكِّرُ هنا أن الرجل أيضاً يقع عليه التشيؤ من المجتمع، وذلك بالاهتمام بالشكل والملبس وملامح الجسد والعضلات. كما نجد أنَّ حدة التشيؤ عند الرجل تكونُ «نسبياً» أقل، حيث لا تسرق كل ذاته وشخصيته. فالاعجاب الاجتماعي بالرجل مفتول العضلاتِ، لا يغطي الاهتمام بشخصيته ومقدراته كإنسان، بينما نجد ذلك عند المرأة يكونُ تشيُّوءاً كاملاً يسلب الذات ويفرغها، لتصبح مجرد تقاطيع جسدية يحتفي بها المجتمع فيما يُعرف بتقدير الجمال الشكلي، وإلغاء أي مقدرات أخرى.

التّنميطُ والتّشيُّؤ Objectification

هـذه رؤيـة تختزل المرأة، بل يمكـن أن نقـول إنها تلغي وجودهـا الفكـري والعـاطفي، لتعلي مـن قيمـة الجسـد. فهـذا السـلوك يطلـق عليـه علمـاء النفـس عمليـة التشـيؤ. وهي تعني اختزال الإنسـان من وجـود متكاملٍ إلى مجـرد عضـو أو وظيفـة محدده، كما بيَّنا سـابقاً. ففي عمليـة التشـيؤ هـذه، نُجَابَهُ بِوضعٍ خاصٍّ ينطبق على المرأة عامةً، والسـودانية على وجهٍ خاصٍّ. وُفي هـذا الظـرف تعـرف بالتجنيس او الجنسـنة sexualisation، وهي ترمي لذلـك السـلوك أو النظـرة التي تتعامل مع المرأة بِوَصْفِها وعـاءً جنسـيّاً في المقـام الأول والأخير.

أنماطُ الجِنْسَنَةِ sexualisation

في عـام ٢٠٠٦م، شـكلت الجمعيـةُ الأمريكيـةُ للصحـةِ النَّفسـيةِ، فـريقـاً من الباحثينَ للنظر في ظاهـرة الجنسـنة. وقـد خـرجَ الفريقُ بأربعـةِ أنماطٍ، كل منها تعكـس مسـتوى، ونـوع من أنـواع الظـاهـرة، وتجسـدها. وهـذه الأنمـاطُ الأربعةُ هِيَ:

(١). إنسـانٌ تعتمدُ قيمته وتقييمه استناداً على شكله فقـط، دون اعتبـار لمؤهلاته أو إمكاناته الأخرى. نلاحظ ذلك بجلاءٍ أكثر وضوحاً في مسـابقات ملكـة الجمـال، رغـم أن حـدوث ذلـك على المسـتوى الاجتماعي، يتـم بصـورة منتظمـة.

(٢). عنـدمـا يصبـح الشـخصُ لا يُعـرف ولا يوصـف إلا بقيمتـه الشـكلية، لدرجـةِ أنها أصبحت جزءاً من اسمه، أو لا يتم التعامل معه، إلا من خلالِ هـذا المنظـور الجسـدي.

(٣). عنـدمـا يصبـح الشـخصُ لا دور لـه سـوى تقديـم خدمـةٍ عـارضـاً فيهـا نفسَـه كجسـدٍ، كالعاهـرات مثلاً، أو راقصـات الإثـارة والتَّعـري.

(٤). عنـدمـا يُفـرض على الشـخص سـلوك و سـمات، أو دور جنسـي لا يتناسـب مع واقعـه. وخير مثـال على ذلـكَ مـا نجـده وسـطَ الأطفـال الذيـن

يلبسـون أو يتزينـون بصـورة تتشـبه بالبالغينَ، وخاصـة الفتيـات، إضافـةً إلى أدوات الزينـة والمكيـاج والملابـس.

على الصعيدين العلمي والمعرفي،أثبتت الدراسات أن عمليات الجنسـنة، تسلب الإنسان تحقيق توازنه الذاتي الطبيعي من نضوج فكري وعاطفي، والذي يرتبط بالسعادة والرضاء. كما يتمُّ حصار الفرد في مساحة محدودة من شخصيته، نتيجـةً للجنسـنة، وانغلاقـه في إسـار الجسـد، حيث إنَّ الفشـل يـؤدي لانغلاق تطـوره الطبيعي، ولا يصل إلى قمة نضجه وتوازنه. فالحصار في إسـار الجسـد، يؤثر على الفـرد بصـورٍ عديـدة ومتباينـة.

إنَّ انعكاسـات الجنسـنة على الفـرد، قـد أثبتتهـا الدراسـات النفسـية والاجتماعيـة، ووصفتهـا بأنهـا تسـاهم في جعـل اهتمامـات المرأة تـدور حـول جسـدها، وفي هـذا تناقـص واضـح لقيمـة سـماتها الإنسـانية التي تشـكل جوهرهـا، من وعي وثقافة.مع ملاحظة التأثير السـالب على التـوازن النفسي ومعايير الرضـاء والثقـه بالنفـس.

سايكولوجيةُ الجِنْسَنَةِ sexualisation

إن مفارقـة علـم النفس الحديث لمدرسـة فرويد، وربط واقع المرأة بالتأثير الاجتماعي، يمكـن أن نقـول إنهـا كانـت الأسـاس والبدايـة لمدرسـة التشـيؤ والجنسـنة.

وقد كانت المُبادِرَةُ في ذلك، عالمة النفس كارين هورني(٢٤) ،التي هاجمت عقدة أوديب التي تمثل حجـر الزاويـة في فهم شخصية الطفل الذكر، وقد أوضحـت أن مـا يعـرف «بعقـدة أوديـب» ليسـتْ قانونـاً يمـر بـه كل الأطفـال، إنمـا هي مرحلـة عارضـة يمـر بهـا البعـض. أمـا الذيـن يمـرون بهـذه العقـدة، فإنهـا تـرى أنهـم يمرُّون بظاهـرة ليـس لهـا أي سـند بيولـوجي، أو تكويني مردّه لعقـدة الخصـاء، كمـا قـال فرويـد، إنمـا هي نتـاجٌ لـواقـع ثقـافي وبيـئي محـدد. وعدَّتْ كارين الحديث عن كراهيـة الطفـل لأبيـه وجسـده، ليس لـه أي مبررٌ أو سند بيولوجي. وتعتبر هذا الإحساس الذي يمر به الطفل، نزوعاً طبيعياً

نحو السيطرة ،بل بصورة أكثر تحديداً، هو نزوع اجتماعي لامتلاك الوضع المميز الذي يتبوَّأه الرجل، وهو إحساس طبيعي من أي فرد متطلع لإثبات ذاته، بأن يتمنى مركز القوة والسيطرة في السلم الاجتماعي، وهو المكان الذي يجلس فيه الأب. أمّا مركب النقص الأنثوي فإنها تعدهُ نقطة ليس لها سندها المنطقي، فالمرأة تسعى للحصول على امتيازات الرجل الاجتماعية، ولا تسعى إلى أن تكون الرجل نفسه.

أما عن تطور المراحل الجنسية، فإن «كارين هورني» تعدُّها مراحل يتحكم فيها نظام الأسرة والتربية، وليستْ قانوناً ينطبقُ على كل الأطفال.

إن المجتمع الذكوري الذي ساهم في تشكيل الوعي العالمي لفترات طويلة، جعل الفهم السائد هو اعتبار أن الرجل هو الواهب، وله الدور الأساسي في زيادة النسل، واستمرارية الحياة، ليصبح لتكوين أعضائه بيولوجياً، وزنها الاجتماعي. أما المرأة ،بحكم وضعها التاريخي، فإنها تمثِّلُ المتلقي السلبي لعطاء الرجل، وما عليها إلا أن تلعب دورها كوعاءٍ يحتفظ بأطفال الرجل.

يرى فرويد أن الثقافة إنما هي عملية تسامي لكسبٍ جنسيٍّ، أي تفريغ للقوة الجنسية التي لا تجد لها سبيلاً لتحقيقها نتيجةً للقمع الاجتماعي والتقاليد التي تنظم عملية التعبير الجنسي، فيتسامى الفرد بهذه القوة ليعبِّر عنها في شكل إبداع ثقافي. وتصبح الثقافة التي تساهم في تجاوز الفرد لواقعه البيولوجي، هي نفسها أسيرةً لهذا الواقع الذي تريد تجاوزه، لتصبح دائرةً غير معلومة البداية والنهاية.

إنَّ التقسيم الأساسي الذي تعارف عليه علماءُ اللغه بين رجل وامرأةٍ، مرادفٌ لتعبير ذكر وأنثى. فقد رفض علماء مدارس النسوية هذا الترادف، حيث اعتبروا الذكورةَ والأنوثة، تعريف للتصنيف الجسدي للإنسان إلي نوعين مختلفين، تحددهما تركيبتهما البيولوجيهة، بينما كلمتا رجل وامرأة، هو تصنيفٌ للوظيفة والدور، وهذه الوظيفة تحددها الثقافه والمجتمع.

ونجد تقارباً لهذا التعريف في مجتمعنا، حيث الطفل يولد ذكر أو أنثى على حسب التركيب الجسدي، ولكن هذا وحده ليس كافياً لأن يجعل كل طفل ذكر رجلاً مكتمل الرجولة، ولا الطفلة الأنثى أن تصبح إمرأة مكتملة النضج. حيث إن الثقافة والمجتمع السوداني، نتيجةَ تربية محددة وتأثير، قد يجعل الطفل الذكر رجلاً أنثوي السمات ،وقد يوصف بأوصاف عديدة من بينها (خايب) (مكسور) (متنسون)، وقد نجد الطفلة التي تكبر لتصبح (ضكرية) (مسترجلة)، أي أن الأطفال لا يصبحونَ مكتملي النضوج كرجال ونساء، إلا إذا وفر لهم المجتمع التربةَ المناسبة، حيث إن الثقافة والتربية والمجتمع، هي المؤثرات التي تُحدد ذلك.

هذا الخلاف ليس لغوياً فحسْب، بل هو قضية جوهري لدي المدرسة النسوية، حيث من المهم لديهم الفصلُ بين جنس النساء، وواقع المرأة. وذلك بالتأكيد على أن سمات المرأة، وخواصها قد اكتسبتها من المجتمع، وليست نتيجةً لتركيبتها الجسدية باعتبارها من جنس النساء.

إن كثيراً من أنواع التمييز الواقع على المرأة، تكون جذوره مستندةً على فهم محدد يصف جنس النساء بسمات محدد، وعلى ذلك يُحاكم المرأة الناضجة بذلك.

لقد وجد بعض علماء النفس أن التأثير على الأطفال قد يتم بصورة غير واعيةٍ في نمط المجتمع الذي ينشؤون فيه. حيث إنَّ المجتمع الأبوي المعاصر، يتصف بوجود الأم وارتباطها بالأطفال، ويجعلها مسؤولةً أكثر من الأب في شأنِ التربية. فمسؤولية الأم عن التربية، تجعلها تسعى إلى التقرب مِن بناتها ليصبحنَ أكثر تشابهاً وقُرباً لها، ولا تكون متأزمةً في تكوين ذاتية منفصلة منها ومستقلة، بينما العكس مع الأطفال الذكور، حيثُ تسعي في كل لحظه دفعهم للتفرد وتقوية صورة ذواتهم المختلفة عنها. هذا التعامل المختلف والمتباينُ، يجعل الأطفال الذكور أكثر قابلية لبناء الشخصية المتفردة ،المستقلة، والمعتدَّة بذاتها، وتجعل الأطفال

البنات يأخذن فترة أطول في الانفصال عن ارتباطهنَّ بالأم، ويكون تفردهنَّ أكثر بطأ وضعفاً، لذا تكون شخصياتهنَّ مائِلةً إلى عدم التفرد، و بالتالي الاعتماد على الآخرين.

إذاً، حتى شكل الأمومة بكل المشاعر الإيجابية والمحبة التي تقدمها، نجده ،بصورةٍ غير واعيةٍ، يُساهم في تشكيل شخصيةالمرأة، قوة وضعفاً، تفرداً واستقلاليةً، وكذلكَ ضعفاً وميلاً للتبعية والانزواء.



الفَصلُ الثّالث

التّنميطِ والتّشَيُّؤ



التّنميطِ والتّشَيُّؤ

إن سايكولوجية العلاقات،من حب وزواج، لا يمكن النظر إليها بمعزل عن الواقع الاجتماعي والثقافي للمجتمع المحدد، ونظرته للمرأة والرجل. لذا فإن مدخلنا لدراسة العلاقات العاطفية، سيرتكز على واقع المرأة السودانية،مفاهيمها،ووضعها في المجتمع. ونستند في قراءتنا لواقع المرأة السودانية على مدرسة التنميط والتشيؤ التي أشرنا إليها سابقاً،مُركِّزينَ على فرضيةٍ واقعيةٍ، وسنحاول إثباتها من قراءة الواقع، وهي بأن المرأةَ السودانيةَ قد وقع عليها استلابٌ اجتماعيّ، واخْتُزِلَ وجودها الإنساني، ليجعل من صورتها كجسدٍ هي القيمة،السائدة مع إهمالٍ لجوهرها الإنساني. نزعم أن هذا الاختزال كان العامل الأساسي لكثير من الانعكاسات النفسية والاجتماعية التي ساهمت في أنماط العلاقات العاطفية، والزوجية، ونوع المشاكل التي تمر بها. إن أي محاولٍ لقراءة قضايا العلاقات العاطفية لن تكون مكتملةً، إذا لم يسبقها تحليلٌ، وتفكيكٌ لجذور واقع المرأةِ، وإثبات أن المرأةَ اليومَ، هي نتاجٌ لعملياتٍ مستمرَّةٍ من تشكيل وعيها، وجعل شخصيتها تدور في محور الجسد. فالمرأةُ الجسدُ، هي عارضٌ صنعته المجتمعات في تطورها، وحتماً ليست الهدف ولا الغاية . إن هدف الحضارةِ الإنسانية، هو الوصول لمجتمعات المساواة، والمرأة الإنسان، حيثُ لا تختزل المرأة إلى جسدٍ تابع وضعيف، بل تُعامل كإنسان مفكر ومثقف ومستقل.

قالت سيمون دي بُوفوار(٢٥) الكاتبةُ والفيلسوفة والناشطةُ السياسية والنسوية الفرنسية، يوماً «إِنَّ المَرأَةَ لا تُوْلَدُ اِمْرَأَةً، وإِنَّمَا تُصْبِحُ كَذَلِكَ». هذه العبارة ،برغم قِصَرها، لكنها تعكس بصورة حقيقية واقع المرأة بإيجازٍ

منطقيٍّ رائع . فالمرأة لا تمتلك مستقبلاً يحدده ظرفها البيولوجي، إنما هي تُشَكَّلُ على هوى المجتمع الذكوري. وذلك لأنَّ الطفل عند ولادته، ذكراً كان أم أنثى، لا يمتلك وعياً ذكورياً متسلطاً أو أنثوياً خانعاً، إنما يَصنع المجتمع هذا التشكيلَ، والاستلابَ لوعيه، ليَصُبَّ كلٌّ منهما في قالب اجتماعي محدد. وهذا الاستلاب الواقع على المرأة لا يحدث عفواً أو اعتباطاً، إنما يستند على ظرف تاريخي محدد، وظروف اقتصادية واجتماعيةٍ تحكمها مفاهيمُ سائدة تكون ثقافتها هي المسيطرة لتحافظ على امتيازاتها.

تعاني المرأة منذ طفولتها، قَدْراً عظيماً مِن التحجيم والاختزال، حيث تُحاصَرُ كل قيمها كإنسانٍ، ويتم التركيز بصورة دائمةٍ ومتكررة على قيمٍ محددة، فتصبح كلُّ قيم المرأة كإنسانٍ مختزلةً في قيمة محددة تُشبع احتياجات المجتمع المتسلط.

يأخذ التَّشوُّه والاستلاب الأيديولوجي للمرأةِ وجهتين، إحداهما مباشرةٌ، والأخرى غير مباشرة. وبذا نجد الاستلاب ذا الأثر المباشرِ، هو التركيز على أدوارٍ هامشية مُضخَّمة للمرأة. وتضخيم هذه الأدوار الهامشية، قد جعل منها مركزاً لتفكير المرأة، ومحوراً لاهتمامها، و من ثَمَّ وضع القانون والثقافة التي تقنن لهذا الواقع. أما التأثير غير المباشرِ، فيظهر في تعميق معاني الدونية بإعطاء الرجل كل فرص الحرية والحركة التي تسمح بتطوير إمكانياته، مما يجعل المرأةَ تتلقى واقعها بقبول وا،ستسلام بل وبالدفاع عنه أحياناً.

وهنا نُشِيرُ إلى أنَّهُ من المهم الانتباه لظاهرة التشيؤ الذاتي، والتي تقوم فيها المرأة ،بعد طول تنميط وتشيؤ، بتقبُلِ الاختزال الذي يمارسه عليها المجتمعُ، ولا تتعامل معه كشئ طبيعي فقط، بل تقوم بتبنى قيم المجتمع، وتفرضه «هيَ» على نفسها. وذلك مثل الطفل الذي يعيش حياته تحت تعنيف مستمرٍّ بأنه فاشلٌ، حتى يصل لمرحلة يقتنع فيها بأنه فاشل. ويتعامل مع نفسه على هذا الأساس. لذا، لا نستغرب أن نُصادِفَ كثيراً من

النسـاء ينجرفـنَ بصـورة ميكانيكيـة، ويَنْجَرِفْـنَ مع هـذا التيـار، ليصبـح وعي المرأة هو الوعي الذي يريده لها المجتمع الذكوري. وبذلكَ نجد المرأة الأسيرة لهـذا القالـب المرسـوم، والتي تدافـع عـن ذاتها المقهـورة باعتبـاره الوضـع الطبيعي. أحياناً نجد أن الرأي لـدى كثير من النسـاء، هـو رأيٌ يسـلبها حقها كإنسـانٍ، ولكنها «عـادةً» لا تسـتوعب أبعاد هـذا الاسـتلابِ، لأنها قـد أُنشِـئت عليه دون أن تنتبـه لما فيـه من خللٍ وضرر عليها. وهكذا، ليس مسـتغرباً أن تجـد بعـض الزوجـات يقبلـنَ العنـف اللفظي من أزواجهـنَّ (لأنه راجـل ومـا بيحـب المسـخره).هنا نسـتطيع أن نقـول إن المرأة قـد تـمَّ اسـتلابها باعتبـاره تشـويهاً لوعي المرأة، حتى وصل بها لمرحلةٍ تُدافـع فيها عن رؤى تتعـارض مع مصالحها، ولا تـرى في ذلـك غضاضـةً أو تناقـض.

تَشَيُّؤُ النِّساءِ بَينَ صُورةِ المرأةِ والأُنثى

إن المرأةَ بِوصْفها نصـف المجتمـع، يضعُـها اختلافها التكويني والتركيبي مـن الرجل،على مسـتويين، همـا: مسـتوى المرأةِ، وهـو الـدور الاجتماعي لها كإنسـانٍ لا يفترض أن يكون للاختلاف بينها وبين الرجل أيُّ تأثير. أما الثاني، فهـو مسـتوى الأنثى، يسـتند على الاختلاف التركيبي، ويمثـل الـدور الجنسي الأسـاس في هـذا التصنيـف، حيـثُ نجد أن المجتمـع يسـتطيع بسـهولةٍ أن يتقبـل هـذا التقسـيم لبعـض الشـرائح من جنـس النسـاء. و يتفـق العالـم في صـورة المـرأة كإنسـانٍ غير جنسـي، وليـس للاختلافـات الجنسـية دور، مثْلَ العلاقـة مع الأم والأخـوات والبنـات، وعلى مسـتوى الأنثى في التعامـل مع الحبيبـة أو الزوجـة. يأتي الاختـلاف في ما عـدى ذلـكَ، حيـث تـرى نظـرةٌ أن كل النسـاء ماعـدا الحبيبـة والزوجـة هـنَّ مجـرد مخلوقـات غير جنسـية باعتبارهـنَّ نسـاءً في موقـع المرأة، ليس الجنـس عامـلاً في هـذه العلاقـة، يتسـاوى ذلـك في مسـتوى الأم والأخـوات. فهـذه النظـرة لا تعتمـد كثيراً على القانـون لمنـع التعامل مع المرأة كأنثى، حيث الوعي الداخلي والمعايير الذاتيـة تسـاهم في رفـض ذلـك. أما المدرسـة الثانيـةُ، فـ،لا تؤمـن بذلـك ولا تـرى في

صورة المرأة إلا الأمهات والأخوات والبنات، وماعداهُنَّ ينطبق عليهنَّ وضعُ الأنثى، وإمكانية وجود علاقة على هذا المستوى موجودةٌ، وما يمنع من وجود علاقة بينية على مستوى الأنثى، القانون في فصله بين الجنسين، والعادات، والأخلاق التي تحظر حرمة الدخول في علاقة معهنَّ. إذاً، نجد مُجتَمَعين، أحدهما تطور لمستوى يسعى لتحديد مستوى الأنثى في أفراد محدودين، وماعداه، مجرد بشر لا جنسيين يمكن أن نطلق عليه العقل المتوازن، وبين نظرة يتحكم فيها العقل التناسلي، ترى الجنس في كل النساء ماعدا المحارم. وتسعى المجتمعات في تطورها لتجاوز العقل التناسلي، ولتوفير المناخ والوعي لسيادة العقل المتوازن.

الدّولةُ: التنميطُ الاجتماعيُ والتّشيُؤ

إن تأثير التنميط يتم على مراحلَ، ومن خلال أدوات محددةٍ. ولتوضيح هذه العوامل، فقد قسمناه إلى اللآتي:

(أ)- تأثيرُ مفاهيم التربية والعادات والتقاليد

(ب)- تأثيرُ مفهوم الزّيِّ

(ج)- العملُ

(د)- الإعلامُ

(هـ)- القوانينُ واللوائحُ

هذه العوامل تقود لتأثيرات متباينة على حسب نوع المجتمع. ويمكننا أن نصنف المجتمعات إلى قسمين، هُما: مجتمعاتٌ متوازنةٌ، وأخرى غير متوازنةٍ. فالتوازن المقصود هنا، هو إلي أي درجة تقف الدولة في الحياد النسبي، وترك المجتمع يُطور مفاهيمه، ويوفير التربة الصالحة للمرأة لتحقيق ذاتها. حيث إنَّنا نجد التنميط والتشيؤ في المجتمعين، لكنَّ المجتمع المتوازن، تسمح فيه الدولةُ للمجتمع وقوانينه رفضَ التنميط، وتساعد في تقليله والسيطرة عليه. بينما تتدخلُ الدولةُ في المجتمعات غير المتوازنةِ بسلطاتها وقوانينها، لتقنين هذا التنميط، بل وزيادته. ففي

المجتمعات المتوازنة، حيث يمنعُ القانون استغلال الأطفالِ في الدعاية والإعلان لأشياءَ، أومواقف ذات إيحاءات جنسية، بينما في المجتمعات غير المتوازنة، تُقَنِّنُ الدولة لزواج الطفلات ذوات العشر سنواتٍ من العُمرِ.

تَأثيرُ العَوامِلِ الخَمسةِ في تَشَيُّؤ المَرأة

أوّلاً: تأثيرُ مَفاهيمِ التّربيةِ والعَاداتِ والتّقاليد

إن المجتمع في تشكيله لأفراده، يفرز في دواخلهم قيمَ المساواة والكرامة والكبرياء والتفرد. وفي قضية المرأةِ نجد نوعين من المجتمعات:

(١) مجتمعٌ مُتوازنٌ، يغرس في الأطفال مفاهيماً تؤكد أن المرأة نصف المجتمع، بما تمتلكه كإنسان ذي وعي وثقافة ومشاعر ومكانتةٍ في الحياة لا يختلف عن الرجل.إن اختلافها التركيبي من الرجلِ، لا يؤثر على مكانتها، ولا على دورها الاجتماعي، ولا ينقص من حقوقها ولا واجباتها. لذا تصيرُ مفاهيم التربية والتقاليد صَابَّةً في هذه المفاهيم وساعِيَةً لتحقيقها.

(٢) مجتمعٌ غيرُ متوازنٍ، يضخِّم من قيمة الفروقات بين الجنسين، ويجعل من جسد المرأة هو الأساس الذي ينظر به إليها. حيث إن مكانة المرأة ودورها في الحياة، لابد أن يمر من بوابة الجسد، لأنه العامل الحاسم في تحديد إمكاناتها ودورها. لذا تكونُ التربيةُ في هذه المجتمعات، والتقاليد دائرةً حول جسد المرأةِ، مع فصلٍ واضح بين الجنسين، ويكون التركيز على الجسد على حساب الإنسان المتكامل.

إن المجتمع المتوازنَ، ليس مجتمعاً خالياً من التنميط، وتوازنه لا يعني نقاءه، بل المقصود هنا أنه مجتمع يسمح للتطور الطبيعي، بدون تدخلٍ سلبيٍّ من الدولة.حيث إن الدولة تتدخل لتوفر المناخ المناسب لتطور المجتمع إنسانياً، ليتجاوز الوعي التناسلي، وينشر مفاهيم الوعي المتوازن. وفي المجتمعات غير المتوازنة، نجد أن الدولة تكرس للعقل التناسلي الذي يرى الأنثى بدلاً عن المرأة، في كُلِّ موقع، ويرى الجنس في موقفٍ له علاقة بالنساء.

ثانياً: تَأثيرُ مَفهومِ الزِّيِّ

في مملكة الحيوانِ، يُعدُّ الجنسُ علاقةً بيولوجيةً، لا تتشكل بعوامل نفسية أو اجتماعيه، بحيثُ يكون الجنس جانباً غريزيّاً. ويتمثل كل جسد الأنثى باعتباره وحدةً جنسيةً واحدةً. أمَّا عند الإنسانِ، مع تطور وعيه، فيتعامل مع جسدالمرأة عامةً كوعاءٍ يحمل فكرها وقيمها وعواطفها، ويتراجع الجانب الجنسي ليتجسد في أعضائها الجنسيةِ.

مع تطور الإنسانيةِ، ومفارقتنا لمملكة الحيوانِ، وتزايد دور العاطفة والفكر في الجانب الجنسي، يبدأ تراجع الجانب البيولوجي والجسدي. فيبدأ تدريجياً تَأَنْسُنُ (humanizing)جسدُ المرأةِ (لم أجد ترجمةً متفقاً عليها،فاخترت كلمة تَأَنْسُن)، ماعدا أعضاءها الجنسية.حيث يتراجع تدريجياً مفهوم جنسنة sexualizing جسد المرأة (لم أجد ترجمة متفقاً عليها) كله.

مع تطور الوعي بالقيمةِ الإنسانيةِ للجنسِ، وسيادة دور المشاعر والأفكار، بدأت أجزاءٌ كثيرةٌ تفقد قيمتها الجنسيةَ،وتصبح مُعبرةً عن ذات المرأة الاجتماعية، ولا تعبر عن بعدها الجنسي الأنثوي، ولاتوجد غضاضة في كشفها،ولكنَّ التساؤل يقع في ما بينهما، أو فيما تعرف بمناطق الإثارة.

فجسدُ المرأةِ يقع تحت تصنيفين، هما الأعضاء الجنسية، ويمكن أن نقول ، إلى درجة ما، ما يُمثِّل اتفاقاً إنسانياً نسبياً عليه، وهو ما يقع في دائرتي الحوض والصدر عند المرأة، ودائرة الحوض عند الرجل.حيث نجد أن الجنسيَّ هو مايمثل الأعضاء الجنسية، والاجتماعي ما يمثله بقية الجسد

وأجزاء من جسد المرأة اللا جنسية والتي تعرف بمناطق الإثارة، وهذه ليست لها حدود بيولوجية تحكمها، بل هي واسعة التباين، وليس عليها اتفاق إنساني، وهي محدودةٌ ومعرَّفة بمعايير اجتماعية متغيرة، تختلف من مجتمع لآخر، وفي المجتمع نفسه، بين طبقة وأخرى، وبين أسرة

وأخرى، بل في داخل الأسرة الواحدة بين كل فرد وآخر.

مفهوم الإثارةِ، أو عملية التحفيز الجنسي المرتبطة بالأعضاء غير الجنسية، هي عملية ارتباط نابع من الفرد ووعيه، يتم فيها إضفاء ارتباط جنسي مع عضوٍ ليس له وظيفة جنسية.

فنوع الإثارةِ هذا شَرْطِيٌ، لأنه ليس حتميةً بيولوجية، إذ إنَّ له مكونه اللفظي والحركي والمعرفي.

و الإثارةُ مفهومها غير ثابت، بل يتحرك بين ماهو جنسي وماهو اجتماعي، وهو تأرجح يعتمد على الواقع الاجتماعي الذي يحكم الفرد وثقافته. ففي كل زمانٍ يقوم الأفراد أو المجتمع بربط مفهوم الإثارة بأعضاءٍ «أصلاً» ليس لها صلة بالجنس.أو يقومون بنزع الإثارةِ وتحييدها. فأجزاءٌ كثيرةٌ من جسد المرأة قد تم تحييدها جنسياً، فأصبحت تقع في دائرة القبول الاجتماعي، ولا تُمثل هاجساً جنسياً إلا عند الأقلية . فالتي تلبس بلوزة تكشف الساعدين والرقبة مع كَشفِ الشَّعر في مُدُنٍ مثلَ طوكيو أو لندن، لا تُلفت الانتباه الجسدي، بينما نجد في دول أخرى أن كشف الشعر والرقبة الوجه، يقع في دائرة الإثارةِ، و يكون مؤشراً للتواصل الجنسي.

صورة جسد الأنثى ومكوِّنُهُ، من الجانب الجنسي له خصوصيته، وليس له دورٌ، أو ليسَ سبباً لإظهاره، والتواصل من خلاله لتحقيق وظيفته، إلا مع شخصٍ واحدٍ ومحدَّدٍ، لذا لايظهر لباقي المجتمع. فصورة المرأةِ كإنسانٍ يُجسِّدها بقيةُ الجسدِ، أو الجانب الاجتماعي، ووظيفته عكس فكر الإنسان وعواطفه وقيمه، وهو المستوى الذي نطرح به أنفسنا للآخرين، لذا يستوجب كشفه للآخرينَ، لأنه يُعبِّر عن ذاتنا الاجتماعيه.

إنَّ التَّعرِّي ثابتٌ بثبات وجود أعضاءٍ بيولوجيةٍ جنسية. والإثارةُ متغيِّرةٌ بحركة الزمن وتراكم االوعي، فيتغيَّر تبعاً لذلكّ ،صعوداً وهبوطاً، مايرى فيه الإنسان عاملَ إثارةٍ، أو يكون مجسَّداً تجسيداً اجتماعياً للآخر.

في الدول التي تحترم حقوق الإنسانِ، نجد القانون الذي يكرس للفهم العلمي، ويحترم كرامة الإنسان الذي يقف ضد التَّعري والإباحية، ويجعل ماعداه تحت سيطرة العُرفِ والأخلاق. لذا نجد أن قوانين العالم تحاول فرض مستوى الزِّيِّ المقبول اجتماعياً، حيث اتفقت على حجب الأعضاء الجنسية، وتركت أجزاءَ الإثارةِ للعُرف والرفض الاجتماعي. إنَّها تسمح بالتناقض والاختلاف، وترفض قمع الفرد بحدود مرسومةٍ، وتفتح الباب للفرد أن يُغيِّر مفاهيم مجتمعه. وأنسنة أجزاء من الجسد فرض تطور الوعي بأن تدخل في حظيرة الإثارة.

لذا ليس مستغرباً أنه كلما تطور الوعي الاجتماعي، والفكر الإنساني، كلما كان الهوس بالزِّيِ أقل، لأن الإثارةَ والتفاعل الجنسي لا تحكمه الجوانبُ البيولوجية فقط، بل هو مثلث يمثل الجسد أحد أضلاعه، ولا يكتمل إلا بالجانب الفكري والعاطفي. فإن لم تَتحقق كل جوانبه، فليس للجسد وحده سلطان عليه. بينما المجتمعات التي يتراجع فيها الوعي الإنساني ومفهوم الجنس والحب، ترى الجنس حتميةً بيولوجيةً لا تمر بين بوابات الفكر والعاطفة، بل هيَ ثنائيةٌ ميكانيكية بين جسد المرأة وغرائز الرجل، لتصبح حتمية انجذاب هرموني وبيولوجي، أقرب للعلاقة المغناطيسية التي لا فكاك منها. وهنا يزداد الهوس بالزِّيِّ لأن جسد المرأةِ هو المحرك الأساسي، و منبع الشرور الذي منه تنبعث الإثارة، لذا يجب حجبه وقمعه.

فاذا كان تعريفُ المناطق الجنسية في جسد المرأة يتغير بحسب الواقع الزماني الاجتماعي، يجب أن يوضع ذلك في الحسبان حينما يحاول المجتمع تنظيم قضية الزِّيِّ. وقد أدى ذلكَ لبروز منظورين أحدهما يدعم تراجع مؤشر الإثارةِ، لينحسر مع الوعي، وليصبح جسد المرأة الاجتماعي مبرأ من الإثارة، ومجرد تجسيدٍ لذات الفرد، تاركاً للعرف التحرك في معايير الإثارة والقبول الاجتماعي. رافضاً أن يجعلها موادَّ، للقانون لأننا نعلم أنها قيمة

متأرجحةٌ نزولاً وهبوطاً في كل مجتمعٍ، وحتى عند الفرد نفسه. وبه المجتمع يسعى لأن يتجرَّد الجانب الاجتماعي من جسد المرأة من مكونات الإثارةِ، ليصبح وجوداً اجتماعياً خالصاً.

على النقيض منه، هناكَ المنظور الآخر الذي يؤمن بأن مؤشر الإثارةِ ثابتٌ، ويجب أن يطغى على معظم جسد المراةِ، إن لم يكن كله، وأن العُرف لامكان له، وإنْ تَغَيَّرَ يجب أن يُردع بالقانون. وإذا كان هناكَ جزءٌ من جسد المرأةِ ليس له في العرف دورٌ في الإثارة، فَلْيَلْوِ القانونُ عنقَ العُرف ليمنعه ويحجبه عن الآخرين. وخير نموذج لذلك، الوجه أو الشَّعر، ففي فترة زمنيةٍ لم يُعَدّا مناطق إثارةٍ، أصبحت عرفاً أعضاء تعبر عن ذات الفرد الاجتماعية مجردة من الإثارة. في المجتمعات المتوازنة، التي تحاول تكريس ثقافة المقبول اجتماعياً، حتى ينتفي أي مؤشر أنثوي وتصبح صورة المرأة كوجود اجتماعي محايد جنسياً. إن المجتمعات غير المتوازنِ التي ترى الإثارة في كل ما يتعلق بالمرأةِ، يكون هاجسها أن تحمي أفراد المجتمع من شرور الإثارة، وذلكَ بفرض زِيٍّ محدد، أو الفصل بين الجنسين.

ثالثاً: تَأثيرُ عَملِ المَرأَةِ

عَملُ المرأةِ:

يمثل عمل المرأة نقطةً أساسية في تشكيل وعيها، ويساهم بصورة واضحة في تطور، أو جمود إمكاناتها الإبداعية.

إذا وضعنا في الاعتبار أن العمل هو الشرط الأول والضروري للحياة البشريةِ، والشكل الأساسي للنشاط البشري في مجرى العمل، لتكون في نهاية المطاف جملة العلاقات الاجتماعية مثل أشكال الملكية، والتوزيع والمنظمات والمؤسسات الاجتماعية وغيرها، بدون العمل يتعذر قيام ثقافة الإنسان. ففي العمل وحدهُ يستجلي الإنسان قوانين الأشياء الطبيعية، ويقيم علاقاته الاجتماعية، ويُرسي لذلك أسس العلم والفن. ففي العمل يتكون الإنسان كشخصيةٍ، فيطوّر قدراته، ويجسدها في مجرى النشاط

العملي. إذا كان العمل نشاطاً مفروضاً على الإنسان من أعلى، وغريباً عنه، وكان العمل يضنيه، ويستهلكه، ولا يجلب له أي متعةٍ، فإن هذا العمل سيزيد الإنسان بؤساً، بدلاً من أن يغنيه، يؤدي به إلى التقوقع وعدم التطور.

يمكن أن نقول، في معظم الأحيان يكونُ العمل المنزلي من هذا الفصيل، لذا ليس غريباً أن يقوم بتشويهٍ لوعي المرأة، حيث يتم فيه استلاب المرأة بصورة قاسية ومملة طوال الحياة.

بدأت المرأة تحتل موقعاً متميزاً نسبياً في خارطة الاقتصادالاجتماعي، مقارنةً بأعوامٍ مضت، تنتزع يومياً أرضاً جديدة على حساب الفهم المتخلف الذي بدأ في الانحسار نوعياً. ما زالت بعض الشرائح، وهي لست بالقليلة، ترفض خروج المرأة للعم، وهي تستند على رؤيتين، فهناك قطاع واسعٌ يريد إنساناً متفرغاً للمنزلِ، وليس له وظيفة اجتماعية باعتبار أن ذلك هو الأساس للأسرة المتوازنة، وهناك شريحة تستند على فهم لا يرى من المرأة إلا جسدها، لذا يعدُّها فتنةً متحركة ويجب المحافظة عليها من المجتمع، وحماية المجتمع منها. كما أنَّ هناك مَنْ يتبنى جزءاً من الفهمين في وقت واحد.

لا يمكن أن نغفل دور العامل الاقتصادي الذي جعل من خروج المرأة للعمل، ووجود مردود إضافي، ضرورة حتمية ليتراجع الفهم الذكوري قليلاً في عدم تقبله لفكرة مشاركة المرأة في الإنفاق والصرف على الأسرة. نجد عند البعضِ، أن مساهمة المرأة تكون على نفس القدر من الندية والتكافؤ، بل تقتطع من مرتبها لتساهم في الإنفاق على أسرتها الأولى، وعلى والديها وإخوتها. حتى الآنَ، نجد بعض القطاعات التي ما زال يُعشش في دواخلها الرفضُ لمشاركة المرأة في الإنفاق على الأسرةِ، باعتبار أن ذلك يمثل انتقاصاً من مكانة الرجلِ، ودوره التاريخي في الإنفاق. مع وجود عمل المرأة كحقيقة واقعةٍ، لا يمكن إنكارها أو تجاهلها، هناك مَن يمارس

تناقضه المعتاد، حيث يرفض الزوج استلام أي مبلغ من مرتب زوجته، ويطلب منها أن تصرفه على مستلزماتها الخاصة. ولكنَّ صاحبَ هذا الكبرياء الرجولي، تناسى أن ذلك لا يعني عدم مساهمة المرأة في ميزانية الأسرة، لأن مستلزماتها الخاصة «أصلاً»، كانت جزءاً من مسؤولياته هوَ، وبعدم صرفه عليها، يصبح هذا المبلغ وفراً ناتجاً من وجود مرتبٍ وموردِ دخل آخ،ر وهو مرتب المرأة زوجةً كانت أو أختاً أو ابنةً.

كما أسلفنا، فإن الواقع الاقتصادي فرض على كثيرينَ أن تتغير مواقفهم من عمل المرأةِ، ولكنْ تظلُّ قناعاتهم كما هيَ، يحكمها ذلك الفهمُ المتخلفُ، حيث نجد من يؤمن بعمل المرأة ظاهرياً، ولكنه يطالب بخلقِ وظائفَ نسويةٍ، لأن النساء أفضلُ في بعض المجالاتِ دون غيرها، حيث لا يشاركهن الرجال في هذه الأعمال. هذه النَّظرةُ تنبع من هاجسٍ وشيطان يسيطرانِ على أفكارهم، يسمى الجنسُ، حيث لا ينظرُ إلى المرأة، أو بالأحرى إلى الحياة، إلا من منظوره، مُعتبراً أن أي عمل يمكن أن توجد فيه نساء ورجال سوياً، هو عمل يجافي الأخلاق والفضيلة، بل وينافي النفس البشرية السوية، وهو إثم من عمل الشيطانِ، ودعوة لرذيلة. هذه الدعوة تعكس بوضوح العقدة الجنسية التي تسيطر على الرجلِ، وتجعله يؤمن بأن المرأة بقعةٌ للخطيئة قابلةٌ للفساد أينما حلتْ، لذا يَتَّخذُ هذا التبرير غلافاً ليغطي وجه الغَيرة الذكورية وتسلطها.

يمكن أن نرصد شريحةً أخرى تختلف ظاهرياً في ردِّ فعلها، وتعاملها مع عمل المرأةِ، لكنْ جوهرياً لا نرى اختلافاً يذكر، حيث يكونُ المفهوم السائد لدى هذه الشريحة، هو عدم وجود رأي سلبي ضد عمل المرأة. لكنْ لا يعتبر العمل حقّاً من حقوق المرأةِ بصورة مطلقةٍ، إنما هو حق أقرب للصدقة التي يتفَضَّل بها الرجلُ، ويمكنه أن يسلبها أياه عندما يريد. و يستطيع الأب والزوج إيقاف المرأة من العمل عندما يريد، ويكون الدافع أن هناك تعارضاً بين راحته الذاتيةِ، وعمل زوجته، أو لعدم رغبته في عملها

بدون سببٍ مؤسسٍ، لذا، نلاحظ أنَّ بعض الأزواج يطلبون من زوجاتهم تركَ العمل بعد الزواج مباشرةً، وقد يشترطونَ عليها ذلك مسبقاً، ليصبح العمل في أذهان العقلية المتحجرةِ ملءاً للفراغِ، وتزجيه للوقت تنتفي مبررات وجوده بزواج المرأة، و هذا الفهم السلبي يرمي بظلاله على وعي المرأة ،فنجد كثيراتٍ منهنَّ يفهمن أن العمل رصيدٌ، ومحطة للزواجِ، تنتفي ضرورته بالزواج.

كثيراً ما يأمر الزوج زوجته بترك العمل «بعدَ أو قبل الإنجاب»، بحُجَّةِ التَّفرغ للبيت وللأطفالِ، وعادةً ما توافق المرأة وبكل الطواعية والخنوعِ، استسلاماً لقدر لا تستطيع المرأة منه فكاكاً، وإذا رفضت فكرة ترك عملها، وحاولت الصراع لتحافظ على عملها فإنها «عادة» ما تكون معركة خاسرةً، نهايتها الحتميةُ عودة المرأة للمنزل راضية بالقمع الاجتماعي الذي لا تستطيع مجابهته أو الوقوف أمامه، ويصبح المصير هو ترك المرأة للعمل، والرجوع لأسر المنزل، وروتين العمل المنزلي. لقد ساهم الواقع الاقتصادي في دعم قضية المرأةِ، وجعل من رجوع المرأة للمنزل قضيةً لا تجد القبول والحماس عند قطاع كبير داخل هذه الشريحةِ، مادام مرتبها يساهم ، ولو بجزء قليل، في ميزانية الأسرة. فهذا الفهم الذي أفرزه الواقع الاقتصادي، ليس قناعة مبدئيةً، بل يظهر الوجه الحقيقي له حالما يزداد دخل الزوج لدرجة تمكنه من الإنفاق بدون الحاجة لراتب المرأة، حيث تجده يطالبها بالرجوع للمنزل. هذه الشريحة «غالباً» لا تفهم من العمل إلا العائد المادي، ولا يجد له قيمة إيجابية على المرأةِ سوى المرتبِ وتجاهل أثره الإيجابي على شخصية المرأة ووعيها. كما يعكس هذا الفهمُ، التناقضَ الحادَّ في مفهوم العمل. فإذا سألت الزوج هل يمكن أن يبقى في المنزل بدون عملٍ حتى ولو اِمتلكَ ثروةً توفر له المعيشة رغده ؟ لوجدنا الإجابة بالرفض، ولاستنكر ذلك بشدةٍ باعتبار أن العمل يمثل له بُعداً اجتماعياً، وتجربة شخصية تثري حياته، وتعطيها معنى. فالقضيةُ ليست مرتباً أو

عائداً ماديّاً، لأَنَّهُ عندما يتحدث عن العمل بالنسبة للمرأة، نجده ،بصورة سحرية، لا يفهم منه إلا العائد المادي، لذلك يجري على لسان الزوج مقولة «مادمتُ أستطيع الصَّرفَ على البيت وحدي، ولا أحتاج لمرتبها، فإنه ليس هناك معنى بأن ترهق نفسها بالعمل». وفي بعض الأحيانِ، يُعطي الزوج زوجتة مرتبها كاملاً، لقاء بقائها في المنزل. و في العادةِ، لا يهتم الزوج بدور العمل في بناء شخصية المرأةِ، ومساهمته في تشكيل وعيها، وحتى لا يموت في دواخلها روح الإبداعِ، لتنغمس في دوامةِ العمل المنزلي، و زحمةِ اهتمامات ربات البيوت التي لا تنفصل عن محيطها الضيق. و هنا، يحق لنا أن نتساءلَ: لماذا تترك المرأة العمل؟،وتأتي الإجابة بكل منطقية زائفة «لترعى بيتها وزوجها وأطفالها»، أي ،بكل بساطةٍ، إجابةٌ تعبر عن الفهم الذكوري، ورغبته في وجود امرأة تدمن الجلوسَ في المنزل، لتوفر له بيتاً مرتباً، وطعاماً شهياً، مُعبِّرةً عن النظرة الروتينية للمرأة.

وإذا نظرنا لهذه التبريراتِ، لوجدنا كم هي ضعيفةٌ، وكم هي مذّلةٌ، و مُهْدرةٌ لحق المرأة كإنسان.

فهل يُعقل أن يعيش إنسانٌ طوال حياته مكرساً كل أهدافه وأحلامه، لصنع الطعامِ، وكنس المنزل، وغسل الملابس؟

ولماذا يعيش إنسانٌ طيلة حياته، ليوفِّرَ الجو المناسبَ، والمنزلَ النَّظيفَ، ليستطيع إنسان آخر أن يُبدع؟

وإذا تساءلنا لماذا تترك المرأة دورها في العمل الاجتماعي، لتجلس في المنزل تُراقب الأطفال؟ ولماذا لا تتكفل الدولة بإقامة دُوْرِ حضانةٍ ورعايةٍ جماعية للأطفال، ليوفر الوقت والجهد، وليقدم الرعاية لأطفالها بصورة منظمة ومدروسة؟

ابتداءً، يجب الفصل بين شريحة النساء اللائي توفرت لهنَّ فرص التعليم والتدريب، لكنهنَّ اِختَرْنَ أن يكُنَّ ربات منا،زل وهذا اختيار واعي لإنسان حر لا نستطيع أن ننتقد خياراتها. إن القضية هي مع المجموعه

التي فَرض عليها المجتمعُ هذا الدور، إما بعدم توفير التعليم والتأهيل، إما قسراً بإعتبار أنه الخيار الأفضل ،والمكان الأنسب لها.

في محاولاته فرض وجود المرأة في المنزِل، ينبري البعض حاملاً بعض النظريات عن فوائد التربية والرعاية العائلية، ومضار الرعاية الجماعية. لا أحد ينكر دور الأسرة في التربية وتنشئة الأطفال، لكنْ لدينا تحفظ عن حقيقة دَوْرِ الأسرةِ، ودَوْر المؤسسات الجماعية للرعاية، من دُوْرِ حضانة ورياض أطفال. حيث نجد أن الواقع يفضح حقيقة دَوْرِ الأسرة في التربية، حيث نلاحظ أن معظم أطفالنا يقضون جُلّ سنين طفولتهم خارج جدران المنزل، وحتى لو كانوا بالمنزل، لوجدناهم بعيدين عن المطبخ محراب الأم. بل كثيراً ما نسمع الأم تأمرهم بأن يلعبوا بعيداً، حتى لا يتأثر نظام البيت ونظافته. ولو رجع كل فرد لنفسه لأيام طفولته الأولى، لوجد أن الوقت الذي كان يلتقي فيه أُمَّه هي مواعيد الوجبات والحمام والنوم. يمكن أن تقولَ ،وبصورة مطلقة، إن الشارع وأقران الطفل، هم المصدر الأساسي الذي يستقي منه الطفلُ معظم ثقافته وأدبه. إذاً، لا نستطيع أن نقول إن المرأة غير العاملة تكرس وقتاً أكبر لرعاية أطفالها، وذلك استناداً على واقعنا الاجتماعي.

قد يقول قائل إنَّني أتفق معكم في ضعف احتكاك الطفل بالأم غير العاملة في ساعات النهار، ولكنْ هذه ليست بالصورة المثلى التي نحلم بها. وماذا تقول فيمن لم يتعلم اللعب والجري في الشارع بعدُ، ألا يكون في حاجةٍ لأم تعتني به؟ بل حتى ذلك الطفل المرتبط بالشارعِ، ألا يمثل وجود أمرٍ ليس باليسير، وذلك لأنها تعطي ،حتى لو صورة سلبية، إحساس الأمان للطفل لأنه وهو في الشارع لا يغيب عن باله وعقله أن هناك أُمّاً في المنزِل، إذا احتاج لها في أي لحظة، فإنها مستعدة لمساعدته.

نجد أن هذه الأسئلة ،بصورة أو بأخرى، تدور في أذهان الكثيرين، وهي لا تحتاج لعناء للرد عليها. فمثلاً إذا كانت صورة الطفل، وعلاقته بأمه،

وارتباطه بالشارع، ليست هي الصورة المثلى، إذاً، فأين توجد هذه الصورة المثلى ؟ هل هي في عقول المنظرين والفلاسفة ؟ أم هي يوتوبيا يسعون لتحقيقها؟. إذاً، لماذا الانفعالُ ما دامت الصورة المثلى لا توجد على الواقع، وإنما هي نظرة مستقبلية؟ أي أنهم يحلمون بنظام تربية لم يعايشوه، ويقعون دوماً في التناقض بالتباهي بأخلاق زمان وتربية الأمهات وعطفهم، بينما نجدهم يعترفون بضعف دور الأم الفعلي. نجد أن الفهم الذكوري الذي يتحدث عن تفريغ المرأة لمجالسة أطفالها طوال النهار، أقل ما يمكن أن نقول عنه إنه فهمٌ مشوَّهٌ يلوي أعناق الحقيقةِ. فكيف يعقل أن تقوم المرأة بالطهي والنظافة والخياطة وغسل الملابس ومجاملة الضيوف من النساء، وبعد ذلك تتوقع منها التفرغ لمجالسة أطفالها؟. ورغم أن الرجال يعلمون استحالة أن يتحقق ذلك، لكنَّه الفهم المتخلف الذي يريد المرأة حبيسة العمل المنزلي بدعاوى وحجج واهية.

أما عن عدم الاعتراض على عمل المرأة، وإنما التفرغ فقط لمتابعة الطفل في شهوره الأولى، حيث يحتاج للعناية والمراقبة الدائمتَيْن، فإنها دعوةٌ من الأجدر أن توضع في قالب مختلف وصيغة مختلفةٍ، بحيث لا تترك المرأة عملها من أجل هذه الشهور، بل تصبح الدعوة أن تعطى المرأة إجازة تفرغ لمرحلة محددةٍ إلى أن ينمو طفلها، ويستطيع الاعتماد على نفسه، وحتى يقوى على الاستمرار في دُوْرِ الحضانة بدون وجود أمه.

رغم أن التساؤل بهذه الطريقة لا يعطيه صفة التقدمية والتطور، لكنه أقرب لفهم الرجل الذي يدّعي التطورَ، حيث يصبح المنطقي له هو أن تتفرغ المرأة بصورة جزئية لرعاية طفلها في شهوره الأولى.

إذا طرحنا تساؤلاً، لماذا لا يتفرغ الزوج لرعاية طفله، وليأخذ هو إجازة أبوه بدل إجازة أمومة؟

أول ما يتبادر بعد طرح هذا السؤال ،هو عملية الرضاعةِ، حيث تُصبح الإجابة سؤالاً جديداً، هوَ أن هذا لوضع مستحيلٌ، وغير منطقي، لأنه

كيف يستطيع الرجل تغذية طفله؟. الحقيقة أن المرأة يمكن أن ترتب للطفل رضعات جاهزه إذا أرادت الخروجَ، لكن الحقيقة أنه حتى لو حُسِمتْ هذا القضية، فسيستمر الزوج في الاعتذار بعدم المعرفةِ، لأنه لا يعلم ماذا يفعل مع أشياء الطفل الصغيرةِ، من حمامٍ، وتنظيفٍ، وخلافه ،خاصة أن الأب لا يتعلم أبسط الأشياء التي تخص أطفاله، وهنا يكمن بيت القصيد. فالأم تبدأ منذ طفولتها، تَعَلُّمَ كيفية العناية بالأطفالِ، والتي تستهِلُّها بالعناية بالدُّمي، ثم بأطفال العائلة، لتجد نفسها عند الإنجاب أنها قد تشكلت نفسياً، واكتسبت الثقافة التي تؤهلها للاهتمام بطفلها، بينما نجد الأب ،منذ طفولته، بعيداً عن رعاية الأطفالِ، والاهتمام بهم، مما يجعل الأم أكثر مقدرةً وإمكانية في رعاية الطفل نتيجةً لهذا التشكيل الواقع عليها، وليس نتيجة إمكاناتٍ فطرية موروثةٍ، كما يحاول البعض أن يصورها. لا يستطيع أحد أن يدافع عن إحساس الأمومة، ووصفه بأنه إحساس فطري موروث، لأن الواقع والعلم يثبتان لنا عكس ذلك. فكم من الأمثلة المعاشةِ، والتي نجد فيها من تربي على يد خالته أو قريبته أو حتى جارة عائلته الأصلية، تصبحُ الأم الثانية «لهم» أكثر قرباً، وأقوى عاطفةً وارتباطاً من الأم الأصلية، وهي دلالة عملية على أن إحساس الأمومةِ هو إحساس مكتسب. كما قلنا فإن المرأة قد تربت منذ الطفولة على كيفية حمل الأطفال، وتغذيتهم وملاعبتهم والتعود على قدراتهم، وكيفية نظافتهم ونظافة ملابسهم، بينما يتربى الأب على العكس من ذلك تماماً، لذا لا نستغرب عندما نجد أن الأب عند بكاء طفله، أو تبوله، فإنه بصورة ميكانيكية يسلمه لأمه، لأنه تعود عليه كدمية لاهية نظيفة وباسمة. يتعمق هذا الواقع بالسلوك الاجتماعي الذي يجعل من شخصية الأب صورةً تقوم على الدعم المادي، والعقاب، مما يخلق حاجزاً يصعب كسره، لخلق صداقة بين الأب وأبنائه، إلا نادراً. فتصبح العلاقة خليطاً من الرهبة والاحترام. بينما نجد الأم تقوم بدور عاطفي حقيقي تجاه أطفالها، لأنها

عادةً ما تعلب دور المحامي والمدافع عن أطفالها أمام العقاب الذي يمثله الأبُ، ونسبة لعدم وجود أي حاجز من الهيبة المفتعلة، فإن التواصل بين الأم وأطفالها لا يقف أمامه أي حاجزٍ، مما يجعلها أقرب لقلوبهم.

لا نستطيع أن نقفز فوق ظرفنا الاجتماعي هذه القفزة، لنطالب بأن يقوم الرجل بدوره في العمل المنزلي ورعاية الطفلِ على قدر المساواة، والدعوة لأن يأخذ الأب إجازة تفرغ لرعاية طفله. إننا نعلم أن بعض الأفراد قد يستطيع ذلك، لكنَّ القضية ليست قضية فرديةً، إنما هي صراع اجتماعي عام لا ينفصل بعضه عن بعض. لكننا نطالب على المستوى القريب أن يستوعب الرجل إحساس الأبوةِ، على قدر المساواة من إحساس الأمومةِ، وأن نجعل من تربية الأطفال الجماعية في رياض الأطفال هدفَنا، مع عدم نكراننا لدور الأسرة. فإذا ذكرنا أن الواقع يعكس أن الطفل الذكر عادة ما يربيه الشارع، وأن الطفل الأنثى ،وما يحدث لها من تشويه على نطاق الفهم الذكوري لواقع المرأة، يجعلنا أكثر حماساً لأن تعيش الطفلة الأنثى حياتها الطفولية بعيداً عن دور «الأم الصغيرة» الذي يحرمها من أجمل لحظات عمرها.

في كثيرٍ من المناطق، وعند مختلف الشرائح الاجتماعيةِ، نجد أن عمل المرأة أصبح حقاً لا ينازعها فيه أحد، وكما أسلفنا فإن للعامل الاقتصادي دوره الحاسم في هذا الواقع، ورغم أننا لا نستطيع أن ننكر وجود شريحة تؤمن بِعملِ المرأةِ نتيجةً لفهم حقيقي لمعنى العمل، ودوره في تطوير المرأة كإنسانٍ، لها نفس حقوق وامتيازات الرجل، إلا أننا نجد المرأة العاملة على هذين المستويين المختلفين، تعاني من الاضطهاد والاستلاب نفسه.

فالمرأة العاملة تعاني ،بصورةٍ قاسية، من الاستلاب البدني، والفكري الذي قد يضطرها في كثير من الأحيان لتقديم تنازلات كثيرةٍ من مبادئها وأفكارها. لأنَّ المرأة التي تحاول إيجاد ذاتها في العملِ، وأن يكون لها دورها الاقتصاديُّ والاجتماعي في تطوير المجتمع، تُواجه واقعاً لا يساعدها على

تحقيق ذلكَ، فالمجتمع الذي أعطاها حق العملِ بيدٍ، انتزع منها الكثير باليد الأخرى. فالزوج الذي اقتنع بضرورة العمل لزوجته كحقٍ وكسب اجتماعي له ولها، لم يستطيع أن يستوعب المتغيرات الحادثة نتيجةً لاكتساب المرأة لهذا الحق، برغم قناعة الزوج بأن العمل يعني أعباءً جديدة وهموماً أكبر، إلا أنه لا يستحي بأن يطالبها بأن تلعب المرأةُ دورَ المرأة بصورةٍ كاملةٍ غير منقوصةٍ، فهي موظفة نهاراً عند المجتمعِ بأجرٍ، وبغير أجر في المنزل في بقية اليوم. فنجدها بعد عودتها من العمل، تقوم بتجهيز الغداءِ، ثم بعده غسيل الأواني، ثم بعدَ ذلكَ تقوم بدورِ الكَنَّاس، تُنظِّفُ البيتَ، وترتِّبه، وفوق ذلك، عليها الاهتمام بأطفالها، استذكار دروسهم، ونظافتهم، وغذائهم، ثم تقوم بعد ذلك بتجهيز الطعام لليوم التالي، ولا ينتهي يومها عادة بتجهيز طعام العشاءِ، فعليها فوق ذلك، أن تكون نشيطة ومتحمسة لزوجها إذا دعاها لسرير الزوجية،، والويل لها إن رفضت أو اعتذرت. و هنا نلاحظُ أن دور بعض الرجال (قد تكون شريحة ليست بالقليله) عادة ما يكون سلبياً تماماً، بل قد يساهم ،بصورة واضحةٍ، في ازدياد الضغط النفسي عليها، و إذا ما اشتكت الزوجة يوماً من دوامة العمل والإرهاق أو الاستلاب الواقع عليها، فالرد الكلاسيكي يكون «دائماً» على لسان الزوج من هذه الشريحه «الجابرك منو ؟» «لو ما قادرة استقيلي» «مافي داعي للتعب وأحسن تخلي الشغل»، لذا عادة ما تتحامل المرأة على نفسها، وتسكت عن الشكوى أو التذمر، وترجع في محاولة لتوفيق بين المنزل والعمل، والويل لها لو فشلت في التوفيق بينهما، فلسان الزوج ، من هذه الفئةِ، يكون لها بالمرصاد، لاذعاً وسافراً، يضعها دوماً في مقارنتها بغيرها من النساء غير العاملات اللاتي يقضين جُلَّ، وقتهن في صنع الطعام وترتيب المنزل، ووضع الزينة والمكياج في انتظار الفارس القادم من عمله بابتسامةٍ ليس فيها آثار تعبٍ، أو إرهاق عمل المكتب. أما إذا كان الزوج عطوفاً، ولا يمتلك لساناً لاذعاً، فإننا نسمع الجملة

الكلاسيكية «حقوا تسيبي الشغل لأنه بدأ يؤثر في صحتك» ،والملاحظ أن الذي بدأ يؤثر في صحتها، هو عمل الحكومة، وليس عمل المنزل. لأن الفهم القاصر يجعل من العمل الاجتماعي هو العمل الثانوي، أو الإضافي الذي تقوم به المرأةُ، بجانب وظيفتها الأساسية وهي العمل المنزلي.

تعيش المرأة العاملة في دوامة العمل والاستلاب بين العمل المنزلي والاجتماعي، والتي تستنزفها جسدياً وذهنياً. فهيَ تعيشُ هذا الاستنزاف في محاولة للتوفيق بين البيت والعمل، الذي تجد فيه ذاتها، حتى يكون لها دور في عجلة التغيير الاجتماعي، وحتى لا تصبح كَماً مهملاً يعيش فقط لإسعاد الزوج، وتهيئة الجو له للإبداع. عندما تفشل المرأة في التوفيقِ، فإنها «عادة» ترفع راية الاستسلامِ، وتعود حَسْرَى إلى حظيرة المنزل، لتدفن أحلامها مُتعايشةً مع واقعها الجديد بين أدوات المطبخ، والعمل المنزلي الممل والرتيب. في أغلب الأحيانِ، لا تمثل هذه القضية هاجساً أو موضوعاً مهماً بالنسبة للزوج، وهي مسألةُ أن تتنازل شريكته عن حقِّها في عملها وتحقيق ذاتها من أجل الأسرة، فكل قضية الزوج هي، أن يحافظ على كرسي السيطرة، وأن يأتي ليجد منزلاً وطعاماً وجسداً جاهزين، بغض النظر عن الشرخ النفسي الذي قد يصيب شريكته، نتيجةَ تركها العمل. فالرّجلُ، لا يستطيع التَّنازلَ عن دوره السلطوي الذكوري، ليرفع عن المرأة قهر العمل المنزلي. فهوَ لا يفكرُ، ولا يسعى للمشاركة في العمل المنزلي تَخفيفاً للضغط والاستلاب الذي تعيشه المرأة.

إنَّنا لا نستطيع الإنكارَ بأن البعضَ يشارك زوجته العاملة في أعمال المنزل، لكن غالباً ما تكون هذه المشاركة ذاتُ طابع يندرج في إطارِ المساعدة، وليس إحساساً حقيقياً بأهمية دوره (الرجل) في العمل المنزلي على قدم المساواة مع المرأة في هذا الشَّأن. لذا، تكون مساهمة مثل هذا الزوج بسيطةً ،لا تؤثر بصورة فعّالة، على تخفيف الضغط الجسدي، رغم أنها تساهم في تقديم جرعات دعم نفسي ليس بالقليل، لكنَّ الواقع المرهقَ،

يظل كما هوَ، فالرجل من هذه الشريحة التي عادة ما تدعي المساواة، يتعامل بسلوكه هذا مع العمل المنزلي بصورة لا تختلف كثيراً من أي طرح متخلف. كأنَّ مفهوم السعادة ينبع من فهم أن العمل المنزلي هو «أصلاً» من واجبات المرأة الفطرية، بينما هو يقوم بعملية المساعدة لأنه ليس من وظائفه الأساسية. إذاً، فالقضية إذا لم تحسم على المستوى النظري، حتى يصل الزوج للقناعة الأساسية بأن العمل المنزلي ليس دوراً فطرياً يتطابق من إمكاناتها، بقدر ما هو ارتباطٌ ناتج عن العوامل التاريخية والاجتماعية التي ساهمت في ربط المرأة بالعمل المنزلي.

هناكَ بعض النساءِ، بل ،لا نبالغ إذا قلنا معظمهنَّ، مازلنَ يعانين من أسر الاستعباد والتشويه الاجتماعي، حيث نجدهن يرفضن أن يشارك الزوج في العمل المنزلي، باعتبار أن ذلك عيباً يقلل من مكانة زوجها أمام الناسِ، لأن «المطبخ بتاع النسوان»، وينتشر هذا المفهوم ،بصورة حادةٍ،، بين النساء غير العاملات بينما نجده يمثل حيزاً أقل «نسبياً» وسط النساء العاملات، وذلكَ لأن الواقع الموضوعي للمرأة العاملةِ، يجعلها لا ترفض أي مساعدة، ومع ازدياد درجة الوعي نسبياً يجعلها تستوعب أن الرجولة، وهيبة الزوج لا تتأثر بمشاركته في العمل المنزلي. لكن هذا التقبل لعمل الزوج في المطبخ والمنزل، ليس قبولاً على إطلاقه، فمازالت بعض الوظائف تعدُّ مناطق محرمة لا يسمح للزوج حتى بالمساعدة فيها، مثل صنع الكسرة التي أصبحت مربوطة بصورة قوية بالمرأة. ويعدُّ وجودُ الزوج أو مشاركتُه في هذه الأعمالِ، إهانة وطعن في مكانة الرجل، ودلالة على قلة أخلاق الزوجة، وتقصيرها الفاضح في أداء دورها كزوجة. هذا الفهم المتخلف أتى نتاجاً طبيعياً لمقدارِ التشكيل الاجتماعي، والتشريط الفكري الواقع على المرأة، مما يجعلها تتبنى الفهم الاجتماعي الذي يساهم في تقنين الاضطهادِ الواقعِ عليها. و لا نندهشُ لوجود هذا الفهم في مجتمع نشأت نساؤه ،منذ نعومة أظافرهنَّ، على أن مصيرهم الحتمي هو المطبخ، وأنه مهما تفوقت،

فـإن مصيرهـا هـو «الكسـرة والملاح». وإن هـذا العمـل المطبخي ،بقـدر مـا هـو واجـب مقـدس للمـرأة، إلا أن بالقـدرِ نفسِـه عمـل مخـزي، وحقير، ويسـيء لسـمعة الرجـلِ ومكانتـه .

بين النسـاء نجـد قطاعـاً ليـس باليسـيرِ، يؤمـن بـأن العمـلَ، إضافـةً لعائـده المـادي عبـارةٌ عـن هـروب مـن سـجن المنزل، ومَلَلِـه فقـط. فمثـلُ هـذا الفهـم لـم يسـتطيع أن يسـتوعب المعنـي الحقيقـي للعمـل باعتبـاره إثـراءً للواقـع الاجتماعي، وتطويـراً لامكانـات المـرأة كإنسـان. لـذا نجـد مـن تَتعامـل مـع الوظيفـة كبرنامجٍ، أو محطـة لانتظـار العريـس. بعـد ذلـك، يتحـدد مصير الوظيفـة حسـب رغبـة العريـس، وليـس حسـب رغبتهـا هي. فـإذا كان الـزوج يؤمن بتفرغهـا لخدمته في المنزل «وعـادة ما يشـترط ذلـك قبـل الـزواج»، فعلى الرحـب والسـعة، أمـا إذا لـم يكـن لهـا رأي محـدد سـلباً أوأيجابـاً « ينـدر أن يكـون إيجابيـاً»، فالنتيجـة الحتميـة هي التخلي عـن العمـل، عندمـا تواجـه دوامـة العمـل المنـزلي مـع أعبـاء الوظيفـة، ولا تتوانى ولا تفكـر كثيراً في تـرك العمـل، وذلـك لضعـف قيمـة العمـل في دواخلهـا، وهـذا يتطابـق مـع ازديـاد نسـبة الأميـة الثقافيـة والأكاديميـة بين النسـاء. و بعـد فترة مـن الزمـن، تنـدم المـرأة على تركهـا العمـل، ليـس لقناعـة جديـدة بقيمـة العمـل، بـل نتيجـة الإحسـاس بالملـل الـذي يتعمـق في دواخلهـا بعـد ازديـاد رقعـةِ فراغهـا عندمـا يكـبر أطفالهـا ويبـدؤون الذهـاب للمدرسـة، فيتولَّـدُ إحسـاسـها بالملل والـوحشـة. وكمـا هـو واضـح، فـإن التفكير في العمـل لـم ينبـع مـن فهـم متطـور لمعنـى العمـل، بـل هـروبٌ مـن دائـرة الملـل ، لتبـدأ الدائـرة مـن الأول.

رغـم الإسـهاب في الـدور الاجتماعي والفكـري للعمـل، إلا أننـا لا ننكـر دوره الاقتصـادي الـذي يسـاهم في دعـم شـخصية المـرأة واسـتقلالها بقرارهـا، وتعميـق إحساسـها بذاتهـا كإنسـان منتـج. فسـيطرة الرجـل الاقتصاديـة، تسـاهم ،في بعـض الأحيـان، بصـورة سـلبية في تشـكيل واقـع المـرأةِ، حيـث تضطـر أن تعيـش في انتظـار عطـاء الرجـل، وقـد تضطـر أن تسـتجديه، أو

تحاول ذلك باللين مرةً، وبالتمارض والجنون مرات أخرى. ولا يخفى على أحدٍ كميةُ الخلافاتِ التي يُفرزها الواقعُ الاقتصاديُّ للأسرة بين الرجل المنتجِ والمرأةِ كمستهلك. لذا نجد التَّناقضَ بين أحلام المرأة، والذي يمكنُ أن يصلَ إلى مراحلَ من عدمِ التَّفاهم والاتفاقِ بين الزوجين. وهذا الوضعُ يجعل من المرأةِ مخلوقاً مستهلكاً لا يستطيع أن يحلم في حدود إمكانياته، بل تحلم كتابعٍ ينتظر العطاء من الزوج، مما يساهم في ترسيخ الواقع المستهلك والسلبي للمرأة.

رَابِعاً: تَأْثِيرُ الإِعْلَامِ

الإعلامُ هو الجسر الذي ينقل ثقافة المجتمع و مفاهيمه. و قد أثبتت الدراسات أن المُتلقي في كثير من الأحيان يتقبل ما يسمعه بكثير من القَبول و قليل من التمحيص, لذا يمكن أن نقول إن للإعلام دوراً مؤثراً في وعي أفراد المجتمع.

الإنسان المتلقي للمعلومة تؤثر فيه عوامل كثيرة في سرعة تقبله لها, و خاصة إذا حققت ثلاثة عوامل هي حل تساؤل داخلي,و إضافة درجة من السعادة و الأمل, أو قللت من تأثير خاطرة سلبية على الذات. و تفصيل هذه العوامل كما يلي:

(١). قد يكون التساؤل المطروح قضية ذات بُعد كبير أو قليلة الأهمية, لكن تعتمد على المُتلقى و وقت استلام المعلومة.قد تكون المعلومة عن قضية حساسة, مثلاً عن أثر عمل المرأة على الأطفال أو قضية بسيطة عن أفضل أنواع الحليب أو صابون الغسيل.

(٢). تقديم إجابات تزرع الأمل و السعادة, مثل رسالة عن مستحضر أو طريقة تزيل الدهون و تُكسب الفرد رشاقة و قوام محدد.

(٣) تقديم محاذير تحمي المتلقي من مخاطر مستقبلية, مثلاً الإعلان عن قوانين السير و مضار التدخين.

الإعلام يُقدم المعلومة في شكل فني و إبداعي ليجعلها أكثر قبولا من

حيث شكل الشخص الذي يقدم المادة و صورته الجسدية و النفسية.هذا الارتباط ليس مُحايداً بل هو أيضا في داخله رسالة, فالفتاة التي تُعلن عن أنواع الغسيل هي أيضا تُروّج لرسالة أن الغسيل وظيفة نسائية وذلك شئ طبيعي.هذا التنميط نجده كثيراً في ارتباط المرأة بالإعلانات عن الأغراض المنزلية و رعاية الأسرة.نجد التنميط يتجلى في تشيؤ جسدي و جنسي يربط مفاهيم السعادة بملامح جسدية محددة تصبح هي المعيار الذي يُغرس في ذهن كل فتاة. فوق ذلك نجد ربط جسد المرأة تعسفياً بمفهوم السعادة و الجمال فنجدها في دعايات العربات و خلافه.

تحاول المجتمعات المتوازنة فرض القوانين و اللوائح التي تمنع استغلال جسد المرأة و تنميطها. كثير من الدول أصبحت لها معايير مهنية في عدم استغلال جسد الأطفال للدعاية للبالغين, و لديها حساسية تجاه أي انتقادات لاستغلال المرأة و تسعى لتتماشى مع المجتمع بقدر الإمكان.أما في المجتمعات غير المتوازنة لا يكون منع التنميط هاجساً لها, بل قد تسعى هي نفسها للترويج له.

خامساً: تأثير اللوائح و القوانين

نجد أن المجتمع المتوازن يُقنن للقوانين التي تحافظ على الدور الاجتماعي للجنسين و وظيفتهما.حيث نجد المجتمع المتوازن يسعى لرسم ملامح المجتمع الذي يُحقق للمرأة إحساسها بالإستقلالية والتفرد كإنسان, وأن لا تُحرم من أي من الحقوق نتيجة لتركيبتها, مع ضمان عدم اختزالها أو استغلالها كجسد. المجتمع غير المتوازن يتدخل في فرض رؤيته للمرأة كجسد, و يضع القوانين للمجتمع على هذا الأساس دون المراعاة لقيمتها كإنسان.



الفصل الرابع

الحقبة الأولى: فترة ما قبل الإنقاذ



الحقبة الأولى: فترة ما قبل الإنقاذ

(أ). تأثير مفاهيم التربية و العادات و التقاليد

إذا نظرنا إلى مجتمعنا السوداني في تلك الفترة نجد أن عملية الاستلاب هذه تجري بصورة منظمة لتقمع أي رغبة للتطور و الإبداع داخل المرأة ابتداءً من الطفولة. هي امتداد لتطور تاريخي للمجتمع السوداني محاولا تجاوز العقلية التناسلية و سيادة العقلية المتوازنة.نجد أن المجتمع كان يسير بخطوات في ذلك الاتجاه مع حياد نسبي لدور الدولة.هذا الواقع تبدَّل ليشهد تراجعاً مقصوداً و تدهوراً فَرَضَهُ تدخل الدولة في عهد الإنقاذ للتكريس لهذا الاستلاب.

إذاحاولنا تحليل كل الموروثات و العادات و الأقوال التي تنشأ عليها المرأة لوجدنا قالباً قوي السياج يحاصرها في كل أوجه حياتها, و سنحاول هنا متابعة تطور المرأة و أخذ بعض النماذج. و من أثر التربية و التقاليد و التي ما أكثرها لعكس كمية الاستلاب و التشكيل المجتمعي الذي يمارس على المرأة,»تَبَكِّر بالوليد و الفايدة تملأ الأيد», هذا المقطع من الأغنية الشعبية التي تُغني للعريس في يوم فَرَحهِ كنوع من الأماني التي يحُلم بها الجميع بأن تتحقق ليفوز بمردودها العريس هناءً و سعادةً. نجد أن هذه الأمنية تعكس بإيجاز شديد العمق الحقيقي لقضية المرأة, حيث تقسيم العمل على أساس جنسي و ارتباط العائد المادي و الإنتاج بجنس دون الآخر. فالطفل قبل أن يُولد يجد أن المناخ قد تهيأ و أن المسرح قد جُمهر لاستقبال المولود الأول الذي يتمنى الجميع أن يكون ذكراً «وليد», ليحمل المسؤولية الاقتصادية و ليرفع المعاناة عن كاهل الأسرة و ينعموا بالخير و الثراء. لذا يرتبط مفهوم «الفايدة تملأ الأيد» بالمولود الذكر باعتبار أن

الرجل هو المؤثر الحقيقي في دعم الواقع الاقتصادي لارتباط العمل و الإنتاج بصورة تاريخية بالرجل, و للارتباط المغلوط بين القيمة العضلية و العائد المادي الوفير استناداً على الواقع الذي يُمجد القيمة العضلية و الفهم الذكوري لها. رغم أن التعليم ساهم في جعل هذه الفكرة تتراجع قليلاً, إلا أننا نجد هذا التراجع ليس قناعة بإنسانية المرأة و دورها الفعّال في الإنتاج الاجتماعي, و لكن لأن الإنتاج العضلي الذي كان حِكراً على الرجال لم يصبح هو المحك الأول لزيادة الدخل, وأصبح للتعليم و الدراسة قيمة اقتصادية بغض النظر عن الاختلاف الجنسي, كما أصبح للمرأة المتعلمة دور ملموس في دعم الواقع الاقتصادي للأسرة يوازي أخاها الذكر بل قد تفوقه أحيانا, و صار للمرأة دور واضح تعتمد عليه كثير من الأسر كشيء طبيعي, لكن ما زالت بعض القطاعات الميسورة نسبياً لا تساهم فيها المرأة بالصرف على الأسرة, بل يترك لها كل عائدها المادي لتستفيد منه في إشباع احتياجاتها كأنثى. و مع تفاقم المُعاناة الاقتصادية أصبحت الحاجة لكل يد عاملة للصرف على الأسرة, و باتت هذه الشريحة تمثل صورة نادرة و قليلة جداً. إذن يمكننا القول إن المرأة أصبحت تمتلك دوراً اقتصادياً لا يستطيع أن ينكره أحد، لذا أصبح الفرح بالمولود الأنثى يمثل حيزاً غير قليل في واقعنا الاجتماعي مقارنة بأعوام مضت, عندما كانت هذه الأغنية تعبر عن الواقع الاجتماعي بصورة حقيقية عاكسة وجود المرأة في المجتمع شكلاً و مضموناً. رغم التطور الذي حدث في الواقع الاقتصادي, نجد أن التغيير الاجتماعي لا يسير بنفس الخُطى, و هو تناسُب منطقي لكل مستوعب لحركة التاريخ, فرغم التأثير المتبادل بين المستويين إلا أن عجلة التغيير الاقتصادي تسير بإيقاع أسرع نسبياً. و رغم الوجود الاقتصادي الذي استطاعت المرأة أن تكسبه و تفرضه على المجتمع, مازال مفهوم المرأة الأنثى «أي المرأة الجسد» لم يتغير بل قابع في تفكير معظم أفراد المجتمع الذكوري. لا نستطيع أن ننكر أنه رغم التطور النسبي إلا أن الفرح

بالمولود الذكر يمثل جزءاً ليس باليسير في الفهم الاجتماعي العام, بل لا نستغرب عندما نسمع بمن تزوج لأن زوجته تنجب أطفالاً إناثاً, لينتقل الهوس للمرأة و أسرتها لتنجب ابنتهم طفلاً ذكراً.

الطفولة

عند إنجاب أسرة لطفل فإن التعامل مع المولود يختلف باختلاف جنسه, فالمولود الذكر يُمثل الفرح به اهتماماً كلُياً كرجل, و الفرح به كموضوع عام و أمل مرتقب, لذا تكون المباركة بالإنجاب ليس فيها أي تردد بل فرح يشوبه تمني بوضع اجتماعي متميز. بينما نجد الطفل الأنثى يهتم الأفراد دوماً بملاحظة قيمتها الشكلية, حيث يتم ملاحظة تقاسيمها و تكوينها من لون و شعر و عيون و كل مدلولاتها الحديثة كأنثى. و رغم أن هذا الاهتمام التكويني قد يصاحب الطفل الذكر, لكنه لا يُمثل ركناً أساسياً في تقييم المولود. يصاحب المباركة بالمولود الأنثى جملة ثابتة و هي التمني لها بأن «تكون من المستورات» أي أن تُحافظ على شرفها و لا تجلب العار لأهلها, وهي دلالة واضحة لاختزال المرأة لمجرد جسد. اهتمام المجتمع ينصب في ضرورة محافظتها عليه لذا يصبح غاية المُنى أن تحافظ على وضعها كجسد بغض النظر عن الواقع الفكري و الإبداعي لها.

إذا انتقلنا إلى أيام الطفل الأولى, فإن المباركة باسم الطفل الجديد تكون عادة «شايل اسمه» أو «شايلة اسمها», و هي تعكس التمني للطفل دوماً أن يتصف بصفات الشخص الذي سُمي عليه. و عادة ما يسمى الطفل الذكر إما بأسماء دينية أو لأشخاص كان لهم دورهم في الحياة العامة أو الخاصة. و يتصف المُسمى به إذا كان ذكراً بالشجاعة و القوة و الإعالة الاقتصادية, بينما المُسمى عليها الأنثى فعادة ما تكون صفاتها كما يقولون «السُترة» أي الشرف الجسدي و التعامل الإنساني. كما نلاحظ أن الأسماء و تمني التشبه و التماثل بينهما يجعل الطفل الذكر في دائرة التمني بالدور الاجتماعي و الاقتصادي الذي عادة ما كان يلعبه صاحب الاسم.نجد

المعنى اللغوي للاسم دوما له مدلولاته من سمات قوة و ضعف و رقة و خشونة, مع تقسيم جنسي واضح فالأولاد أسماؤهم من حسام و سيف و أسد, و الفتيات من زهرة و وردة و عبير و سوسن.

تمارس الأم عادة التغني لطفلها و هو في شهوره الأولى لتعكس أحلامها هي و إسقاطها لآمالها عليه، حيث نجد أن الغناء للطفل الذكر يدور حول «الدُخري» «عشا البايتات» والتمني له بدور اجتماعي و مركز مرموق. فعادة ما تغني الأم لولدها متمنية له أن يصبح مهندساً أو طبيباً أو ضابطاً على حسب سيادة الوظيفة المحددة في الواقع الاجتماعي. و نلاحظ أن كل التعابير المذكورة لا تنفصل عن الحُلم بدور اقتصادي «ادخار» «عشاءً» نجده مردوداً اقتصادياً لوقت الحاجة. أما الطفلة الأنثى فإن الغناء لها لا ينفصل من الفهم المتخلف كجسد يدور محور الاهتمام به و كقيمة شكلية فقط, حيث تتغنى الأم «بحلاتها» «جمالها» «الما بشبهوها» أو مترادفات أخرى لا تنفصل عن هذا المعنى. رغم أننا نجد فاصلاً حاداً في الغناء للطفل باختلاف جنسه,إلا أننا قد نجد من تستعمل للطفل الذكر مفردات الجمال الشكلي و للأنثى مفردات تتمنى لها وضعاً اقتصادياً و اجتماعياً مميزاً. لكن هذا التداخل لا يعكس أكثر من أنه بوادر التطور الاجتماعي الماثل في البنية الثقافية لمجتمعنا, و يظل القانون العام هو بأن المرأة هي الجسد و الرجل هو العضلات والعائد الاقتصادي. نلاحظ أن غناء الأم يعكس تقسيم الأدوار للطفل حسب جنسه في ذهن الأسرة, حيث يتشكل وعي الطفل برغبة والديه و أحلامهما في وضعه الاجتماعي مستقبلاً.

مع بداية سنوات الطفولة تبدأ عملية غسيل المخ و تقييم وعي الطفل و مَلْئِهِ بالمفاهيم الذكورية. يبدأ في هذا العمر تغذية الطفل بصورة مباشرة أو غير مباشرة بدُونية المرأة بصورة مكثفة, حيث نلاحظ أن الطفل الذكر يُمدح بكلمة «راجل» التي تتطابق مع الفهم الاجتماعي لكلمات «البطولة»

«القوة» «الشجاعة» لذا يُغرس في الطفل بأن الرجولة تعني الهيمنة و السيطرة والبطش. نجد في الجانب الآخر أن الطفل الأنثى توصف دوماً بـ «حلوة» «عروسة», «أمورة» «سُكرة» لتضع هذه العبارات أولى لَبَنَات التقييم الجسدي للمرأة, حيث تُوضع كل كلمات الإعجاب بالمرأة في قالب جسدي يمثل كل الإعجاب كدُمية جميلة. و لا يخفى على القارئ أثر الثقافة التي يتلقاها الطفل في هذه المرحلة, حيث تكون كلمات الإعجاب و عدم الاستنكار الرصيد الأول الذي يتمنى الطفل اكتسابه, و يحاول الطفل الذكر الاستفادة من موضع الإعجاب به كرجل و الطفلة كأنثى, فيسعي كل منهما لكسب الإعجاب و الرضا الاجتماعي لينساقا من غير وعي في طريق الفهم الذكوري المتخلف للإنسان.

تستمر عبارات الردع و الإيحاءات الاجتماعية التي تشكل الطفل تتغير كلما انتقل من مرحلة عمرية لأخرى, ليجد الطفل نفسه في مسلسل متصل يكبله طوال سنين حياته ليتشكل بصورة ليس له فيها يد. عندما يبدأ الطفل في اللعب و الاهتمام بالعالم الخارجي بنظرة تحليلية يحاول مماثلتها في عالمه الصغير من الألعاب, نُلاحظ يد المجتمع تتدخل حتى في هذا العالم السحري الصغير, حيث نجد أن ألعاب الطفل الذكر تكون محصورة في دائرة محددة تتمثل في «حصان، عربة، مسدس، نبلة و كرة» أي أنها ألعاب تُمهد للدور القيادي و الاجتماعي الذي سيلعبه الطفل الذكر مستقبلاً. أما الطفلة فإن ألعابها تنحصر في «عروسة، أدوات منزلية» تلعب فيه دور الأم المربية و ست البيت, حيث تقوم بتقمص دورها كاملاً , فتهتم بغسل دميتها و تمشيط شعرها و هدهدتها حتى تنوم و تقوم بتغذيتها. و تساهم الأسرة بمساعدة الطفلة في ترتيب الحوار بينها وبين طفلتها و مساعدتها في صُنع الدُمي من الأدوات المحلية. تقوم الطفلة أيضا بصناعة الطعام و إعداده بصورة تمثيلية بالاستعانة بأدوات المطبخ من الألعاب التي تمتلكها أو تصنعها بنفسها. يقول بعض علماء النفس

إن الطفلة نادراً ما تعيش طفولة حقيقية, بل هي مرحلة تُعرف عندهم بمرحلة الأُمومة المُصغرة. لا نريد الخوض في دعم هذا الرأي أو نقده بل نؤكد على أن الاستلاب الذي يحدث للطفلة جعل البعض يؤمن بأنه قد ساهم في مسخ مرحلة كاملة من حياتها.

في أوائل سنين الطفولة يبدأ الانفصال بين الجنسين, حيث تبقى الطفلة في المنزل و يُفتح للطفل الباب للاحتكاك بالمجتمع, و يصاحب هذا الانفصال الجسدي تحولاً فكرياً حاداً يُقنن لكل منهما دوره الجديد و كيفية التعامل فيه. يُصبح للطفل حرية نسبية تتمثل في الخروج متى ما أراد للشارع ليلعب و يحتك بالحياة. و عادة تكون ألعاب الطفل الذكر في هذا العمر تتمثل في رياضة الكرة خاصة أو الألعاب التقليدية الأخرى, و التي ترتكز على محور أساسي هو «الصراع من أجل الفوز», و تنحصر كل الألعاب الذكورية في هذا العمر على الفوز و النصر و التفوق, لذا يسعى الطفل لتنمية مقدراته العضلية لضمان الفوز و الإعجاب الاجتماعي. هذه الروح التنافسية الفطرية بصورتها الساذجة يشكل العنف جانباً كبيراً فيها, و يرتبط مكسب الطفل في معظم الألعاب بمقدرته بأن يكون عنيفاً و قوياً و ليحسم كل خلافاته بالمشاجرة. يساهم المجتمع في تغذية هذه الروح العدوانية بصورة واضحة تجعل الطفل يفهم أن إثبات تفوقه يُقاس بمقدرته في ضرب و تأديب أقرانه مما يعطيه وضعاً اجتماعياً بينهم. بل و في داخل أسرته نجد من بين ألعاب الطفولة المقبولة بين الأطفال الذكور و التي لا نجد لها أثراً بين الإناث «لعبة الصيد», حيث يقوم الأطفال بنصب الشِّراك و وضع الأدوات لقتل الطيور. و لا نحتاج هنا للوقوف أمام هذه الظاهرة التي يقوم فيها الأطفال باستجلاب سعادتهم من القتل و هي انعكاس واضح لقيمة العنف التي يتربى عليها الطفل الذكر.

هذه التركيبة البدائية تساهم في تعميق إحساس الأفضلية لدى الطفل الذكر و يبدأ شعوره بأن مكانته في المجتمع أفضل من مكانة أخته التي

تعتمد ألعاب طفولتها في معظمها على التعاون وعدم الإيذاء, بل حتى ألعابهن التنافسية لا نجد بها أي آثار للعنف,فالطبخ و تربية الأطفال والزيارات هي ألعاب تُشكِّل الألعاب المحببة و السائدة بين الطفلات. إذاحاولت أي طفلة كسر هذا الصنم و المشاركة في ألعاب الذكور فإن العبارة الأزلية «ده ما لعب بنات» هي السيف المُسلط, و يمارس الطفل الذكر حقه في منعها و تعنيفها بل وضربها أحيانا إذا استدعى الأمر. لذا يصبح الطفل أكثر نُضجاً كلما مارس سُلطانه على أخواته زجراً و أمراً, فكلما زادت سيطرته و انفصاله عنهن,كلما اقترب من صفات الرجولة. أما إذا كان الطفل كثير الالتصاق بأخواته و لا يمارس أي سيطرة أو سلطة انفصالية و أوامر ذكورية عليهن و تعامل معهن على قدر من الندية, فإن الأمهات كثيراً ما يزجرن هؤلاء الأطفال خوفاً عليهم من أن تقل كمية رجولتهم, و صار من المعتاد أن يُذم أحدهم بضعف شخصيته لأنه تربى وسط البنات. لذا يربى الطفل الذكر باعتبار أن الرجولة هي السيطرة و الهيمنة على المجتمع النسائي و الانفصال و التعالي عليه. فالطفل إذا عبَّر عن أي مشاعر طبيعية مثل «البكاء، الخوف، الضعف» زُجر و حُوصر بالسؤال التقليدي «أنت بنت؟» فيترسخ في دواخله بأن القوة له و أن البكاء و الضعف و الخوف هي من صفات المرأة. ساهمت هذه الصورة ليس في تعميق معاني ضعف المرأة فحسب بل ساهمت أيضاً في تشويه شخصية الطفل الذكر, حيث حرمته من التعبير عن مشاعره بصورة طبيعية و متوازنة مما يُحدث شرخاً واضحاً في نفسيته. في هذه المرحلة من عمر الطفل لا نستطيع أن نغفل الدور السلبي الذي تلعبه العلاقة الأسرية في عكس الواقع بصورة مشوهة في ذهن الطفل.

سرعة تأثير الطفل بما حوله في هذا العمر بصورة سلبية ليس فيها تمحيص أو اختيار, و لا يمكن أن نغفل أثر وضع الأب و الأم في تشكيل وعي الطفل. صورة الأب الكلاسيكية هي صورة المسيطر و الآمر الناهي

و صاحب الكلمة الأخيرة الذي يخرج متى ما أراد و يعود على هواه. مثل هذه الصورة هي المثال الأول للقوة التي يحلم بها الطفل و يعتبرها النهاية المنطقية لنموه, و يحلم بأن يلعب هذا الدور يوماً. من جانب آخر نجد صورة الأم السلبية التي تتقبل أخطاء الزوج بكل الخنوع, وهي التي تأخذ الإذن بالخروج في معظم الأحيان و قد يُفرض عليها ستاراً من المنع. وهي نفس الأم التي إذا قابلت الطفل مشكلة أو أراد مبلغاً من المال فإن الجواب التقليدي «أمشي لأبوك» أو التهديد إذا ارتكب خطأ «حاكلم ليك أبوك», و يصبح الأب هو القوة العليا و تصبح الأم دون أن تشعر كائناً هامشياً مقارنة بالأب في ظروف الحاجة و الصعاب.

عندما تتجاوز الطفلة مرحلة اللعب الطفولي, تبدأ معها مرحلة جديدة وهي مرحلة الأم الصغيرة أو امرأة البيت الثانية, و تبدأ مشاركتها في الأعمال المنزلية، و تعتمد مشاركة البنت في محاولتها لتقديم المساعدة لأُمها «صورتها المستقبلية», خاصة أن احتكاكها اليومي معها يجعلها أكثر إحساساً بمعاناتها, كما أن التشكيل الاجتماعي لها يقودها للعب هذا الدور و تطبيق كل مفاهيم الطفولة و إثبات ذاتها في المجال الذي هيأه لها المجتمع و مسخ شخصيتها لتلعب هذا الدور. يُصاحب هذه الفترة تزايد الحرية التي تُعطى للطفل الذكر و معه تزايد أعباء الطفلة, فكلما مضت الأعوام تزداد حرية الفتى و انفلاته من واجبات العمل المنزلي, و يزداد تسخير المرأة لخدمته, فتصبح مسؤولة عن طعامه و ملابسه من خياطة و أحيانا نظافة و تهتم بنظافة حجرته و خدمة ضيوفه. و شيئاً فشيئاً تصبح الطفلة عُرضة للاستغلال العام و جزءاً من المنزل, ليستلبها المطبخ و تصير دوامة حياتها هي المطبخ و النظافة.

تقوم الأم بالاهتمام بالطفلة بصورة خاصة على قيمتها الجسدية, حيث تكون أولى الهدايا للطفلة تتمثل في حُلي ذهبية «عقد، قرط، خاتم», و الاهتمام بماكياجها الذي يتزايد كلما ازدادت عمراً, فيبدأ بالحُلي و طلاء

الأظافر ثم استعمال الكريمات المغذية للبشرة و الشعر و زيارة الكوافير أحيانا لقصّه و تصفيفه ثم تنتقل إلى وضع الحنة مع الأم في المناسبات. هذا الاهتمام بالقيمة الجسدية يمثل ركناً أساسياً في مسخ وعي الطفلة ليرتبط في ذهنها بقيمتها الجسدية, لذا تنمو في الأطفال الإناث بصورة واضحة الميول الاستعراضية و النزوع نحو كسب الإعجاب لقيمتها الشكلية. نجد على الجانب الآخر أن الطفل الذكر يتشبع بمفهوم ثابت بأن الاهتمام بالشكل هو قيمة أنثوية, حيث لا نستغرب عندما يرفض الطفل أن يستعمل مادة مغذية للبشرة أو الشعر و يصاحب الرفض الكلمة الشهيرة «ليه أنا بنت؟؟».

في هذا العمر يبدأ في الظهور ما يعرف بسُلطان العيب ليشكل سلوك المرأة بوضع قيود اجتماعية تحد من حركتها و إبداعها. عادة ما تخضع الطفلة لهذه القيود حيث تلاحظ أن أمها تعيش هذه القيود في كل حركة من سُلوكها اليومي, و عادة لا يصاحب هذه القيود أي تفسير بل توضع في شكل أوامر تتلقاها بصورة سلبية تتطابق مع علاقة الطفلة مع أبيها في الأسرة الأبوية. و تقوم الأم بدور فعّال في تعميق هذه المفاهيم نتيجة للاستلاب الذي جعلها أسيرة للأيدلوجية التي تقهرها و تستعبدها فيصير الخروج من المنزل عيباً، و اللعب مع الأطفال الذكور عيب، و اللبس القصير عيب، و الوقوف في الشارع عيب، و الكلام بصوت عالٍ عيب، و الضحك بصوت عالٍ عيب, و تتسع هذه الدائرة ليصبح كل شيء مباح للطفل الذكر بالنسبة لها عيب في عيب.. نلاحظ أن هذه الدائرة من العيب تُحِدُّ من حرية الطفلة بصورة واضحة, فتتخوف من القيام بأي حركة حتى لا تقع في دائرة العيب و الممنوعات.

نلاحظ أن أي محاولة للطفلة لكسر هذا الحاجز و هذه الدائرة من العيب الذي يُكَبِّل شخصيتها يكون الردع الجسدي و النفسي هو النتيجة الحتمية، فتُحاصر بصفات قمعية تحاول دائماً كبت طبيعتها التكوينية,

لأن تمردها هو سلوك غير طبيعي في فهم المجتمع، و توصف مثل هذه الطفلة بأنها «محمد ولد» وهي دلالة قاسية تُرمى بها كل من تحاول كسر دائرة الجمود لتوصف بالشذوذ و عدم الاستواء التكويني. قد تختلف صور القمع لكن الهدف واحد و هو عدم السماح للطفلة بالاعتراض على قوانينه. و يعكس قانون العيب تزييف حقيقي لمعنى العيب و الشرف حين ينتقل الشرف من معاني الأخلاق العامة من احترام و تهذيب و وعي.

الخِتان

لا يكتفي المجتمع بقوانينه و قيوده الاجتماعية الظالمة التي تحاول تغيير و تشكيل تكوين المرأة الجسدي لتواكب نظرته الضيقة للأنثى, فيمارس في هذا الطور ما يعرف بعادة «الخِتان» و هي عملية جراحية لها صور كثيرة لكن المعنى واحد, حيث يتم فيها قطع البظر جزئياً أو كلياً و الشفرين و خياطتهما. عملية الختان قُصد بها أساساً قمع و استلاب رغبات المرأة الجسدية, و بالطبع الفارق بين قمع الرغبات و بين تهذيبها و وضعها في إطار فكري و اجتماعي هو فارق واضح. نلاحظ أن عملية الخياطة هذه تمثل خِتم جسدي من اللحم يمنع المرأة من ممارسة الجنس قبل الزواج, و هي دلالة على جودة البضاعة المُشتراة يوم العرس ولا يُهم تجريد المرأة من حق الاستمتاع الجسدي بدون ألم ومعاناة ولا يهم المصاعب التي تُقابل المرأة في الولادة بل و الأخطار التي تُصاحب عملية «الختان» نفسها.

لم يخطر ببال المجتمع أن من ترغب في ممارسة الجنس لا يوقفها هذا الختم الجسدي, فعملية إعادة الختان سِلعة سرية لها مرتادوها, إذن فوجود هذا التشويه لا يؤدي الغرض الاجتماعي المرجو منه. نحن لا نريد أن نقول أن وجود التحايل على هذه العملية يعني فسادها لذا نعارضها. إن المنطق يقول بأنه لو كان هناك إمكانية تحايل أو لم تكن فإن الشرف قيمة معنوية لها مدلولاتها السلوكية و الأخلاقيه والفكرية وليس غشاءً يمنع, فالمنع إذا لم يكن نزوعاً فكرياً و سلوكياً لا معنى له و إن حافظت

المرأة على ألف غشاء. هذا الفهم الاجتماعي القاصر عن الشرف جعل الرجل لا يبحث في المرأة إلا محافظتها على هذا الغشاء معياراً لنقاء سُلوكها و تطوره, و لا يجري وراء فِكرها أو شخصيتها أو طموحها الاجتماعي كإنسان له كينونته.

قد يقول قائل إن هذه القطعة هي معيار مادي للقيم الأخلاقية التي ليست بالشيء المحسوس, فلا نستطيع أن نحكم على المرأة إلا من خلال هذه القطعة باعتبارها انعكاساً لتلك، أي هي معيار مادي لمدى التزام الإنسان بالشرف و الأخلاق.بنفس المنطق يُطرح السؤال نفُسه هل وجود الختان و الغشاء يعني أن الفتاة شريفة؟؟ استناداً على هذا الفهم المُبسط للشرف تَبْرُز مفارقة يمكن أن نقول إنها تقنين لثقافة التزييف و الخداع.. فالفتاة التي كانت تُمارس الجنس ثم أجرت عملية «إعادة ختان» تتحول في خمس دقائق بصورة سِحرية في نظر المجتمع من فتاة غير شريفة إلى فتاة طاهرة نقية, و يُصبح الشرف غشاءً بعيداً عن الالتزام السلوكي بمدلولاته.

إن الاغتراب الحادث لمعنى الشرف و الاختزال لمجرد غشاء جعل من الرجل إنساناً شريفاً على إطلاقه, لأن الرجل لا يملك طهارة أو غشاء يخاف عليه, فالرجل في المجتمع الذكوري له الحق أن يعيش في إباحية جنسية لا تؤثر على شرفه.لذا نجد بعض الرجال يعيشون هذا التناقض, حيث يُعطي البعض لنفْسِهِ الحق المبتذل بصورة تعسفية و يحاكم به المرأة بصورة ظالمة ليس لها أساس منطقي. يتعدى هذا التناقض مرحلة القبول عند المجتمع الذكوري ليصبح حقاً يتعامل معه بعض الرجال بكل الفخر و الاعتزاز, بل يتفاخر به وسط المجتمعات الرجالية خاصة و يمتد تأثيره للمجتمع النسائي لنسمع عن «دون جوان» ,«خطر» ,«ما قاعد في الواطة», «شايف شبابه», و القاموس طويل لكن المهم أن هذه الظاهرة تجد إعجاباً في قطاع كبير من المجتمع, مما يجعل الرجل يسدر في غيه ليكسب الإعجاب و يتفاخر بعقدة مرضه الذكوري الذي يُبارك له فيه

الواقع الاجتماعي.

نلاحظ تأثير هذا الفهم المتخلف في تشكيل الوعي الثقافي للمجتمع في اشتقاقاته اللفظية, فبينما تُوصف المرأة ذات العلاقات الجنسية المتعددة بأنها «عَاهِرَة», فإننا لا نجد في القاموس الذكوري لفظ «الرجل العَاهِر» بل يصبح الرجل ذو العلاقات المتعددة هو «الرجل المُجرب» كأن المرأة حقل تجارب يكتسب منه الرجل خبراته و تصبح موضوعاً و لا يهم ما يحدث لها, لكن المهم أن يصبح دون جواناً ذو خبرة في أمور النساء.

نتيجة لهذه السيطرة الذكورية على المجتمع نجد أن الأمثال و الحِكم و الثقافة بصورة عامة تسير في هذا الركب. فنجد المثل الشعبي يقول «الرجل ما بعيبه إلا جيبه» و المعنى واضح و هو يعكس الفهم السائد الذي يقول إن الوظيفة الأساسية للرجل هي الانفاق, و إذا فشل في هذه الوظيفة و قع في العيب ,أما ما عدا ذلك فهو مُباح للرجل أن يرتع فيه كما يشاء حتى لو تعارض مع الفهم الديني و المنطقي. و كثيراً ما نسمع «السَّكَرْ بِتَاع الرُّجال» ,»السِّجِنْ بِتَاع الرُّجال», «...... بِتَاع الرُّجال « و يمكن أن نضع أي موبقة حرام على المرأة بينما يستطيع أن يمارسها الرجل إذا حافظ على وظيفته في الانفاق فلا تؤثر على شخصيته. أما إذا أردنا وضع مثل شعبي ليعكس واقع المرأة لما وجدنا أصدق من أن نقول «إن العيب هو المرأة» حيث يُمارس على المرأة قمع اجتماعي: فصورتها وشكلها و مشيتها و كلامها و شعرها و سلوكها كلها في هذا الإطار عيب في عيب. فالمرأة لا يعيبها انحطاط قيمتها الفكرية و لا سطحية ثقافتها بل كل هذا لا يؤثر إذا حافظت على جسدها, حيث يتم التطابق بين مفهوم العُذرية و النقاء والطهارة و الشرف, و هو تطابق كما أسلفنا مُزيف لأن شريحة غير قليلة من الفتيات لا يمنعها من ممارسة الجنس التزام فكري بقدر ما هو خوف من القمع الاجتماعي. لذا لا نستغرب أن نجد بعض من الفتيات لا يمانعن من ممارسة الجنس دون المباشرة الكاملة و ذلك حتى تحافظ على خِتم

شـرفها المُزيـف أمـام المجتمـع.

هنـا يجـب أن نثبـت نقطـة هامـة: إن الدعـوة بـأن يُصبـح الغشـاء و الختـان معيـاراً للشـرف لا يعنـي المنـاداة بالإباحيـة الجنسـية و انتقـاد معنـى العُذريـة , والطُهـر المزيـف لا يعنـي المنـاداة بالتحلـل , لكـن هـي محاولـة لكسـر حاجـز التقوقـع الـذي يعيشـه المجتمـع الذكـوري الـذي يربـط معانـي الفضيلـة و الالتـزام الفكـري والثقافـة بالنسـبة للمـرأة فقـط بهـذا الغشـاء لدرجـة الهَـوَسْ, و أصبـح وجـود هـذا الغشـاء جـواز مـرور يغطـي علـى كل النواقـص و العيـوب فـي شـخصية المـرأة ممـا يـؤدي لاختـزال كل القيـم الإنسـانية التـي يجـب علـى المـرأة السـعي لتحقيقهـا لتطـور شـخصيتها و تصبـح عضـواً فـاعلاً فـي المجتمـع, فنجـد كل هـذه القيـم لا تمثـل وزنـاً مقارنـة مـع الاهتمـام النرجسـي بالختـان و الغشـاء. إذن فليوجـد هـذا الغشـاء بـدون هـذه العمليـة المشـوهة التـي تعـرف بالختـان و يكـون اهتمامنـا بدعـم الواقـع الفكـري و الثقافـي للمـرأة.

نجـد أن فـض هـذا الختـم الجسـدي يعكـس جانبـاً مـن الـرُوح العدوانيـة و نزعـة التملـك عنـد الرجـل والتـي أثبتنـا أنهـا نتيجـة لعمليـة تشـكيل ثقافيـة و تاريخيـة لـه. حيـث يجـد بعـض مـن الرجـال مُتعـة مرضيـة لا يسـتحي أن يتنـدر بهـا و يتفاخـر بمقـدار الألـم الـذي اسـتطاع أن يزرعـه فـي قلـب شـريكته متباهيـاً بمقدرتـه الجنسـية الهائلـة, و نجـد أن رد المجتمـع لمثـل هـذه الأحاديـث القبـول و الإعجـاب, و قـد يُشَّـبه أحيانـا بأنـه «رجلٌ فحـل» و حقيقـة هـو كذلـك فهـي صفـة تُرمـز للحيـوان الهائـج الـذي يُؤتـى بـه للتهجيـن و التناسـل فقـط.

فـي الواقـع العملـي و أثنـاء العمليـة الجنسـية كلمـا ازداد ألـم المـرأة كلمـا ازداد اسـتمتاع الرجـل و ازداد افتخـاره بمقدراتـه الجنسـية, ممـا يَرمـي بظلالـه علـى قصـص بطولاتـه و نرجسـيته تجـاه تكوينـه الجنسـي. و نُلاحـظ أن الرجـل لا يكتفـي بسـيادته علـى المـرأة فـي أولـى لياليـه معهـا بـل يتلـذذ باسـتمرار برنامـج الألـم هـذا حتـى بعـد أن يـزول الظـرف الطبيعـي الـذي سـببه. بـل يسـعى لاسـتعادته حيـث نلاحـظ أن المـرأة بعـد الـولادة تُجـرى لهـا عمليـة «إعـادة

الطهارة» أو ما يعرف «بالعَدلة» و تتم دائماً بناءً على طلب الزوجة و في بعض الأحيان على طلب الزوج، ليعود مسلسل الألم و سعادة الرجل المريضة به و فرح المرأة المقهورة برضا زوجها عنها و سعادته.

نجد أن هذا الجدار الذي تصنعه الطهارة أو الختان يلعب دوراً مهماً في حياة الرجل، حيث يعتبر أن أولى خطواته لإثبات رجولته هو اختراق هذا الجدار، و يُمثل جزءاً أساسياً في تشكيل هيبته أمام زوجته و أمام المجتمع مستقبلاً. قد يحدث أن يكون «الختان» من النوع الذي لا يمكن إزالته بدون مساعدة طبية بعملية جراحية مُحددة، و عادة ما يعتبر الرجل أن هذا الجدار تحدياً لرجولته يجب تجاوزه و لا يفكر في مقدار الألم الذي ستصاب به شريكته بل هاجسه هو الثأر لرجولته الجريحة، ولا يصل إلى مرحلة الاستشارة الطبية إلا بعد أن يفشل ولا يجد أمامه مفراً ليأتي الطبيب مُنكس الرأس مطعون الكرامة، و هي مهزلة تدعو للرثاء عندما تصبح الرجولة هي مقدرة أحدهم في اختراق جدار لحمي حتى و لو كان غير ممكن اختراقه، و يستحيل ذلك منطقياً وطبياً و حتى لو كان يسبب ضرراً جسدياً و نفسياً للمرأة.

هذا الغشاء الذي أخذ كل هذا الاهتمام و كل هذه القيمة السحرية في ذهن الرجل فإنه يخلق إحساساً بالرعب و وسواساً يطارد الفتاة بالمحافظة عليه دون أن تُغذي عقلها و روحها بأبعاد فلسفية و فكرية تساعد في تقدمها.

نجد أن البعض يُدافع عن هذا التشويه المسمى «بالختان» حيث يجد رضاءً عند الأطفال مشوباً بالفرحة. ثانياً حتى لا «يتعقدوا» أو يشعروا بالنقص لعدم إجراء هذه العملية لهم خاصة أن الضغط الاجتماعي عليهم سيكون كبيراً، و ليس للأطفال مقدرة على الوقوف أمام تلك الكلمة البشعة «ما مُطهر» التي تجرح مشاعرهم.

يحق لنا أن نتساءل متى كان فرح الطفلة هو المعيار الحقيقي لصدق

هذه العملية أو تلك؟ و كلنا يعلم أن فرح الطفلة لا يأتي من العملية نفسها لأنها لا تدري عنها شيئاً بل يكون الفرح نتاجاً لرغبتها في الطقوس الاحتفالية و الهدايا التي عادة ما تواكب عملية الختان. أما الحديث عن قمع المجتمع فسؤالنا هل هذا القمع على حق أم على باطل؟ فإذا كان القمع على باطل يجعل الإنسان أطفاله ضحية هذا القمع خوف الدخول في معركة صغيرة لإعطائهم الحق أن يعيشوا غير مشوهين.

أما الأمهات فيتعاملن مع هذه العملية استناداً للفهم الساذج بأنها ستقلل الشهوة الجنسية للمرأة و تضمنها من الزلل. و تسمى عملية الطهارة أو الختان بأنها عملية إزالة «الوسخ», «القذارة», «العفن». مع هذا القمع اللغوي تخاف الأمهات و يحسبن أن البنات غير المختونات لا يتزوجن. وهو إعلان سافر عن قيمة المرأة كسلعة تُشكَّل على حسب احتياج السوق و بضاعة يحكمها قانون العرض و الطلب.

في عملية الاستلاب و التشويه السابقة لا نجد للطفلة رأي سوى أن كل هذا القهر والقمع يقع عليها مما يساهم في تشكيل وعيها سلباً و وضعها كأداة لاستمتاع الرجل و ليس لها دور إيجابي سوى الانتظار و تقبُّل كل أنواع الألم و التشويه.

صناعة المرأة الصغيرة

عندما تبدأ الطفلة في الدخول إلى أبواب الوعي و الادراك لذاتها و واقعها الاجتماعي نجد أن شخصيتها قد أصبحت شخصية «موجود منزلي أليف» ارتبط بالعمل المنزلي, حيث أقصى كلمات الثناء التي تسمعها الفتاة في هذه المرحلة و أصدقها بأنها «خدامة» أي أن وجودها لا ينفصل عن دائرة الطبخ و تجهيز المنزل و ترتيبه و الاهتمام به لتحقيق رغبات المجتمع الذكوري الذي يُؤمن بأن المرأة مكانها المنزل و دورها الحقيقي هو تهيئة المكان الملائم للرجل ليستطيع أن يُبدع و يخدم المجتمع. يدَّعون أن المنزل مملكة المرأة و لكن سُرعان ما تكتشف الفتاة زِيف هذه المملكة التي

تستلبها إمكانياتها لتصبح مجرد أداة تقدِّم الخدمة و الراحة لغيرها. نجد أن الفتاة «الخدامة» تنال كثيراً من الثناء و الاحترام الاجتماعي، أما الفتاة التي لا تُجيد الخدمة المنزلية مهما كان تفوقها الأكاديمي وا لاجتماعي فإنه لا يُغفر لها عدم إجادتها للأعمال المنزلية و تصبح مجال تندُّر مثل «ما بتعرف الكِسرة و المُلاح» «أهلها ما عِرفوا يربوها» أو «مارقة زي الولد ما منها فايدة». ولا يكون الدفاع عن مثل هذه الفتاة بالدفاع عن امكانياتها الثقافية و الفكرية التي لا تقارن بالعمل المنزلي, و لكن عادة ما يستند الدفاع على أن هذه الفتاة يمكن أن يُوفر لها خادماً و طاهياً بالنيابة عنها, أي عليها أن تتفوق في العمل الاجتماعي و لا يعفِي المرأة عن دورها المنزلي المكتوب عليها حيث يمكنها أن تؤجر من يقوم به بالنيابة عنها و لكن لا يسقط عنها أبداً.

في هذا المجتمع المغلق الصغير تنشأ تحت حماية الرجل و قانونه و نظرتها للحياة تَمُرُ من خلاله مما أدى لمحدودية احتكاكها بالمجتمع و قادها لأن تكون في خوف مستمر من الحياة العامة و النشاط الاجتماعي, و تحتاج لجُهد عظيم حتى تتخلص من ذلك. نجد كثيراً من الفتيات يعانين من خوف داخلي عميق من العمل الاجتماعي بل و من الخروج خارج أسوار المنزل لوحدها, و لا نستغرب عندما نجدها تصطحب معها أخاها الصغير الذي قد يكون طفلاً ليعطيها الثقة في نفسها و بعض الأمان الكاذب. تحاول بعض الفتيات تفسير هذا المسلك بأن وجود مرافق معها ينفي عنها شُبهة الخروج بلا سبب أو بدون علم أهلها مما يضفي عليها نوع من الاحترام يحميها من المعاكسة و الكلام الجارح. هذا الفهم يُقدم صورة للانصياع للواقع حتى و إن لم تؤمن به, فبدلاً من أن تُناضل و تحاول أن تُثبت للمجتمع أن سلوكها هو الرقيب الوحيد على حريتها الفردية, فإنها دون أن تقصد وافقت للمجتمع أن يُمارس سُلطانه عليها لتقنن له المفاهيم, و كان بالأحرى أن تسعى لهدمها.

مع مراحل سنين النُضج نجد أن الفتى عادة يحاول إثبات بلوغه مرحلة الرجولة, فتظهر عليه محاولات التمثيل و تقليد صفات من هم أكبر سناً. و عادة يكون هذا التباهي مظهرياً و ليس جوهرياً, حيث نجد أن معظم المُدخنين قد تعلموه في محاولاتهم لإثبات رجولتهم و على نفس المنوال نجد الخمر و العلاقات العاطفية.

هذه الأشياء تُمثل للفتى بصور متفاوتة محوراً أساسياً يشغل تفكيره في محاولاته لإثبات رجولته, ولا نريد تناول هذا الفهم المشوه للرجولة لكن نريد عكس التناقض في مفهوم العيب بالنسبة للمجتمع في هاتين الظاهرتين. حيث نلاحظ أن عادة التدخين التي لا تجد الانتشار و الرضا بل تعتبر أساسية عند البعض, إلا أنها تمثل عيباً كبيراً إذا مارستها أحد الفتيات فإنها تقع بصورة تلقائية في دائرة النساء الساقطات. و رغم عدم وجود تبرير منطقي لتحريمه على النساء و تحليله للرجال فإننا نجد بعض النساء لديهن تحليل و إباحة و هن الطاعنات في العمر, فنجد المجتمع لا يستغرب عادة التدخين بين الأجنبيات. إذن فالقضية ليست ارتباطاً سحرياً بين التدخين والرذيلة و المرأة السودانية. ولا نحتاج إلى القول بأن هذا المنع إنما هو صورة من صور القمع الاجتماعي التي تسود فيه أخلاق الرجل و قوانينه بصورة تعسفية بعيدة عن أي منطق, و هذا القانون المتناقض لا يُثير تساؤلاً عند كثير من الناس بل حتى التقدميين تشع في عيونهم الدهشة عند مشاهدتهم لفتاة تُدخن.

هنا يجب أن نثبت أن القضية ليست قضية تدخين المرأة أو عدمه باعتباره حق يجب النضال لتحقيقه، إنما هي محاولة لكشف الواقع المتخلف و عكس كمية التناقضات التي تبيح حرية الخطأ و الصواب لجنس دون الآخر دون تبرير منطقي لذلك. و كما أسلفنا فإن القانون الذي لا يسنِده أي فهم منطقي يسهل التحايل عليه. فكل المحرمات التي يحللها الرجل و يحرمها على المرأة, و في نفس الوقت تستطيع المرأة أن تمارس

بعض هذه المحرمات, و على سبيل المثال ممارسة طقوس حلبة الزار تحت رضا و موافقة المجتمع, و هي عملية تفريغ للقمع الاجتماعي حيث يحق لها التدخين دون اعتراض بل تحت نظر المجتمع الذكوري و موافقته.

يمكننا أن نلاحظ أيضا أن من ضمن مكتسبات الرجل الاجتماعية و المحرمة على المرأة حرية العلاقات العاطفية, فهي حرية تسمح للشاب أن يلتقي و يراسل من يشاء من الفتيات، بينما نجد أن المرأة لا يُسمح لها بهذا الحق أبداً.

قد تكون العلاقات جادة أو غير جادة, فهذه ليست هي القضية بل القضية هي إحساس الرضا الذي تُعطيه للرجل فيسعى في تعميق هذه المفاهيم. يعيش الشاب في صورة د. جيكلومستر هايداي بأن يعيش التناقض حيث تتملكه شخصيتان أحدهما تُتيح له العلاقات العاطفية و تتسم بالشخصية الاجتماعية المرحة المتفتحة نحو الحياة و هي شخصيته خارج المنزل, أما الشخصية الأخرى فهي الجادة المتجهمة التي ترمي بظلالها على صورته داخل المنزل حيث لا يسمح و لا يرضى لأخته أن يكون لها علاقات مع فتيان صداقة كانت أم عاطفية, وإذا سمع الأخ و لو همساً غير مُثبت عن علاقة بين أخته أو قريبته و أي شاب فإن مصيرها التعنيف و الزجر وقد يصل إلى مرحلة العقاب البدني و ذلك استناداً على القضية الأساسية «عاوزة تفضحينا» باعتبار أن علاقتها و مشاعرها فضيحة و عار على العائلة و مشاعره هو قصائد فخر و رجولة.

لا تستطيع الأخت أن تحكي بمشاعرها لأخيها رغم علمها أنه يعيش نفس التجربة, لكن الأخلاق الاجتماعية تجعلهما يتعاملان من منطلق ينفي وجود أي إحساس أو مشاعر بكل منهما, فيجد الأخ مُتنفساً يحكي و يعبر عن مشاعره الخاصة باعتباره شهادة فخر وعز.

هذا التناقض يجعل الفتاة تنزوي على نفسها خالقة عالم سري خاص بها تعيش فيه وحدها في أحلام سحرية, و قد تُدخل معها صديقة

لهذا العالم حيث تصنع لنفسها عالماً بعد فشلها في أن تجد نفسها في هذا الوضع المتناقض. عادة ما يكون عالمها السحري هذا خيالياً يفتقر للموضوعية, يُغذيه كثيرٌ من الإحباط و الملل والحرمان العاطفي. و لا يمكن أن نغفل أن ضعف تجربة الفتاة و طمس ذاتها يجعل رغبتها في تغيير الواقع و سعادة المستقبل لا يقودها لتطوير ذاتها تجاه هذا الواقع الغاشم, بل يجعلها تحلم بالعريس الذي ينقذها من براثن الملل إلى دنيا السعادة . و كما نرى الاستلاب الذي يجعل المرأة لا تفكر في التغيير بذاتها بل تحلم بعامل خارجي يُخرجها من هذا الظرف إلى عالم جديد تحلم أن تجد ذاتها فيه. لذا نجد الاهتمام بالقصص العاطفية و المجلات النسائية يمثل ركناً هاماً في حياة المرأة في هذا العمر, و يزداد اهتمام المرأة في رسم مجتمع خيالي فيه الفارس الذي يهتم بها و ينقذها من حياة الملل و الجمود و التسلط.

يُساهم المجتمع في تثبيت دعائم العالم السحري للمرأة, حيث يسعى لترسيخ مفهوم الزواج باعتباره الخاتمة المنطقية السعيدة و البداية لحياة كل امرأة لتحقيق هذا البرنامج ليحقق لها حياة جديدة و حتى لا تقع في دائرة العوانس «بايرة» ويمثل الزواج و الخوف من عدم اللحاق بالقطار هاجساً حقيقياً. يجب أن لا نتجاوز هذه النقطة دون الإشاره للتأثير السالب للختان على الزواج, فخلافا لتأثيره على العلاقة الجسدية و الألم المُصاحب فإن تأثيرها على الولادة بصورة كبيرة لدرجة قد تُعَرِضْ حياة الأم و الطفل للخطر.

تقاليد الزواج

تبدأ أولى الخطوات و العريس في رحم الغيب بوضع الفتاة لمواصفات مُحددة لهذا الفارس في عقلها ثم تبدأ في التجهيز و التحضير لبيت المستقبل, و يمتلك هاجس الزواج جزءاً عظيماً من تفكير المرأة في هذه الفترة و هو انعكاس طبيعي للتشكيل الاجتماعي.

نجد أن أكثر الأمثلة وضوحاً و اختزالاً للمرأة فيما يسميه المجتمع بالحب من أول نظرة. يعتبر هذا المثال انعكاساً واضحاً لاختزال الحب لقيمة

جنسية ,فأول نظرة هذه لا تكشف من الآخر إلا قِيمه الشكلية فلا يُعرف منها إلا عيونها و لونها و شعرها و جسدها عامة, و يصبح التعلق بهذا الشخص تعلق اختزالي يتحول فيه الإنسان إلى مقاسات و أشكال صنمية.

هذا العشق ليس له دافع سوى شهوة الجنس و رغبة الامتلاك الجسدي، ثم يبدأ هذا العاشق الولهان في إضفاء صور تضخيمية لها يساهم فيها المجتمع الذكوري المكبوت و يغذي بها خياله المبرمج. كم شخص من هذا القبيل قد أحب فتاة حباً جارفاً اعتماداً على شكلها وبدأ في التمهيد للتحدث معها ليس رغبة في معرفة أبعاد شخصيتها بل رغبة في التقرب والتودد إليها. وعادة كل عيوبها الفكرية و الشخصية تجد الغفران و الصفح , فقانون المجتمع هو «الأخلاق بتتربى» أي أن الجسد هو المحك الحقيقي. كما ذكرنا أن علاقة الحب لها ثلاثة مكونات لا تكتمل الا إذا توفرت كل هذه الأركان.رغم التحفظ تكون بداية العلاقة هي مرحلة الشبق و الانجذاب الجنسي و لكن حتما لا يمنع هذا من أن تتطور و تضيف لها بقية الأركان لتصبح علاقة حب ناضجه.الأزمة الحقيقية تبدأ عندما تتوقف العلاقة عند المستوى الجسدي فيصبح هو المحور الوحيد فلا تتطور و لا يمكن أن نصفُها بعلاقة حب.إن العلاقات التي تبدأ من هذا الركن رغم صعوبة تطورها لكن لا يعني الاستحالة, فإن من يهتم بتطوير العلاقة و إضافة قيم الحميمية و الالتزام موعود بعلاقة ناجحة و متوازنة.

إن أزمتنا مع العلاقة التي لايكتمل فيها مثلث الحب و تقف في محطة الجسد.مثل هذا النوع من العلاقات تجد رواجاً ليس بالقليل في مجتمعنا و قد تختلف صوره و أشكاله لكن المنطلق واحد، فإننا نسمع من شاهد فتاة في حفلة و أُعجب بها وتزوجها بهذه البساطة أي أنه لم يعجبه منها إلا وجودها الشكلي. و قد تختلف الصورة حيث نسمع من تزوج بعد أن اختار له أفراد عائلته وإخوانه إحدى الفتيات أو مجموعة من الفتيات

ليوافق عليها و يبدأ برنامج الحب المزيف «المصطنع». بدأنا نسمع بمن تزوج بعد أن شاهد صورتها أو شاهدها مرة, و قد سمعنا بمن تزوج فتاة شاهدها في شريط فيديو في مناسبة. كل هذه الممارسات والصور تعكس قضية واحدة وهي فهم المجتمع لعلاقة الحب كإحساس جنسي يبحث عن الارتواء. نحن هنا لا نعفي المرأة من المسؤولية ولكن لأن الاختيار في المجتمع جعل للرجل دوماً حق المبادرة فجعلنا في هذا النوع من الممارسات التي تنتقد فكر الإنسان المبادر.

أما الصورة الثانية و هي السائدة فإنها تسير بخطى أقل سرعةً لتضفي بعداً فكرياً لهذه العلاقة. تبدأ العلاقة بإعجاب مبهم قبل أن يعرف الاثنان عن بعضهما شيئاً و يلعب التكوين الجسدي للمرأة دوراً لا يستهان به في اللبنات الأولى لهذه العلاقة. و يصبح الهوس والشغل الشاغل للعاشق هو استعادة قيمتها الشكلية خيالاً و فناً و شعراً, حيث يسود التغني بالمحبوبة ذات الشعر و العيون و الخصر و الطول واللون وتصبح المحبوبة كمية من المقاطع الجسدية التي تستلب عقل المحبوب. عندما يلتقي الطرفان تكون المرأة قد أكملت استعدادها لإبراز أجمل ما لديها حتى تستطيع استلاب الآخر. عادة أجمل ما لديها لا يكون فكرها أو شخصيتها بل هو زيها و شكلها لذا تحاول إثارة انبهاره بقيمتها الشكلية. و لا يخفي علينا كمية الزمن الذي تستهلكه المرأة التي تريد أو تتوقع مشاهدة من ارتبطت أو سترتبط به في علاقة عاطفية. هذا الانبهار الجسدي قد يغطي على أي ضعف أو عدم توافق فكري بل قد يجد التبرير المنطقي، أي أن القضية هي انبهار جسدي بصورة مهذبة. هذه العلاقة لاستنادها على سيطرة الرجل و مبادرته نجد أن الالتزام العاطفي لا يأتي نتاجاً لتطور موضوعي لعلاقة اجتماعية و فكرية تصل لذروتها, ولا تحتاج في معظم الأحيان لشهادة إثبات لفظية, يقوم الرجل عادة «بطرح مشاعره» لأنثاه بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة, و عادة تطلب مهلة للتفكير قبل إصدار القرار وقد يكون هذا

القرار تحصيل حاصل لكن ضرورته تنبع من مفهوم الدلال و التمنع الأنثوي. بعد عملية تقليب للواقع و مقارنة مع شخصية الإنسان المتقدم و مركزه الاجتماعي يأتي القرار, و يعتبر القرار هو حاصل عملية تجارية لموازنة الغرض المطلوب مع أحلامها و خيالها نحو المستقبل. و قد تساهم الصديقات في حسم هذه القضية بعكس وفضح صفات هذا العاشق، فإذا كان القرار بالإيجاب تصبح بصورة سحرية مُدلهة في حبه و تنمو و تزدهر هذه العلاقة التي أفرزها قرار نتيجة لعملية حسابية محددة.

من الملاحظ أن مثل هذه العلاقة تتسم بالفارق العمري والفكري و الاجتماعي بين الرجل والمرأة رغم أن الاختلاف ليس عيباً في حد ذاته و لا نرفضه على إطلاقه و لكننا نرفض الاختلاف الذي يختاره و يقنن له المجتمع لتجد المرأة في علاقة الرجل الذي يحميها و تحس بالأمان تحت كنفه أي تقنن للضعف الأنثوي بصورة واضحة و إشباع ذاتية الرجل المبرمجه بإحساس التفوق والهيمنة والسيطرة, لينعدم التواصل الفكري والثقافي الذي يعتمد على الندية المفتقدة في هذه العلاقة. لذا نجد أن العلاقة تسير في خط لاتجاه واحد أحدهم الخبرة والقوة و الإيجابية والآخر السلبي الذي يحتاج للحماية و المتلقي دوماً. نجد بعض المثقفين يتزوجون نساءً ليس لهن في الثقافة حظ أو نصيب, بل هن أميات أكاديمياً وثقافياً. مثل هذه الصورة تعكس معنى الزواج ومفهوم الحب في أذهانهم , حيث يعكس التناقض بين ثقافتهم الأكاديمية و ضعف وعيهم الذي يجعلهم يعيشون تحت سقف واحد مع من لا تستطيع أن تعكس أزماته الفكرية و الثقافية و الاجتماعية ,لكنها تشبع له إحساس الهيمنة والإشباع الجسدي المشوه, فلا تستغرب عندما نجد بعض التعابير قد أصبحت شائعة حيث تسمع «دي تتزوجها تملأ ليك حياتك مشاكل» أو «دي لو عاوزها تعمل ليك شاي تقول ليك أقنعني» أو «نحن الكلام في السياسة والفكر في الشارع بنزهج منه ما معقول نلقاه في البيت معانا»

,»البيت للراحة» . هذه المفاهيم عند بعض الأكاديميين الذين يمكن أن يعجبوا بامرأة مثقفة, و لكن للزواج ينحرف تفكيرهم بسرعة نحو جاهلة أو نصف متعلمة. إن البعض يتهيب من الزواج من المرأة المثقفة و المعتدة بنفسها, و ليس بالضرورة إعجاباً بالتي ليس لها من الثقافة نصيب ولكن قد يكون جزءاً من خوف داخلي من النساء ذوات الشخصية القوية التي لا تتطابق صورتها مع الصورة المسبقة المرسومة للأنثى سهلة القياد.

عرض الزواج

عندما يريد أي شاب الزواج فإن هذه العملية تتم بطقوس محددة و قوالب كلاسيكية تعكس الفهم الذكوري الذي يسيطر على المراسم الاجتماعية. مثلا أحيانا نجد البعض يقول «يريد شاب الزواج» فإننا نعني ما نقول حيث الإرادة و الرغبة والتحرك الإيجابي للزواج هو من صفات الرجل وليس سواه, لذا لا نستطيع أن نقول الجملة المنطقية «يريد شاب أو شابة الزواج» لأن الواقع لا يسمح لنا بهذا الحلم الجميل. يترجم الرجل رغبته في الزواج بعد الاختيار الذي تحدثنا عنه سابقاً في عملية تتمثل في الذهاب لأهل عروس المستقبل لأخذ الموافقة المبدئية «طلب يدها». هذه العملية عادة تكون برنامجاً رجالياً ليس للنساء فيه دور. هذه المبادرة الرسمية قد يسبقها اتفاق مسبق نتيجة لعلاقة عاطفية, و هذه قليلة نسبياً أو بواسطة رسول ليضمن الضوء الأخضر. و رغم أن هذه الظاهرة تنتفي فيها فرصة الاختيار الحر إلا أنها بلا شك خطوة في مصلحة حق المرأة, حيث أصبح للمرأة رأي يهتم به حتى لو كان من خلف القنوات و المراسم الرسمية. هذا التطور النسبي لا نستطيع تجاهله خاصة وفي بالنا صورة الفتاة التي ليس لها رأي و لا تناقش بل عليها الانصياع لرأي الأسرة. هذه الصورة بدأت في التراجع مع ازدياد الوعي الأكاديمي و لكن لا نستطيع أن نقول إنها قد انحسرت بل مازالت في بعض المناطق صورة سيطرة رأي الأب هي السائدة, حتى إذا استطاع الشاب أن يحصل على موافقة الفتاة

فهذا لا يعني أبداً نهاية المطاف بل الكلمة الأخيرة للأسرة المتمثلة في الأب. لا يستحي الأب بأن يطلب من ابنته الموافقة على العريس لأنه أعطى كلمة, و قانون المجتمع الذكوري أن تعيش «كلمة الرجال» و تتحطم حياة إنسان, و عادة ما يتعدى مرحلة الطلب إلى الأمر. لا تستطيع المرأة مهما أوتيت من علم أو ثقافة أن تكون هي المبادرة بالاختيار بل إذا فعلت ذلك فإنها ستكون في نظر المجتمع الذكوري امرأة غير سوية فكرياً وأخلاقياً بل إنها إذا فعلت - و يندر ما يحدث- فإنها ستكون مثار سخرية و تندر في مجالس الرجال وتعتبر أنها قد أهانت نفسها وابتذلتها. نجد إنتشاراً في هذا الفهم للرجل الأمي أو المثقف الذي لن يرضى أو يخاف أو بالحد الأدنى يتخوف و يتشكك أن تعلن له فتاة إعجابها و تبتدره بإعلان عواطفها, لأنه لا يرضى في قرارة نفسه بالنصر الرخيص إنما يحلم بالتمنع و الصدود الذي يشبع غروره المريض, و الدور الإيجابي والأقوى هو الذي يصنع القرارات و لا يرضى أن يكون في الانتظار. هذا الوضع جعل المرأة تسعى لإعلان مشاعرها بصورة غير مباشرة و تخشى المصارحة حتى لا تقع في دائرة الاضطهاد الاجتماعي وعدم رضائها الذاتي إن فعلت ذلك نتيجة للقمع الاجتماعي الذي يشعرها بدونيتها وابتذالها.

هذا الفهم الاجتماعي يتناقض مع السابقة الدينية المتمثلة في خِطبة السيدة «خديجة» للنبي ﷺ حيث خطبته إلى نفسها و لم يكن في ذلك ما يشين, بل كانت كما قال الرسول ﷺ أعظم النساء ساندته عندما خذله الناس. كما نرى هذا التناقض الاجتماعي الذي تسود فيه المفاهيم الذكورية على الفهم الديني.

عندما يطرح العرض المقدم للفتاة لمعرفة رأيها والتي عادة تكون مصاحبة بحصار نفسي يضرب حولها, حيث تقدم الشخصية بصورة تشريحية تضخيماً لمحاسنه أو مساوئه حسب رأي الأسرة فيه, ثم يُختم العرض بالقول التقليدي «في الآخر الموضوع ليك لكن ده زول كل البنات

بتمنوه, أو زول ما مسؤول مصيرك تجينا راجعة زعلانة بأولادك». و تصاحب مثل هذه الجمل إذا لم تجدي أحيانا مقاطعة وقتية إظهاراً لغضب أحد الوالدين , و إذا فشلت كل هذه الأساليب قد تصل إلى مرحلة التهديد الفعلي والعملي والذي عادة ما يَربط مصير الفتاة بمصير العائلة, فنسمع بمن يقسم بالطلاق إذا تزوجت البنت, أي أن تهدم الفتاة حياة أسرتها بطلاق أمها التي ليس لها ذنب سوى وضعها الدوني الذي يجعل للرجل الحق في استعمال حق الطلاق و متى ما يشاء و في أي ظرف. نادراً ما تصل الفتاة لمرحلة الذهاب للقضاء لإبرام عقد زواج مرفوض من الأسرة لأن هذا الإجراء يعني أن الفتاة قد قررت رسم حياتها بنفسها مما سيؤدي حتماً لمقاطعة تامة من أفراد أسرتها.

نجد أن المرأة قد أصبحت تمتلك حرية نسبية أكثر بكثير من واقعها قبل أعوام وجيزة مضت, وأصبحت هذه الحرية سمة طبيعية في بعض مناطق الوعي مقارنة بغيرها. هذه الحرية النسبية هي حرية مشروطة نهائياً تنتفي تماماً في بعض الظروف و المواقف ليرتفع وجه دكتاتورية الأسرة القبيح معلناً الرفض. فالحرية في الاختيار ليست مطلقة بل هي حرية اختيار فيمن اجتازوا مرحلة القبول الأولي حيث يجب ألا يتجاوز الرجل المعايير الاجتماعية بصورة متعسفة. أهم بند في هذه المعايير هو الاختلاف الاجتماعي والعرقي واللوني , و يتفاوت الرفض والقبول لهذه المعايير حيث يمثل الاختلاف الاجتماعي و التفاوت الطبقي عاملاً ليس مؤثراً دائماً ولكن لا ننكر دوره في بعض الشرائح البرجوازية. أما المقياس العرقي واللوني فإنه عادة ما يكون قاطعاً و حاسماً ويمكن أن نقول إنه عامل حاسم بصورة مطلقة في معظم الطبقات الاجتماعية و هو إفراز تاريخي للصراع القبلي الذي جعل الإيمان بدونية بعضهم هو القانون السائد. بل نجد بعض القمع العنصري حيث تَرفض بعض القبائل زواج الأغراب لإيمانها بأفضليتها و نقاء عنصرها. هذه النظرة العنصرية المبتذلة نتاج تاريخي

لعملية الهيمنة الاقتصادية و الاجتماعية لبعض القبائل والأجناس على القبائل المستضعفة, مما أدى إلى تشكيل الوعي الاجتماعي بصورة مشوهة ليصاحبه إيمان راسخ بتفوق عرقي و ارتباط القبائل المستضعفة بالأعمال الوضيعة و الممارسات غير الأخلاقية. هذه النظرة العنصريه نجدها تضرب بظلالها بصورة قوية حتى على المثقفين عاكسة قوة القمع الاجتماعي الذي لا يستطيع الفكاك منها إلا من امتلك وعياً ثورياً يستوعب هذا الإفراز التاريخي المشوه.

كالعادة نجد هذا الفصل والتمييز العرقي يصيب المرأة بصورة حادة و قوية أكثر من الرجل. فالرجل له الحرية النسبية التي لا تخلو من بعض التحفظات و الانتقادات في حالة اختياره لعروس مختلفة من واقعه الطبقي والعرقي, ولكن لأنه هو الرجل فالانصياع لرأيه هو الغالب وهو انعكاس واضح للسيطرة الذكورية التي لها حق وضع القوانين وتطبيقها على المرأة دون الرجل. كما أن ظاهرة الخط الأبوي الذي يُنسب فيه الطفل لأبيه يجعل من نسب الأم المرفوض اجتماعاً ليس له قيمة تذكر فالطفل لأبيه و قبيلتة هي قبيلة الأب.

تمر فترة الاختيار و الموافقة بمرحلة تعرف «بالشورة» و هي مرحلة تتم فيها تمحيص و تحليل وتشريح لجذور العريس الاجتماعية والعرقية، والويل له إذا ظهرت بعض الجذور والأنساب المرفوضة اجتماعياً حتى ولو في الجيل الثالث أو في أقارب بعيدين فالنتيجة الحتمية هي الرفض والرفض الحاسم. الملاحظ أن هذا القمع و الفصل الاجتماعي له تأثير قوي على تفكير وسلوك حتى الشباب المثقف عاكساً قوة التشكيل والمسخ الاجتماعي الواقع عليهم. أقل ما يمكننا أن نقوله على هذه العملية أنها صورة اضطهاد عرقي تبتذل كل المفاهيم و القيم الإنسانية لكن الذي يهمنا أن هذا الاضطهاد يقع بصورة أقل قسوة على الرجل, حيث له الحق في أن لا يعارض إذا أراد لأنها في الآخر تصبح مقبولة «لأنه راجل».

فترة الخطوبة:

بعد الموافقة تبدأ ما يعرف بمرحلة «الخطوبة» وهي مرحلة تُكسب العلاقة القبول و الشرعية الاجتماعية ولا تُكسب الشرعية الدينية,و لكن المجتمع الذكوري كما أسلفنا فإنه يطوع الدين لأغراضه وليس العكس. تعتبر الخطوبة عند البعض هي عملية حجز و إعطاء جزء من الشرعية الاجتماعية النسبية حتى يستطيع أن يكمل بقية إجراءات الزواج. فنسمع العريس المرتقب شارحاً موقفه أنه « ما عايز يتزوج قريب لكن بس عاوز الموافقة». و هي فترة يستعد «يجهز» فيها الرجل نفسه للزواج و الترتيب لتكاليفه. إن التعامل مع الخطيب يتفاوت في مستوى السماح و القيد الاجتماعي. حيث نجد عند البعض من يعتبر أن العملية مجرد تحديد وحجز ليس إلا , و ليس له حق سوى ذلك فلا يُسمح للخطيب بأن يجلس مع خطيبته بل قد لا تحضر لتحيته و مصافحته عند حضوره. أما الأقل تزمتاً والأكثر تناقضاً فهم يؤمنون بأن مرحلة الخطوبة هي فترة تعارف بين الأسرتين و إلى حد أقل فترة تعارف بين الخطيبين, لذا قد لا يسمح للخطيب بالخروج مع خطيبته ولكن يمكن لهما الجلوس معاً إذا حضر للمنزل تحت أعينهم و تحت رقابتهم حيث لا تتوفر فرص نقاش خاص بين الخطيبين, و إذا سمحوا لها بالخروج معه فإنها تخرج تحت رقابتهم المتمثلة دائماً في الأخ أو الأخت الصغيرة، رغم أن خروج الطفل الصغير معها لا يُضفي عليها صفة الشرعية لكن وجوده ضرورة حتى تنتفي إمكانية الانفراد بين الخطيبين لأن الفهم الاجتماعي السائد لا يفهم وجود رجل وامرأة إلا وكان الجنس حتمية عند وجودهما سوياً. يحاول البعض تفسير هذه الممارسة بأنهم يثقون في بنتهم و لكنهم لا يوافقون على خروجها وحيدة خوفاً من كلام الناس.

كما نرى في هذا التبرير و هو وضع السبب لسلوكهم هذا خوفاً من كلام الناس و احتراماً للعرف الاجتماعي، يعتبر تبريراً مقبولاً اجتماعياً

و غير مقبول منطقياً, فالحقيقة أن الأسرة نفسها لا تنفصل عن الفهم الاجتماعي السائد و لكنها تنسى مسؤوليتها الحقيقية ليس فقط لمتابعة العرف بل لتطوير قيم الذاتية بأن تُعطي ابنتها الحق في أن تعيش حياتها دون رقابة أو قيد سوى رقابتها الذاتية على نفسها.

فشل الخطوبة عادة ذو مردود سيء على المرأة والأسرة. حيث تتكاثر الأسئلة حول نهاية العلاقة و تصبح موضوعاً للحديث والتندر، وتصبح الخطيبة مثل البضاعة المستعملة حيث يحبذ دوماً أن يخطب الرجل فتاة لم تُفسخ خطوبتها من قبل. الملاحظ أن الخطيبين قد يلتقيا في مكان الدراسة أو العمل و لكن الأسرة ترفض القبول بهذا الواقع الذي يحدث رغم أنفها, لكن الكبرياء الاجتماعي و الذي يستند إلى مقولات بالية متناقضة رافضاً أن تستوعب قانون التطور و المفهوم الإنساني للمرأة.

نجد أن فترة الخطوبة تصاحبها عادة بعض الطقوس تتمثل في هدية أولية تعطى للخطيبة مع أولى خطوات الموافقة. و يعتبر جزءاً أساسياً من هذا البرنامج أن يقدم الخطيب عادة مع رغبته في الخطوبة هدية لخطيبته, و هذه الهدية قانوناً هي عبارة عن حُلي وأساور ذهبية. و هي تستند على مفهومين يعكسان الواقع الذكوري الأول وهي دور الرجل في الصرف و الإنفاق رمزاً لبداية عهد جديد من السيطرة الاقتصادية الذي تتغير فيها الأدوار من الأب للزوج, ولذا يحاول المجتمع الذكوري إبراز عضلاته وعكس مفهومه للرجولة بأن تكون الهدية ذات قيمة مالية غالية. أما الفهم الثاني فهو ينبعث من أن الهدية عادة ما تكون عبارة عن أداة زينة لجسد المرأة و ذلك لإبراز قيمتها الشكلية و ليس القيمة الأخرى و هو امتداد لصورة المرأة الجسد.

تتوالى الهدايا بصورة عفوية لكن نجد بعضها قد أصبح واجباً مثل ما يعرف ب»كسوة العيد» «موية رمضان». نلاحظ أن تقسيم العمل التاريخي يعكس هذا الواقع, حيث يقوم الخطيب بإهداء ملابس العيد مع بعض

العطور وأدوات الزينة, وهي أيضا لا تنفصل من الفهم السابق الذي ذكرناه. يقوم أهل الخطيبة بإرسال ما يعرف ب»موية رمضان» و هي تتكون من بعض المواد الغذائية و الأواني المنزلية. كما نلاحظ فإن كل طرف يقوم بلعب نفس الدور المستقبلي المرسوم له، فللرجل الإنفاق و للمرأة المطبخ و الزينة. قديما كانت العادة المتبعة في بعض المناطق أن تقوم الخطيبة بإهداء المشغولات اليدوية للعريس ولا نحتاج لتعليق. لا يستطيع الخطيبان رفض هذا السلوك و هذه الممارسة إلا إذا إتفقت الأسرتان على إسقاط هذه الالتزامات. أي اتفاق على إسقاط متبادل يكون تجارياً و ليس نتيجة لقناعة فكرية ترفض ما تحمله هذه العادات من مدلولات تقنن لدونية المرأة.

يدافع الكثيرون عن هذه الممارسات باعتبار أن بها قيم جميلة من الكرم و ما تغرسه الهدايا من أبعاد عاطفية و ما تزرعه من مودة وما تخلقه تلك الطقوس من علائق و وشائج بين الأسرتين. إن النقطة التي يغفل عنها المدافعون عن هذه التقاليد التي تعطي بيد لتأخذ أضعافاً باليد الأخرى يجب تنقيتها من أي بعد مشوه ليبقى وجهها المشرق فقط. فيجب أن تبقى صور الترابط و المودة بين الأسرتين دون أن ترتبط بتقاليد تُقنن لاختزال المرأة لمجرد جسد ودورها الاجتماعي لا يتعدى المطبخ. لذا يجب أن يكون الهاجس أن يخلقوا طقوساً مجردة من أي صور الاستلاب,و مساهمة في دعم الأبعاد الإنسانية بين الأفراد والأسر لتقوم ممارسات و تقاليد تعكس و تقنن لمجتمع يؤمن بالندية و المساواة. مع خط المجتمع الرأسمالي نلاحظ أن هذه الطقوس لا تسير نحو الاضمحلال بل لتزداد شوكتها قوة حيث أصبحت هذه الهدايا استعراضاً اجتماعيا مبتذلاً كلٌ يحاول إبراز ثرائه الفاحش وتفوقه الاقتصادي, لتبتذل هذه التقاليد بأكثر مما هي منه و ليصبح لها بريقاً وسط الطبقات المسحوقة.

مراسم الزواج

تمثل مراسم الزواج انعكاساً حقيقياً لنوعية العلاقة بين الرجل و المرأة و إرهاصاً لما سيكون عليه الحال مستقبلاً. نجد الكثيرين يدافعون عن هذه الممارسات و الطقوس باعتبارها جزءاً من تراثنا يجب المحافظة عليه لأنه رمز أصالتنا. كان التراث جسماً خارج الظروف التاريخية لا يعبر عنها ولا يعكسها. فلا يوجد تراث بلا جذور اجتماعية تعكس مفاهيم الأمة و تقاليدها ومعتقداتها. هذه النظرية التقديسية للتراث تُجافي واقع الحياة و منهج العلم, و التراث ليس جسماً مقدساً جامداً بل يتعامل مع البيئة والزمن تعامل تبادلي يعكس تغيره مع حركة المجتمع لأنه جزء منه وإليه. و نلاحظ أن بعض الطقوس أكل عليها الدهر وشرب بينما بدأت تظهر بعض «التقاليع» لتضيف نقطة إلى التراث الموجود ولتصبح جزءاً منه. هذه الإضافات و الحذف نتيجة منطقية للعلاقة المتداخلة بين المجتمع و طقوسه و تراثه.

نجد أن مراسم الزواج تعكس بصورة واضحة الوضع المتدني للمرأة في المجتمع ويظهر في كل جزء منها أثر السيطرة الذكورية و دونية المرأة.

تُفرض هذه الطقوس و بإرادة حديدية لا يستطيع معظم أفراد المجتمع الوقوف ضدها,لكن نجد البعض يرفضها من منطلقات شتى تقدمية أو رجعية, و عادة لا يستطيع إلا القليلون فرض رأيهم و رسم صورة زواجهم على حسب رؤيتهم. نلاحظ قوة القمع الاجتماعي للحفاظ على هذه الطقوس لا ينبع من فراغ و لا من الإيمان بجوهر هذه الطقوس, إنما ينبع من فرض المجتمع لقوانينه التي تحافظ على روح القطيع المتميزة بالسيطرة و التفاخر الذكوري, و هي انعكاس للمفاهيم التي تحكم واقع المجتمع الاستغلالي الذي تنتفي فيه المساواة.

في البدء يقوم أهل العريس بزيارة لأهل العروس حاملين معهم مبلغ من المال مدفوع من العريس لأهل العروس و تعرف هذه الزيارة «سد المال».

تختلف كمية المال المدفوع باختلاف الواقع الطبقي للعريس والعروس, و يعرف هذا المبلغ شرعاً «بالمهر» و اجتماعياً «بالقيمة الشرائية» للمرأة. رغم قبح هذا التشبيه و لكن للأسف حتى الآن نجد من يُثْبِت ذلك عندما يتحدثون متفاخرين بمهر بنتهم «و كم دفعوا فيها». نلاحظ أن عملية الزواج تبدأ في عملية «سد المال» بألفاظ محددة قد تختلف لكنها تعطي معنى واحداً حيث نجد أهل العريس يقولون «عاوزين بنتكم» «دايرين بنتكم» والرد عندما يكون بالقبول يعبر عنه بلفظ «أديناكم» أي «أعطيناكم»، لتصبح العملية أخذ وعطاء ويصبح الرجل هو الذي «يريد» و«يأخذ» بينما العروس « تُعطى» «تُوهب». إن المنطق الذي استند على المساواة يجب ألا يكون فيه أخذ من جانب و إعطاء من جانب آخر, و المفروض أن يكون الأخذ و العطاء متبادلاً إذا جاز استعمال هذه التعابير. فبقدر ما يأخذ الرجل زوجة فإن الزوجة تكسب في نفس الوقت أي أن المفترض أن يكون الفهم تبادلاً متساوياً. لكن المجتمع الذكوري يعتبر المرأة كموضوع يكسبها الرجل دون أي ذكر أو أثر لعلاقة متبادلة.

لذا لا نستغرب عندما نجد أن كلمة زواج و عُرس يستبدل في اللغة الدارجة بكلمة «أخد» و هي اشتقاقاً من كلمة «أخذ» و التي تستعمل بنفس النُطق الدارجي بمعنى اشترى و امتلك, و تستعمل بصورة منتشرة حيث نسمع بفلان «أخد فلانة» أو «أخد بت ناس فلان» و هي دلالة لا تحتاج للوقوف كثيراً عندها. إن هذا التطابق في استعمال هذه الكلمة في مجالين مختلفين لم يأتِ من فراغ بل نبع من فهمٍ واحد, و الاستعمال يعكس أن المعنى واحد, و أن عملية الشراء والزواج عملية و إن اختلفت صورها فهي واحدة و أساسها كذلك. نجد إن المهر باعتباره القيمة الشرائية يتفاوت على حسب البضاعة, فالعانس و المتزوجة من قبل لها مهر أقل أو سعر أقل نسبة لقدم البضاعة أو لأنها مستعملة. إن الوعي الاجتماعي يتحدث عن أن «مهرها يساوي ثقلها ذهباً ولكن..» ليعكس

الحقيقة الثابتة و هي انتفاء مفهوم الهدية عن المهر لتصبح القضية عبارة عن تقييم مادي للمرأة. نلاحظ كثيراً ما يرفض المهر و التفاوض في زيادته لأن المبلغ قليل و لأن أترابها أو أخواتها «دُفع فيهن أكثر من كده», وهي التي تفوقهن شكلاً و مضموناً أي أن تُوضع قيمتها الشكلية والإنسانية في كفة و مهرها في كفة أخرى. كما نلاحظ الأخذ و الرد في عملية وقيمة المهر أو الافتخار بما أحرزته من مهر (سعر) عالٍ.

يحاول البعض إيجاد العذر أو التبرير الملتوي لتفسير معنى المهر, و الادعاء بأن القضية هي مجرد مساعدة في تكاليف الزواج و تغطية نفقته خاصة و أن الرجل يكون لديه عمل في الغالب الأعم و المرأة بلا عمل, لذا يصبح من الطبيعي أن يدفع مهراً ليساهم في مراسم احتفالاته رغم ما في هذا الادعاء من ضعف.

وإذا كانت القضية مساهمة في تكاليف الزواج فلماذا يدفعها لأهل العروس؟؟ ألم يكن المنطق يستلزم احتفاظه بأمواله و يقيم احتفالاته على حسب رغبته و رغبة العروس؟؟

و كيف يعقل أن يدفع إنسان لقاء استضافة أهله عند أهل عروسه؟؟ ألم يكن من المنطق أن يقوم العريس بدفع تكاليف استضافة أهله وأهل عروسه باعتبار أن المناسبة له و لعروسه؟؟ أما أن يدفع لأهل العروس لإقامة احتفالهم يجعل القضية ليست هدية بل شرط مفروض مقابل شيء محدد.

و يحق لنا أن نتساءل إذا كان المهر هدية, أي هدية هذه التي تحدد بأنها يجب أن تكون مالاً و يُحدد مقدارها و التفاوض في قلتها و غيرها فلا توجد هدية يناقش في كمها و كيفها.

وإذا كان التبرير بأن الهدية تكون من الرجل للمرأة ذلك للوضع التاريخي الذي يحكمنا, حيث يعمل الرجل و عادة ما تكون المرأة غير عاملة, فهل يتغير مفهوم المهر عند النساء العاملات ليصبح حقاً على الأكثر ثراءً أو

يصبح مناقصة بين العروسين؟ و هذا ما نلاحظه أبداً مما يدل أن المهر قيمة شرائية يدفعها الرجل لقاء تملكه لعروسه.

كل هذه النقاط تعكس الواقع الذكوري الذي يجعل من المرأة سلعة يُدفع فيها مبلغاً من المال يطلق عليه تحايلاً باسم هدية.

الملاحظ أن المجتمع يطوّع الفهم الديني حسب رغباته حتى و إن كان ينافي مقاصد الدين, ليحوّر هذا الفهم لمصلحة المجتمع الذكوري. حيث نجد أن المهر في الإسلام قد يصل لمرحلة الإنتفاء فينتقل من منطقة المال و الشراء إلى مرحلة القيمة الفكرية للزوج «مهرها إسلامه» , «مهرها بعض أيات من الكتاب». هذه الأمثلة الواضحة تعكس مدى استغلال المجتمع الذكوري للدين و تناسي مقاصده وأهدافه عندما تتعارض مع رغباته الذاتية.

يتعامل المجتمع مع المهر بصورة تعكس الاستلاب الاقتصادي وهيمنة الأخلاق الاستغلالية التي لا تُقَيِّم الإنسان إلا بمقدار ما يقدم لمجتمعه من قيمة نقدية. كما نلاحظ التفاخر و التباهي الذي يصاحب المهر, حيث يعرض المبلغ المدفوع في العروس على الزوار لمشاهدته و المباركة. وهي عادة تفاخرية مبتذلة, لا يكتفي المجتمع فيها بالنظرة السلعية للمرأة,بل يعرض ما أصابته من مال لقاء ذلك. تكون كلمات المباركة عادة في شكل إطراء للعروس و للثمن حيث نسمع «تستاهلو», «تستاهلي أكتر من كده» أو تعابير أخرى و لكنها كلها تجري على نسق واحد و هو الإطراء على المبلغ الذي استطاعت العروس أن تقيّم به.

مع المهر يدفع العريس أما سعر المواد الغذائية التي ستقوم عليها الولائم أو يأتي بها، وهي تعكس دور الرجل في الإنفاق مقابل استلام زوجته. و كما أسلفنا فإنه تنتفي إمكانية الهدية في هذه العملية و يقوم أهل العروس مقابل المبلغ المدفوع الالتزام بإقامة الولائم و تجهيز غرفة النوم رغم أن الظرف الاقتصادي قد أثر في هذا التقسيم لكن كما نلاحظ أن كل فرد له اختصاصاته فأهل العريس لهم الإنفاق وأهل العروس توجيهه في إعداد

الطعام و تجهيز العروس و غرفة نومها. لا نحتاج للتفكير كثيراً لنعرف لماذا الالتزام بغرفة النوم من غير بقية الأثاث فالعروس تمثل «وجبة جنسية» يجري التحضير لها لتلعب هذا الدور و تهيئة المسرح لذلك.

يصاحب هذه الشيلة ما يعرف «بالشنطة» و هي تعبير يعني كمية من الملابس والأحذية والعطور للعروس وهي تجري في نفس الخط الذي يضع الرجل في دور الإنفاق و السيادة والمرأة دور المستهلك. ونلاحظ أن هذه «الشنطة» تعكس واقع المرأة في المجتمع الذكوري فكل مكوناتها عبارة عن أشياء تساهم في تعميق النظرة للمرأة كجسد و تساهم في اختزالها لقيمة شكلية. و يندر إن لم نقل من المستحيل أن نسمع يوماً عمّن أهدى لعروسه «مكتبة»، «لوحة» أو أي أداة ثقافية تساهم في دعم قيمتها الفكرية و تطوير قيمتها الإنسانية. ويتم عرض هذه الملابس والعطور أيضا للجمهور للمشاهدة و إعلاءً للقيم التفاخرية و الاستعراضية.

تتعرض المرأة لعملية تشويه و غسيل مخ مركزين وذلك بوضعها في برنامج مكثف للتركيز على جسدها قبل الزواج.هذا التركيز على شكلها له طقوسه و تقاليده التي عادة نجد الفتيات أنفسهن يقبلن هذا الدور بصدر رحب، و حتى من تفكر في الاعتراض تواجه بحصار اجتماعي و ضغط ليس منه مفر سوى القبول و الإذعان.ذلك بإدخالها معسكر لإبراز قيمتها الأنثوية، حيث يجرى لها عملية تسمين عادة و تخسيس نادراً «لأن الرجال يعشقون المرأة المكتنزة أو» غير النحيفه» و يتم فيها إزالة الشعر والبثور ثم البدء في عملية إضافة الألوان و الأصباغ والروائح و إعطائها لوناً وبريقاً، و تمنع من الخروج في هذه الفترة و عدم الظهور للناس ذلك حتى لا يضيع المجهود المكياجي بالتعرض للشمس والغبار، و حتى يشاهدها الناس فتضع عنصر المفاجأة الذي يجب أن يكون لصالحها حتى تضمن في يوم زفافها أن تزرع في المشاهدين الإعجاب والانبهار و التعود على رؤيتها قد يقتل هذين العاملين. لذا تسعى الفتاة قبل الزواج للابتعاد عن الأنظار

وعن العمل. توالى عملية المكياج المتواصلة لتجهيز العروس لتصبح طبقاً لائقاً و شهياً لإرضاء العريس و تحقيق فهمه في الزواج عن المرأة. و يصاحب هذه العملية إضفاء كمية من العطور البلدية ذات الدلالات الجنسية لتصبح العروس في أحسن صورها الشكلية مجرد «طبق جسدي». أصبح من المترادفات دوماً الربط بين «العروس» و«الجنس» حيث أصبح «زي العروس» , «ريحة عروس» هي تعابير القصد منها في الحديث اليومي بعض المعاني الجنسية. هذا الربط بين العروس والجنس هو ربط طبيعي نتيجة للتعامل مع العروس كأداة للمتعة يجري تجهيزها لهذا البرنامج بالقول بأن العروس في ليلة زفافها يجب أن تظهر أجمل ما لديها لأنها «ليلة العمر», ولا تحدث مرتين وكما نرى فإن المرأة حين تعكس أجمل ما لديها تقدم جسدها و تصبح عملية لا تعكس فيها المرأة إلا قيمتها الشكلية. يجب أن نقول بأننا لا نرفض أن يظهر الإنسان بمظهر نظيف و جميل ولا يعني هذا رفض الواقع الشكلي, لكن حتماً نرفض كل ابتذال يجعل من المرأة جسد و أداة لتحقيق رغبات الرجل الجنسية المكبوتة و المتضخمة. قبل فترة كافية من ليلة الزواج يبدأ تجهيز العروس والاستعداد لما يعرف بـ «رقصة العروس». و هي عملية عرض مبتذل لجسد المرأة مصاحباً بالغناء و الموسيقى في أسوأ سوق نِخاسة ليشاهد أهل العريس ما اشتراه ابنهم. عادة تلبس العروس خلال هذه الرقصة زياً فاضحاً كاشفاً معظم جسدها عارياً للصدر و الكتفين وطبعاً ملفوفاً ملتصقاً حول جسدها و يجب أن يكون من الضيق بمستوى يبرز جسد العروس بصورة مضخمة لذا يبذل الخياط جهداً مضاعفاً لصنع فستان يبرز و يكشف أكثر مما يستر.

إذا لم تكن العروس بمستوى الإثارة المطلوبة فإن أم العروس أو العروس نفسها لا تتورع في إضافة جزء أو قطع اصطناعية لأجزاء محددة من الجسد لتصبح أكثر إثارة وفتنة, ولا يهم الكذب والخداع حتى في هذا المستوى من الابتذال فالمهم هو أن تنال العروس الرضا و الإعجاب.

نلاحظ هنا التناقض الرهيب الذي يعيشه المجتمع بتقاليده و مفاهيمه

عن الحشمة وما يمارسه في ليلة الزفاف كنوع من التعري المبتذل المباح اجتماعياً الذي لا يرفضه كثير من المتزمتين, بل لقد كانت قديماً ترقص العروس بقطعة واحدة تلف حول جسدها العاري تدعى «الفركة», فرغم أن المجتمع كان لا يرحم من تخرج للشارع أو تخرج حاسرة الرأس فإنه لم يكن يرى غضاضة في رقصها الفاضح. و رغم أن المجتمع يمارس رذائله باسم الفضيلة و التقاليد, فإنه يقمع المرأة ويكبت حريتها باسم التقاليد و الفضيلة أيضا.

تحضر العروس إلى صالة الرقص مغطاة بثوب و تقودها أحدى النساء ثم ينزع هذا الغطاء بعد أن تقف في منتصف الحلبة. تحت الغطاء تكون العروس واضعة كفيها على وجهها مغمضة العينين ثم يقوم العريس بإنزال كفيها عن وجها وهي صورة رمزية واضحة تعكس صورة المرأة الساذجة البريئة التي لا ترى و لم تر شيئاً و ترى بمساعدة زوجها الذي عادة ما يمسك بقيادها بواسطة حبل أو «حجاب» لتنقاد له بصورة ميكانيكية تعكس الصورة صورة واقعها بعد الزواج و تقسيم الأدوار الذي فيه الزوج صاحب القيادة و الريادة والزوجة في وضع التابع دوماً.

يحاول البعض الدفاع عن رقصة العروس بأنها عبارة عن لوحة فنية تُعبر عن طقس محدد مرتبط بالفرح والسعادة, لذا فرقصة العروس إحدى اللوحات الفنية التي يجب المحافظة عليها وتطويرها. الجانب الفني في هذه الرقصة - رغم الرأي المبدئي فيها - لا يختلف فيه اثنان فهي عادة لا يتم التركيز على جانب التناسق الحركي و التعبيري بل يكون التركيز على الجسد و تفاصيله.

الزواج كواقع جديد

لا نستغرب أن الشهر الأول من الزواج يُطلق عليه «شهر العسل» لا يحتاج الوقوف كثيراً لإثبات أن المقصود هو شهر الارتواء الجنسي. يتم هذا الطقس بصورة مبتذلة حيث أخف صورها و أجملها عندما يسافر الزوجان خارج أو داخل الوطن ليرتبط مفهوم العسل بمفهوم السياحة. لكن نجد بعد انتهاء مراسم الزواج يذهب العرسان لفندق في مدينتهم أو فندقٍ بمدينة مجاورة, و في بعض الأحيان بصورة أقبح يقوم الأهل بتجهيز منزل خالي في منطقة ما ليقضي فيه العرسان هذا الشهر. وعادة لا ترتبط كلمة «شهر العسل» إلا بالجنس ليصبح هدفاً في حد ذاته و برنامجاً أصيلاً و أساسياً و أول ما يفكر فيه الزوجان.

يمكن أن نستنتج إذن ماذا بعد شهر العسل و ماذا نسمي الشهور التالية بعد أن انطفأت جذوة الحرمان و الكبت. تعطينا التسمية بصورة واضحة ما سيكون عليه الحال بعد انتهاء هذا الشهر, لذا لا نستغرب عندما نسمع من يقول إن «العرس بس شهر», و قد نجد من يكون أكثر تفاؤلاً ليقول «العرس السنة الأولى بس». إن انخفاض معيار الحب يصبح نتاجاً منطقياً لانطفاء الرغبة الجنسية أو تضاؤلها التي أضفت على المفهوم القاصر بريقاً وتوهماً زائفين, و يقل اهتمام الزوج تدريجياً بزوجته و نسمع كثيراً من الشكوى بأن كل الاهتمام و البرامج الجميلة التي كانت في أولى أيام الزواج قد انتهت, و تفكر المرأة كثيراً في أن سنين أو شهور الزواج الأولى لن تتكرر لما فيها من اهتمام و رقة, و يبقى بين الزوجين برنامج تآلف و تعوُّد وأطفال.

الاستلاب الجنسي الذي يعيشه المجتمع اليوم يجعل من الجنس هدفاً في حد ذاته و ليس وسيلة للتعبير عن إحساس إنساني محدد.

كثير من الشباب حتى في أوساط المثقفين الذين يعتبرون الجنس هدفاً في حد ذاته يعيشون من أجله و من أجل تحقيق إشباع رغباتهم المشوهة بصورة تجعل من النادر أن نجد من يقف بعيداً عن هذا البرنامج استناداً

على فهم فلسفي يرفض هذه الإباحية المبتذلة, ويصبح الهاجس في هذه المرحلة «الجنس أولاً وأخيراً». بل نجد بعض الذين لهم علاقات عاطفية لا يتورعون في إقامة علاقات جنسية و لا تمنعهم علاقتهم من ذلك, بل أحيانا تتم تحت سمع و رضا المحبوبة باعتبار «كل بدربه و حأتوب بعد العرس».

بعد هذه المرحلة يبدأ بعض الرجال في التفكير في تجربة الزواج بعد الملل من مشروع الإباحية هذا, حيث نسمع كلمة «إن الواحد تعب» أو «زهج» أي بعد أن اكتفى من برنامج الإباحية يريد الدخول لحظيرة التوحد, ليس إقتناعا و لا نتيجة لتطور فكري أو فلسفي. ثم يبدأ البحث عن زوجة و عادة ما تكون شخصية نمطية تفتقر لأي خبرة أو معرفة بأمور الحب والغرام.

مرحلة التعدد التي يعيشها الرجل قبل الزواج تذكرنا بالطفل الذي يدخل دكان للألعاب وله فرصة لشراء لعبة واحدة فيعيش لحظة الانبهار التي تجعله يتمنى لو يمتلك كل الألعاب ولكنه يعلم أن له فرصة واحدة, فيحاول أن يركب العجلة و ينظر بالمنظار و يحمل المسدس ليشتري أخيراً الكرة. قد يعيش الرجل برنامج التعدد تحت نظر خطيبته في بعض الأحيان, و لا تجد المرأة في ذلك تناقضاً أو انتقاصاً لقيمتها أو إساءة و تقليلاً لقيمتها. هذا الرضا الاجتماعي و الموافقة التي يفرضها المجتمع الذكوري تبريراً لإباحيته تجعل المرأة كثيراً ما لا تثق بزوجها, و نسمع كثيراً تعابير مثل «الرجال ما مضمونين» وهو انعكاس طبيعي للفهم المتخلف الذي يجعل الجنس رغبة مسعورة من أي رجل اتجاه كل النساء «ما عدا المحرمات». هذا الفهم الذي أفرزه واقع تاريخي جعل من المرأة مجرد جسد يجلب المتعة مستلباً منها أبعادها الإنسانية, هذا الإحساس الذي يجعل من المرأة كموضوع للجنس فقط, إضافة لأثره السلبي على المرأة فإنه يؤثر على الرجل بصورة مباشرة أو غير مباشرة. فإن الرجال لإيمانهم بأن الجنس هو عملية إشباع جسدي يصبح التعدد و العلاقات الجسدية

المنفصلة من أي بعد روحي هو القضية المنطقية و النهاية المحتومة ليصبح الجنس في علاقات أحادية ضد طبيعة الرجل المريضة الساعية نحو التعدد دوماً. لذا يكون الزواج في الفهم الذكوري قيداً لأنه يجعل الرجل لا يمارس الجنس إلا مع فرد محدد و هي زوجته، و يسود الفهم الخاطئ المشوه القائل بأن الجنس في داخل مؤسسة الزواج هو واجب شرعي «ثقيل و ممل» يموت الحماس في أول أيامه ليبقى الروتين و الواجب. لذا لا نستغرب عندما نسمع التبرير لهذا الوضع بصورة مبتذلة «كمن يأكل من نفس الطبق يومياً». هذا التبرير المبتذل يجد هوى وصدى في نفوس الكثيرين و قد يكون مدخلاً للزواج ثانية أو الخيانة الزوجية, أو في عدم كليهما التوتر الجسدي الذي لا يجد متنفساً لنسمع عن «المتزوج وعينه الطايرة», فتحاول المرأة وبكل سبلها الاحتفاظ بتأثيرها الجسدي على زوجها.إن هذا الفهم يساهم في جعل المرأة كأداة جنسيه مركزها جسدها لذا يصبح الجسد مركز الاهتمام و محور السعادة الجسدية في الزواج, لتبدأ برنامجاً لا ينقطع في استعمال المكياج وأدوات الزينة و العطور البلدية التي أصبحت مرتبطة في ذهن المجتمع بالجنس. كما نرى في هذه النظرة تتحول الإثارة من مفهومها الإنساني من الجسد لترتبط بعطر ما أو أصباغ أخرى. هذا الارتباط بين الجنس وهذه الأدوات المفرغة من خصوصيتها و أبعادها النفسية و الروحية الخاصة تُعمق المفهوم المبتذل للجنس حيث تصبح الإثارة بالموضوع وليس الإنسان, لذا من الطبيعي أن يكون لهذه العطور والروائح تأثيرها الجنسي في عقلية الرجل بغض النظر عن الذي يستعملها.

الفصل بين الجنسين

نجد أن نظرة المجتمع للجنس كنداء أعمى بين جسدين و جعل المرأة هي البؤرة التي تنطلق منها الشهوة ساهم في اضطهاد المرأة وقمعها بصورة قاسية و متعسفة. حيث ظهر في القاموس الذكوري المرأة «الشيطان – إبليس والحرباء» وكل أمثلة المكر والخبث الذي يستلب الرجل مما جعل كل صور المحافظة و النظام على الأخلاق الجنسية يقع على المرأة. نجد أن المثل الشعبي «ما تلم الإنتاية مع الضكر و ما تخت البيضة مع الحجر» يمثل بصدق و بصورة حقيقية الفهم السائد. فإذا كان اجتماع البيض والحجارة في سلة واحدة مصيره الحتمي الكسر فإنه بمثل هذه الحتمية فاجتماع أي أنثى وذكر سيؤدي لفساد أو ممارسة جنس. نلاحظ هذا الاستلاب الحاد الذي يجعل من الإنسان مجرد شهوتين متقابلتين ليس لهما واقع موضوعي أو أبعاد فكرية أو فلسفية بل مجرد انجذاب مغنطيسي حتمي.

إذن يجب إيجاد مانع أو حائل دون هذا التجاذب المغنطيسي لنحافظ على الأخلاق و سلوكيات المجتمع الذكوري. هذا الحائل عادة يكون بفصل الرجل عن المرأة حتى تنتفي الظروف الموضوعية التي ستقود للانجذاب. إن الفهم السطحي يهمل دور الواقع الموضوعي الذي يجعل من الجنس انجذاباً جسدياً مفرغاً من مدلوله العاطفي ليصبح الصراع ضد انعكاس المشكلة وليس لجذورها الحقيقية,فيصير المجتمع الانفصالي هو الضمان الأول في فهم المجتمع المتخلف لعدم ممارسة الجنس.

يفتح الطفل أعينه على الديوان لاستقبال الضيوف الرجال و لا يتعدونه إلا بإذن أو تحت نظرة الرجل صاحب المنزل. ونجد أن الأبناء الذكور يسكنون فيه ولا يدخلون إلى المنزل النسائي إلا قليلاً. يفصل بين العالمين حائط يَحُوْل بين «بيت الرجال» كما يسمى في بعض المناطق وبين المطبخ وغرف النساء, ليبدأ في التكون في ذهن الطفل وجود مجتمع للنساء له

أحاديثه و اهتماماته و يقوم بالأعمال والزيارات,حتى في المناسبات يجلس الرجال في أماكن مخصصة لهم و للنساء أماكنهن أيضا, ويصبح من المألوف أن نسمع في المناسبات العامة «توجد أماكن خاصة للسيدات». يستمر التقنين لهذا المجتمع الانفصالي في المدارس و بعض الجامعات. هذا الفهم يرمي بظلاله على السلوك الاجتماعي حيث يظهر التخوف من الجنس الآخر والخجل المغروس مع كمية من الأفكار و الخيالات عن المجتمع الآخر.

الحب والصداقة

إن المفهوم الحقيقي للحب الذي يسعى العلم لتحقيقه هو الذي يحترم الإنسان كذات مفكرة يستند على قاعدة من المساواة الفكرية و النفسية يكون فيه الجنس تعبيراً عن إحساس عاطفي تجاه فرد واحد و ليس نزعة بيولوجية عديمة المحتوى. الندية التي ننادي بها لا تعني التطابق أو نسختين متماثلتين من إنسان واحد, بل ننادي بالتكافؤ الذي يجعل كل طرف يتعامل مع الآخر بمستوى واحد من الحقوق و الواجبات. فالاحترام لذاتية الآخر هو المعيار الحقيقي لمصداقية ونجاح أي علاقة, لأن أي علاقة لا تجعل عقل المرأة وشخصيتها المحك الأول هي علاقة تفتقد إلى المعنى الحقيقي للحب. إن عقل المرأة وسلوكها الاجتماعي وما تمتلك من لمسات إنسانية هي الأساس الموضوعي الذي يمكن به بناء علاقة منعتقه من الفهم الذكوري المتخلف. أما الجسد فإننا لا ننكره باعتباره هو الوعاء الذي يحمل هذه الأفكار و تلك الشخصية ولا ننظر للمرأة كتحرير فكري معزول عن وجوده الجسدي, بل نعتبر أن الجسد يمتلك قيمته لحمله شخصية محددة و ليس لاختزاله كقيمة منفصلة في حد ذاتها.

لا جدال في أن الحب رغبة أنانية لامتلاك الآخر و لإشباع الإحساس الطبيعي للفرد بأن يكون محبوباً لفرد محدد مستأثراً باهتمامه و عواطفه لأن للآخر نفس الرغبة, فإن التقاء الرغبتين والشخصيتين على قدر

المساواة هي صمام العلاقة و ضمان استمراريتها, لكن في لحظة ذوبان أحدهما في الآخر تصبح العلاقة من جانب واحد أو بالأصح لن توجد علاقة بل علاقة امتلاك وسيطرة. و عادة ما نجد المرأة تذوب في ذات زوجها فتذوب شخصيتها و تنمحي ملامحها و تصبح تابعاً أو جزءاً من كيانه لا تنفصل عنه و لا تعرف إلا به, و تصبح الجزء السلبي من العلاقة فتكون أقرب لقطعة تتحرك نتيجة لرغبات و أوامر زوجها المباشرة و غير المباشرة.هنا يتبادر إلى ذهننا سؤال كثيراً ما نسمعه و هو «ما هو سر السعادة الزوجية للجيل السابق و تدني نسبة المشاكل و الخلافات رغم عدم تهيؤ الفرص المناسبة ليتعارفا ببعضهما البعض قبل الزواج؟؟ «

يصبح هذا السؤال صحيحاً إذا كان الزواج و السعادة تعني انعدام الرأي الثاني و الطاعة الدائمة والسلبية. ولا نحتاج للتأكيد بأن السعادة لم تكن نتيجة للتوافق «الهارموني» بينهما بقدر ما هو انعدام وجود الشريك ابتداءً. لا توجد في الأسرة إلا صورة واحدة و هي صورة الأب, حيث تنمحي أي صورة أساسية للزوجة بل حتى الاسم يستلب المرأة من خصوصيته و تَفَرُّدها باسم ليتحدث عنها الزوج بمفردات مثل «الجماعة», «الأولاد»,و تتعامل المرأة بنفس هذا الفهم الاستلابي للفرد و تنادي زوجها بـ«أبونا» , «الحاج», «أبو فلان». فحين أسماء المرأة تنتفي فيها الصفة الفردية والتخصص بل مجرد صيغ جمعية بينما نجد أسماء الرجل تعكس مفاهيم ذاتية تؤكد سيطرته وحمايته و وقوعها تحت كنفه و أمنه. يمكننا القول أن ذوبان شخصية المرأة هو القانون السائد قديماً و حديثاً ولا تنقطع الأمثلة عن هذا الوضع.

لذا فإن ضمان استمرارية العلاقة هو عدم ذوبان أحد أطرافها في الآخر بمسخه و تبنيه مواقفه وأفكاره, و إلا لأصبحت علاقة حريمية تبعية منعدمة التكافؤ. فالحب باعتباره مشروع امتلاك يضمن استمراريته ببقاء شخصية أطرافه و عدم ذوبانها أو طمس ملامحها و تشوهها.

وقد قيل أن الحب يجري على الصداقة بين الجنسين, و هي تجربة أقل ما يمكن أن نقول عنها أنها تمثل حيزاً ضيقاً جداً في مجتمعنا السوداني, ونكاد نقول أنها معدومة إلا في أوساط المثقفين و الطلاب بصورة محددة.

تصبح القضية هي التناقض في فهم الجنس الذي يؤثر في المفهوم الحقيقي للصداقة.إن الذي يؤمن بأن الجنس هو توتر بيولوجي يتم إشباعه بواسطة التقاء جسدي يمكن أن توفره أية امرأة, أي الذي يؤمن بأنه يمكن أن يشتهي أية امرأة ولكنه لا يمارس الجنس إلا مع واحدة. و على حسب العرف الاجتماعي والديني نجده إذن لا يستحي أن يشتهي صديقته , و ربما لا يمانع في ممارسة الجنس معها إذا رغبت في ذلك, ولا يمنعه أي موقف فكري مبدئي سوى الاحترام للعرف الاجتماعي. هذه الرغبة عادة لا تجد طريقها للتطبيق باعتبار أن الصداقة علاقة فكرية مستمرة و علاقة جسدية مع وقف التنفيذ، أي أن الصداقة تصبح علاقة جسدية لم تتوفر لها الظرف الزماني و الاجتماعي المناسبين.و هذا المفهوم السطحي للجنس يجعل الصداقة علاقة تتأرجح لأهواء الأفراد, لأن سلطان الجسد ما زال يقبع في تفكيرهم حتى لو تحصلوا على أعلى الشهادات الأكاديمية.

فإذا سألنا أحدهم هل سيمارس الجنس مع صديقته إذا عرضت عليه ذلك؟؟

في بعض الأحيان تكون الإجابة بالإيجاب ونسمع الرد أن «وأنا ذنبي شنو ما هي براها قالت كده».

و نجد قلة من الذين يؤمنون بأن الصداقة لا يمكن أن يوجد الجنس فيها أو حتى بوجودٍ غير واعٍ, لأن الجنس لديهم يمثل إحساساً خصوصياً تجاه من ترتبط معهم بمفهوم عاطفي محدد.

تعاني علاقة الصداقة من نقطة تناقض أخرى تتمثل في القيمة السطحية للصداقة وعدم استيعاب عمقها الحقيقي المختلف عن الحب نوعاً و مضموناً. تمثل أخلاق و عادات أي مجتمع انعكاساً جدلياً للظرف

الموضوعي الذي يحدده, أي أن التراث و العادات والثقافة عامةً ليست خيالاً أو نبت شيطاني منعزل عن جذوره.

(ب). تأثير مفهوم الزي

في تلك المرحلة لم تكن الدولة مهمومة بفرض زي محدد على النساء, و قد كانت هناك مرونة في تقبل العرف الاجتماعي لذلك.كان العرف أن تلبس المرأة الثوب الأبيض للعمل و الملون للمناسبات الاجتماعية مع القبول بخيار اللائي لا يلبسن الثوب إما لخيار اجتماعي أو ديني.إن الخيار الاجتماعي للون الأبيض كثوب للعمل و ما يمثله من لون محايد يعكس التطور الاجتماعي في المفاهيم التي تؤسس لقيمة المرأة العاملة كمخلوق بلا دلالات أنثوية.هذا التقليد يعكس التطور الاجتماعي باعتبار المرأة العاملة إنسان يُقدَّر بدوره في العمل و ليس للأنثى دور في هذا المكان. يُذكر أن الرئيس نميري عندما طلب منه المتأسلمين فرض ما يعرف بالزي الإسلامي رفض بدعوى أن «التوب السوداني» حشمه و هو يراه إسلاميا بما يكفي.

لم تكن هناك قوانين فصل بين الجنسين ما عدا في جامعة أمدرمان الإسلامية التي تم فيها الفصل بين الطلاب كنتاج لضغوط طلاب التيار المتأسلم في الجامعة.كان المجتمع مفتوحا للجنسين و كانت العقلية السائدة في النظر لوجودها كامرأة و ليست كأنثى لذا كانت ميادين الرياضة من كرة سلة ومضرب طائرة وألعاب قوى مفتوحة للجنسين بدون أن تَخلق أزمة اجتماعية بل كانت سلوكا طبيعياً و مقبولاً.

(ج). تأثير عمل المرأة

دور الدولة

كانت قوانين العمل تتدرج حتى أجازت الدولة قانون الأجر المتساوي للعمل المتساوي, لكن لم يكن هناك نظرة استراتيجية لتغيير بنية العمل لمصلحة المرأة لعدم وجود غرف استراحات وحمامات في مكان العمل و غياب رياض الأطفال الحكومية لتخفيف العبء على المرأة العاملة.

دور المجتمع

يتصف العمل المنزلي بالاستلاب حيث لا نجد فيه أي فرصة للإبداع أو الاحتكاك بالمجتمع مما يجعل المرأة أسيرة عملها المنزلي المتواضع فاقد العائد الاقتصادي و الاجتماعي. يظهر زيف الادعاء الذكوري بأهمية العمل المنزلي مما نلاحظ من ترفع و تعالي يمارسه الرجل على العمل المنزلي, فرغم أن الرجل قد يكون طباخاً أو غسالاً أو كناساً أو معلماً بأجر لدى الأفراد أو الدولة لكنه يترفع عن أداء هذه الأعمال في المنزل بل حتى لا يشارك في تقديم المساعدة باعتبار أن العمل المنزلي يقلل من هيبته كرجل, والغريب أن هذا التناقض لا يخلق أي تساؤل عند المجتمع الذكوري لأن القضية ليست قضية إمكانات أو تفوق في المقدرات, بل هي قضية قهر و وضع اجتماعي يحكم واقع المرأة و يستلبها. فكما أسلفنا فإن الرجل قد يجيد هذه المهام كما تجيدها المرأة لكن القضية هي فرض سيطرته و تثبيت حقه الاجتماعي على منزل يوجد به إنسان يقوم بهذه المهام دون تقدير بل أحيانا دون كلمة مدح.

يفضح الواقع الاجتماعي والممارسة اليومية النظرة الدونية و الاستعلائية على العمل المنزلي والتعامل مع المرأة بوصفها مخلوقاً من الدرجة الثانية, فإننا نجد أن الشاب الذي يرغب في الزواج فإن الأسباب التي يضعها لنفسه و للناس عادة ما ترتبط بالفهم المتخلف عن الزواج حيث نجده يقول «عاوز يستقر» «تعبت و عاوز أرتاح» «كرهت العزوبية وحياة عدم النظام», وطبعاً لا يخفى على أحد معنى الاستقرار وا رتباط «العزوبية» بالفوضى المتمثلة في عدم انتظام الوجبات وعدم ترتيب المنزل. نجد أحيانا أن الأم تتمنى أن يتزوج ابنها لتشاهد أطفاله و ليطمئن قلبها على وجود من سيرعاه «يرعاك ويشوف ليك أكلك», قد تكون الألفاظ تختلف من شخص لآخر ومن بيئة إلى أخرى لكنها جميعها تدور في فلك الاحتياج لزوجة و هو الاحتياج للخادم الذي يقوم بتهيئة الجو المنزلي للرجل لكي يبدع و ينتج.

دخول الأب المنزل يعني الهدوء و الاستعداد لتجهيز المائدة. و الملاحظ أن المرأة في المنزل تعتقد أن إطعام الرجال هو المقياس الزمني الذي تقسم به المرأة يومها, و تقوم بهذه المهمة الأساسية حتى لو كانت مشغولة في تلك اللحظة بأي عمل فإنها تستأذن لاقتراب موعد حضور الرجل أو لاقتراب موعد الغداء. عادة ما يضع المجتمع النسائي نفسه في المرتبة الثانية حيث لا يتناولن طعامهن أبداً قبل الرجال بل إن «صينية الرجال» دوماً هي الأفضل و الأجمل و الأوفر, ولا تستحي النساء من انتظار صينية الرجال ليأكلن من فتاتها بعد عملية تجميل بسيطة,و لا تشعر النساء بأي غضاضة في ذلك بل هو سلوك طبيعي جداً.

نجد أن المرأة تقوم بعملها المنزلي بدون مرتب أو إجازة, و الغريب أنه حتى في الظروف الاضطرارية التي تمنع المرأة من أداء واجبها الثقيل لا يتكرم الرجل بأداء هذه المهمة نيابة عنها أو يتنازل عن امتيازاته ليقوم بالمشاركة في العمل المنزلي في هذه الظروف الطارئة, بل يقوم بإحضار أمها أو شقيقتها أو أحد أفراد عائلتها للمساعدة في تقديم الخدمات المجانية له, أما إذا تعذر ذلك فإنه يقوم بإرسالها إلى أهلها ليتحملوا أعباء خدمتها طوال هذه الفترة كإجراء طبيعي لا يستغربه المجتمع. أي أن المرأة تعيش في منزل زوجها وهي صالحة للاستعمال أما إذا تعذر ذلك فإما يؤتى ببديلٍ أو تذهب هذه الآلة حتى تستعيد مقدرتها للعمل ثانية. يلعب ارتباط المرأة بالمطبخ دوراً سيئاً في تشكيل وعيها. حيث أن ذلك العمل الروتيني الممل و الشاق يجعلها تفتقر للعمل الاجتماعي والاحتكاك بالواقع الثقافي و السياسي الذي قد يخلق لها طموحاً اجتماعياً لتنعتق من إسار الأسرة الضيق. هذا التقوقع في العمل المنزلي يؤثر سلباً في تطور وعي المرأة مما يساهم في ازدياد الفارق بينها وبين زوجها. نجد أن دائرة إهتمام المرأة المرتبطة بالعمل المنزلي تدور في فلك محدود لا يتعدى الطعام والأدوات المنزلية والملابس ثم الاهتمام بنفسها كجسد تتفنن في عرضه لزوجها, لتجد الرضا والقبول باعتباره القيمة الذاتية الأساسية التي تمتلكها وتستطيع فرض سلطانها به. لا يستطيع أن يقدم المجتمع النسائي الذي يشاركها القهر أي مساعدة لتطورها, حيث يضعف فيه الاهتمام بالجوانب الثقافية و الفكرية بل إن المدخل الأساسي للمجتمع ومشاكله يمر دوماً برؤية زوجها. لا تمتلك

المرأة عادة أي أحلام ذاتية تصبو لتحقيقها لتطور ذاتها و تساهم في تطور المجتمع, بل نجدها عادة ما تنكفئ على دواخلها حيث تذوب قيمتها الفردية و تصبح سعادتها هي سعادة زوجها و أطفالها و رضاؤهم عنها.

تصبح بهذا المرأة مجرد عدد اجتماعي لا يساهم في تشكيل الوعي والثقافة الاجتماعية, و لا تستطيع تغييره بل بالأحرى نادراً ما تفكر في ذلك مما يجعلها تعيش في اهتمامات هامشية و مملة.

قد يقول قائل بأننا نجد أن كثيراً من النساء يستمتعن بهذا الواقع و بهذه الحياة السطحية الرتيبة!!

لا نستغرب عندما نجد من النساء من يعشقن العمل المنزلي و يجدن في ذلك قمة سعادتهن. لكن هناك فرق بين فئة هذا خيارها الواعي وفئة تعكس مستوى التنميط الواقع عليها الذي جعلها تتبنى الفكرة التي تقمعها لا شعورياً.

المجتمع يقنن لوضع المرأة في المنزل بأن الخواء الفكري و الاهتمام السطحي بالحياة يجعلها غير مؤهلة لأي دور اجتماعي, بل أن المنزل هو المكان الطبيعي لها. و لا يخفى علينا التناقض الذي يضع المرأة في المنزل و يشكِّل وعيها سلباً, ثم يأتي ليحاكمها على هذا الوعي السلبي و يستند به على أفضلية المنزل لها و تناسي إنماء الخواء الفكري و هو نتاج لوضعها في المنزل وليس سبباً.

(د). تأثير الإعلام

كان الإعلام و الثقافة الشعبية تصب في الفهم الاجتماعي في تنميط دور المرأة, و لم يكن للدوله دور سلبي في محاولة دعم هذا الفهم أو تعميقه.و في نفس الوقت لا نجد للدولة حينها دورا إيجابياً في تبني إستراتيجية إعلامية و ثقافية لهدم هذا التنميط .

(ه). تأثير اللوائح والقوانين

كانت قوانين الدولة تؤكد على المساواة بين الجنسين, لكن في بعض قوانين الأحوال الشخصية نجد تقليل من هذه الاستقلالية و إعطاء حق الولاية للوالد لتزويج ابنته و أيضا إعطاء الحق للطلاق, بينما على المرأة أن تقدم طلباً للمحكمة إن ارادت الطلاق. رغم أن هذه الحقوق أصلا موجودة في صلب الإسلام لكن نجد المجتمع الذكوري يفرض قناعاته.



الفصل الخامس

الحقبة الثانية.. عهد الإنقاذ



الحقبة الثانية.. عهد الإنقاذ

اتسمت العقود الثلاثة السابقة بارتفاع مستويات الفقر و انهيار ملحوظ للطبقة الوسطي. أدى هذا التغيير لازدياد النزوح من الريف وترهل المدن,و أصبح عمل المرأة ضرورة اقتصادية. و مع ضعف التنمية أصبحت الدولة في مجال الوظائف المكتبية و العمالة غير المدربة تمثل الشريحة الأكبر في سوق العمل. ارتفع عدد المنتسبات للتعليم الأكاديمي و الجامعي مع تردٍ واضحٍ في المستوى لضعف الامكانات و غياب السياسات التي تهدف لزيادة الوعي و المعرفة.

أزمة المرأة أنها كانت ضحية مشروع الإنقاذ الحضاري, فقد رفعوا شعار أن يعيدوا صياغة الإنسان السوداني في نظام قمعي أحادي يدعو لتغيير الشعب ولا يعني تطوير قيم الحرية, لأنها تتناقض مع منهجهم وطريقة وصولهم للحكم. لذا فقد كانت إعادة الصياغة في حقيقتها خلق مواطن يدين بالولاء لنظام الحكم و يلغي عقله و تفكيره, و ذلك لعدم مبدئية موقفهم من مفهوم الحرية.

إن هذا المشروع الذي لا يؤمن بقيم الإنسان الفاضلة ليس له ما يقدمه للمجتمع في دروب الوعي والفضيلة فيساهم في تعميق قيم الكسب المادي عند الرجال تحت اسم التمكين, و تصبح المرأة ضحية النظرة السطحية التي تجعل منها أداة للمتعة و الإنجاب.

في النظرة للمشروع الحضاري الذي شكل تاريخ شعبنا سلباً في الفترة الماضية, وجب علينا النظر لجذوره المعرفية لمعرفة أهدافه. إن الواضح من قراءة التاريخ أن جماعة الإسلام السياسي لم يكن لديها موقف مبدئي

من قضية المرأة, بل كانت الفتاوي تتناقض و تتنافر على حسب الظرف و المصلحة.

إن المتتبع لحركة الإسلام السياسي يجد ثلاث محطات في نظرتهم للمرأة في الخمسينات والستينات والثمانينات. في الخمسينات خرجت سعاد الفاتح و ثريا أمبابي من الاتحاد النسائي لمطالبته بحق المرأة في الترشيح و التصويت باعتباره يتعارض مع مقاصد الدين. في الستينات بعد إعطاء المرأة حق الترشيح مع حق التصويت الذي حققته قبل أعوام فرض الواقع عليهم التنازل و القبول بحق المرأة في التصويت و سعوا لكسب صوتها. في الثمانينات بعد كتيب د. الترابي عن المرأة بين الدين و تقاليد المجتمع, لم يدع فقط للاختلاط بل قال إن المجتمع المنفصل رجاله من نسائه ليس من الدين في شئ, بل أكد على تأثيره السالب على تطور المجتمع. هذا الطرح المتقدم الذي كان يدافع عنه التنظيم في جامعة الخرطوم نجدهم في جامعة أم درمان الإسلامية - حيث الطلاب أكثر محافظة وأقرب للتيار السلفي- ليس فقط يدعون لعدم الاختلاط بل يصارعون لتحقيق مجتمع جامعي فيه انفصال كامل بين الجنسين.

لذا فإن حرية المرأة أو مساواتها ليس جزءاً أصيلاً من برنامجهم بل بالعكس نجد أن النساء كن أكثر الضحايا من ممارساتهم.

إن سياسات الدولة و قوانينها و مشروعها و فلسفتها لتغيير و إعادة صياغة الإنسان السوداني بعيدة من قيم الحرية والشرف و العدالة, وكان هاجسها تدجين إرادتهم و تطويع أفكارهم. كما كان هدفها من الرجل السوداني أن تجعله نموذجا للتدين المزيف و من المرأة جسداً يحتاج الحسم والقمع حتى لا يسعى في الأرض فساداً.

المشروع الحضاري كان يرى في جسد المرأة رأس الفتنة و بؤرة الفساد و الانحلال في المجتمع. لذا كان هاجسه حصار المرأة وتحجيمها بالقوانين و المفاهيم و تطويع رأس الفتنة.

(أ). تأثير مفاهيم التربية و العادات و التقاليد

قام مشروع الإنقاذ استنادا على رؤيتهم الفلسفية التي يتحكم فيها العقل التناسلي, فكان هاجسهم تطبيق صورة المجتمع غير المتوازن. هذه الرؤية التي لا ترى المرأة كإنسان محايد جنسيا لكنها ترى الأنثى في كل التفاصيل, لذا جاءت حلولها فقط في الفصل بين الجنسين والتفريق بينهما.

قام المشروع الحضاري بفرض تقاليد الفصل بين الجنسين في الحياة العامة, حيث الفصل في المركبات العامة وقاعات الدراسة في الجامعات, و ظهرت شعارات الرياضة من وراء حجاب, و بمنع الرقص في الحفلات العامة و الخاصة بين الجنسين. رغم إن كل هذه الممارسات لم تكن يوماً سبباً لأزمات اجتماعية و لم تكن مؤشرا لسلوك جنسي و لكن كان واضحاً أن إسقاط مفاهيم الوعي التناسلي لهذه الفئة و ربط قيم الإثارة تعسفياً على مجتمع لم تكن جزءاً من هواجسه.

في الثلاثة عقود الماضية ساهمت الظروف الاجتماعية و الاقتصادية في تغيير التركيبة الأسرية بدرجات متفاوتة و متباينة.

في غياب الدراسات العلمية المتخصصة يصبح قراءة الواقع يعتمد على التجارب الذاتية و المشاهدة القريبة. لقد ظهرت أربعة أنماط مختلفة للأسر هي الأسر المستقرة في السودان, و الأسر المستقرة مؤقتا في دول الإغتراب, و الأسر المنقسمة بين السودان ودول الإغتراب, والأسر المهاجرة.

إن النظرة العامة لهذه الأنماط تستطيع أن ترى التباين بينها و ما يترتب عليها من اختلاف:

(١)الأسرة في داخل الوطن: و هي تمثل السواد الأعظم,و نلاحظ التأثير الواضح في التدهور في الواقع الاقتصادي بوصفه العامل ذو التأثير الأكبر. الواقع الاقتصادي يمكن أن نرى تأثيره على الأسرة فيما يلي:

(أ). عمل المرأة:

حيث أصبح عمل المرأة ليس فقط مقبولا بل ضرورة لاقتصاديات

الأسرة. نجد أن عمل المرأة قد زاد من معاناتها حيث أن عبء العمل المنزلي لم يتغير ليصبح هاجسا و هماً إضافياً يقودها لحالة شبه مستمرة من الإرهاق البدني و النفسي.

(ب). عمل الزوج أصبح يأخذ وقتا أكبر. حيث نجد الزوج قد يعمل في أكثر من وظيفة أو عمل إضافي لزيادة دخله, و عادة يكون هذا على حساب راحته النفسية و البدنية و خصماً على زمنه مع الأسرة.

(ج). السكن: الواقع الاقتصادي قد يفرض على بعض الأسر أن تعيش في بيت الأسرة الممتدة, وعادة ما يصاحب ذلك من تأثير على خصوصية العلاقة أو ظهور تداخلات سلبية مع الأسرة الكبيرة.

(د). الحياة الاجتماعية من تواصل مع الأسرة و الأصدقاء نجدها تتأثر بصورة ملحوظه نسبة لعامل الزمن والجانب الاقتصادي أيضا.

(هـ). مع دوامة العمل و الإرهاق نجد انحسار و غياب الزمن المخصص للعلاقة, فنجد الزوجين في دوامة سباق مع الزمن لانعدام وقت لهما سويا وللعلاقة بينهما.

نجد كل هذا العوامل تؤثر سلباً على الزيجات في داخل الوطن.

(٢).الأسره في الإغتراب: نجد معظم هذه الأسر موجودة في الخليج. معظم هذه الأسر كان يُفترض أن تكون في فترة غياب مؤقت عن الوطن و لكن في الواقع نجدها قد استقرت في هذه الدول لفترات تقارب الإقامة الدائمة.و هناك عوامل متباينة تؤثر على استقرار الزواج أو عدمه, و هي :

(أ). طبيعة عمل الزوج و رضائه عنه و ساعات عمله و مستوى دخله.

(ب). عمل الزوجة و طبيعته والفرق بين الزوجة العاملة و الزوجة ربة البيت.

(ج). التداخل و التعايش مع مجتمع الدولة الجديدة و ثقافتها و درجة التأقلم عليها.

(د). مجتمع السودانيين في دولة الإغتراب و إلى أي درجة قد ساهم في خلق

مجتمع بديل.

(هـ). الأسرة الممتدة و الأصدقاء وإلى أي درجة يفتقد الزوجان الدعم و التوازن الاجتماعي الذي كانا يجدانه.

هذه العوامل المتداخلة تساهم سلباً و ايجاباً في نجاح العلاقة الزوجية أو تدهورها.

(٣).الأسرة المنقسمة: و المقصود بها هي التي يكون فيها الزوج مغترباً و بقية الأسرة في الوطن. نجد أن هناك عوامل و قضايا قد تؤثر سلبا في العلاقة.. مثالاً لذلك:

(أ). الوحدة: وهي شعور الزوجين أو أحدهما بإحساس الوحدة و صعوبة التأقلم على فراق الطرف الآخر.

(ب). القلق والتفكير الدائم في الطرف الثاني بشعور من التخوف وتضخيم الأحداث.

(ج). الغيرة و عدم الثقة لعدم معرفة تفاصيل الآخر تفتح باباً الشك و هاجس الغيرة.

(د). إحساس عدم فهم ظروف الآخر و واقعه قد يفتح الباب لمحاولات السيطرة و التحكم في تفاصيل حياته.

(هـ). ضعف أو عدم التواصل المنتظم لأي أسباب حتى و لو كانت منطقية قد تساهم في الأسرة سلباً على العلاقة.

(و). تطور الشخصية مع الزمن قد يؤدي لتطورها بعيدا عن نظر الآخر و تأثيره و متابعته و قد تقود لأن يجدا نفسيهما و قد تغيرت طباعهما و شخصيتهما مع الزمن.

(٤). أسرة المهجر :وهي الأسر التي قد استقرت بصورة نهائية في دولة أخرى و نجد معظمها في أوربا وأمريكا. و هناك عوامل كثيرة قد تؤثر على تطور الأسرة سلبا و إيجابا, منها:

(أ). عمل الزوج و إلى أي درجة يجد فيه ذاته من طبيعة العمل و ساعات

العمل و مستوى الدخل.

(ب). عمل الزوجة الذي يتباين بين الزوجة ربة المنزل وبين التي تعمل. أيضا نجد طبيعة العمل وساعاته و إلى أي درجة يتعارض مع العمل المنزلي.

(ج). ثقافة دولة للمهجر و درجة تأثيرها على كل فرد من الأسرة تمازجاً معها أو رفضاً لها.

(د). قوانين و مؤسسات حقوق الزوجة في دولة المهجر و مساهمتها في دعم الزوجة و اعطائها الاستقلالية و الثقة في فض الزواج في حالة فشل العلاقة.

(هـ). وجود زمن للأسرة و للعلاقات الاجتماعية و الترفيه في خضم دوامة العمل.

(و). التعود على البعد عن الوطن و غياب دعم الأسرة الممتدة والأصدقاء.

هذه العوامل إذا لم ينجح الأزواج في التعامل معها بصورة إيجابية فإنها حتما ستقود لتدهور تدريجي في العلاقة, و سيكون الطلاق نتيجة حتمية اذا لم يتعامل الزوجان بصورة جادة مع هذه العوامل.

***تأثير العلاقات الإسفيرية**

التطور التكنولوجي فرض واقعاً جديداً مليئاً بالتناقض والسلبيات. حيث يسعى الواقع لتأسيس مجتمع يرمي للفصل بين الجنسين و لكنه لا يستطيع منع التواصل الإسفيري. و هذا الواقع يخلق علاقات تستند في جانب كبير على الجانب الإسفيري وما يحمله من سلبيات.

علماء النفس قد عددوا مجموعة من العوامل التي تجعل من العلاقات الإسفيريه ذات مضار و أثر سالب على مستقبل العلاقة.هذه العلاقات الإسفيرية تفتقد للتواصل الطبيعي بين البشر حيث يتكامل فيها التواصل اللغوي و الاجتماعي و النفسي.إن الإنسان في تواصله مع الآخر يزداد قرباً بمقدار معرفته له و توافقه مع ما يملك من سمات وميزات.معرفتنا للآخر لا تستند على الكلمات بل على طريقة خروجها وما يصاحبها من نبرات

و مشاعر وتعابير جسدية تعطي لهذه الكلمات معناها الحقيقي و هذا مانفتقده في التواصل الإسفيري, حيث تصلنا الكلمات و المعاني مفرغة من مدلولها الاجتماعي. إن المدلول الاجتماعي للغة من طريقة طرحها وما يصاحبها من مشاعر وتعابير هي المعيار الأقوي الذي يجعل الفرد يفهم شخصية الآخر, و في غيابها تتطور العلاقة بسرعة غير متوازنة مع عمق العلاقة و حقيقة معرفةالطرف الثاني.نجد في التواصل الإسفيري ما يعرف بصناعة الوهم, حيث يحاول الفرد دوماً إبراز أجمل ما فيه من صفات, بل تضخيم للسمات التي يفتقدها و يحلم بتحقيقها. ومن الطرف الآخر نجده يمارس إسقاطاته ويضفي على الآخر كل صوره الخيالية و ما يحلم به عن شريك حياته, مختزلا السلبيات و محاولا إيجاد التبرير.إذن في عالم يقلفيه التواصل الطبيعي و يسود التواصل الإسفيري نجد ارتفاعا لوتائر المشاعر المتزايدة التي لا تستند علي التطور الطبيعي و المتوازن للعلاقات مما يقود لنهايات غير متوقعة لها تساهم في اهتزاز الثقة في مفهوم الحب و مصداقيته.

***التعدد و زواج المسيار**

في هذه الحقبة نجد أن ملامح طقوس الزواج قد تغيرت لدرجة ما تتفاوت بين المدن و القرى نسبة للضائقة الاقتصادية في شكلها و عددها رغم أن جوهر الفكرة و المحتوى قد يكون واحداً.مع سيادة القوانين وتأثير المد العام أصبحت بعض الطقوس حِكراً للنساء خاصة» رقيص العروس» و ذلك استنادا على نظرة إسلامية, ورغم أن الجانب الاجتماعي واضح في عدم السماح للرجال بالحضور لكن جوهر الممارسة لم يتغير باعتبار الجانب العرضي للعروس هو الأساس, مع الفارق أنها معروضة كجسد أمام جنس النساء.

في هذه الفترة برزت ظاهرة التعدد في الزواج والتي عادة لا تجد القبول الاجتماعي, و من النادر أن نجد زوجة تقبل أن يتزوج زوجها عليها. ارتبطت

ظاهرة التعدد مع ظهور شريحة اجتماعية صعدت لسلم الثراء النسبي و كان الزواج بالنسبة لهم جزءاً من امتيازات الواقع الجديد, و عادة لا يضع الرجل في الحسبان ما سيخلقه زواجه الثاني على أسرته وأطفاله. البعض قد يقوم بالزواج سِراً خوفاً من التعقيدات, وحتما سيكون لهذا النمط من السلوك و خلق حياة ثانية سرية وما يصاحبه من كذب وخداع وضغوط من أثر سالب على الزواج إذا كُشف أمر زواجه الثاني أم لم يكشف.

ظهرت مع استقلال المرأة الاقتصادي النسبي ظاهرة (الشَّلَّابة) وهي المرأة التي تتصيد الأزواج وتغريهم بمعطياتها الاجتماعية لتكون زوجة ثانية. بدون الغوص في التركيبة النفسية لهذه الإنسانة التي تبني حياتها على تعاسة الآخرين بل وهدم أسرة دون أن يرتد لها طرف, يمكننا القول أنه من الصعب تقبُل حقيقة أن ما يتم هنا علاقة إنسانية بقدر ما هي صفقة تجارية تسعى الفتاة بإمكانياتها المادية أو الجسدية للاكتساب و الحصول على وضع الزوجة.

ظهرت أيضا أنواع من الزيجات التي ترتبط بشروط محددة تجعل من العلاقة أقرب للعلاقة الجسدية التي ينتفي فيها جوهر الزواج من جانب إنساني وفكري و اجتماعي.نجد زواج المسيار خير مثال لذلك و الذى أفتت هيئة علماء السودان -المعروفة بإرتباطها بالسلطة- بشرعيته و بقبوله. نجد في أركانه تنازل الزوجة من بعض حقوقها من نفقة و سكن و حتى قد يصل للتنازل عن إنجاب أطفال و رعايتهم, وهذا يعكس ما تبقى من علاقة ليس لها علاقة بالمفهوم الإنساني للزواج. لذا لم يكن غريبا أن نجد أحد القاضيات السودانيات قد رفضت في محكمتها تسجيل زواج المسيار رغما عن الفتوى أعلاه و استشهدت بأنه يخلو من أركان الزواج ومقاصده كما دعت له الشريعة الإسلامية.

(ب). تأثير مفهوم الزي

أصبح ما يعرف بالزي الإسلامي للمرأة هو شعار و رمز لمشروعهم الحضاري, فقامت حملات مكثفة مع قوانين رادعة لجعل الفتيات يلبسن هذا الشكل من هذا الزي الذي يعكس حجم الاهتمام بمحدودية هذه النظرة, و أصبحت من ترتدي هذا الزي تُعرف بأنها (التزمت). و هذا يعكس مدى فهمهم لعمق قيمة الالتزام بالأخلاق الإسلامية, ليصبح شعاره في الزي و ليس في الصدق و الأمانة.

كما ذكرنا سابقا أن سايكولوجية الجسد عملية متغيرة و متطورة تستند على تقسيم الجسد الى مستويين, أحدهما ثابت وهو الجانب الجنسي الذي يعطيها قيمتها كأنثى, و ثانيهما متغير و هو الجانب الاجتماعي الذي يعطيها دورها كامرأة. إن الصراع حول أين يقف مؤشر الإثارة الذي يوضح جدلية الخلاف بين الفرد و المجتمع بين محاولة جنسنة بعض أعضاء المرأة و الرفض المقابل لذلك فهو صراع اجتماعي يحُسم بالفكر و الوعي.

في المجتمعات القمعية التي تؤمن بالجمود يحُسم التناقض بالقانون لصالح المجتمع, فيُفرض على الفرد الانصياع لرؤية الآخرين التي تسعي لجنسنة الجسد و ينُظر فيها للفرد كمتمرد و شيطان يغرد خارج السرب يسعى لهدم قوانين الفضيلة. و عكس ذلك المجتمعات التى تؤمن بالتطور فلا يتدخل القانون بل يترك الصراع ليأخذ مجراه, فقد يستطيع الفرد أن يثبت حقه في الزي أو أن ينصاع للضغط الاجتماعي و لكن في إطار القانون الذي يحمي حقه في الاختيار.هو اختلاف بين رؤية تؤمن بالتطور و حرية الفرد المنضبطة التي تقر بأن الهدف هو أنسنة الجسد استناداً على أن المرأة كائن اجتماعي, و تعطي الفرد الحق في طرح نفسه للآخرين كموجود اجتماعي ولا تحاكمه بما يرى الآخرون. أما العقل التناسلي الذي لا يرى إلا تهيؤاته الجنسية ليس حَكَماً ولا مرجعاً و ليس له الحق أن يطالب الآخرين بالانصياع لمحدودية نظرته.بل يجب أن يحمي المجتمع الفرد في تثبيت حقه في الزي الاجتماعي مادام أنه لم يتجاوز ثوابت القانون في الجنس والتعري.

المجتمع السوداني لم يكن مجتمعاً متعرياً ولم يكن يعاني من أزمة في معاني الحشمة و الأخلاق, بل يمكن أن نقول إن الزي الشعبي أو الثوب في كثير من الأحيان أكثر تغطية للجسد من النموذج المتأسلم للزي.

نلاحظ أن لبس كثير من الفتيات لما يعرف «بالزي الإسلامي» لا ينفصل عن مفهوم المجتمع الذكوري و محاولتهم إظهار قيمتهم الجسدية. حيث نلاحظ أن الألوان الصاخبة أو التصاميم تقسم جسم المرأة لخصر و صدر وخلافه, بل أن البعض لا يستطيع إخفاء طابعه الأنثوي الاستعراضي فتقوم بإظهار جزء من شعرها أو مصاغها أو وضع غطاء الرأس في شكل ضفيرة. إذن فالقضية مهما تلونت أو حاولوا إضفاء الطابع الفلسفي أو الديني لها فإن محاولة المرأة عرضها لجسدها بصورة مبتذلة أو محاولة إخفاء نفسها باعتبارها موضوع للإثارة متحرك, فإنهم ينطلقون من نفس المنبع و يعكسون وجهين لعملة واحدة.

رغم سيطرة مفهوم الزي على مشروعهم و كمية الجهد في الدعوة و التبشير بالحجاب الإسلامي, نجد أن زعيمهم د.الترابي في آخر أيامه قد أفتى لهم بأنه لا يوجد في الإسلام ما يعرف بالحجاب, و أن المطلوب هو الخمار الذي يُغطي الصدر و أن شكل الزي المعروف بالإسلامي اجتهاد فقهي ليس إلا.

محاولة فرض زي معين على مجتمع كامل هي رسالة للمجتمع بأن كل امرأة جسد و جب عليها تغطيته. عدم القبول لمفهوم الحشمة السائد في المجتمع لتفرض مفاهيمك في الحشمة لا تعكس أزمة المجتمع المعروف بمحافظته ولكنها تعكس أزمة العقل التناسلي المأزوم الذي يرى الإثارة في كل ركن.

في المجتمعات المتوازنة تُحجب الأجزاء الجنسية و لكنها لا تسمح للأفراد أن يمارسوا اسقاطاتهم الذاتية في فهمهم الذاتي للإثارة وتحديد ما يفترض أن يكشف أم لا, بل تسعى لتقنين رؤية عامة تمثل العقل الجمعي و ما يتقبله العرف السائد.

(ج). تأثير عمل المرأة

خرجت المرأة للعمل بصورة أوسع و أكبر و مع الواقع الاقتصادي و أصبح عملها أكثر قبولاً بل صار المجتمع لا يمانع حتى في سفر المرأة للعمل خارج الوطن. التناقض المخجل أن المجتمع الذي فُرضت عليه ظروف القبول بعمل المرأة والسفر لم يستطع أن يتطور في نظرته للمرأة ولم يواكب ذلك رُقياً في التعامل معها كامراة عاملة وليس أنثى. لذلك نجد مازال يعشعش في دواخل الدولة المتأسلمة إحساس المرأة الجسد و المرأة العار المتحرك, لتسن القوانين التي تحرم سفر المرأة من غير محرم , كما أن المرأة المتخصصة والخريجة الجامعية تحتاج لمرافق ذكر ليسمح لها بالسفر حتى وإن كان مراهقا لم يكمل دراسته و يصغرها بعشرات السنين. لكن هذا الشرط مع الضغوط الداخلية و العالمية تراجعت دولة الظلم و أصبحت لا تصر على تطبيقه.

(د). تأثير الإعلام

نجد الإعلام الحكومي يسعى و يبشر لمفهوم الحجاب وضرورة الالتزام به مع التبشير بالفصل بين الجنسين.

نجد في هذه المرحلة سيادة التواصل الاجتماعي الإسفيري مما فتح الباب على التأثير الإعلامي من داخل الوطن و من أنحاء العالم من مفاهيم جديدة و قيم قد تتعارض مع الثقافة المحلية وسلطة الدولة.إن التشيؤ الواقع على المرأة في العالم من أجهزة الإعلام و استغلال جسد المرأة حتما سيرمي بظلاله على واقعها في السودان انبهارا بنماذج و سلوك لا يُخفي ما بداخله من استلاب لدور المرأة الإنسان و تضخيماً لقيمتها كأنثى.

(ه). تأثير اللوائح والقوانين

يسعى المجتمع للتأطير لأنواع الزي بين ماهو خاص و مابين هو اجتماعي حتى يحافظ الزي على هذا التقسيم الاجتماعي لدور الفرد, ولخلق الأُطر الأخلاقية التي تحكم التواصل بين أفراد المجتمع حفاظاً على التوازن الاجتماعي و تطويراً لقيمنا الانسانية..

لا يوجد مجتمع لا يقنن في قوانينه للزي يفرق بين التعري و بين الإثارة. حيث نجد معظم الدول لها قوانين ضد التعري في الأماكن العامة..و هي قوانين ليس هدفها المرأة في ذاتها فقط بل تهدف إلى تطوير القيمة الإنسانية للجنس و منع الانزلاق لمراتب المملكة الحيوانية المرتبطة بمشاعية الجنس للجميع و بيولوجية العلاقة المرتبطه بالجسد فقط .

ان المجتمعات المتوازنة لاتسمح للافراد بأن يمارسوا اسقاطاتهم الذاتية في تحديد ما يفترض أن يكشف أم لا. بل تسعى لتقنين حرية الاختلاف لخلق رؤية عامة تمثل العقل الجمعي و ما يتقبله العرف السائد المنفتح للتغيير دوما.العقل التناسلي الذي تسيطر عليه هرموناته فيمارس اسقاطاته على كل امرأة فلا يرى فيها سوى تضاريس تحاصر عقله المبرمج على رؤية الجنس في كل منحى.

ولا تُترك للتقديرات الذاتية لرجل شرطة ليمارس إسقاطات وعيه الذكورية, أو من وكيل نيابة مازال مُكبلاً بوعيه القاصر عندما تجاوزت نظراته الزي فطالب أن تُحاكم لأن حركة أردافها قد استفزت عقله التناسلي.

كانت فترة الإنقاذ خير مثال للمجتمع غير المتوازن التي تتدخل الدولة لتفرض مفهوم الزي المقبول ليس استنادا على العرف الاجتماعي بل على مفهوم رجل الشرطة أو رجل القانون الذي يحمل أفكار العقل التناسلي.كانت ضحية قانون النظام العام المرأة السودانية جلداً و إهانة ومحاكمات لأنها لم تضع طرحة على رأسها أو لأن بنطالها ليس شرعياً أو حركة جسدها قد استفزت عقله الذكوري.

نجد تماشيا مع هذه العقلية قانوناً لا يجرم ممارسة الخفاض الفرعوني و يسمح لتزويج االقاصر ولو كان عمرها عشرة أعوام.

عاشت المرأة السودانية أسوأ أيامها تحت نِير ما يعرف بقانون النظام العام الذي يجرم المرأة على نوع الزي الذي تلبسه و ليس استنادا على

معايير محددة تتوافق مع العرف الاجتماعي, بل كانت تعتمد على تقديرات رجل القانون و ما يشكله عقله التناسلي و نظرته للمرأة. نجد نص القانون ينص على التالي:

«من يأتي بفعلٍ أو سلوكٍ فاضحٍ، أو مخلٍّ بالآداب العامة، في أماكن عامة، أو من يرتدي زياً فاضحاً، أو مخلًّا بالآداب العامة، يسبب بفعله ضيقاً للعامة، يعاقب بالجلد بما لا يتجاوز الأربعين جلدة، أو بالغرامة، أو بالعقوبتين معاً. يُعد الفعل مخلاً بالآداب العامة إذا كان كذلك في معيار الدين الذي يعتنقه الفاعل، أو عُرف البلد الذي يقع فيه الفعل».

لذا لم يكن غريباً أن يقف وكيلٌ للنيابة عندما فشل في إثبات الزي الفاضح في المحكمة و دافع عن قراره بابتذال يعكس ظلم القانون الذي يسمح له بإسقاط تقديراته الذاتية عندما أضاف أن طريقة مشي المتهمة كانت غير محتشمة. عادة كانت المرأة من الطبقات المهمشة أكثر عرضة لقهر القانون وبطش و استغلال شرطة النظام العام. كان لاعتقال ناشطات و مثقفات مثل ويني عمر التي عُوقبت بالجلد و أميرة محمد عثمان التي حوكمت لعدم تغطيتها لشعرها أثراً كبيراً في غضب الرأي العام, و لقد كانت المؤسسات العدلية رغم انتمائها للتنظيم تعاني في تطبيق القانون. فعندما اعتقلت الصحفية لبنى أحمد الحسين، عام ٢٠٠٩، بتهمة ارتداء زي فاضح، رغم أنّها كانت ترتدي سروالاً واسعاً و فضفاضاً، وقميصاً طويلاً، و تضع وشاحاً على رأسها وكتفيها. وتمت محاكمتها بالجلد (٤٠) جلدة، لكنّ القاضي غيّر الحكم إلى غرامة تبلغ (٥٠٠) جنيه سوداني، أو السجن لمدّة شهر كامل، عندما رفضت لبنى دفع الغرامة وضعت الحكومة السودانية في مأزقٍ كبيرٍ، بعد أن ندّدت المنظمات الحقوقية والصحفية العالمية بالمحاكمة، فاضطر اتحاد الصحفيين السودانيين التابع للنظام الحاكم، إلى دفع الغرامة للمحكمة، دون استشارة المُتهمة, بل الغريب أن بعض الفتيات المسيحيات قد أُعتقلن و هن خارجات من الكنسية لعدم

التزامهمن بالزي الإسلامي.

عندما ازداد الضغط الداخلي والعالمي وبعد ٢٢ عاما من التطبيق خرج الرئيس المخلوع مهاجماً القانون و قال إنه أصبح أداة للتشهير و إنه سيوقف هذا العبث, و كما هو معلوم لم يفعل شيئا حتى تم إلغاؤه في نوفمبر ٢٠١٩ بواسطة الحكومة الانتقالية.

واقع المرأة اليوم

إن الدراسات العلمية من كل العالم قد أظهرت الأثر السلبي لعمليات التشيؤ على المجتمعات وعلى واقع المرأة خاصة في مجتمع قد مر بمرحلة من نظام غير متوازن مثل المجتمع السوداني, حيث ساهمت الدولة و أدواتها في تكريس هذا الفهم, فإننا نتوقع أن يكون الأثر أقوى و أكثر حدة. في غياب الدراسات العلمية المُحكمة يصعب التأكيد على هذه الفرضية و لكن سنحاول التطرق لسماتها و ما يتراءى من ظواهر تؤكد هذه الفرضية.

إن هناك تسعة محاور قد ثبت تأثير التشيؤ السالب عليها, و هي :

1. الاهتمام المزمن والمستمر بالشكل والملامح.
2. تدهور الاهتمام بالجوانب العقلية و الفكرية.
3. الحد من حركة الفتيات و اهتمامهن بالرياضة.
4. ازدياد الحساسية تجاه الجسم و ظهور مشاعر الخجل.
5. القلق و عدم الراحة النفسية.
6. زيادة مشاعر عدم الرضا عن أجسادهن.
7. ازدياد أمراض الأكل و برامج التخسيس و السمنة.
8. ازدياد مشاكل الثقة في النفس مع ازدياد المقارنة.
9. صعوبة التأقلم والاستقرار في العلاقات العاطفية و الزوجية.

إن أكثر الظواهر التي قد تمت دراستها و يمكن أن تعكس مقدار التشيؤ هو ظاهرة استعمال كريمات التبييض وتفتيح البشرة. حيث تراوحت الأرقام لاستعمال المستحضرات التى تفتح لون البشرة وسط الفتيات

الجامعيات نسبة بين ٦٠ إلى ٧٥٪ بل تقول التجارب المعاشة إن النسبة أكبر من ذلك كثيراً. حيث أصبح من المتعارف عليه اجتماعيا أنه من النادر أن تجد فتاة لا تستعمل هذه المستحضرات.فإذا كانت معظم الدراسات بين الطالبات الجامعيات فإنه من المتوقع أن تكون في وسط الشرائح الأخرى أكثر انتشارا. ظاهرة مستحضرات التبييض تعكس كمية التشيؤ الواقع على المرأة حيث نجد رغم الأدلة العلمية التي تعكس آثارها السلبية على الصحة والتي قد تقود للتشويه والفشل الكلوي بل و الوفاة, رغما عن ذلك نجد كثافة انتشارها.حيث لا نجد فارقا في مستوى الانتشار بين المتعلمات و غيرهن كأن معرفة الخطر لا تقلل من نسبة انتشار إستعمالها. إن البحث الذي قامت به د.إبتسام إسماعيل قد عكس بجلاء مدى أهمية المرأة الجسد في أذهان هؤلاء الفتيات لدرجة أن الواحدة منهن يمكن أن تضحي بحياتها لتحقق الشكل الاجتماعي لمفهوم الجسد الجميل.هذه الظاهرة تعكس كيف أصبح الجسد يمثل للإنسان أهم قيمة في حياته, و من دونه يشعر أن لا قيمة له و لا يمنع أن يُضحي بحياته مقابل أن يحقق صورة الجسد المقبول اجتماعيا.



الفصل السادس
الحُب



الحُب

الحب هذه العاطفة العميقة و العظيمة الأثر في تاريخ البشرية و الأفراد لا شك أن لها دوراً لا يخفى على أحد, فهي العاطفة الوحيدة التي يمكن للإنسان أن يعيش لها أو يموت من أجلها بل قد يصل لدرجة القتل بسببها. رغم هذه الأهمية لكن مازال هناك كثير من جوانبها تحتاج للفهم والدراسة. إن الحب بكل تعقيداته والعوامل المتشابكة في تكوينه نجده يطرح كثيراً من التساؤلات الباحثة عن إجابة و ما زالت قيد البحث و التقصي.

إذا رجعت للقواميس والكتب العلمية ستجد الآف من التفاسير لظاهرة الحب ومفهوم الحب وكل تعريف يركز على أحد مظاهر الحب و تجلياته. لذا نجد أن التعريف له يُظهر ملامح عدة و يعتمد بدرجة كبيرة علي ما نبحث عنه و من أي منظور قد نظرنا إليه. نجد مدارس علم الاجتماع تنظر إليه باعتباره مظهر وسلوك اجتماعي, وهناك من المدارس الآخرى من يفسره كحاجة غريزية بيولوجية للإنسان, بينما نجد مدارس علم النفس تراه كمشاعر إنسانية و الطاقة المحركة للحياة. الذي لا جدال فيه أن الحب ظاهرة إنسانية متشابكة تشمل كل هذه العوامل المشتركة, فنجد أن للحب جوانبه البيولوجية و الاجتماعية و فوق ذلك نتفق جميعا أن جوهره يكمن في أنه عاطفة إنسانية و أساس التركيبة النفسية لكثير من العلاقات. لذا فإن أي دراسة علمية تبحث عن جوهر الحب و تحاول فهم تركيبته و تفاعلاته ستنطلق من علم النفس و المفهوم السايكولوجي للحب مع مراعاة جذوره و العوامل الأخرى المتداخلة.

في تاريخ علم النفس ظهرت مدارس و نظريات شتى في تفسير الحب و شرح معناه وأسبابه.

منذ أن كتب عالم النفس ناتانيل براندن(٢٦) كتابه عن سايكولوجية الحب رغم الاختلاف من البعض في رؤيته, و لكن اتفق الجميع على أن تفسيره للحب كان الأشمل والأقرب لتعريف الظاهرة حيث كتب تعريفاً وجد قبولاً كبيراً لأنه وصف فيه الحب كظاهرة بدون الانغماس أو التأثر برؤية معينة عن أسبابه وعوامل تكونه. كتب تعريفا للحب و وصفه قائلا..

(حاله من الارتباط الحميم العاطفي و الروحي والجنسي بين رجل و امرأه يعكس مقداراً مميزاً و متعاظما من كل منهما تجاه الآخر).

هذه الحالة عكف علماء النفس في توصيفها ورسم سماتها, فوجدوا أنها تغطي مجموعة من التغييرات عرفت بأعراض الحب. رغم أن كلمة الأعراض ترتبط بالمرض كثيرا لكن استعمالها هنا مجازياً و المقصود أنها حالة تصاحبها تغيرات تتجاوز حالة الإنسان العادية, و لكنها ليست حالة مرضيه.هذه الأعراض تتمثل في الآتي:

(أ).الانشغال والتركيز بالطرف الآخر لدرجة أن يصبح هو مركز حياة الفرد خاصة في بدايات العلاقة.

(ب).الاهتمام بالآخر قد يصل مرحلة وسواسية في التفكير المتواصل و الأفكار اللاإرادية المتكررة عن الآخر و الاهتمام بكل ما يخصه من تفاصيل مع ازدياد ملحوظ في الطاقة و الحماس عندما يصبح الفرد في دائرة التفكير.

(ج).الرغبة في التملك أو الوجود الدائم مع الطرف الثاني و أن يكون هو مركز حياته, مع الشعور بالضيق إذا أظهر ذلك الطرف اهتماما أقل من المتوقع أو ركز على شئ آخر في حياته.

(د).حالة من القلق في فترات الفراق خاصة إذا طالت أو ارتبطت بتباعد جغرافي أو صعوبة في التواصل.

(هـ). شعور الفرد بفقدان السيطرة على واقعه و ضرورة وجوده مع الآخر ليكسب هذا التوازن المفقود.
(و). تغييرات جسمانية و فسيولوجية تتجاوز الاهتمام الخارجي بالمظهر و الصحة لتظهر أعراض مثل عدم النوم أو فقدان الشهية و الهزال و نقصان الوزن و هذه عادة ترتبط بالانشغال والتفكير المتواصل, مع أعراض من ازدياد ضربات القلب و التعرق و سرعة التنفس و سخونة الجسم و برودته المرتبطة بحالة التغير الفسيولوجي الناتج من التوتر في حالة مقابلة الطرف الآخر.

هذا التعريف رغم شموليته الوصفية قد انتقده البعض بدعوى انه ناقص لأنه يفتقد الهدف من هذه المشاعر أو الحالة العاطفية. لذا نجد أن التعريف الفلسفي لإريك فروم(٢٧)عالم النفس و الفيلسوف قد حاول تجاوز هذه النقطه مما جعله يجد كثيراً من التقدير حين وصف الحب بأنه
(الحب هو حالة عاطفية تعكس الرغبة عند الفرد في التمدد لخارج ذاته و التواصل مع آخر بغرض إثراء الوجود الروحي للذات و للآخر)..

ذكر فروم أن المقصود من الوجود الروحي أنه كل ما يشمل حياة الفرد بكل اتساعها من الوجود البيولوجي والعاطفي والفكري. إذن الهدف هو إثراء الذات و تطورها و إشباعها و إيصالها لمرحلة التوازن و الرضا. ما يلفت النظر في هذا التعريف شموليته و ثراؤه حيث أنه لا يصف الظاهرة كحالة فردية ذاتية للشخص وحده بل له و للآخر. هذا التعريف إذن ينفي إمكانية تحقق سمات الحب في العلاقات القائمة من طرف واحد دون مراعاة لمشاعر الآخر وأحلامه و اهتماماته. هذا يقودنا لنقطة مهمة وهي ليست فقط استحالة تحقق الحب من طرف واحد, بل أنه لا يحتمل أن يقوم على أرضية من الذاتية أو الانانية المفرطة من أحد الطرفين.

هذا يقودنا لضرورة النضج العاطفي المطلوب في علاقة الحب الذي

يستوعب الفرد فيه ضرورة السيطرة على ذاتيته و السماح للآخر أن يجد مساحة ليحقق جزءاً من ذاتيته أيضا. إذن الحب لا تتحقق شروطه بمعزل عن قدرة و قابلية الفرد و تركيبتها لأنه يحتاج لدرجة مُقدَّرة من النضج النفسي والتوازن ليُسمح له بالازدهار.لذا نجد أن بعض العلاقات لا تكتمل لأن أحد الطرفين مازال غارقا في حب ذاته, و ما علاقته بالآخر إلا وسيلة لإشباع هذا الحب.هذا يفسر لنا لماذا يشتكي أحد الزوجين بأن العلاقة تسير في طريق التدهور لأن الحب انعدم بسبب الطرف الآخر « لا يحبني لأنه يحب نفسه..».

على مدار الزمن و مختلف الحقب نجد الحب قد كان موجودا و استمر هذا الإحساس متطوراً و راسخاً و جزءاً من التاريخ الإنساني, مؤكدا على حاجة الجنس البشري له على مر العصور بغض النظر عن مستوى تطور الإنسان. إن سيادة هذه المشاعر و تغلغلها في التاريخ يجعلنا نتساءل لماذا نحب؟

أكدت الدراسات أن هذه الاستمرارية لم تكن صدفة بل هي نتاج طبيعي لدوره الوظيفي و المفصلي في حياة الإنسان. حيث أن للحب دورا في استمرارية الوجود من الناحية البيولوجية و الاجتماعية و إلى قدر كبير في الاتزان النفسي.

نجد من **الناحية البيولوجية** أن هناك عاملين عززا من قيمة الحب و ضرورته. الأولى التناسل و الإنجاب و ضمان استمرارية التكاثر وحفظ النوع. أما العامل الثاني هوغريزة البقاء وما صاحبها من حاجة بيولوجيه للوجود في مجموعات للحفاظ على النوع البشري, فقد كان على مدار التاريخ هو الضمان و الحماية للوجود الإنساني. إن البشر في مجاهل التاريخ كانوا من أضعف الحيوانات جسديا فكانت غريزة البقاء تعتمد على الذكاء الإنساني الذي تعلَّم أن الوجود الجماعي هو الضمان لاستمرارية وجوده و حمايته. الارتباط بين مكونات هذا الوجود و التقليل من فرص

التناحر الداخلي للحفاظ على التماسك كان عاملا مهما في ترسيخ مفهوم الحب و تطوره ليصبح الرباط الذي يجمع النسيج الاجتماعي و يضمن التوحد و الاصطفاف سويا في هيكل من العلاقات تمثل الأسرة فيها الجوهر و اللبنة الأساسية.

أما من **الجانب الاجتماعي** فالإنسان كحيوان مفكر يهتم بالمشاركة مع الآخرين في التبادل و التواصل لاقتسام الهموم في تحقيق الحياة المتوازنة من ناحية المعيشة و الغذاء والأمن و الحماية, مما أسست لحاجة اجتماعية للآخر ترسخت مع الزمن لتتجاوزحاجة الحماية الإقتصادية و أصبحت في ذاتها مدعاة للمتعه و هدفاً في مشاركة للتجارب و الأفكار والرؤى. خلقت الحاجة الاجتماعية و تزايدها مع الزمن تضخيماً لدور المجموع على حساب الفرد. هذا قد يقود أحيانا كثيرة لشعور الفرد بالضياع أو الذوبان وسط الجماعة مما جعل من شعوره بالتميز و التقدير من الجماعة هاجساً وجودياً. هذا الهاجس جعل من المدرسة الوجودية ترى الآخرين بأنهم هم الجحيم, باعتبار أن سيطرة الفكر الجماعي والتقاليد الجماعية تحرم الفرد من تحقيق ذاتيته الكاملة. لذا يصبح الإنسان متنازعا بين الانتماء للمجتمع و تحقيق احتياجاته في القبول الاجتماعي وفي نفس الوقت تحقيق ذاته بدون القيود الاجتماعية. لذا نجد الحب يساعد في تجاوز هذا التنازع باعتباره الحالة النفسية التي توفر للفرد هذا التوازن المفقود. حيث تقدم له القبول الاجتماعي و الانتماء للآخر بدون فرض قيود ذاتية مرهقة. لذا في داخل العلاقة يجد الإنسان نفسه متحررا من قيود المجتمع فيحقق ذاتيته و في نفس الوقت يجد الانتماء للاخر و القبول الاجتماعي المتمثل في الزوج أو الزوجة. في الأسرة يتحلل الفرد من ضرورة التقيد بالسلوك و الأفكار والطقوس الاجتماعية, و يجد من يُقَدِّرَه و يدعمه بدون تحفظ و لا يحاسبه على عفويته و لا يحاكمه على ذاتيته. هذا الشعور بالارتباط غير المشروط نسبيا يجعل الفرد في علاقته

مع زوجه لا يتقيد بملابس محدده ولا لغة محددة و لا سلوك اجتماعي, بل هو شعور بالراحة النفسية يقود للتوازن و السعادة. هذا التوازن يجعل من الحب ضرورة موضوعية للإنسان لا يستطيع أن يعيش بدونها لأنها الوعاء الذي يمكن أن يعيش فيه على ذاتيته و طبيعته و سجيته, و في نفس الوقت لا يخاف المحاكمه أو الرفض الاجتماعي بل يجد قبولا من المجتمع الصغير الذي يمثل الزوج أو الزوجة.

إن **الجانب الوجودي** في الحب يصبح ضرورة يوميه لأنه يقدم هذاالدور المهم في وجود الإنسان حيث أنه يساهم في توفير التوازن بين الذاتية والانتماء الاجتماعي لمقدرته على هدم القيود و القوانين التي تحكم علاقة الفرد و المجتمع بالتنازع و التناقض.

هذه الحرية النسبية التي يحققها الحب تُساهم في خلق إحساس الأمان و الطاقة التي تساعد الإنسان في الاستمرارية. الإنسان من خلال تفاعله اليومي مع الآخرين و في علاقته الاجتماعية يكون مكبلا و مقيداً بكثير من الشروط من طريقة اللبس و المظهر وطريقة التصرف والسلوك.. حتى الأفكار و مستوى الصراحة والعمق فيها و نوع اللغة التي يعبر بها عن هذه الأفكار. أيضا هنا ضرورة احترام الالتزام بخطوط واضحة مع كثير من المفاهيم و القيم و الأشخاص و إظهار الاحترام الظاهري و القبول النسبي. هذا القبول و الصورة التي يجب أن يتفاعل بها مع المجتمع تشكل ضغطا نفسيا مستمراً حتى و إن لم ننتبه له. لذا فإن الحب يوفر البيئة التي تسمح للفرد بالتحلل من هذه القيود, و هو يوفر للفرد إحساس الأمان بخلق عالم يمكن أن يعيش الفرد فيه بلا قيود, لأن المجتمع المكون من الشخص الذي يحبه يقدم له نوع القبول المتساهل نسبياً و غير المشروط بكثير من القيود الاجتماعية. هذا القبول يقدم للفرد عاملين أساسين في السعادة و التوازن النفسي أولا أنه يساهم بصورة منتظمة في تفريغ شحنات الضغوط و تبعاتها, و ثانيا يضيف للفرد الشعور بالسكينة و

الرضا بوجود شخص يقبله على حقيقته بدون أي مظاهر اجتماعية. خير مثال لهذه الظاهرة عندما تتم دعوتك لجلسة عشاء رسمي مفروضة عليك و ما يصاحبها من «بروتكول» و تقاليد اجتماعية من طريقة اللبس و الأكل والكلام والأفكار التي تطرح, لذا لا غرابة أن يشعر الفرد بإحساس التوتر والاختناق و عدم العفوية. أول شئ ستفعله عند عودتك للمنزل أو عند مقابلتك لنصفك الآخر أن تتحلل من هذه القيود ابتداءً من نوع الملابس إلى طريقة الأكل و الكلام و مراعاة اللياقة الاجتماعية, لتعيد لذاتك الإحساس بالعفوية و ما يصاحبها من راحة نفسية. إذن الحب هو الذي يُقدم للفرد الفرصة لأن يكون على سجيته يمارس عفويته متحللا من قيوده الاجتماعية.الحب يصبح الوعاء الآمن الذي يجد فيه الفرد نفسه مكتسباً كل الميزات من الحالتين, فهو يجد الإحساس بالانتماء للمجتمع مع العلاقة بالآخر وفي نفس الوقت يجد الحرية في أن يكون نفسه بدون قيود و مطالب اجتماعية اثناء وجوده داخل العلاقة.

السؤال الذي يطرح نفسه ... هل الحب العاطفي هو الوحيد الذي يقدم لنا هذا الشعور؟

الإجابة بكل تأكيد لا.. فعلاقاتنا الأسرية من أمومة و أبوة و أخوة و أيضا من صداقة تقدم لنا مساحة جيدة من القبول الاجتماعي غير المشروط, مما يسمح لنا بمساحة أكبر من العفوية وتحقيق ذاتنا غير المكبلة بالقوانين الاجتماعية.. لكن الحب يختلف في طريقة تقديمه لهذه المساحة نوعاً و كماً. و ليست صدفة أن مستوى العفوية و التحلل من القيود التي نجدها مع أزواجنا لا تقارن و لا تقاس مع ما نجده مع الآخرين. هذا الاختلاف ينبع من تركيبة الحب و أهدافه مقارنة بالعلاقات الآخرى, حيث العلاقات الأسرية في ذاتها لها قوانينها و قيودها الاجتماعية, فاللغة و السلوك الذي تتفاعل به مع أمك و أبيك لها ملامح و خطوط محددة يجب عدم تجاوزها. أيضا مقدار ما تطرحه من حقيقة دواخلك و صدق

ذاتك مع أصدقائك دائما لا يتعدى حدوداً محسوبة لديك و لا تتجاوزها. إذن مهما تعمقت علاقتك مع الآخرين فإن هناك أدوار متوقعة و تقاليد مرسومة يصعب تجاوزها. على العكس من ذلك فإن الحب في تركيبته و هدفه قد قام بكسر هذه القيود الاجتماعية بصورة كبيرة في داخل العلاقة, ليعيش الطرفان في حرية لا يقيدها إلا احترامك للآخر كإنسان.مع تطور العلاقة يمكن هدم أي حواجز أو قيود بين الزوجين.

إذن الحب وما فيه من عمق هو الأقدر على توفير تلك الدرجة من التوازن العاطفي و التحلل الاجتماعي.

تركيبة الحب لها جذور في الإحساس االذي غُرِسَ منذ الطفولة في الحاجة للآخر, و الذي سنتطرق له بالتفصيل لاحقا لكن في جوهره ينبع من إحساس الطفل العاجز عن تحقيق احتياجاته و يتضخم في دواخله إحساس الأمان و التوازن بمقدار الاستجابة التي يجدها فيمن يرعاه أو يمثل العالم بالنسبه له, إن كانت أمه في معظم الأحيان أو أي شخص آخر. هذا الإحساس بالارتباط بالآخر يشكل مفاتيح شخصية الفرد و يصبح جزءاً مهماً في التعامل مع العالم حتى بعد أن يفارق مرحلة الطفولة, و يستمر هذا الشعور أحد الركائز النفسية في شخصية الإنسان. إذن فالحب من حيث التركيب يعبر عن حاجة مغروسة تجاه الآخر لوجود شخص يوفر للفرد إحساس الأمان و احتياجاته في الحياة.

من ناحية الهدف فإن الحب يختلف عن بقية العلاقات الاجتماعية الأخرى بحيث أنه يستند على هدف أساسي و متفرد و خاص به و هو أن يصبح الطرفان جزءاً واحداً. هذه الخصوصية تتمثل في السعي لتشكيل اجتماعي جديد يجمعهم في أسرة هي عباره عن وحدة اجتماعية تمثلهم, لها حاضر و مستقبل واحد ليس فقط مرتبط بالطرفين بل يسعون لإضافة أفراد جُدد يمثلون جزءاً و امتداداً لهم و تقنينا مجسد للشراكة و الاستمرارية كوحده واحدة..

هذا الإختلاف النوعي و التركيبي للحب يعطيه من العمق والتفرد ما يجعل من وجوده ضرورة نوعية يسعى كل فرد أن يتحصل عليها.

إن الإختلاف في التعريف و الوظائف المتعددة للحب يفرض علينا النظر فى معنى الحب و الاتفاق على طبيعة هذه الظاهرة و على سماتها.

رغم اختلاف الناس في تعريف الحب علمياً و فلسفياً, و لكن إلى درجة كبيرة نجد أن هناك بعض الاتفاق على أساسياته, كما نجد أن هناك قبولا نسبياً بوجود خمسة أركان للحب. هذه الركائز الخمس قد تختلف في قوتها بين البعض و لكن لا يمكن أن يتحقق الحب في غياب كامل لأحدها. الاهتمام بهذه الركائز هو اهتمام بالمفاصل التي تستند عليها العلاقة, و أي ضعف يظهر في إحدى هذه الركائز سيؤثر سلباً في مستوى الحب عمقه و تطوره.

الركن الأول للحُب

تتمثل في معرفة الآخر, و المعرفة ليست حالة ثابتة و لا تصل إلى نهاياتها بل هي حالة متطورة تتطور مع العلاقة وتتغير مع الزمن. رغم أننا نتوقع تطور العلاقات مع الزمن و لكن ليس من الضرورة أن تكون تصاعدية, أو تزداد قوة مع الزمن. حيث أننا نجد العلاقة عند البعض قد تبدأ بمستوى عميق من معرفة الآخر و معرفة تفاصيله, و لكن يضعف هذا الاهتمام بمرور الوقت فتكون النتيجه أن تهتز العلاقة لاحساس الغربة الذي بدأ يتسرب إليها. إن المعرفة ليست فعلا عفوياً و لكنها اهتمام واعٍ بأحوال الآخر و أفكاره و مشاعره. هذه المعرفة تساعد في التفاعل مع المتغيرات في لحظاتها مما يزيد من مشاعر التقارب والارتياح. أيضا نجد أن الاهتمام بتفاصيل الآخر تساعد في فهم سلوكه و ما يتوقعه منه, مما يجعل العلاقة تسير في يسر و مرونة بدون عراقيل أو مفاجآت. إن معرفة الآخر تساعد في تطور العلاقة لأنها تجعل الفرد أكثر مقدرة في رسم مستقبل العلاقة مما يزيد من مشاعر التوازن و السعادة.

الركن الثاني للحُب

الحب يعني المسؤولية تجاه الآخر.هذه المسؤولية هي كلمة واسعة و تشمل في دواخلها كثير من المكونات أهمها الحماية و الاهتمام المادي والاجتماعي والعاطفي, ولا تنفصل واحدة عن الآخرى. نجد الاهتمام المادي يتمثل في المحافظة على الإنسان؛ حياته و صحته, قد تتباين في داخلها الأدوار فبينما يقوم أحدهما بتوفير المأكل والمسكن يقوم الآخر بتهيئته و الاعتناء به و إدارته. أما على المستوى الاجتماعي فنجد الاهتمام يتمثل في الحرص على دور الآخر و صورته الاجتماعية بمراعاتها وتطويرها والمحافظة عليها. نجد أن المسؤولية العاطفية تتجسد في الاهتمام باحتياجات الآخر النفسية, التي تتفاوت بين فرد و آخر لكنها تدور حول إحساس الفرد بالرضا و السعادة و العوامل التي تحقق ذلك و السعي الحثيث لتوفيرها..

الركن الثالث للحُب

هي قيمة الاحترام و هو التقدير لكل متعلقات الطرف الآخر من شخصه و أفكاره و علاقاته. إن احترام الآخر يعني أن نحترم شخصه و نوفر له ما يستحق من تقدير, و أن نحترم أسرته و إن جاروا علينا, و نحترم أفكاره و أحلامه و إن كانت ساذجة و فطيرة. هذا لا يعني أن نتناسى اختلافنا أو اعتراضنا على ما لا نرضى به, بل بالعكس هي الدعوة للاختلاف الذي يستند على احترام الآخر ولا يقلل من شأنه.

الركن الرابع للحُب

هو القبول بسلبيات الآخر و نقائصه. حيث أن قانون الحياة يجعلنا لا نتوقع الكمال والحرص على أن لا ندفن العلاقة في الحسرة و الإحباط لعدم توفر بعض السمات, و أن لا يكون هذا سببا للشعور بنقص العلاقة أو أرضية لمهاجمة الآخر و إسقاط أي مظاهر فشل في العلاقة عليه.

الركن الخامس للحُب

هي مسؤولية البناء.. والمقصود بناء العلاقة بصورة عامة و مساعدة الآخر في التطور و تحقيق أفضل ما يمكن من امكانات لديه.بناء العلاقة عملية مفصلية تعتمد أساسا على مبدأ أن العلاقة مثل الشجرة إذا تعهدتها بالعناية و أزِلت عنها الأشواك فحتما ستجد منها حلو الثمر, أما إذا تركتها تتقاذفها الرياح و الزمن بلا عناية فسوف تنتبه يوما و ربما بعد فوات الأوان على الحشرات التي أنهكت جذعها فتهاوت, والتى اهلكت غصونها فيبست و احترقت. إن البناء أيضا يعني مساعدة الآخر في تحقيق ذاته, فمن السهل أن ننسى أن له ذاتية و أحلام ونظن أن دوره في داخل العلاقة هو كل شئ في حياته, لذا يجب الاهتمام بمعرفة ما بداخله من أحلام ورغبات, و أن جزءاً منها يتحقق داخل العلاقة وبعض منها خارجها, و يصبح دورك دوما أن تكون سنداً يساعده في ترجمة أحلامه و تذليل كل الصعاب لكي تصبح أحلامه حقيقة و واقعاً معاشاً يجلب له الرضا و السعادة.

مكونات الحُب

حاول علماء النفس منذ القدم تفسير ظاهرة الحب و تفكيك مكوناته لمعرفة كيفية نموها و تطورها. خلال التاريخ رغم اختلاف المدارس لكن كان هناك شبه اتفاق أن للحب مكونات مختلفه, و أن تَوَحُّد هذه المكونات و تفاعلها هي التي تساعد وتساهم في ظهور مشاعر الحب و تشكلها.

هنا نحب أن نشير لمدرستين في تفسير ظاهرة الحب وجدتا كثيراً من الإِجماع و الاتفاق عليهما, و هما رؤية زيك روبن (٢٨) و روبرت برستيرنبيرغ(٢٩).

قدم روبن نموذجا للحب يتكون من ثلاثة مكونات هما التعلق و الارتباط, و الاهتمام والرعاية,و الحميمية.

المكون الأول للحُب

إن التعلق و الارتباط هو ذلك الشعور بالحاجة الداخلية الدائمة للآخر ليشبع احتياجه بالراحة و السعادة نتاجا لإشباع احتياجات متباينة بيولوجية أو اجتماعية أو نفسية, و يدخل في تركيبه ذلك الاحتياج الجسدي له.

المكون الثاني للحُب

يتمثل المكون الثاني للحب في الاهتمام و الرعاية المتبادلة. و هو ذلك الشعور الداخلي الذي يتجاوز الواجب المشروط محدثاً شعوراً بالمسؤولية و الالتزام بمراعاة احتياجات الآخر و السعي لتحقيقها دائماً.

المكون الثالث للحُب

المكون الثالث هو الحميمية, و هي تعبر عن قوة القرب الإيجابي و المتبادل بين الطرفين و حالة تتمازج فيها أحاسيس الصداقة و المودة. يجب الانتباه أن لإيجابية هذا التقارب أثراً و دافعاً و بقدر ما يضيف من أحاسيس جميلة لكنه أيضا يجعل من الطرفين مهمومين بالمحافظة على هذا المستوى من التقارب و السعي دوما لتطويره.

على الجانب الآخر نجد ستيرنبيرغ أيضا قد طرح ثلاثة مكونات للحب يتفق فيها مع روبن في عامل الحميمية و يختلف في الآخَرَين. حيث نجد بدلا عن التعلق و الارتباط اقترح عامل الالتزام, و بدلا عن الرعاية و الاهتمام أضاف عامل اللهفة و الشبق. القراءة العميقة لعامل الالتزام نجده يشمل التعلق والارتباط و الرعاية الذي فصلهما روبن كعاملين منفصلين. أما عامل الشبق و اللهفة هو يعكس الرغبة الجسدية و انعكاساتها الجنسية المتباينة في التواصل الجسدي مع الآخر.

إذن يمكن أن ننظر الي رؤية ستيرنبيرغ باعتبارها أكثر شمولا من رؤية روبن, لذا لا غرابة أنها وجدت قبولا واسعا و أصبحت تعرف بمثلث سترنبيرغ للحب المكون من الحميمية و الالتزام و الشبق و هو الأكثر

انتشارا و استعمالا لتفسير ظاهرة الحب.

مثلث الحب في أركانه الثالثة يحتاج لهذه العوامل أن تجتمع حتى يتحقق الحب الحقيقي, و به يكتمل تعريفنا للحب بعد اكتمال كل مكوناته. نجد في حالة وجود اثنين من المكونات سويا ستؤدي لظهور أنواع متباينة من المشاعر و العلاقات تختلف باختلاف مكوناتها. فمثلا ظهور الشبق و الحميمية يقود لظهور العلاقات الرومانسية العابرة, التي قد تكون عنيفة في حدتها و لكنها قصيرة العمر لأنها تفتقد لعامل الالتزام و هو الذي يعطي الحب و المشاعر القوية استمراريتها لما يحمله من عوامل الرعاية و الاهتمام و تحقيق الاحتياجات الاجتماعية و التوازن المطلوب. نجد أنه إذا توفر الالتزام و الحميمية في غياب اللهفة والشبق فإنه سيقدم نوعا من أنواع الصداقة المميزة. أما إذا وجدنا الالتزام مع الشبق و اللهفة في غياب الحميمية فهو يعكس ما يميز علاقات العشيقات أو الخليلات و هي علاقات جنسية لها طابع الاستمرارية و لكنها محدودة في هذا الإطار و القالب.

إن أي نوع من أنواع العلاقات أو المشاعر يتكون من عاملين قد يستمر على هذا الشكل الذي يتكون منه و لكن هناك فرصة و احتمال أن يتغير بإضافة العامل الثالث المفقود ليكتمل المثلث لتصبح العلاقة علاقة حب. سنجد أن الواقع يثبت لنا ذلك يومياً, فكثير من علاقات الصداقة أ أصبحت حباً مع الزمن, و كم من علاقة رمانسية اكتسبت مع الزمن سمات الحب, و كم اثنين ارتبطا جسدياً ابتداءً و مع الزمن أصبحت علاقتهما علاقة حب.فمثلاً الصداقه أو العلاقة الرومانسية أو علاقات العشق الجسدي كلها مُهيئة لأن تصبح علاقات حب. فالصداقة إذا أضيف لها عامل اللهفة الجسدية ستصبح علاقةحب. كذلك إذا اكتسبت علاقة الرومانسية مشاعر الالتزام فإنها ستكمل مثلثها لتصبح علاقة حب. أيضا إذا اكتسبت علاقة العشق مشاعر الحميمية فإنها ستفتح الباب لتصبح علاقة حب.

تطور الحُب

التغيير و الإضافة في هذه المكونات تقودنا للنظر في كيفية نشؤ الحب و تطوره. إن تفكيك الحب لمكوناته الثلاثه لا يعني انفصال هذه العوامل من بعضها, بل هي عوامل متداخلة و مترابطة تتطور و تزداد قوة بازدياد العوامل الأخرى. نجد أن كل عامل يؤثر في الآخر سلبا و إيجابا. فمثلا كلما ازدادت مشاعر الحميمية سيكبر إحساس الاهتمام و الرعاية, و سيزداد إحساس الرغبة و الاحتياج الجسدي. أيضا كلما ازدادت أحاسيس الرعاية و الاهتمام كلما قويت أحاسيس الحميمية, و معها الأحاسيس الجنسية و الجسدية. كذلك إذا قويت الأحاسيس الجنسية بين الطريفين ستزداد أحاسيس الحميمية, و ستزداد مشاعر الاهتمام و الرعاية. إذن هي عوامل متشابكة تتطور في ارتباط داخلي يجعلها مهيئة لأن تصبح مجتمعة و ممتزجة لتكون علاقة الحب.

إذن الاحتمال بأن تصبح هذه العلاقات مستقبلا علاقة حب احتمال موجود دائما لا يمنع حدوثه إلا إذا كان أحد الطرفين أصلا في حالة حب. حالة الحب ينتفي وجودها مع حالات موازية من مشاعر الرومانسية أو العشق. إن الذي في مرحلة الحب لا يمكن أن يكون في نفس الوقت في علاقة رومانسية مع شخص آخر أو علاقة عشق مع طرف ثانٍ.

مشاعر الحب الحقيقي من أساسياته أنه إحساس تجاه شخص آخر و لا يمكن أن يكون موجها لأكثر من شخص, و سنتطرق لهذه النقطة بالتفصيل لاحقا, لهذا ينتفي وجود مشاعر الحب الحقيقي مع علاقات الرومانسية أو العشق مع شخص آخر في نفس الوقت.

إذا كان هناك شخص في حالة حب يصبح من الاستحالة أن تكون له علاقة رومانسية مع أخرى أو عشيقة أو خليلة. وجود مثل هذه العلاقات الإضافية تنفي صفة الحب من العلاقة الأولى نهائياً.

كما ذكرنا فإن علاقة الصداقه مؤهلة أن تصبح علاقة حب, و لا يمنعها

من حدوث ذلك شئ سوى أن أحد الطرفين أصلا في علاقة حب. إذن علاقة الحب هي الباب الذي يغلق على أحاسيس الصداقه بأن تتطور في غير اتجاهها, حيث يساعدها في التطور في داخلها و لكن تجعل من الاستحالة أن تغادر مكانها لتصبح علاقة حب. قفل هذا الباب ليس قراراً فقط و التزاماً أخلاقياً, بل إحساساً داخلياً بالاكتفاء من مشاعر الحب التي سنشرح لماذا هي مشاعر أحادية تجاه شخص واحد لا تقبل التقسيم و المشاركة.

إذن وجود ثلاث ركائز لمشاعر الحب الحقيقي تحتاج لزمن لتكتمل حلقاتها. ليس لصعوبة أن تجتمع الثلاثة مكونات في لحظة واحدة, بل إن هذه المكونات في ذاتها تحتاج زمنا لتنضج و تكتمل. فمشاعر الاهتمام و الرعاية المتبادلان لا يأتيان من فراغ بل هما إحساس واعٍ يحتاج لفترة من معرفة الآخر و الثقة فيه. أيضا مشاعر الحميمية لا تأتي دفعة واحدة بل هي إحساس بالإلفة و التقارب تنمو مع الزمن, و تحتاج لفترة تصقلها التجارب و المواقف. العامل الوحيد الذي يظهر فجأة لوحده دون حاجة لعامل الزمن ليتبلور هو أحاسيس اللهفة و الشبق الجسدي. هذا الإحساس هو العامل الوحيد في غياب العوامل الأخرى, حتما لا يمكن أن نصفه بأنه إحساس بالحب نهائيا. لذا يمكن أن نقول بكل بساطة إنه لا يوجد حب من أول نظرة. إن الذي يتكون من أول نظرة هو انجذاب و لهفة جسدية لا تشكل إلا ركنا واحداً من أركان الحب. يصبح التساؤل هل هذا الركن أو العامل الوحيد مؤهل لأن يتطور و تكتمل معه الأركان الثلاثة؟ الاجابة حتما ستكون بالايجاب, و لكن تقع في مرحلة الاحتمالات.. هو مشروع علاقة له بعض مكونات العلاقة و لا أحد يستطيع أن يجزم بأن باقي المكونات ستكون موجودة وستتوفر أم لا. فهل يستطيع أحد أن يجزم بأن الشخص الذي انجذب له جسدياً سيكون له من المكونات التي تخلق مشاعر القرب و الحميمية؟ و هل يمتلك من المميزات ما تؤهله لبناء

إحساس عميق من الاهتمام و الرعاية؟. هي أسئلة استنادا على الإجابة عنها و إمكانية توفرها أن نتوقع تحرك هذه الأحاسيس تجاه مشاعر حب حقيقي أم لا.

كما ذكرنا قد تبدأ المشاعر أيضا من نقطة الشبق واللهفة و الانجذاب الجسدي, و التي قد تصل ذروتها بمشاعر التعلق و الاهتمام بالآخر فيكتمل عنصر الالتزام تجاه الآخر. هنا عندما يتحقق طرفان فقط من المكونات نجد أن اللهفة و الالتزام يشكلان ما يعرف بالعلاقة الرومانسية, أو يمكن أن نصفه بالحب الذي ليس له جذور لافتقاده الركن الثالث في المثلث. قد تقف العلاقة الرومانسية في مكانها, أو قد تبدأ مشاعر الحميمية نتاجاً للتفاهم و ما يصاحبه من تطور للتقارب العاطفي و الفكري في التكون تدريجياً, و ستستمر في التطور بمقدار التواصل و التعارف و تمدد مساحات الاهتمام و الثقة إلى أن تكتمل حلقات مثلث الحب الثلاثي. نجد أن الحب الذي يبدأ من مناطق اللهفة الجسدية يقع في محاذير, حيث أن التطور قد لا يكون عفوياً و طبيعياً بل متعسفاً مدفوعاً بقوة التوتر الجنسي و الجسدي, وليس مدفوعاً بعوامل التطور الطبيعي العفوي المربوط بتنامي عوامل الثقة و التقارب الفكري و الإنساني.

استنادا على مكونات الحب الثلاثة يمكننا أن نقول إن الحب يمكن أن يبدأ من أي نقطة من نقاط المثلث حتى تكتمل خطوطه الثلاثة. حيث نجد أن العلاقة قد تبدأ خطواتها الأولى بأي من مكونات الحميمية؛ الشبق و اللهفة و الالتزام.التطور الموضوعي يجعلنا نتوقع أن الخطوات الابتدائية تبدأ بالحميمية أو الشبق ثم يتمازجا ليقودانا صعوداً في دروب تطور العلاقة لمرحلة الالتزام. كما شرحنا بأن الالتزام يضُم في داخله قيم التعلق و الاهتمام و الرعاية, مما يجعل من المنطق أن تكون مرحلة متأخرة إن لم نقل الخطوة الأخيرة في تكوين علاقة الحب. الواقع يحكي عن حالات تبدأ بهذه الخطوة المتأخرة ثم تبدأ نزولا لِتَبْنِي مشاعر الحميمية و الشبق, فنجد

في كثير من الثقافات ظاهرة الالتزام بالعلاقة حتى قبل معرفة الطرفين بعضهم البعض و لا يمنع ذلك أن تتحقق كل مكونات الحب لاحقا. في المجتمعات التقليدية حيث يتم الترتيب للزواج فلا يتعارف الطرفان بل في بعض الأحيان لا يتقابلان إلا بعد الزواج.. بل إن في بعض المجتمعات العربية و الثقافات في آسيا يكون الطبيعي هو أن تبدأ العلاقة بمرحلة الالتزام. حتى في واقعنا نجد بعض نماذج العلاقة التي تستند على الترشيح و التزكية من الأسرة و الأصدقاء.لا ننكر أن هذه الصورة قد نجحت في خلق علاقات حب بين الطرفين, مما يثبت أنه لا يهم أي من أطراف المثلث أو من أي مكونات الحب تبدأ المشاعر, فكلها لديها نفس المقدرة في التطور لتشمل بقية العوامل لتكتمل الحلقة الثلاثية.

المنطق و التطور المتوقع أن تكون الحميمية هي نقطة البداية.حيث يبدأ التعارف بين اثنين تجمعهما بعض نقاط التقاء يستند على أرضية من التجاذب. مع التواصل و التفاعل بين الطرفين يزداد عمق التعارف الذي قد يقود إلى فتح أبواب من الراحة و الأمان النفسي و السعادة المرتبطة بمشاعر التفهم و التقدير. تُبْنَى جسور من الثقة تسمح للفرد أن يفتح كثيراً من مجاهل شخصيات و يفرغ أمام الآخر همومه و مخاوفه و أحلامه, و كلما ساعد الآخر في تقليل التوتر و تَفَهُّم هذه الهموم كلما ازدادت الحاجة لهذا الشخص بأن يكون معه و أن يكون طرفا من حياته. مع تطور هذا الإحساس و الاحتياج و المشاركة في الأشياء الإيجابية المتشابهة من أفكار وأحلام, ينفتح الباب أمام أحاسيس الاهتمام و التعلق و الالتزام بالاستمرارية في هذه العلاقة لفضاءآت المستقبل القريب. هنا بامتزاج الحميمية و الالتزام تتحقق مرحلة الصداقة.

مرحلة الصداقة هي مرحلة أو بوابة تستوعب الكثيرين بدرجات متفاوتة. مع التواصل و الاحتكاك ستتطور هذه الصداقات انخفاضاً و ازدياداً متانةً و ضعفاً. من وسط هذه المجموعة سنجد أن هناك علاقة

تتحرك عمقاً إلى بعد آخر و ستتطور, ليس في كمية الأحاسيس فقط بل في نوع الأحاسيس. حيث سيبدأ ظهور إحساس الرغبة في الامتلاك للآخر لأن يكون هذا الشخص لك و معك لبقية حياتك, لأن وجوده بجانبك مُهم ليكمل كثيراً من احتياجاتك, و لأنك بجانبه أكثر توازنا و ثقة و أكثر سعادة. هذا الاحتياج المتزايد يصاحبه توتر عاطفي تشعر فيه بالتوتر الجسدي و الانجذاب الجنسي تجاه الآخر. هنا تكتمل الحلقة الثلاثية و هنا يستطيع ان يتأكد الطرفان بأن مشاعرهما قد بدأت تستشرف مرحلة جديدة و هي مرحلة الحُب.

دورة الحُب

عندما نتحدث عن حميمية الحب يخطر في بال الكثيرين الحميمية الجنسية و يتغافلون الحميمية النفسية والتي نزعم إنها هي الأهم.

الحميمية النفسية هي تلك الحالة النفسية التي تتكون من أحاسيس الأُلفة و التفاهم و الإعجاب و التعلق. هذه المكونات لا تنشأ كلها في لحظة واحدة و ليست بالضرورة أن توجد كلها في نفس الوقت, و بنفس القدر. قد تبدأ هذه المشاعر بالتكون عند ظهور أي من الأحاسيس تجاه شخص, ما ثم تبدأ في إضافة الأحاسيس الأخرى. مثلا نبدأ بالتعرف على شخص فينبع إحساس بالتعود و الألفة تجاهه ثم نبدأ في استكشاف دواخله و معرفة شخصيته و ما يحمل من أفكار و قيم.. إذا توافقت هذه الأفكار مع ما نحمل تبدأ أحاسيس الإعجاب في الظهور و التي مع الزمن تتزايد لتصاحبها أحاسيس التعلق و الرغبة في الوجود معه..

هذه الأحاسيس عادة تتولد في التواصل المباشر بين الاثنين, و رغم أن التواصل الاجتماعي قد يساهم في ذلك لكن بقدر قليل و محدود, حيث أن التواصل الاجتماعي في وجود الآخرين محكوم بمعايير و مستوى من التواصل لا يسمح بأن نفتح الباب لاستكشاف الآخر و ذاتيته.لذا نجد الأشخاص في بدايات العلاقة يكونون حريصين لاستراق زمنٍ خاصٍ يجمع

الاثنين لوحدهما.إن أهمية التواصل الثنائي أنه يهئ الفرصة للطرفين في فتح أبواب ذاتيهما المغلقة من أفكار و أحلام و سلوك, مما يساعد الفرد على معرفة دواخل الآخر مع خلق نوع من الارتباط بالجانب و البعد الخاص أو الحقيقي للفرد. هذه هي النقطة الأولى في بناء الحميمية النفسية, و ذلك ببساطة هي الخطوة التي يبدأ فيها الفرد مشاركة الآخر تفاصيل عالمه الداخلي, كما هي مرحلة قد تقف العلاقة عندها في بداياتها و لا تتقدم للأمام, و قد تجد العوامل الإيجابية التي تساعدها في النمو والتطور. إن العوامل التي تساعد في تطورها نجدها تتمثل في مقدرة الفرد على معرفته و إحاطته بحقيقة مشاعره و أفكاره و أحلامه, في وجود الحماس و الرغبة لتمليكها للآخر مع المقدرة لايصالها له بكل شفافية و صدق أُسلوب و طريقة تعبر عن حقيقة دواخله.

تطور مستوى الحميمية لا يستند على إيجابية الفرد في تمليك دواخله فقط بل تعتمد بنفس القدر على مقدرة الآخر في التفاعل معه.

فإذا كان أحدهما طارحا دواخله بكل شفافية و صدق, فإن المتوقع لنجاح العلاقة أن يقوم المتلقي برد الفعل الإيجابي الذي سيخلق الظروف المهيئة لتطور الحميمية. نجد أن رد الفعل الإيجابي من المتلقي يتمثل في أربع ركائز تعكس استجابة إيجابية.

الاستجابة للحميمية

العلاقة تحتاج لتبادل و تَفَهُّم و تَقَبُّل من الطرفين.لذا لن تجد أي مبادرة من الحميمية فرصة للازدهار إذا لم تقابلها استجابة إيجابية يمكن أن نحددها في الآتي:

(أ) القبول لما يطرحه الآخر بدون نظرة نقدية سالبة.

(ب) عكس مشاعر الاهتمام بما هو مطروح.

(ج) استيعاب ما يطرحه الآخر عن نفسه.

(د) التقدير للآخر لاختصاصه بهذا الحديث و الثقة فيه حتى يكشف

له عن خصوصيات ذاته و المحافظة على هذه الخصوصية في البوح بين الاثنين فقط.

إن أي ضعف في الركائز أعلاه ستضعف من احتمالات تطور العلاقة, و قد تؤدي إلى انهيار هذه الحميمية في بداياتها و لن تتوفر لها فرصه للازدهار و النمو.

-التعامل الإيجابي من المتلقي سيبني جسور الثقة لمساحات أعمق في التواصل. عادة سيبدأ الطرف الثاني في فتح دواخله فيصبح الأول متلقيا لأفكار الآخر و ما يحمله في عالمه الذاتي. هنا تبدأ الحميمية في التطور الإيجابي, حيث جسور الثقه التي توطدت تجعل من كل طرف له المقدرة على البوح بما في دواخله, كما لديه المقدرة على الاستماع و تقبل الآخر,و تبدأ بناء اللبنة الأولى أو الرابطة بين الاثنين في بناء علاقة مؤهلة لتحقق كل مكونات علاقة الحب.

هذه الرابطة التي تجمع الاثنين تكون واسعة في مرحلة الصداقة, فتحتمل أكثر من شخص فَيُكَوِّن مجموعة أصدقاء أو «شُلَّة» تتنوع من مجموعات كثيرة من أصدقاء الطفولة و المدرسة و الحي و العمل. حتى في داخل كل مجموعة تجد أن كل اثنين بينهما يتشكل رابط قد يتساوى بين الجميع أو يكون أحدهم أكثر قربا من بقية المجموعة.

هذه الحميمية قد تزاداد عمقاً لدرجة أن يصبح الآخر ليس مجرد شخص تتواصل معه مثل البقية, بل يصبح هو جزءاً منك و تشعر أنك جزء منه و أنتم الاثنان تشعران بأنكما تكونان وجوداً واحداً لا ينفصل. هنا تبدأ ظهور سمات خاصة تميز نوع الرابطة مع هذا الشخص من دون الآخرين بسِمات محددة تعتبر بذرة للحب و تتمثل في الآتي:

(أ). يشغل تفكيرك و خيالك في معظم الأوقات.

(ب). في عدم وجوده يصبح الهاجس في متى و كيف ستلتقيه.

(ج). الإحساس بالفراغ في غيابه و محاولة خلق لوجود تعويضي بالاهتمام

بكل التفاصيل. المتعلقة به من أفكاره و اهتماماته و حتى شكله.

(د). شعورك بعدم الاكتفاء منه و الرغبة بأن يكون لك وحدك و أن تكون معه بقية حياتك.

(هـ). بين النقاط الأربعة يتخللها التفكير فيه كوجود جسد يثير بعض أحاسيس الجنس تجاهه.

حين تبدأ هذا العوامل الخمسة في التداخل يمكننا أن نقول إن العلاقة قد دخلت في مرحلة الحب.

هذا الرابط و ازدياد الاحتياج النفسي يصل مراحل يصبح التعبير عنها يبلغ لمستوى مختلف من التعبير النفسي و الجسدي.. لذا يصبح التعبير الجنسي جزءاً من هذه المرحلة. هي مرحلة يمكن وصفها بقمة الحميمية النفسية و العاطفية, و ما تخلقه من توتر يقود للحميمية الجنسية للتعبير عن هذا التوتر, و تعزيزاً للرغبة في التواصل و الامتلاك و خلق بعدٍ جديدٍ من المتعة المشتركة و الخصوصية العاطفية التي لا يشاركهما فيها أحد.

مراحل تطور الحب

الحب في تطوره يمكننا أن نقسمه لثلاث مراحل, هي الوقوع في الحب والدخول في الحب و الاستمرارية فيه.

(١) مرحلة الوقوع في الحب

هي مرحلة إذا أردنا الدقة نقول إنها ما قبل الدخول في العلاقة, و لم يتحقق الحب فيها بعد, و يدخلها طرف واحد دون الآخر يسبقه فيها بخطوة ليختار موقعه من العلاقة في انتظار الآخر ليلحقه فيها. الوقوع في الحب لا يمكن تحديد حتمية تطوره لأن يصبح حباً كاملاً أم لا. كما هناك كثير من الإشارات الزائفة, فلا يستغرب البعض أنهم قد دخلوا في دائرة الحب في انتظار الطرف الآخر لينضم لهم. في كثير من الأحيان يكون الفرد محقا في قراءته لتطور العلاقة, و سرعان ما يستجيب له الآخر لينضم له توثيقا للرباط الذي بينهما. أيضا في كثير من الأحيان قد يخطئ الفرد في

قراءة مؤشرات الطرف الآخر، و مدى حجم تطور العلاقة لديه، فينتهي بعدم القبول و الرفض.

عادة تكون مرحلةالوقوع في الحب مرتبطة بدرجة عالية من المشاعر و الانفعالات. هي مرحلة يغذيها إحساس بقرب تحقيق حلم الحياة في الحصول على الشريك. لذا نجد هذه الحالة من الاستثارة تصاحبها تغييرات فسيولوجية و سيكولوجية،فنجد ارتفاع أحاسيس التوتر المصحوب بحالة من التقلب العاطفي بين السعادة و الخوف و الترقب. الفرد في هذه المرحلة تتزايد فيه مساحات الإنكار لأي سلبية لدى الآخر، و تكثُر الإِيجابيات لترسم صورة تتجاوز الموضوعية فتكون أقرب لصورة الأماني و ما يحمله في دواخله للصورة التي تحقق أحلامه.

هذه الحالة من الإثارة المشوبه بالسعادة و التوتر مع ظهور قناعات تختلط فيها الحقيقة مع الخيال، يصفها عالم النفس فرويد بأنها المرحلة الوحيدة التي يكون فيها الجنون شيئاً طبيعياً. هذا الوصف يعكس مدى الخيال الذي قد يعيشه الفرد في هذه المرحلة، و التي لاشك أن درجة الخيال تتباين حجماً و مقداراً بين فرد يرسم صورة ليس لها جذور لدى الطرف الآخر و إمكانياته و بين آخر يضيف للواقع قليلاً من الأحلام و الأماني.

التجاذب

هو تلك الحالة أو القوة التي تفرض على الفرد إحساس الاهتمام الإيجابي بالآخر، و بذا يكون القوة التي تدفع الطرفين للتقارب.العامل الذي يجعل الطرفين يسيران في دروب الوقوع في الحب هو ضرورة وجود درجة من التجاذب بينهما.

في العلاقات الإنسانية عادة هو الخطوة الأولي و الطاقة التي تدفع الفرد للتعرف على الآخر. في مملكة الحيوان نجد الانجذاب له جذوره البيولوجية الواضحة من الصورة و الصوت و الرائحة.

عند الإنسان ينقسم التجاذب إلى جانب نفسي وجانب جسدي. هذه

الرغبة في التقارب مع الآخر قد تتم بسرعة لا يشعر الفرد بها, و قد لا يعلم أسبابها و لكن هذا لا يعني أن تحدث من فراغ بل هناك أدلة من علم النفس الاجتماعي تؤكد بأن هناك أسباباً موضوعية قد أدت لهذا التجاذب.

***التجاذب النفسي**

التجاذب النفسي هو تلك الطاقة الداخلية التى تجعل الفرد يرغب في التواصل مع الآخر, و هو يمثل عملية معقدة تتداخل فيها كمية من المؤثرات و الظواهر...التي سنحاول التطرق لبعضها:

(أ). التشابه

نجد أن الفرد يشعر بالارتياح و الانجذاب نحو الأفراد الذين يمتلكون نفس الطباع و الاهتمام والسمات. هذا الانجذاب للتشابه ينبع من وظيفة الحب الأساسية في توفيرها للفرد ليشعر بالأمان و الدعم. حيث أن الذي يتشابه معك في الطباع و الاهتمامات سيكون أكثر تفهما لمكونات شخصيتك, و أكثر دعما لك و أقل اختلافا معك. فالشخص الاجتماعي الذي يعشق المرح, أو الذي يهتم بالفنون, أو المتدين سينجذب للآخر الذي تتوفر فيه هذه السمات لأنه سيجد نفسه فيه, و ستقل أي مشاعر سالبة بالتناقض و التوتر. هذا التشابه لا ينطبق على جانب السمات النفسية فقط, بل يتعداها للمكونات البيولوجية و الاجتماعية, فنجد الانجذاب لنفس لون البشرة و الطول و الجذور العرقية بل و الطبقية, و هذا التشابه يفرز أحاسيس إيجابية بالانتماء للآخر مما يزيد من مشاعر الانجذاب. نرى ذلك كثيراً في حياتنا اليومية, فإذا كنت في بلاد الاغتراب ستجذبك صورة شخص ملامحه أو ملبسه يدل على أنه من الوطن.. أو في متابعة الفرد لنشاط فني أو رياضي, تجد مثلا أصحاب البشرة السمراء ينجذبون لأصحاب البشرة السمراء و يشعرون بنوع من التجاذب نحوهم و التعاطف.

(ب)التكامل

التكامل هو الخاصية الإنسانية المتمثلة في أن الفرد قد ينجذب أحيانا للسمات التي يفتقدها ويتمنى امتلاكها, على سبيل المثال نوع الشخصية أو المقدرة على المرح أو حتى السمات البيولوجية من شكل القوام و اللون و طبيعة الشعر و خلافه.

(ج). التقارب و التكرار

العقل الإنساني يتعود و يفتقد ما يتعود عليه, لذا نجده ينجذب لما يتعود عليه و يسعي للمحافظة على علاقة قرب و تواصل. الإنسان ينجذب لأفراد أسرته وجيرانه في السكن و أبناء قريته و فصله الدراسي حتى إن لم يكن بينهم علاقة خاصة. إنه نفس الانجذاب للأغنية أو القطعة الموسيقية التي يتكرر سماعها و يزداد ارتباطك بها مع الزمن.. و تفتقدها إذا لم تسمعها. هذه السمة قد تفسر كثرة الانجذاب و العلاقات مع بنات الجيران و القرية و الأهل.

(د). التبادل الاجتماعي

هو كيف أن الفرد بطبعه يشعر بالتقدير لمن يقدره.. و يشعر بالفرح لمن يفرح به. لذا ليس غريبا أن ينجذب الفرد لمن يشعر أنه يبادله الانجذاب. و كما قال الشاعر أن بداية العلاقة تكون بهمسة و بسمة, و هما المؤشر أو المفتاح الذي يدعوك للموافقة على الانجذاب المتبادل.

(ه). الموانع والقيود

نجد أن أي شخص في تكوينه جزء من الحواجر و القيود التي تمنعه من التواصل مع الآخر. هذه الحواجز قد تكون اجتماعية و طبقية و إثنية و أخلاقية أو فكرية تجعلك تتنافر مع أصحابها, و من الطبيعي أن تكون حاجزاً للتجاذب. قد وجد علماء النفس أن عوامل المنع و التنافر أقوى من كل عوامل التجاذب و إن وجدت.

*التجاذب البيولوجي

نجد أن الفرد ينجذب للتركيب البيولوجي الشكلي للجمال.مفهوم الجمال رغم أنه يعتمد على المعايير الشكلية لكن نجد هذه المعايير متداخلة العوامل,و ليست ظاهرة بيولوجية بحته. الجمال و الاتساق الجسدي ليس هما عامل بيولوجي حتمي سيقود للانجذاب. خير مثال لينفي ذلك نجد أن الأم و الأخت و البنت مهما امتلكت من اتساق شكلي جمالي فإنها لن تقود للانجذاب. قد يفسر البعض أن ذلك شئ غريزي يمنع الفرد من الانجذاب لهؤلاء. لكن الواقع و علم النفس الاجتماعي يؤكدان أن عدم الانجذاب الجسدي هو عامل مكتسب و ليس فطري, و تحكمه قوانين و عوامل اجتماعية و نفسية. فالإنسان الطبيعي لن تجذبه امرأة مهما كان جمالها الشكلي إذا شاهدها و هي تحتضر أو تتألم أو ملطخة بالقاذورات. و مثال آخر نجد أن جزءاً أصيلاً في الشخص السوي تنتفي فيه جاذبية المحارم,حيث لا يجد الرجل انجذابا جسديا تجاه أمه الحقيقية أو بالتبني مهما كان جمالها.. بينما نجد أن الفرد الذي يبلغ مرحلة النضوج و قابل امرأة لم يكن يعلم أنها أخته فلن يكون هناك حاجز يمنعه من الانجذاب الجسدي تجاهها.

قام عالم النفس ويستمارك(٣٠) بدراسة الانجذاب الجسدي وسط الأطفال. فوجد أن الطفل الذي يعيش في أسرة منذ ولادته إلى عمر ستة أعوام يكتسب حاجزاً نفسياً يمنع قيام أي أحاسيس للانجذاب الجسدي نحو أفراد أسرته. إذن الانجذاب الجسدي رغم أنه يستند على الشكل و لكن ليس هو العامل الأساسي و المؤثر في حدوث هذا التجاذب, بل إن العوامل الاجتماعية و النفسية تلعب دورا أساسيا إلى درجة أن يصبح الجسد بلا أثر.

الجمال الشكلي في ذاته تحكمه قوانينه و عوامله التي تحدده. هذه العوامل تنقسم لعوامل عالمية و عوامل محلية أو ثقافية. عالمياً هناك

معايير متفق عليها للجمال للرجل و المرأة من معظم البشر, من أهمها التناسق بين الأعضاء حجما و في علاقتها مع بقية الأعضاء, و التماثل بين الأعضاء المتشابهة. هذا الاتفاق العالمي ناتج من بحث الإنسان الداخلي للتناسق و التمازج بين الأشياء, و رفضه للشذوذ و للتشوهات.

العوامل المحلية أو الثقافية هي تعكس ارتباط مفهوم بعض القيم الشكليه بمعايير لها قيمتها المجتمعية, مثل الصحة و القوة و الثراء, لتصبح هذه السمات قيماً إيجابية ينجذب لها الفرد حتى و لو لم يجد تفسيراً أو رابطاً واضحاً بين هذه السمات و القيم الاجتماعية.

ذكرت د. ابتسام إسماعيل(٣١) في بحثها عن الأثر النفسي لمنظور المرأة السودانية للشكل و للجمال.. ارتباط اللون الفاتح و الشعر المرسل بالطبقات المسيطرة من الغزاة, و من الشرائح الاجتماعية المترفة, بينما ارتبط اللون الأسود و الشعر المجعد بالفقر و العمل المضني و خاصة بطبقة العبيد.و استمر هذا الفهم الضارب في ثقافة الأمة و تاريخها حتى الآن. و نجد تفضيل هذه السمات و السعي لتحقيقها و لو على حساب صحة الفرد بعمليات تغيير اللون و استعمال الكريمات و المزيلات الصبغية.

كشفت بعض دراسات علم النفس أنه عندما يتم تحوير صور بعض الأفراد بواسطة الكومبيوتر و خلق شبيه له من الجنس الآخر, وجدوا أن معظم الأفراد قد قيموا أشباههم تقييماً عاليا في معايير الجمال. إذن فالإنسان يرى في الآخر بعض السمات الجمالية التى يراها في ذاته, ويشعر بالتآلف معها مما يقوده للانجذاب نحوها.

هذا الارتباط بين الجمال والقيم الاجتماعية يقودنا لحقيقة أن معايير الجمال ليست ساكنة, بل متحركة تتغير و تتبدل مع تغير الثقافة و المفاهيم.خير مثال نجده في واقعنا هو التغير الذي حدث في صفة الوزن, فتراجعت قيم البدانة و الامتلاء, لتحل مكانها قيم الرشاقة و النحافة كمعايير جديدة للجمال.

(٢) مرحلة الدخول في الحب

عندما تتم الاستجابة من الطرف الآخر تبدأ المرحلة الثانية و هي الدخول في الحب. هذه الفترة قصيرة نسبيا تتميز في بداياتها بنفس الاندفاع و القوة التي كانت تُمَيِّز المرحلة الأولى. يصاحبها شعور بعدم التصديق,فيتسرب بعض القلق عن هل ستستمر العلاقة؟ و هل ستنجح؟ و هل هي في قامة العلاقة؟ و هل تستمر معها الصورة المتضخمة للطرف الثاني؟. لا تستمر هذه الحالة كثيراً, و مع التواصل اليومي و ازدياد مساحات التقارب تبدأ الواقعية و النظرة الموضوعية في السيطرة على مفاصل المرحلة. حتى مع ظهور بعض التساؤلات, لكن العقل الإيجابي الحريص على إنجاح العلاقة يكون هو المسيطر, فيقمع أي شكوك عميقة و يتجاوزأي تساؤلات جوهرية. تستمر الأحاسيس في عنفوانها و تبدأ مشاعر الإثارة في الخفوت النسبي, حتى تصل لمرحلة التوازن أو الهدوء الطبيعي و تستمر مشاعر السعادة و الفرح الإيجابي بالعلاقة.

(٣) مرحلة الاستمرارية في الحب

هنا تبدأ المرحلة الثالثة و الأخيرة في تطور الحب و نضجه. نجد أن المرحلتين السابقتين أكثر سهولة و سرعة في الاجتياز, حيث أنهما قصيرتا الزمن نسبياً و تدفعهما كثير من الطاقة المتولدة من الإثارة الفسيولوجية و النفسية, و يصاحبهما عقل مشبع بجرعات من الخيال و الأماني. مرحلة الاستمرارية أو الاستدامة هي جوهر العلاقة الذي يحتاج إلى تجاوز كثير من المتغيرات و العوامل و إيجاد طرق إيجابية للتعامل معها. هذه المتغيرات بعضها ذاتي داخلي و الآخر خارجي و موضوعي, و يحتاج الطرفان لاستيعاب هذه العوامل حتى يستطيعا قيادة علاقتهما في درب التطور و النمو. نجد أن العوامل الذاتية تتمثل في استكشاف التركيبة النفسية لكل طرف و تفهم الآخر لشخصيته,و ما يصاحب ذلك من تطور و تغير مع العمر و الأيام. العوامل الموضوعية تظهر في ما يقابل الطرفان من ضغوط حياتية و ما يقابلهما من تغييرات في نمط الحياة من الترتيب

للزواج و إنجاب الأطفال و نموهم و تغير الوظائف و الأماكن و الابتعاد عن الأسرة أو الأصدقاء, كلها مراحل متغيرة لكل اثنين تحتاج إلى تأقلم و أسلوب تعامل مختلف.

لقد وجد علماء النفس أن العلاقات التي يُكتب لها النجاح و الاستمرارية يمتلك أفرادها بعض السمات الإيجابية المتمثلة في:

(أ).المرونة و غياب الحدة أو العنف. و يجب الانتباه إلى أن العنف ليس المقصود به فقط العنف البدني, بل يشمل العنف اللفظي و حتى العنف بالايماءة و الإشارة.

(ب).الاحترام للآخر و كل ما يتعلق به من شخصيته و سمعته و أفكاره و يشمل أهله و أصدقاءه.

(ج).الرغبة في الدعم و المساندة و ما يصاحب ذلك في روح المبادرة و السعي للعمل المشترك لتجاوز الصعاب.

(د). مشاعر الود ثابتة لا تتغير بالمواقف, و لا يؤثر عليها ما يمر علينا من مشاعر الغضب و الاحباط أو أي من المشاعر السلبية.

هذه السمات نجدها تنعكس في علاقة الحب, فتظهر تجلياتها في ثلاثة أعمدة أساسية لاستمرارية الحب و هي المصداقية و المرونة و التجرد و تجاوز النرجسية.

عوامل استمرارية الحب

(١)المصداقية

قد يعتقد البعض أن المصداقية في العلاقة هدف لا يختلف فيه اثنان,و لا يفترض أن يكون هناك قصور أو مشكلة في تحققه. المصداقيه تعني الأمانة في مشاركة الآخر بكل ما نحمله من أفكار و مشاعر سالبة كانت أم إيجابية. هذا يتطلب منا أن نكون قادرين على معرفة دواخلنا و حقيقة مشاعرنا, و أن نملك الوسائل التي تساعدنا في التعبير عن ذلك و كيفية إيصالها للطرف الثاني بدون تخوف من رد فعله. في الواقع نجد أن سلوكنا

كثيراً قد لا يتطابق مع قناعتنا بأهمية المصداقية.حيث أن في التواصل اليومي قد تواجهنا عشرات القضايا صغيرة و كبيرة, و نجد البعض - كسبا للوقت و خشية للحوار و المواجهة - لا يلتزم بالمصداقية في طرح رؤآه, و مع الزمن قد تخلق حاجزاً بيننا و بين الآخر مع تراكم كثير من النتائج التي لا تجد هوى أو قبولاً في أنفسنا, و مثالاً لذلك نوع الطعام و نوع الملابس و إنجاب الأطفال و غيرها إلى قناعاتنا في رؤياتنا للفرد و للعالم.

(ب) المرونة و التفاوض

المرونة و التفاوض هي القيمة التي تترجم و تعكس معاني الاحترام بين الطرفين. لأننا عندما نواجه موقفاً برؤيتين متباينتين, احترامنا للآخر يجعلنا أكثر قابلية لتقبل وجهة نظره, مما يفتح الباب لأن نتفهم الجانب الثاني من كل قضية مطروحة . هي المقدرة في عدم إغلاق الباب و جعله موارباً دوما لسماع رؤية الآخر و تقبلها و السعي الجاد للوصول لنقاط التقاء.

(ج)التجرد و تجاوز النرجسية

السمة الثالثة في الأهمية هي التجرد و تجاوز النرجسية. و ليس المقصود هنا إقصاء الذات و إلغاءها, بل بالعكس فإننا ندعو الانتباه لأحاسيسنا الذاتية و رغبة الفرد الفطرية في تحقيق رغباته, و التي قد تتعارض مع رغبات الآخرين و قد تجعل الفرد يسعى بكل جهده لتحقيقها, فتصبح العلاقة تسير في فلك واحد مكبلة بالذاتية و الأنانية.

مرحلة الاستمرارية رغم تراكم العوامل الذاتية و الخارجية و تناقضاتها, فهي مكتوب لها النجاح إذا استندت على حقيقتين, هما ضرورة السعي الواعي لقيادة سفينة الحب, و حسم العوامل الذاتية.

من أكثر الأخطاء شيوعاً و التى تؤدي إلى ضعف العلاقة هو ترك العلاقة بدون الانتباه لتفاصيلها. الحقيقة التي ليس فيها جدال هي أن الحب مثل القارب الذي إذا تركته للأمواج فهو حتما سيغرق أو يتحطم, و الحل

الوحيد هو الانتباه له و القيادة الواعية التي تستطيع رؤية العقبات و تعمل على تجاوزها. في نفس الوقت ضرورة الانتباه للتناقضات الداخلية و تجاوزها. إن العلاقة التي تنجح في تجاوز تناقضاتها الداخلية و تنجح في خلق جسم واحد من الطرفين, هي قادرة على تجاوزأي من العقبات التى تواجها مهما كبرت. لذا نقول بكل ثقة إن أي علاقة حب نجحت في حسم التناقضات بين الطرفين, فلن تقابلها أي عقبات أو أي ظروف تستطيع هدمها. و يمكننا أن نقول إن الحب الذي يستطيع تجاوز تناقضاته الداخلية وُجد ليبقى و لن ينهار أبداً.

يطرح العلم اليوم تساؤلاً مهماً حول أُحادية العلاقة بين الطرفين, و هل هي الوجود الطبيعي للبشر أم هي ظاهرة عارضة قد تتغير بتغير الظروف؟

توجد دراسات تقول إن هناك كثيراً من الممالك الحيوانية التي تعيش على التعدد في العلاقات, و أن هناك بعض الثقافات مازالت تقنن للعلاقات المتعددة و تسمح بها. دعم هذا التوجه علماء النفس التطوري بأن العلاقات المتعددة تطورت للعلاقات الأحادية نتاجا لحاجة تحديد قيم الأبوة و تطورها, حيث يزداد هذا الإحساس و تزداد المسؤولية كلما زادت ثقة الأب بأن هذا الطفل ينتمي له, مما جعل ثنائية العلاقة و عدم تعددها هو الأساس للعلاقات المتوازنة ذات الالتزام طويل المدى. هذا الأمر جعل الوصول لنتائج و هي أن الأحادية في العلاقات ليست سمة في تركيبة العلاقات, بل سمة مكتسبة نتيجة لحاجة تاريخية فتطورت و اكتسبت طبيعيتها, و أصبحت واقعاً نفسياً و أخلاقياً يقنن له المجتمع و القانون..

اعتمدت معظم هذه الدراسات على النظر في الجانب الجنسي و علاقته بالعامل الإنجابي.

هذه الدراسات أغفلت أهمية التطور الاجتماعي لمفهوم الجنس الذي تحرك مساحات شاسعة من كونه سلوك بيولوجي في المجتمعات البدائية, إلى أن أصبح جزءاً أصيلاً من علاقة الحب لا ينفصل عنها, و لا يمكن

النظر إليه بمعزل عن الجانب العاطفي المكون له و المؤثر في تجلياته.

نجد أن دراسة الأحادية و التعدد التي أهملت جانب الحب قد فقدت عاملاً أساسيا في تحليل الظاهرة, مما أدى إلى نتائج ليست بالضرورة تجيب على الأسئلة المطروحة. هذه النظرة التي تؤكد أن التعدد و الأحادية سلوك مكتسب استندت على ظواهر التعدد في العلاقات الجنسية, لذا تصبح هذه الإجابة مقبولة و منطقية للسؤال: هل العلاقات الجنسية الأحادية سلوك فطري أم مكتسب؟؟

هذا السؤال رغم أهميته لفهم السلوك البشري, لكن الحياة العملية و واقعنا اليوم لا يبحث عن الجنس كوجود بيولوجي بل كظاهرة متكاملة مرتبطة بالمشاعر و العواطف. لذا نجد أن السؤال الأكثر أهمية هو: هل الحب الأحادي سلوك فطري أم سلوك مكتسب؟؟

التحليل التركيبي لمكونات الحب يجعلنا نجزم انتفاء العلاقة بين الحب و التعددية, و عدم إمكانية أن يتحقق الحب الحقيقي إلا في علاقات أحادية.

إن أحد مكونات الحب الحقيقي هو خلق وجود اجتماعي يمثل المجتمع, يتحلل فيه الفرد من القيود الاجتماعية و يجد ذاته في علاقة غير مشروطة و غير محكومة إلى درجة بقيم الآخرين و معاييرهم. هذه العلاقة توفر الواقع الآمن فتخلق قوانينها و لغتها و إرثها و أسرارها. العلاقة بحكم هذا التعريف يجب أن تكون ثنائية, فإن دخول طرف ثالث سيفقدها الأساس الذي قامت عليه, و ستصبح علاقة اجتماعية مقيدة بقوانين مجتمعية جديدة و مساحات من العفوية سيتم استلابها و تحجيمها لوجود طرف آخر. فالمرأة ستفتقد إمكانية أن تمارس عفوية إطلاق كل أفكارها و مشاعرها و أحلامها نسبة لوجود طرف ثالث في العلاقة ليست بينها و بينه صلة مباشرة, بالإضافة لوجود مشاعر تجاه هذا الوجود و هي مطالبة في معظم الأحيان أن تحتفظ بها و لا تفصح عنها. و بنفس القدر للرجل, فإن وجود طرف ثالث في العلاقة سيحتم وجود حواجز على مستوى العفوية

في التعامل مع الآخر مع ظهور قيود و أسرار جديدة غير مسموح للآخر الاقتراب منها. إذن في العلاقة غير الأحادية نجد أن هناك حتمية في خلق واقع اجتماعي جديد و علاقة ذات بعد جديد, بها مساحات من المناطق المغلقة و الإرث و الأسرار التى لا يفصح فيها كل طرف للآخر. لذا نجد العلاقة المتعددة مهما حاول الطرفان فإنها ستفتقد لمساحات من الحرية و العفوية التي كانت تغذي مشاعر الاحتياج الدائم و الخصوصية. إذن وجود امرأة أو زوجة ثانية يعني مساحات من الأسرار و المواقف لا تخص الطرف الأول, مما يقود لوجود انعدام للعفوية الكاملة و ما يصاحبها من تأثير في مفهوم العلاقة و أهدافها و قوتها. إن من أقوى مكونات الحب هي الحاجة لوجود الشريك الذي يوفر لك إحساس الأمان و الاهتمام و الرعاية. وجود طرف ثالث يؤثر سلباً في هذه المشاعر التي ابتداءً استندت على خصوصية العلاقة و وحدانية الإحساس المرتبط بإحساس التملك للآخر, و الإيمان بوجوده لك متفرغا و مهموماً بذاتيتك و باحتياجاتك.

عندما يطرح السؤال عن إمكانية أن يُحب الفرد اثنين في وقت واحد, نجد أولا أن هذا السؤال يُطرح داخل مؤسسة الزواج لتفسير طبيعة مشاعر الزوج تجاه الزوجتين. إن التعدد لما اكتسبه من شرعية دينية لا يعني أن تعدد الزوجات يعني إمكانية التعدد في الحب. فالشرع لم يتحدث عن المساواة في المشاعر بين الزوج و زوجاته, و لدينا حديث رسولنا الكريم ﷺ و هو يدعو ربه في صدقٍ «اللهم لا تلمني فيما تملك و لا أملك».

لذا نقول إن مفهوم الحب و جوهره أحادي غير قابل للتعدد, و نجد أن الواقع و المجتمع يسند ذلك. المجتمع ببساطة لا يقبل لأي رجل أن تكون له حبيبتين في وقت واحد, و يعتبر ذلك خداعاً و عدم أخلاق. بل إن الرجل نفسه تجده مؤمنا بأحادية الحب, و يقسم لحبيبته بأنها الوحيدة في حياته ولا أخرى غيرها. إننا لن نجد من يعترف لحبيبته قبل الزواج بأنه يعشق أخرى تقاسمها نفس العواطف يمتلكها, و إن فعل ذلك ستعتبر خيانة

و غير مقبولة. بعد الزواج تتغير القوانين و المفاهيم حيث يُسمح للرجل بالزواج الثاني كسلوك طبيعي مقبول وغير مستغرب, و يعطي للزوجة الثانية إمكانية أن تكون الحبيبة الثانية, و يطالب الأولى أن تُغير قناعاتها في أحادية الحب.

تدخل الحبيبة في أي علاقة مستندة على قناعة أنها الوحيدة و أنها النصف المكمل لمن تختاره, ليبنيا سويا وحدة واحدة متناسقة في المشاعر و الأحلام. نجد أنه من الصعوبة و الغرابة بعد الزواج مطالبة الزوجة بأن تغير قناعاتها, و تلغي أحاسيسها تجاه أن تكون الوحيدة كما هو الوحيد في شراكة الحب هذه.

الحب كما ذكرنا يستند على أحاسيس و عوامل تربط اثنين, قوته في ثنائية العلاقة و انتماء كل طرف للآخر و تداخلهما لخلق وجود واحد متجانس.

إذن الحب ينتفي لأنه في وجود طرف ثالث سيفقد إحساس الأمان الذي يشعر به الطرفان تجاه بعضهما البعض, حيث أن وجود طرف ثالث سيجعل العلاقة دوماً مختلة و لا تحقق هدفها الذي يستند على أن الآخر هو نصفي الذي يكمل لي توازني النفسي و الاجتماعي. ثانيا نجد أن العلاقة ستفتقد إمكانية الشفافية الكاملة بين الطرفين, و ستوجد دوماً مساحة للطرف الثالث غير متاحة للطرف الثاني المشاركة فيها. هذه المساحة بها مواقف و ذكريات و أحلام, حتى إذا لم تكن حاجزاً بين الطرفين لكنها ستستمر منطقة محرمة و تفرض عليهما القبول باستحالة التغلغل في دواخل الآخر بكل مساحاتها و أعماقها.إذن سنجد أن عالما جديداً قد تخلق عند الزوج غير مسموح للزوجة بالدخول إليه, و يقابله عالم من الوهم و الخيال عند الزوجة تصنعه في عقلها عن هذا العالم الجديد لزوجها, تحتفظ به لذاتها و لا تشاركه أياها. إن ظهور عامل المقارنة بين طرفي العلاقة سيكون بديلا لعامل التفرد المفترض أن يحكمها, مما

سيجعل كل سلوك و انطباع لدى الزوج و دون أن يشعر يحاكم الواقع بما في خياله من تجربة ثانية, بينما تجد الزوجة تحاكم نفسها في مقارنة بخيال ترسمه للزوجة الثانية. هذه المقارنة لا تقف عند التفاصيل الصغيرة, بل عادة تتجاوزها لدوائر مكانة الشخص و أهميته, و هل هي الأفضل أم هي الأخيرة في سلم الأفضلية؟ و ينتفي إحساس الاطمئنان المرتبط بالانفراد بعقل الزوج و مشاعره وأحلامه إلى منطقة القلق بسبب المشاركة, والتي تفتح أبواب عدم الثقة في أن أحلام الزوج ليست هي طرفاً فيها, بل هي ملك لشخص آخر ليست لها سلطه عليه, بل قد تتعارض مع ما تحلم به مع زوجها. وجود طرف آخر بالضرورة سيفتح بابا من عدم الثقة, فمن المعلوم أنه لن يستطيع أن يكون صريحاً في كثير من تفاصيل العلاقة و أين يجد راحته و سعادته؟

الزواج الثاني سيهدم إحساس الأمان في الزوج لوجود السؤال الذي لا إجابة له و هو:»الزواج الثاني لماذا؟؟« و عمَّ كان يبحث الزوج؟ و أين مناطق القصور التي تجعله يبحث عن شخص آخر؟. حتى لو تجاوزنا الجرح النفسي الذي يخلقه هذا التساؤل و ما يصاحبه من تشكيك في قوة العلاقة و في إمكانات الزوجة ومقدراتها, فإن الزواج الثاني سيفتح دوماً باب التساؤل عن القصور في العلاقة, و التي مهما حاول الزوج نفي ذلك فإنه لن يجد أذناً صاغية.

في جانب المرأة لا يمكن تجاهل الحساسية الجسدية من مشاركة الرجل لعلاقة جسدية مع شخص ثانٍ, و هي تفتح الباب لكثير من المشاعر المتباينة من الغضب و القرف و الغيرة و الامتعاض.

إذن يمكننا أن نقول إن هناك كثيراً من العوامل المتشابكة التي تجعل من الاستحالة للرجل أن يحب امرأتين في وقت وقت واحد. هي فكرة مرفوضة اجتماعياً و منطقياً قبل الزواج, و تصبح لها مساحات من القبول الاجتماعي في محاولات أن تجد لها تبريرا منطقيا لوجود زوجة ثانية

في حياة البعض بعد الارتباط بالأولى.

هذا سيقودنا لتساؤل مرتبط بوجود الزوجة الثانية و لا يتوقف عندها, وهو هل يمكن أن تقوم علاقة زوجية من دون علاقة حب؟ و سنتطرق لهذا التساؤل لاحقا.

هذا الارتباط اللصيق بين الحب و الجنس قد قاد الكثيرين للخلط بيين الاثنين, فكثيرا ما تجد من تكبر في دواخله أحاسيس الرغبة الجسدية, فيفسرها عقله و فهمه الاجتماعي بأنها أحاسيس حب.لذا في استكمال فهمنا للحب يجب علينا النظر بعمق أكثر لمفهوم الجنس و تحديد علاقته بالحب و تقاطعاتهما سويا.



الفصل السابع

الجنس



الجنس

الجنس أو العلاقة الجسدية تمثل ركناً من الأركان الأساسية لأي علاقة عاطفية أو زوجية, حتى و إن خلت من الحب. هذه الأهمية رغم وجود ضرورة وجودية مرتبطة بالتناسل و استمرارية الجنس البشري لكنها لا تمثل الدافع الأساسي لوجودها أو استمراريتها. أيضا نجد ارتباط العلاقة الجسدية بالإنجاب, و العائد الاجتماعي و النفسي و الاقتصادي لتكوين الأسرة يمثل عاملاً مؤثراً في أهمية العلاقة الجسدية في داخل علاقة الحب و الزواج. إن العامل الأكثر تاثيراً في أهمية العلاقة الجسدية نجده يتمثل فيما يصاحبه من شحنات الامتاع البيولوجي و النفسي.

ارتباط الجانب الإمتاعي بالعلاقة الجسدية يعتبر جانباً أساسياً في تركيبة العلاقة, لتضمن استمراريتها بوجود الحافز الداخلي المتمثل في ربط الاحتياج البيولوجي و حالة الارتياح و السعادة أو النشوة بإشباع هذا الاحتياج. الأساس البيولولوجي لهذا الاحتياج هو عملية هرمونية تقود لمراحل من التوتر البيولوجي, تصل لدرجة تفرض على الجسم التعامل معها ليصل للتوازن البيولوجي. إن البوابة لمرحلة الهدوء و التوازن البيولوجي تكتمل من خلال علاقة جسدية يتم فيها تغيير في التركيبة الهرمونية لتساعد في التخلص من التوتر البيولوجي و استعادة الجسم لمرحلة التوازن و الهدوء.

إذن العلاقة على مستواها البيولوجي هي عبارة عن توتر جسدي ناتج من تغيرات هرمونية تبحث عن التوازن للتخلص من هذا التوتر,و يتم هذا من خلال عملية تواصل جسدي تصاحبها تغييرات فسيولوجية تقود الجسم لمرحلة التوازن البيولوجي.

هذا التكوين البيولوجي هو ما نسميه الغريزة أو الرغبة الكامنة في الوجود الحيواني التي تدفعه لإشباع هذه الغريزة. إذن هذا الوجود الفطري التركيبي و الاحتياج الفسيولوجي هو ضرورة حتمية للحفاظ على النوع. لذا نجد أن الاحتياج التركيبي و الفسيولوجي للإشباع الجنسي في مملكة الحيوان هو الضمان لاستمرارية التواصل الجنسي, و من ثم ضمان الحفاظ على النوع. فلو كانت الرغبة الجنسية إحساساً أو حاجة مكتسبة تتباين و تختلف من فصيل لآخر, فحتما سنجد تأثيراً واضحا في وجود و تكاثر بعض الفصائل الحيوانية, لأن وجودها و تكاثرها سيعتمد على عملية خارجية تحتمل القبول أو التجاهل, مما قد يهدد وجودها و ربما يقود بعضها للانقراض. إن الوجود الغريزي الفطري للجنس و جعله غريزة ترتبط مع تركيبة أي حيوان تجعل من العلاقة الجنسية حتمية بيولوجية و ضرورة ليس من السهل تجاوزها. لذا نجد أن هذا يجعل من إشباع الغريزة يمثل السلوك العام لمملكة الحيوان.

الإنسان كجزء من مملكة الحيوان فهو حتماً يشارك أعضاءها في كثير من السمات, و يختلف عنها في بعضها.إن الإنسان كوجود بيولوجي يمتلك غرائز مثل بقية الحيوانات, و الجنس أحد هذه الغرائز الفطرية التي لها جذورها التركيبية و الفسيولوجية.

وجود الغرائز في المملكة الحيوانية لا يعني أنها تحكمها نفس القوانين على كل أفراد هذه المملكة, مع التباين الواضح بين الإنسان و بقية مملكة الحيوان.

الاختلاف بين أطراف المملكة الحيوانية ينعكس في طريقة تعاملهم مع غرائزهم و طرق إشباعها. فمثلا غريزة الطعام الموجودة بين كل الحيوانات, لا يخفى على أحد التباين الواضح و الفرق الشاسع في التعامل مع الطعام بين الإنسان و الخيول و الكلاب. أيضا نجد أن التعامل مع غريزة الجنس تنطبق عليه نفس السمات و تظهر عليه كل صور التباين في طريقة التعبير

و أساليب إشباع هذه الغريزة.

تطور هذه الغريزة بين الإنسان و بقية المملكة الحيوانية هو انعكاس لتطور الإنسان عن بقية أعضاءها لتحرره من القبضة البيولوجية, و تحويرها و تشذيبها بالطريقة التي تناسب تطوره.

الاختلاف الجذري بين الإنسان وبقية المملكة الحيوانية هو في امتلاكه الوعي و الذي يسيطر على سلوك الإنسان و تصرفاته. أي أن الغريزة كاحتياج بيولوجي تمر بعملية غربلة و تعديل لتتناسب مع احتياجات الفرد الإنساني, مما تعطيه استقلالية نسبية و سيطرة على غرائزه. بينما نجد أن الغريزة في بقية مملكة الحيوان هي احتياج بيولوجي ليس له جهاز يردع أو يُنَظِّم, بل يفرض على الحيوان طريقة التعامل معها كضرورة و حتمية بيولوجية لا فكاك منها. فمثلا غريزة الطعام عندما تحتاج لإشباع لا يكون هناك وازع و لا ضابط لبقية الحيوان في طريقة إشباعه و حتمية الاستجابة لهذه الحاجة. الوضع عند الإنسان مختلف, فرغم قوة الغريزة للطعام و الحاجة البيولوجية له لكن نجد لديه سيطرة نسبية تتفاوت نتيجة لعوامل كثيرة,فهناك من يحرم نفسه من إشباع غريزة الطعام, بل يضحي بحياته من أجل قضية بإضراب عن الطعام أي أنه يستطيع قمع نداء الغريزة و إن قاد إلى فنائه.. و هناك من يسيطر عليها لفترات لدواعي دينية و اجتماعية.

هذه السيطرة النسبية عند الإنسان و المصاحبة لتطور الوعي, جعل الغريزة تنتقل من موقع الحاجة البيولوجية المسيطرة على موقع الشهوة و هي الغريزه الواعية الخاضعة للوعي الإنساني.

تطور الغريزة الحيوانية إلى الشهوة أو الغريزة الواعية يظهر جليا في شهوة الطعام, بحيث إشباع الغريزة ليس ضرورة فسيولوجية يتم إسكاتها في أي وقت و بأي طريقة, بل أصبحت رغبة تحكمها تقاليد و مفاهيم, من نوع الطعام و طرق تحضيره وطريقة عرضه و طريقة أكله و زمن أكله. إذن

يمكن أن نقول إن هذه الشهوة أصبحت لدرجة كبيرة تحكمها تقاليد و مفاهيم أفرزها الوعي الإنساني شكلت ثقافة متكاملة مرتبطة بهذه الغريزة.

هذا التطور للتعامل غيَّر الحاجة الغريزية للممارسة و أضاف لها أبعادها الأخرى الاجتماعية.. فأصبحت الدعوه للطعام و الجلوس حوله لها دلالاتها و أبعادها الاجتماعية المستقلة و المتجاوزة حتى للدوافع الأولية البيولوجية للشهوة.

ما ذكرنا عن الطعام ينطبق على بقية الغرائز و الجنس أحداها, فنجد أن تطور غريزة الجنس إلى شهوة قد مر من خلال الوعي و التجربة, فأضاف لها بعدها الإنساني مما جعل من الجنس قيمة لها مدلولاتها النفسية و الاجتماعية.

العلاقة الجنسية يمكن النظر إليها في شكلها الهرمي المستند على الواقع البيولوجي الكائن في قاعدته مملكة الحيوان, إلى قمته عند الإنسان المتمثل في أنسنة الجنس و جعله علاقة تتجاوز البيولوجية, ليصبح ذا سيطرة واعية نسبية تتحكم فيها حزمة من المفاهيم و المشاعر.السلوك الإنساني يتأرجح علواً و هبوطاً بين هذين الموقعين من أفراد هم عبيد تسيطر عليهم غرائزهم, يحكمهم واقعهم الفسيولوجي و التوتر الهرموني الذي يحتاج للإشباع, لا يهم كيف ومتى,و على الجانب الآخر نجد أفراداً وصلوا مرحلة من السيطرة الكاملة على غريزتهم لدرجة رفضها بل و إقصائها من حياتهم اليومية إذا استدعت قناعاتهم ذلك, كما نجد في بعض الديانات من أنواع التبتل و الرهبنة المرتبطة بحظر الجنس و السيطرة على الغريزة بصورة كاملة.

بين هؤلاء الجالسين على طرفي النقيض, نجد معظم البشر يتأرجحون قرباً و بعداً بين الاستسلام الكامل لغرئزهم و السيطرة الكاملة عليها لدرجة المنع والحرمان,و نجد في منتصفه الإنسان الذي يسيطر على شهوته الجنسية استناداً على فهم و وعي متكامل.

في مفهومنا العلمي و الموضوعي للجنس نعكس رؤيتنا بأن التوازن النفسي للإنسان يتحقق بعيداً عن هذين النقيضين, ربما هو أقرب لقمة الهرم في السيطرة الكاملة و لكنه يختلف عنها بأنها سيطرة لا تقود للحرمان أو لنفي الجنس, بل تقود لإشباع الغريزة من خلال ممارسة تعطيها الجانب الإنساني و ترتبط بقيمة الحب و التوازن النفسي.

على قاعدة الهرم و في المستوى البيولوجي للعلاقة الجنسية نجد أن العلاقة تفاعل ميكانيكي بين الطرفين الواقعين تحت تأثير التوتر الهرموني, الباحثين عن إزالة هذا التوتر و ما يصاحبه من متعة ونشوة جسدية.هنا يتردد كثيراً التساؤل و ما الغضاضه أن يكون الجنس عملية بيولولجية بحتة لتحافظ على استمرارية الجنس البشري؟؟

نقول إن الوعي الإنساني يرفض ذلك, و أن المنطق و الواقع يدحض هذا الفهم. فالارتباط البيولوجي بين الجنس و الإنجاب كحتمية بيولوجية لم تكن قضية محبذة, مما جعل السلوك الإنساني على مدار التاريخ سعى للفصل من بين هذين الظاهرتين ما أمكن ذلك, و لم يكن هناك تخوف من انقراض الجنس البشري.

إن ظاهرة منع الحمل وتعدد أساليبه الفيزيائية و الكيميائية هي ظاهرة ضاربة جذورها في التاريخ الإنساني, و هي تعكس سعي الإنسان الحثيث لفصل الجنس عن الإنجاب ما أمكن ذلك. الواقع الإنساني يثبت أن ممارسة الجنس من أجل الإنجاب هو هامش بسيط, و يمكن ان نقول إن الغالب الأعم من الممارسة ليست لها علاقة بالإنجاب. نجد أنه ليس فقط استمرارية الجنس في فترات الحمل و في متوسط العمر بعد انتهاء الأمل في الإنجاب, بل نجد بعض الدراسات تؤكد أن شريحة كبيرة من النساء تزداد قوة علاقتهم الجنسية بعد انقطاع دورتهن الشهرية, و قد فسر ذلك لتحررها من القلق و الخوف من الحمل غير المرغوب فيه.

إذا قبلنا بأن الجنس ليس وظيفته فقط الإنجاب والحفاظ على النسل,

هل يمكننا القول إن المتعة الجنسية هي وحدها يمكن أن تكون سبباً و دافعاً لوجود و استمرارية العلاقة الجنسية؟؟

الواقع و المنطق يقولان غير ذلك.. فالعادة السرية أو الاستمناء التي تقود للمتعة الجنسية لا تعتبر بديلاً لعلاقة جنسية مع طرف آخر, رغم أن الناتج الفسيولوجي واحد. بل نجد أن الإنسان قد يضع نفسه في مخاطر اجتماعية و مادية و صحية ليحصل على علاقة جسدية مع طرف آخر, رغم أن العادة السرية خالية من كل هذه العقبات و المشاكل.

هذا التفضيل يعكس لنا بكل وضوح أن المتعة الجسدية ليست هي المحرك الوحيد, بل تصاحبها متعة نفسية لا تنفصل عنها, ولا نقول مكمِّلة لها بل هي جزء أصيل من السلوك الجنسي عند الإنسان. حيث أن المتعة الجسدية مع الآخر ليست مجرد احتكاك بيولوجي يقود لمرحلة الذروة, فقد أثبت الواقع و الدراسات أن تجاوب الآخر و تفاعله في العلاقة الجسدية يساهم بقدر إيجابي و ملموس في درجة الإحساس بالسعادة و المتعة المرتبطة بممارسة الجنس. فلا يختلف اثنان أن عدم حماس أحد الاطراف و عدم تجاوبه في أثناء العلاقة الجسدية له مردوده السلبي الذي قد يقود للشعور بالضيق و الغضب و كل المشاعر السالبة, حتى لو و صلت بالفرد للذروة و الرعشة الجنسية. و العكس صحيح فإن العلاقة الجسدية التي تكون فيها كثير من التجاوب و الحماس لها ناتج ملموس من الارتياح و السعادة, حتى و إن لم يصل الطرفان أو أحدهما لمرحلة الرعشة الجنسية.

هذا يؤكد لنا أن إحساس المتعة عند الإنسان هو شعور متكامل يشمل الرضا و الراحة النفسية و المتعة الجسدية. بل إن الحماس و التجاوب في نفسه يعتبر عاملا مساعداً في بلوغ مراحل أعلى من النشوة الجسدية. إذن يمكن أن نقول بكل ثقة إن الجنس في الإنسان لا ينفصل عن العوامل الفكرية و العاطفية للفرد.

لقد قام الأمريكيان ماستر و جونسون(٣٢) بأكبر دراسة عن الجنس عند البشر, و قاما بفحص و متابعة عشرات الآلاف في معملهم و في منازلهم, مما جعلهم يحصلون على فيض من المعلومات و المعرفة ساعدتهم في صياغة نظريتهم في تفسير العلاقة الجنسية. و قدما شرحا للمتغيرات التي تصاحب العلاقة, و قد عرفت هذه التفسيرات و الشروحات بأطوار الاستجابة الجنسية الخطية, أو المدرسة الخطية لأنها طرحت العلاقة الجنسية في شكل خط مستقيم فيه محطات يتحرك الفرد أثناء الممارسة من منطقة إلى أخرى حتى يصل لنهاياتها. فوصف أربع محطات أو مراحل استنادا على التغييرات الفسيولوحية المصاحبة لها, ابتداءً من مرحلة الإثارة ثم الاستقرار و بعدها الرعشة انتهاءً بمرحلة الاسترخاء.

إذا نظرنا إلي هذه المدرسة الخطية بقليل من التفصيل فإننا نجد أنها تتسم بالآتي:

(١). **الاستثارة** (Excitement)

هي تعتبر مرحلة التهيؤ و الاستعداد, فهي تمثل أول رد فعل من الجسم لمثير وهو أشارة من العقل للجسم للتحضير للجنس.

مرحلة التأهب و الاستعداد هذه تتسم بتغييرات فسيولوجية متعددة, مثل ارتفاع في معدلات ضربات القلب و التنفس, و زيادة في اندفاع الدم ناحية الأعضاء التناسلية، و يظهر ذلك في صورة انتصاب القضيب عند الرجال و انتصاب البظر و انتفاخ الأشفار عند النساء, و انتفاخ بسيط في الثدي و الحلمات, مع خروج سائل لزج من المهبل استعداداً لممارسة الجنس. من المهم الانتباه لنقطة مهمة و هي أنه يمكن دخول هذه المرحلة عند التفكير حتى في غياب طرف آخر في العلاقة.

(٢). الاستقرار أو البلاتوه (Plateau)

مع تنامي الاستجابة لممارسة الجنس ستبدأ قوة التغييرات الفسيولوجية التي ظهرت في الاستثارة بالازدياد.

(٣). النشوة (Orgasm)

مع الاستمرار في الممارسة الجنسية, يصل الشخص مرحلة القمة أو ذروة الاستجابة للتفاعلات الجسدية التي تقوده للحظات النشوة و الإحساس بالمتعة, و هو ما يسمى بالهزة أو الرعشة الجنسية (Orgasm) أو(Climax). تسمى رعشة لأن من سماتها أن عضلات الجسم تنقبض, مما يؤدي لأن يرتعش الشخص بقوة عند الوصول إليها, و تحدث انقباضات في عضلات المهبل و قاعدة الرحم بالنسبة للمرأة, مع انقباض عضلات قاعدة القضيب و قذف السائل المنوي بالنسبة للرجل.

(٤)التراجع أو الاسترخاء

في هذه المرحلة يعود الجسم لوضعه الطبيعي و ترجع وظائفه لمرحلة ما قبل الاستثارة. حيث نجد ما يميزها رجوع نشاط القلب و التنفس لحالتهما الطبيعية, و عودة الأعضاء الجنسية الأنثوية و الذكورية لوظائفها الفسيولوجية الطبيعية فيعود لها حجمها و لونها و درجة حرارتها.

رغم أن المدرسة الخطية لم تتطرق لذلك, لكن يجب التأكيد بأن هذه المرحلة تتميز بالمشاعر الإنسانية و التي متوقعا أن تكون متسمة بالحميمية, و قد تكون هناك مشاعر سالبة من الاحباط و الملل و القرف و الغضب هي السائدة في بعض الأحيان..

و لكن كما ذكرنا فإن ماستر و جونسون كان اهتمامهما منصباً في التغييرات الفسيولوجية و الجسدية, لذا لم يكن هناك ربط بين هذه المشاعر و تدرج العملية الجنسية على حسب المدرسة الخطية و تفسيرها للظاهرة.

وجدت نظريه ماستر و جونسون في فترتها الأولى تقديراً وإعجابا في دوائر علم النفس, و التى قادت لاستنباط وسائل علاج سلوكي للضعف الجنسي مازالت لها وجود و جذور في مدارس العلاج النفسي.

مع الزمن بدأ يتضح الضعف المصاحب لنظرية خط الاستجابة أو بالاحرى القصور التي صاحبها. حيث لا يختلف اثنان في صدق وصفهم لخط الاستجابة الجنسي, و لكن واضح أن الوصف البيولوجي و التغييرات الفسيولوجية وحدهما لا يفسران و لا يشرحان تعقيدات الممارسة الجنسية و ثراءها. إن النظرية الخطية جعلت من ممارسة الجنس قضية تغييرات حتمية و مسار فسيولوجي محدد ينتقل بتلقائية, أو بالأحرى بقوانينه البيولوجية و تغييراته الهرمونية من مرحلة الإثارة الي مرحلة الاسترخاء. أثبت الواقع أن هذا لا يفسر حقيقة ما يحدث, حيث من الواضح عدم سيطرة الحتمية البيولوجية في كل مراحل الاستجابة الجنسية, بل وجود عوامل أخرى فكرية و نفسية لها دورها الواضح في التأثير على هذه المراحل. فمثلا نجد الواقع الفكري لشخص يرفض الممارسة الجنسية لأسباب فكرية تتعلق بقناعات محددة, فإنها ببساطة قد توقف مرحلة الاستثارة في بداياتها, و تمنع تطور أو ظهور أي من التغييرات الفسيولوجية المصاحبة. فمثال للذي يشعر بالاستثارة لمشاهدة منظر أو فكرة ما, فإذا كانت تركيبته الفكرية ترفض هذا الإحساس باعتباره خطأ إجتماعياً أو أخلاقياً أو دينياً, فإن قوة هذه الفكرة كفيلة بوقف مرحلة الاستثارة في بداياتها, و حتى إذا بدأت بعض ظواهر الاستثارة الفسيولوجية فإنها لاتستمر, بل يمكن أن يعود الفرد لمرحلة الهدوء الجنسي و تعود تركيبة الجسم الفسيولوجية لطبيعتها. تأثير العامل الفكري لا يتوقف على مرحلة الإثارة فقط, بل يمكن أن يؤثر على مرحلة الاستقرار أو البلاتو, و قد يؤدي إلى توقف العلاقة في تلك المرحلة و عدم انتقالها للمرحلة التي تليها. حتى في مرحلة النشوة و هي التي تتصف بسيطرة العقل اللارادي

و الذي لا سيطرة لنا عليه, فيقود لتقلصات عضلات القضيب و الرحم والمهبل, فرغم أن الجانب الفكري ليس له سيطرة مباشرة, و لكن له تأثيره الواضح في سرعة حدوث هذه المرحلة؛ قوتها و مدى ما يصاحبها من متعة جسدية و نفسية. أيضا نرى تأثير العامل العقلاني أو الفكري على المرحلة الأخيرة, أو مرحلة الاسترخاء مما قد يؤدي لبطء حدوثها أو سرعة حدوثها. إن تأثير العامل العقلي أو فكر الشخص ليس وحده الذي يؤثر على مراحل الاستجابة, بل نجد أن العامل النفسي أيضا له الأثر الواضح في تشكيلها زيادةً أو نقصاناً. نجد مشاعر مثل الخوف و الغضب و الإحباط و القرف و القلق, كل واحد منها كفيل بأن تؤثر على أي مرحلة من مراحل الاستجابة الجنسية. هذا التأثير سيتفاوت في قوته من إيقاف مرحلة الاستجابة الجنسية و حجب التغييرات الفسيولوجية المصاحبة و التأثير عليها. لا نحتاج لضرب أمثلة كثيرة لإثبات تأثير الجانب النفسي في مراحل الاستجابة, و لكن يكفي الإشارة لمشاعر الخوف التي تكبت مرحلة الاستثارة في مهدها و تسيطر على التغييرات الفسيولوجية المصاحبة, فنجدها تساهم في ضعف الانتصاب و عدمه عند بعض الرجال.

إن عدم توضيح ماستر و جونسون التأثير الواضح للعوامل العقلية النفسية في الاستجابة الجنسية جعل نظريتهما تعاني من قصور لا يخفي على أحد, و لا تستطيع الإجابة على كثير من الأسئلة المرتبطة بتعقيدات الاستجابة الجنسية.

قامت الدراسات الحديثة باستكشاف مناطق القصور و أضافت تفسيرات إذا لم نقل نظرة جديدة للفهم المطروح لمراحل الاستجابة الجنسية, و يمكننا هنا التعرض لنقطتين:

الأولى أن الإثارة الجنسية لا تصل لقمتها و لا تنتقل لمرحلة الاستقرار و البلاتوه بصورة أوتاماتيكية تلقائية لا واعية و كحتمية بيولوجية, بل تمر من بوابة الاستعداد الفكري و النفسي و هي التي تسمح للفرد بالانتقال من

مرحلة الاستثارة الكاملة لمرحلة البلاتوه. إذن التركيبة الثقافية و الفكرية و الحالة النفسية هي الغربال الذي يسمح بالانتقال الفسيولوجي من عدمه. ليس هذا فقط, بل يمكن أن نقول إن الواقع العقلي و النفسي يمكن أن يقمع الإثارة في مهدها قبل أن تبدأ سماتها الفسيولوجية في الظهور. هذا الاستعداد النفسي و العقلي الداخلي جعل في الإمكان قبول أن يظهر الشعور بالرغبة العميقة حتى قبل مرحلة الإثارة الابتدائية, وهذا يتطابق مع السلوك الإنساني الطبيعي الذي نشاهده في إمكانية ظهور الرغبة الجنسية عند البشر حتى و إن لم تسبقها مرحلة الاستثارة و ما يصاحبها من تغيير فسيولوجي.ظهور هذه الرغبة قد تكون عفوية نتاجا للتغييرات الهرمونية, أو ربما تكون مرتبطة بعوامل خارجية ساهمت في الضغط على زر الرغبة و فتح أبوابها, وهذه سوف نتطرق لها لاحقا.

النقطة الثانية وهي إن الإستثارة ليست بالضرورة أن تكون حسية أو مرتبطة بالحواس البشريه من نظر و سمع و شم و لمس, بل يمكن أن تبدأ الإستثارة بمؤشرات فكرية و نفسية.التفكير في الجنس أو الطرف الآخر مع السماح للخيال في تشكيل استعدادنا الفكري قد يكون بداية قوية لمرحلة الإستثارة. أيضا نجد الواقع النفسي في حالة الحميمية العاطفية من شوق و توتر نفسي قد تقود البشر لمرحلة من الاستثارة الجنسية, حتى و إن لم يكن الجنس جزءاً من تفكيرهم في تلك اللحظات.

النظرة الحديثة لمراحل الاستجابة الجنسية ساهمت في رسم محوري للجانب الفكري و النفسي في تدرج مراحل الاستجابة الجنسية, وساهمت في فتح الباب ليس فقط بربط العلاقة الجنسية بالتركيبة النفسية كمراقب و محفز خارج العلاقة, بل جعله علاقة متداخلة قد يصعب التفريق بين مكوناتها, مما يجعل من التواصل العاطفي الحميم أن يكون هو مرحلة أساسية في مرحلة العلاقة الجنسية.

هذا التصور يجعلنا نستطيع التمييز بين نوعين من العلاقة الجسدية,

بين التي تبدأ بمرحلة الاستثارة و تلك التي تبدأ بمرحلة الرغبة.

العلاقة التي تبدأ بمرحلة الرغبة من غير وجود مؤثرات خارجية أو داخلية معلومة يمكن أن نطلق عليها العلاقة الهرمونية, استنادا على أن المحرك الأكبر سيكون التوتر الهرموني, مع عدم نفي وجود عوامل أخرى لكنها ليست المؤثر الأساسي.

أيضا يمكننا للتعريف و الشرح فقط بتقسيم العلاقات التي تبدأ بمرحلة الاستثارة إلى نوعين: الأولى التى تنبع من استثارة حسية فيزيائية, و يمكن أن نسميها العلاقة المادية الجسدية, وبين التي تنبع من الاستثارة العاطفية, و تسمى بالعلاقة الرومانسية العاطفية.. ولا ينفي هذا وجود جانب عاطفي في العلاقة المادية, أو خلو العلاقة الرومانسية من الجانب الحسي للإثارة, لكن ورد التعريف ليحدد العامل الأكثر تأثيراً و تشكيلاً لتلك العلاقة.

إذن من الناحية التركيبة و تفاعلاتها يمكن أن نرى ثلاثة تجليات أو أنماط للعلاقة الجنسية, هرمونية و جسدية و نفسية, رغم أنه قد لا يشعر بأي اختلاف ظاهري و ليس هناك فرقا في التغييرات الفسيولوجية المصاحبة و ما يشعر به الفرد أثناء ممارسة الجنس.

الإختلافات بين هذه الأنماط تظهر في تأثيرها على جوهر العلاقة, من درجة قوتها و طريقة استمراريتها و نوعية تطورها هبوطا أو صعودا مع الزمن.

كل فرد على حسب وعيه و ثقافته فنجد أن أحد هذه الأنماط الثلاثة هي التي تشكل حياته الجنسية, و يمكننا أن نصفه بالنمط السائد مع عدم اختفاء أو غياب الأنماط الأخرى من حياته الجنسية تماما. فمثلاً الذي تسود حياته الجنسية النمط الهرموني, لا يعني أنه لا يحدث أن يكون للنمط الرومانسي أو المادي الحسي دور أو غائباً بصورة كاملة من حياته الجنسية.

العلاقة الجنسية الهرمونية

العلاقات الهرمونية تعتمد على عوامل فيسيولوجية في المقام الأول, و تؤدي إلى التوتر الهرموني الذي يحرك الغريزة. هذا التوتر الهرموني ينتج من تراكم فسيولوجي تحكمه عوامل متشابكة من عمر الفرد إلى مستوى الهرمونات و الحالة الصحية و نوع الغذاء و عوامل أخرى كثيرة.. مثالا لذلك, نجد أن التوتر الهرموني يصل إلى قمته في بداية مرحلة الشباب ويبدأ بالتناقص التدريجي مع الزمن. لقد اهتم التراث الإنساني محاولا المحافظة و الاستزادة من هذا التوتر الهرموني باعتبار أنه كان يمثل رمزا للقوة و الفحولة عند الرجل و الأنوثة و الخصوبة عند المرأة. عظم الاهتمام بهذا النمط, و ظهر علم يبحث في العوامل التي تحافظ على قوة التوتر الهرموني و اكتشاف الأدوية و الأعشاب و الأغذية التي اعتبرت مقوية و محفزة للشهوة الجنسية أو الأفروزودياك, و بها كثير من الدجل و الأساطير غير العلمية. لذا نجد أن الإرث الجنسي الشعبي دوما لديه تقدير لبعض أنواع الأطعمة و الأعشاب التي يؤمن الكثيرون بفاعليتها في ازدياد الرغبة و النشاط الجنسي.

النمط الهرموني يمكن أن نقول إنه الأقرب للجانب البيولوجي الذي يربطنا بمملكة الحيوان, التي يحكمها التوتر الهرموني لممارسة الجنس.

إذن يمكن القول إن النمط الهرموني هو الجانب البيولوجي أو الفطري في الطبيعة البشرية, و هو الأرضية التي يجتمع عليها كل البشر, و قاعدة الهرم التي ينطلق منها كل فرد حسب ثقافته و وعيه. فمنهم من يستمر على تَبَنِّي هذا النمط ليمثله و يتطابق مع رؤيته الفكرية و النفسية, والبعض ينطلق ليجد ضالته في النمط المادي الحسي أو النمط الرومانسي.

العلاقة الجنسية الحسية

النمط الحسي نجده يعتمد على المؤثرات الجنسية في بداية العلاقة, وقد تكون هذه المؤثرات خيالية أو واقعية. يلعب الخيال و التفكير دورا واضحا في تهيئة الفرد و وضعه في مرحلة الاستثارة. أما الاستثارة الواقعية فهي التي ترتبط بالمؤثرات الجنسية, و التي قد تكون مرئية أو مسموعة

أو خلال حاستي اللمس والشم, و كلاهما كفيلتان بأن تهيئ الفرد و تبدأ سلسلة التغييرات الفسيولوجية المرتبطة بمرحلة الإثارة. وكل المؤثرات في هذا النمط نجدها مرتبطة بالعملية الجنسية نفسها و لا تنفصل عنها, مثلاً نجد أن النظر يكون لأعضاء و السمع لإيحاءات لها دلالة جنسية و مرتبطة بها.

العلاقةالجنسية الرومانسية

في النمط الرومانسي أو العاطفي نجد المؤثرات لها علاقة مباشرة بالعلاقة الجنسية, و ليس لها ارتباط جسدي. نجد مثالاً للمؤثر في النمط الرومانسي أحاسيس المحبة و الشوق و الأمان. هذه الأحاسيس كما هو ظاهر ليس لها علاقة مباشرة بالعلاقة الجنسية. فالمؤثرات العاطفية تقود الطرفين لمرحلة من التوتر و الاحتياج العاطفي يقود الفرد ليعبر عنها جسدياً. هذا التعبير الجسدي يصبح هو بداية التغيير الفسيولوجي في مرحلة الاستثارة. إن الفرد إذا غاب عنه صديق لمدة يوم فعادة ما يعبر عن افتقاده له لفظيا أو بحركة من على البعد, و إذا غاب الصديق مثلاً أسبوعاً فيعبر عنه بالمصافحة, أما إذا غاب لمدة شهور فإن مستوى الشوق يستدعي التعبير عنه بالعناق و الأحضان,و إذا غاب سنين فلا يُستغرب أن يكون التعبير أحضانًا لمدة أطول مصحوبة بالدموع. إذن كلما ازدادت حدة المشاعر أو زادت حدة التوتر العاطفي تحتاج لمستوى أقوى حميمية في التعبير الجسدي. هذا هو تماما ما يحدث في النمط الرومانسي, حيث يصل الطرفان إلى قمة الاحتياج للمشاعر الذي يرفع من مستوى التوتر العاطفي لدرجة يفتح الباب للتعبير عنه جسدياً, وهنا تنتقل العلاقة من بدايتها العاطفية ليبدأ التعبير عنه جسدياً أو من خلال العلاقة الجنسية.

العلاقةالجنسية في تطورها تكتسب بعض المفاهيم و الممارسات والتقاليد تختلف من شخص لآخر. إن هذه التقاليد المكتسبة و المضافة لا تأتي من فراغ, و لكنها تعكس ثقافة المجتمع و وعي الفرد و إلى أي درجة

ساهم بصورة واعية أو غير واعية في تكوينها. هذه المفاهيم تساهم بصورة أساسية في تطور العلاقة و مدى نجاحها أو فشلها في أن تحافظ على استمراريتها كمكون إيجابي يضاف لعمق علاقة الحب, و يساهم في ازدياد مستوى الترابط و الرضا عن العلاقة.

من هذه المفاهيم سنتطرق إلى مفهوم العلاقة كهدف.. العلاقة كدور اجتماعي.. و العلاقة كوجبة جنسية.

التساؤل الذي يطرح نفسه هل الجنس هو هدف في ذاته أم وسيلة لتحقيق هدف ما؟

الجنس بمستواه البيولوجي هو وسيلة للتكاثر و الإخصاب, ونجد هذا هو السائد في المملكة الحيوانية. أما على مستوى الإنسان فإن الجنس ليس مجرد وسيلة, بل هو هدف في ذاته في نفس الوقت. فإذا ضربنا مثلاً عن غريزة الأكل, فإن إشباع الغريزة في ممكلة الحيوان وسيلة للنمو والبقاء, بينما نجدها في مملكة الإنسان تتجاوز ذلك الهدف و لا تلغيه, و تعطيه بُعداً ليصبح الأكل وسيلة في جزء منه و هدفا في ذاته, يستمتع الإنسان به و يتفنن في طرق إشباع هذه الغريزة. الجنس لا يختلف عن كونه وسيلة للإنجاب و التكاثر, و لكنه أيضا يصبح هدفا في ذاته يستهدفه الإنسان للحصول منه لقدر من الحسية و الجسدية والمتعة النفسية و الحميمية. رغم أنه لا يكون مقصودا كهدف محسوس, و لكن مع الممارسة يظهر ارتباط الممارسة الجسدية الناجحة بازدياد المشاعر الإيجابية من محبة و قوة في العاطفة.

إذن تظهر الأزمة في العلاقة و تظهر جرثومة التدهور عندما يكون الهدف هو الإمتاع و الإشباع الجسدي في غياب المكون النفسي و العاطفي. حين تصبح المتعة الجسدية هي الهدف, قد يفتح الباب بأن يعيش الفرد على أمل أن يستمر التوتر الهرموني بنفس المستوى كحاجة دائمة لا تتأرجح بين الأيام, و لا تتأثر مع الزمن. هذا الفهم البيولوجي يجعل الفرد يسعى دوما

إلى المحافظة على مستوى توتره الهرموني على درجات عالية, فنجده يبحث عن الحيل و الوسائل و يتصيد أنواع الطعام المحفزة و يسعى للحصول على الأعشاب و الأدوية المُهيجة, و التي تجعل ماكينة الجنس دوما دائرة و نيران الرغبة دوما ملتهبة. لا يخفى على أحد أن ذلك من الاستحالة بمكان, لأن التوتر الهرموني عملية فسيولوجية تأخذ دورتها لتكتمل, و هذه الدورة تتأثر بعوامل متعددة من العمر والصحة و النشاط و التركيبة النفسية. لذا يصبح من المستحيل أن يكون جسد الفرد مثل الماكينة التي لها بطارية للطاقة الجنسية يستطيع شحنها بأطعمة أو مواد كيميائية لتعمل ببرنامج و نشاط جنسي ثابت أو حسب الطلب. نجد أن أصحاب هذه النزعة تغلب عليهم الذاتية في علاقتهم الجنسية, و يكون هاجسهم تحقيق مرحلة النشوة الجنسية مع ضعف اهتمامهم باحتياجات الطرف الآخر, بل و استعداده في المقام الأول. هذا الفهم أكثر شيوعاً وسط الرجال, و عادة ما يغلبه الفكر الأحادي الذي يتعامل بعقلية أن الجنس حق له, فإذا طلبه فلابد للزوجة من الاستجابة. هذا النوع من الفهم يقود لكثير من المشاعر السالبة تجاه الجنس, بل قد تصل إلى أن تكون ضد الزوج إلى درجة البرود أو الكراهية, و مهما حاولت الزوجة تغطيتها أو تجاهلها فإن مصيرها أن تؤثر على العلاقة الجنسية بين الزوجين و العلاقة العاطفية.

حين نتطرق للعلاقة الجنسية كسلوك اجتماعي فإننا لا ننكر وجود هذا الجانب, و لكن ما نقصده هنا عندما يتضخم الدور الاجتماعي لتصبح للعلاقة الجنسية تلعب دورا اجتماعياً محدداً و ليس أصلا متجذرا فيها أو جزءاً من مكوناتها.

من المهم أن نتطرق لدور اجتماعي نشاهده كثيراً ما يتسلل لمعظم العلاقات ليصبح جزءاً منها عند قطاعات كبيرة, ألا وهو الدور «الجندري» أو الوظيفي في تحديد قيمة الذكورة و الأنوثة للرجل والمرأة.

ارتباط الجنس بالإنجاب جعل لذلك قيمة معلومة في المملكة الحيوانية,

و ارتفاع قيمته لازدياد فرصة الإخصاب و التكاثر. في تطور التاريخ كانت هذه القيمة موجودة عند البشر و افتخارهم بأعداد القبيلة و كبر العائلات الممتدة, و ذلك لدورها في عمليات الإنتاج و دورها في الحرب و الحماية. ثم حدث تراجع الحاجة لكثرة العدد, إذ أصبح الأمن و الحماية مسؤولية الدولة و تدني العائد الاقتصادي مع تراجع اقتصاد الطاقة العضلية و كثرة الأيادي, فأصبح الأمر غير مرتبط بضخامة الأسرة, بل صار صغر عدد الأسرة أكثر عائداً و الأفضل اقتصادياً.

في العقل الاجتماعي ما زالت صورة الرجل هي المرتبطة بالقوة الجسدية و معها صورة الفحولة الجنسية. يرسم العقل الشعبي للفحولة الجنسية معايير تتمثل في حجم القضيب, طول زمن العلاقة الجسدية و كميتها, وهي علاقة طردية أي كلما ازداد أحد هذه العوامل ازدادت صورة الفحولة أو مقدار الرجولة لهذا الفرد.

نجد أن العلاقة بين هذه المعايير الاجتماعية و الحقائق العلميه شبه منتفيه, ان لم نقل أحيانا العكس هو الصحيح. كل الدراسات النفسية و الفسيولوجية قد أثبتت أن نجاح العلاقة ليست لها صلة بحجم القضيب, بقدر ماهي مرتبطة بالاستعداد النفسي و التوافق الفسيولوجي بين الطرفين, و تَفَهُّم التركيبة الفسيولوجية للمرأة التى تحتاج إلى فترة أطول لتصل لمرحلة الرعشة. في بعض الحالات التي يكون حجم القضيب أكبر من الأحجام العادية هذا قد يقود لآلام و تقرحات مهبلية تقلل من الاستمتاع بالعلاقة عند المرأة. إن طول مدة العلاقة الجسدية نفسها ليست مرتبطة بنجاح العلاقة أو مستوى رضا الطرف الآخر. كما أن عدد المرات ليس معياراً للنجاح, فكمية العلاقة ليس ما يبحث عنه الطرف, بقدر ما يبحث عن النوعية. نلاحظ أن كل هذه العوامل تربط نجاح العلاقة بإمكانات الرجل, ولا تضع في الحسبان واقع الشريك و دوره في العلاقة و توقعاته, لذا نجدها تقنن للفهم الذاتي الذي يتمحور في دور

الرجل المطالب بالدور الإيجابي و الذي تعتمد عليه العلاقة, بينما على المرأة الدور السلبي و المتلقي فقط.

ارتباط العلاقة الجنسية بتقدير الرجل لذاته و صورته وثقته في نفسه و إلى درجة كبيرة أيضا صورته عند الآخر جعلته يسعى دوما لإنجاحها لتوفر له التوازن النفسي والتقدير عند الشريك. وما دامت هذه العوامل في الذهنية الذكورية و إلى درجة عند المرأة, يصبح هاجس الاستزادة منها لتثبيت صورته الذكورية كشخص متكامل الرجولة. هنا تصبح العلاقة الجسدية وسيلة لإثبات الذات الاجتماعية و الثقة بالنفس. هذا يقود إلى أن تصبح العلاقة في بعض الأحيان تمارس لتحقيق هذا الدور بدرجة أو بأخرى, لتدخل في عقلية الرجل أهمية أن يمارس الجنس بصورة محددة و نسبة محددة, بغض النظر عن رغبته الطبيعيه بذلك أم لا, و يكون جزءاً من دافعه إثبات رجولته, و إلى درجة أن يكون خوفاً من أن يُتهم في ضعف أو تدهور في رجولته مع الزمن أو العمر. هنا تصبح العلاقة ليست رغبة أصيلة, بل واجب مفروض على الرجل ليحقق به مكسب أو دور اجتماعي أو المحافظة على هيبته الذكورية.

ارتباط الجنس بعوامل خارجية ليس حكراً على الرجل, فالمرأة أيضاً لها من ذلك نصيب. في مدار التاريخ وسيادة السلطة الذكورية المرتبطة بالعنف والقوة الجسدية, كان من الطبيعي أن تستغل المرأة حاجة الرجل لها كقاعدة تبني عليها قوتها, فأصبح الضعف الأنثوي هو القوة المقابلة, و الجنس هو السلاح الذي تستعمله للسيطرة و تحقيق وجود و مركز للقوة. كم ذكر التاريخ من زوجات و عشيقات كُنَّ يحركن واقع الحياة السياسية و إدارة الدولة من مخادعهن أو بعلاقتهن بصاحب السلطة. هذا الدور رغم تراجع الاعتماد على القوة العضلية أو الضعف الأنثوي لتحقيق سلطة اجتماعية, إلا أن هذا الأثر ما زالت بصماته واضحة حتى الآن. حيث ما زالت كثير من النساء يستعملن الجنس كوسيلة أو عامل قوة لتحقيق

جزء من سلطة أو من أحلام قصيرة المدى في علاقتها مع زوجها. هنا يبدأ الجنس بفقدان عفويته والعلاقة الطيبة و صدقها لتصبح مطية إن لم تكن تمثيلية أحيانا لتحقيق مكسب اجتماعي محدد. هذا العامل الجديد جعل من الأنوثة و مقدرات المرأة الجنسية عاملاً مؤثرا في تقديرها لذاتها, فكلما ازدادت إمكاناتها في لعب هذا الدور و حققت معه مساحات من السيطرة على أحلامها و واقعها, ازداد إحساسها بالرضا و الثقة بالنفس. لذا تكون دوماً مهمومة بأن تحافظ على علاقتها الجسدية بوتائر متباينة لا يحددها فقط إحساسها العفوي و العاطفي, بل يحكمها أيضا أن تحقق بها دورها الاجتماعي في السلطة و محافظة لثقتها في نفسها بأنها مازالت مرغوبة, و أنها تملك جزءاً من مفاتيح السيطرة.

في بعض الأحيان يكون الجنس و المتعة الجسدية مخدراً لألم نفسي و وسيلة لتجاوز مساحات من الاختلاف, أو مكافأة على رضاء الآخر. أيضا قد تكون في بعض الأحيان مستندة على أرضية من الخوف من أن الطرف الآخر إذا لم يكتف من جانب إشباع رغباته قد يقوده للتفكير في شخص آخر أو في الخيانة. نجد في كثير من الأحيان قد تبدأ العلاقة الجسدية من طرف و الطرف الآخر لا يستطيع الإفصاح عن حقيقة عدم الرغبة والحماس, و ذلك أحيانا خوفا من جرح مشاعر أو غضب الطرف الآخر.

كل هذه النماذج و الممارسات المختلفة بصورة أو بأخرى تؤدي إلى أن يفقد الجنس جزءاً من معناه تدريجياً, إما لاكتسابه دوراً أو وظيفة جديدة مختلقة متكلفة, أو أنه أصبح واجباً لا فكاك منه ففقد جزءاً كبيراً من عفويته و الحماس الطبيعي له.

في العلاقة الجنسية الحسية نجد أن الإثارة ترتبط بتحريك المؤشرات الجسدية المرتبطة بالجنس, من خلال الأجهزة الاستقبالية في حواس الفرد من نظر و سمع و لمس وشم. تنطلق الإشارة من خلال هذه الاجهزة لتهيئة العقل و الاستعداد لعلاقة جسدية, و ذلك بتحريك دائرة الاستجابة

الجسدية التي ذكرناها من إفرازت هرمونية و كيميائية و تغيرات جسدية تضع الجسد في حالة التحفز الجنسي أو الاستثارة.

المثيرات الجنسية قد تكون مرتبطة بالجنس تركيبياً أو ارتباطياً، أي أن المؤثر قد يكون هو العضو الجنسي عند الطرف الآخر أو دعوة جنسية لفظية أو حركية واضحة. أيضا المؤثر قد يكون عضواً غير جنسي أو سلوكا ليس له علاقة مباشرة بالجنس، إنما يتم ارتباطا في عقل الفرد بين المؤثر و الجنس. هذا الارتباط قد يكون ذاتيا و مرتبطاً بالآخر، أو خارجيا و مرتبطاً بالمجتمع و مفاهيمه. خير مثال للمؤثر ذي الارتباط الذاتي هو بعض أجزاء جسد المرأة التي ليس لها علاقة بالعملية الجنسية، و مثال ذلك شعر المرأة، حيث نجد أن البعض قد يراه مثيراً و يقود لتحريك دورة الاستثارة و الاستجابة الجسدية. يمكن لأي جزء أن يمثل نقطة إثارة رغم أنه ليس عضوا جنسياً في تركيبه، من الأيادي أو القدمين أو الرقبة أو البطن. إن الربط بين هذه الأعضاء و العلاقة الجنسية تتباين بين الشعوب وبين كل فرد و آخر. فمثلا بعض الشعوب لا تجد أي إثارة جنسية في شعر المرأة أو عنقها أو بطنها، لذا لا تسعى لإخفائها، و يعتبر جزء من الزي المقبول اجتماعيا لكشف هذه الأجزاء. بينما نجد مجتمعات أخرى لا تقبل بكشف هذه الأجزاء بما لها من دلالات جنسية عند أفراد هذه المجتمعات. إن في داخل المجتمع الواحد نجد تباينا ثقافيا بين المناطق الجغرافية، أو في مستوى التعليم و الثقافة في تحديد أي من أجزاء المرأة ذات مدلول جنسي من عدمه. بل حتى للفرد نجد تباينا في تقييمه بين موقف و آخر، فمثلا كشف بعض أعضاء الجسد في الشواطئ و أحواض السباحة و الميادين الرياضية لا يعتبر ذو دلالة جنسية، بينما إذا لبست مثل هذا الزي لمواقع العمل لكان للكثيرين مؤشراً أو أصبح يحمل مدلولات جنسية. إذن حتى الوضع الذي ينكشف فيه الجسد له دوره في تحديد كيفية استقباله من الطرف الآخر، فمثلا عندما تكشف المرأة جسدها للطبيب تصبح

أعضاء جسدها خالية من المدلولات الجنسية و محكومة بصورة المريض و ليس بصورة الأنثى. مثال آخر في واقعنا الاجتماعي نجد أن بعض النساء المرضعات لا يتحرجن في إرضاع أطفالهن أمام الآخرين, و لا يرى الآخرون غضاضة ولا إشارة جنسية في ذلك, رغم أن نفس هذه المرأة لو لم تكن في لحظات الرضاعة لمنعها الحياء و المجتمع من الكشف عن صدرها, ولو فعلت لاعتبرت إشارة جنسية و لتقبلها الآخرون على هذا المعنى.

الواقع يوضح أن أعضاء الإثارة غير الجنسية تفقد تأثيرها مع الزمن نتاجا لعملية التعود. إن عملية التعود هي رد فعل فسيولوجي طبيعي موجود في تركيبة الجسم البشري. فمثلا الذي يخاف من مشاهدة قطة متوقعا في خياله أنها ستهاجمه سنجد رد فعل طبيعي منه, مثلا أن يتفاعل جسده في لحظات الخوف بتحفيز الجسم للهرب أو الدفاع عن نفسه بضخ دماء أكثر و زيادة الأكسجين و تقلص العضلات, و يصاحب الخوف ازدياد في ضربات القلب و سرعة التنفس و الاستعداد العضلي. مع مرور الزمن و اكتساب الثقة في أن القط لن يهاجمه, فإنه لا يحتاج لتحفيز و استعداد, و لا يكون هناك حاجة لزيادة في الطاقة, لذا لا تظهر عليه أي انفعلات و لا تتغير تركيبة جسمه, فلا نبض يتسارع ولا تنفس يزيد. هذا التعود هو قانون لكل أنواع ردود الفعل الفسيولوجية التي يكتشف الجسم أنه لا يحتاج للاستعداد لها, ولا حاجة لتحفيز الجسم لاستدعاء طاقة أكثر. إن ظاهرة التأقلم الفسيولوجي تحدث أيضا على مستوى العلاقةالجنسية,

حيث نجد أن الزوج الذي مع الزمن يرى أجزاء من جسد زوجته في خلال اليوم وهي تتحرك في منزلها بعفوية لا تفكر في علاقة جنسية و لا ترسل بهذا الزي أي رسائل جنسية, فمن الطبيعي مع الوقت أن تصبح هذه الأجزاء محايدة بالنسبة له و خالية من الإثارة و التحفيز الجنسي.

هذا الحياد وعدم التأثر لبس مطلوبا دائما, و تصبح القضية كيف يمكن أن تكتسب هذه الأجزاء من الجسد بعض الإثارة في لحظات حميمية مع

الزوج و بُعداً جنسياً؟ وما الذي يجعل الجسد الذي لا يثير ولا يرسل أي مؤشرات جنسية خلال اليوم أن يتغير و يصبح مؤثراً و مركز إثارة جنسية؟. هنا تعتمد المرأة على إعادة تهيئة العقل و استثارة التكوين الثقافي الجنسي للرجل, و ذلك بفتح مواقع الإثارة المكتسبة من تجارب و من ثقافة الفرد بإضافة مؤثرات ذات مدلول جنسي لترتبط بالجسد و تُعطيه بعدا جنسيا. مثلا في الثقافة السودانية نجد بعض أدوات الزينة مثل الدخان و الدلكة و الخمرة كلها قد ارتبطت بالجنس, لذا فهي مرتبطة بحالة نفسية و فكرية لدى الرجل تجعلها قادرة على فتح أبواب الاستثارة و الاستجابة الجسدية لنداء الجنس. المرأة باستعمالها هذه الإضافات الخارجية إنما هي تسعى لتضيف لجسدها تأثيراً جنسياً أقوى ليستعيد ما فقده بالتعود. كما هو متعارف في الثقافة الذكورية, فإن هذه الإِضافات يُنظر إليها بأنها تمثل بهارات العلاقة, و رغم ابتذال الوصف لكنه يعكس الرؤية للآخر كوجبة بدأ يفقد مذاقها مما اضطررنا لإضافة البهارات لتصبح مستساغة.

أزمة هذه الإضافات تقود لأن تُفقد العلاقة جزءاً كبيراً من ذاتيتها و خصوصيتها, فبدلا عن أن تكون العلاقة بين اثنين بل أصبحت بين ثلاثة, هما شخصان و آخر في الخيال المصنوع من الأحلام و التحفيز الاجتماعي. هذا التقسيم الثلاثي يقلل من خصوصية العلاقة و ارتباطها حصريا بالآخر, بل لتصبح علاقة بين الزوج و زوجته و ما يحمله من ذكريات و خيالات. لذا ليس مستغربا أن يُستثار الرجل بهذه المؤثرات من دخان و دلكة و خمرة أين ما وجدت حتى في غياب شريكة حياته. و كما تذكر الطرفة الشعبية عن قوة هذه المؤثرات بأنه لو وضعتها على شجرة ستجد أن هذه الشجرة ستهيج الرجال أصحاب العقل المبرمج, و تحرك فيهم دورة الاستجابة الجنسية.

الجنس ليس علاقة تركيبية بالزواج, ففي بعض المجتمعات قد تدوم العلاقة الجنسية بين شريكين مدى الحياة دون أن يجمعهما عقد الزواج.

هذا الفهم لا يتطابق مع مجتمعاتنا المحافظة التي تعتبر الزواج هو الإطار الوحيد للعلاقة الجسدية. هذا الارتباط قد خلق كثيراً من الارتباط بين المفهومين, و يفرض علينا قراءة ظاهرة الزواج و تحليل عواملها و تحديد مواقع ارتباطها بالعلاقة الجسدية.



الفصل الثامن

الزواج



الزواج

لا يحتاج الزواج لتعريف علمي مُعَقَّد فهو معلوم بالمعايشة كمؤسسة اجتماعية و تطور طبيعي في علاقات الحب, و كوحدة أساسية في بناء المجتمع و تركيبته.

اتفق علماء النفس على أنه رغم قِدم مؤسسة الزواج و انتشارها في كل المجتمعات, لكننا حتى الآن نجدها تفتقر لكثير من القوانين الواضحة والعوامل المعلومة التي تساهم في نجاحها أو فشلها.

إن أي علاقة بين طرفين نجد أن لها إطاراً يحكمها, بعضها متجسدة في لوائح و قوانين مكتوبة و أخرى في قيم في الصدور دينية و أخلاقية تؤسس له, و تحدد حقوق و واجبات الطرفين.إن علاقة الزوجين أيضا ينطبق عليها هذا المعيار و لها حزمة من الواجبات و الحقوق للزوج و للزوجة.

رغم أننا نجد البعض قد يتفقون على القيم الكبيرة و القوانين العامة التي تحكم العلاقة بين الزوجين من الإحترام والمسؤولية المادية و الاجتماعية والمعاشرة الجسدية, لكن للأسف نجد أن هذا الفهم العام لا يمنع من وجود كثير من الاختلافات في تفسير هذه القيم, حيث أن لها تفسيرات مختلفة عند كل زوج, و لها حدود و سقف قد يختلف بين الطرفين لدرجة قد تفقد هذه القيم معناها الأصلي تماما.

مفاهيم الزواج الأساسية رغم قدمها في التاريخ فإنها ليست ثابتة بل في تبدل و تطور مع الزمن. هذه التغيرات ليست بالضرورة محكومة بالتقدم العلمي و الموضوعي.. و حتى إذا ساهم العلم في تشكيل جزء من المفاهيم, لكننا حتما سنجد أن هناك مؤثرات كثيرة تساهم في تشكيل مفاهيم و قناعات الزوجين. يمكننا أن نقسم هذه المؤثرات إلى أربعة عوامل رئيسة هي نفسها متداخلة مع بعضها البعض.

(١)الثقافة و التقاليد و مفاهيم الزواج

العامل الأول الذي يشكل وعي الزوجين هو الثقافة و التقاليد التي تتشكل من إرث اجتماعي و ديني يرسم مفهوم الزواج و دور الزوج و الزوجة في داخل هذه العلاقة. لا يخفى على أحد اختلاف الثقافات في النظر للزواج, و التي لم تنبع من فراغ بل تشكلت باحتياجات مجتمعها الاقتصادية و الاجتماعية. لذا حتى في داخل الوطن الواحد نجد هذا التباين بين كل مجموعة جغرافية أو إثنية أو أخرى. فمفهوم الزواج و دور الزوج و دور الزوجة في ثقافات الرشايدة و البقارة و الفور و الجعليين تجد تباينا واضحاً بين كل قبيلة أو مجموعة إثنية.

(٢)الأسرة و المجتمع و مفاهيم الزواج

العامل الثاني المؤثر هو دور الأسرة و الأصدقاء و تأثير التعلم بالاحتكاك و التربية و المعايشة. لا يخفى أن لكل أسرة ظروفها و تقاليدها التى ينشأ فيها أطفالها و يتشبعون بمفاهيمها و يرسمون تصورات عن الزواج باعتبار أن هذه هي الصورة الطبيعية, و التي تصبح كأنها قانون داخلي يحدد لهم الطريقة التي بها يعيشون علاقاتهم المستقبلية.

(٣) الإعلام و مفاهيم الزواج

العامل الثالث في تشكيل مفاهيمنا هو الإعلام الذي ينقل لنا ثقافات دول العالم الأخرى, مما يغرس في ثقافاتنا و وعينا قيم جديدة, ومفاهيم و تصورات جديدة لمفهوم الأسرة و الزواج.

(٤)الأحلام و الخيال ومفاهيم الزواج

نجد العامل الرابع المؤثر هو أحلامنا الذاتية و خيالنا, فكل فرد يعيش مرحلة حرمان عاطفي و جسدي تبدأ تُعشعش في دواخله صور زاهية تمتزج فيه الحقيقة و الخيال للزواج باعتباره المحطة التي سيشبع فيها الفرد كل حرمانه, و الجنة التي سيستقر فيها في نعيم جسدي و عاطفي.

هذه العوامل الأربعة تؤثر على كل فرد بصور متفاوتة, و تتمازج مع جزء من النظرة الواقعية و العلمية لتشكل مفهوم الزوجين للزواج و الأسرة.

الزواج كمرحلة جديدة

الزواج في تعقيداته و تداخل المفاهيم في تشكيل وعي الزوجين لا ينبع فقط من أزمة تباين المفاهيم عند الطرفين, بل يساهم أيضا بصورة ملحوظة في واقع الزواج باعتباره مرحلة جديدة تختلف في قوانينها عن قوانيننا التي تحكم شخصيتنا و ما تعودنا على القيام به قبل الزواج. لذا تصبح الأزمة ليست فقط في فهم قوانينه, بل أيضا إلي أي درجة نحتاج أن نتغير حتى نستطيع التأقلم مع الواقع و احتياجاته.

(١)الزواج والتغير في الأدوار

أول هذه المتغيرات في الواقع الجديد هو التغيير في الأدوار, حيث اكتساب الفرد لوظيفة الزوج و الزوجة تأتي و معها واجبات جديدة وحقوق جديدة يجب الانتباه إليها والقيام بها. فلا يمكن أن يعيش الزوج بعقلية العازب و مسؤولياته بدون أن يتغير دوره ليحمل على كاهله مسؤوليات بيت الزوجية, و ينطبق هذا الواقع على الزوجة بنفس القدر. إن فشل أي من الطرفين في التغيير لتتناسب شخصيته مع واقعه الجديد سيساهم سلباً في استمرارية العلاقة و تحقيق أهدافها.

(٢)الزواج و التغيير في الحدود الشخصية

العامل الثاني هو التغيير في الحدود الشخصية و مجالات التعامل و مساحاته, إبتداءً من رسم الحدود مع الطرف الثاني, فيبدأ الفرد بإزالة الحواجز و تضييق مساحات الحرية و أبعاد الحدود الشخصية لتستوعبه و لتسمح له بالدخول في عالم الشريك.. كما أن الزوجين سيبدآن في إنشاء دائرة حدودهم الشخصية التي تجمعهم كزوجين, و بها يتعاملان مع الآخرين كوحدة واحدة.. سيرسمان الخطوط الحمراء التي يعيشان

فيها و لا يسمحان لفرد من الاقتراب منها, و تسمي خصوصيات الأسرة, و رسم الدوائر التي تسمح للآخرين بالاقتراب حسب العلاقة. هذه الحدود الشخصية الجديدة مهمة في العلاقة لأنها تساهم في ذوبان ذاتية «الأنا» عند الفرد , و بناء ذاتية «نحن» أو ذاتية الزوجين ليصبحا كوحده واحدة.

(٣)الزواج و القوانين الجديدة

الواقع الجديد يأتي ليس فقط بمفاهيم جديدة, بل بقوانين جديدة. فما قد كان مقبولا منك كعازب قد يصبح محرما عليك كزوج, والذاتية التي كانت تعطيك الحق في التصرف و اتخاذ القرارات, تنتفي ليحل محلها قانون التشاور مع طرف آخر قبل اتخاذها. هذه القرارات قد تتباين من الرغبة في الحضور المتأخر للمنزل إلى الرغبة في تغيير وظيفة أو الانتقال لمدينة أخري. إن الواقع الجديد تتفاوت فيه درجة التشاور بمقدار تقلص ذاتية «الأنا» و استبدالها بذاتية الزوجين كوحدة واحدة, فنرى التفاوت بين التشاور على مستوى الندية للوصول لرأي مشترك, إلى مستوى التشاور لباب العلم فقط و قد نجده معدوماً نهائياً عند البعض.

(٤)مرونة التعامل مع المستجدات في الزواج

العامل المهم في هذا الواقع الجديد الذي يحتاج إلى التأقلم معه هو مرونة التعامل مع الواقع نفسه بكل تقلباته و مسؤولياته الجديدة التي لاتأتي كما نشتهي, ولا نستطيع الإغفال عنها أو تناسيها خاصة إذا كان الواقع ليس كما كنا نتوقعه و خاصة إذا أتى بكثير من المتغيرات, أو اكتشفنا في يوم بعداً جديداً في شخصية الزوج أو الزوجة في طباعه و تاريخه أو معارفه. أيضا قد نصدم عند اكتشافنا لأبعاد جديدة في شخصيتنا و مقدرتنا على التعايش مع شخص آخر و مواجهة عقبات و متطلبات جديدة لم تكن في الحسبان.

هذه العوامل الذاتية و الموضوعية ليست بالضرورة أن تكون عقبات, بل هي تجارب و مواقف موجودة في كل زواج بدرجات متفاوتة. كل زوجين قد

يختلف تقييمهما لاهميتهما, بل قد يختلف الزوجان فيما بينهما في أهمية أحد العوامل مقارنة بغيرها.. هي حقل ألغام قد تنفجر في طريقك و في مسيرة الزواج في أي لحظة, لذا من الأهمية بمكان أن يعلم الزوجان بهذه العوامل و التجارب قبل انفجارها. حيث أنها تمثل بؤراً للتوتر و الاختلاف, من الأفضل توقعها و الترتيب لها لأنه ليس هناك حل جاهز يناسب كل الأزواج.. وليس بالضرورة أن يصل الطرفان لحل لكل هذه العقبات و التساؤلات, لكن بالضرورة المعرفة بوجودها و فتح أبواب التحاور بينهما للسعي من أجل الوصول لإجابات ترضي الطريفين, أو بالحد الأدنى احترام قناعة الطرف الآخر و تفهم موقفه و الاتفاق على كيفية التعامل معه. هذه التجارب والمتغيرات أسميناها منحنيات في درب الزواج و قد تطرقنا إليها بقليل من التفصيل في الفصل الثالث.

الزواج و مراحل التطور

الزواج مثل أي علاقة في الدنيا لا يمكن أن تكون جامدة أو ثابتة في وضع واحد. إن السكون والجمود يتنافى مع ديناميكية العلاقات المرتبطة بوجود شخصين و عوامل متعددة تتداخل مع بعضها البعض.

العلاقةالزوجية تمر بمراحل نمو وتطور مع الزمن بصورة تعكس التفاعل بين الزوجين في كل مرحلة. العلاقة مع الزمن حتما ستتأثر بتطور شخصية كل طرف و مدى ازدياد قربه و بعده من الطرف الآخر, مع العوامل و الظروف الأخرى التي صادفتها العلاقة.

حاول علماء النفس رسم ملامح عامة لتطور العلاقة الزوجية و صورة نموها مع الزمن. من الأهمية أن نوضح أننا عندما نتحدث عن الزواج هنا فإننا لا نفصله عن الحب, و لكن نشملهما كظاهرة واحدة باعتبارها الشئ الطبيعي, رغم إيماننا بأن كثيراً من العلاقات قد قامت دون الاستناد على الحب كأساس للزواج لكنها سعت لبنائه و استحضاره بعد ذلك.

نجد علماء النفس بادر وبيرسون(٣٣) قد قدما نموذجا مبسطا, و من

أكثر النماذج قبولاً و استعمالاً لشرح تطور العلاقة الزوجية, حيث قسما مراحل تطور العلاقة من بداياتها إلى نضجها إلى أربع مراحل هي:

(١).مرحلة التكامل السلس.

(٢).التكامل المتعرج.

(٣).التفرد.

(٤). التمازج.

هذه المراحل في تطورها تبدأ سيرها من المرحلة الأولى و هي مرحلة التكامل السلس بغية الوصول للمرحلة الأخيرة و هي مرحلة التمازج أو النضج. يمكننا أن نقول إن هذ الوضع الأمثل الذي يفترض أن يتحقق في كل الزيجات, لكن ليس كل العلاقات تصل لمرحلة النضج. أيضا يجب الانتباه إلى أن هذه المرحلة من التطور تسير في اتجاهين, فبقدر ما تسير العلاقات للأمام لكن في فترات من الزمن قد تتقهقر للخلف و تعود للمراحل السابقة. إن سرعة التحرك بين المراحل تختلف من علاقة و أخرى, و ليس غريبا أن نجد أن بعض العلاقات قد وقفت في مرحلة و فشلت في التحرك للمرحلة التي تليها.

هذا النموذج يعتمد على مفهوم أساسي و هو أن الزوجين في داخل العلاقة يحتاجان إلى التطور و تحقيق ذاتيهما المتفردة ليحققا التوازن في داخل العلاقة. هذا التطور رغم اعتماده على تطور عقلية الزوجين و نُضجهما مع الزمن, لكن جوهره أيضا يعتمد على التطور العاطفي و نمو مشاعر الحميمية.

(١).مرحلة التكامل السلس

هي المرحلة الأولى في الزواج, ونجد الترجمة الحرفية لها «مرحلة التكافل الحلو», و قد تغاضيت عن هذه الترجمة لأنني شعرت بأنها ترجمة حرفية لا تعبر عن جوهر المعنى, حيث وجدت أن التكامل السلس أقرب لفهم الظاهرة و شرح مكونات المرحلة.حيث تعبير الحلو قد يعطي انطباع غياب

المرارة و العقبات نهائياً, بينما في الحقيقة أن التكامل السلس لا ينفي وجود العقبات, لكنه يعكس سهولة الانسياب في التواصل و عدم الوقوف أمامها. هي مرحلة شهر العسل و امتداده, و تتصف بشدة القرب بين الزوجين و أقرب لها هو وصف الشاعر»روح واحدة في جسدين». في هذه المرحلة نجد أن الزوجين يخرجان من ظلام الحرمان العاطفي و الجسدي الطويل لواقع جديد أو جنة مضيئة يتوفر فيها الإشباع الجسدي والعاطفي. هذه النقلة من ظلام الحرمان و توتره إلى نور الإشباع و نعيمه في نظر الكثيرين سعادة تعمي الأبصار. لذا لا نستغرب عندما نجد في كل الثقافات تعبير «الحب أعمى». هي إشارة لتلك المرحلة التي نحتفي فيها بالآخر, تدهشنا ما نكتشف فيه من ميزات و نستمتع بما يقدمه لنا من إشباع و توازن إلى درجة تؤدي إلى التقليل من قيمة السلبيات و من حجمها. إن علم النفس و علم وظائف الأعضاء يفسران لنا ذلك بقانون التأثير الأقوى يُضعف أثر المؤثر الأقل, فالذي وصله خبر نجاحه أو فوزه بمبلغ من المال قد لا يشعر بطعنة دبوس. تضخم الإحساس بالسعادة في أيام الزواج الأولى ليس صدفة, و لم يأتِ من فراغ. إن الذات البشرية من خلال التاريخ قد تطورت و في دواخلها إحساس الاحتياج للآخر ليوفر له التوازن النفسي و إحساس الأمان. يمثل الزواج الإجابة المُثلى لهذا الاحتياج, حيث أنه في جوهره التزام اجتماعي و قانوني من إنسان مقدماً نفسه بكل طواعية بأن يكون معك دوماً لتكوِّنا وحدة جديدة تجمعكما, تتجاوزا فيها «الأنا» لتشكلا قيمة «نحن». هذا الذوبان لقيمة «الأنا» في الآخر هي جنة السعادة التي نسعى إليها بكل قوتنا يدفعنا حرمان السنين, لذا ليس غريبا في أن يسيطر علينا نور الأمل في تجاوز نقاط الاختلاف و تزيين نقاط التشابه و الالتقاء. إنما يزيد هذه المرحلة قوة و عنفوانا هو ارتباطها بتجاوز مراحل الحرمان الجنسي و توفير إشباع جسدي متواصل عند الطلب.لا شك أن تشابك الإشباع النفسي و الجسدي يجعل لهذه المرحلة المقدرة في خلق

طاقة إيجابية تتجاوز السلبيات بسلاسة و سهولة.

هذه المرحله نسبيا تكون أقصر من بقية المراحل, قد تطول لأسابيع و شهور, و نادرا ما تتجاوز العام إلا في حالات عدم وجود الزوجين سويا معظم الوقت. مع الزمن يبدأ الفرد بالتعود على الأمان الاجتماعي, و يبدأ إحساس وجود الآخر و شعور «نحن» يصبح واقعاً طبيعياً, فيفقد جزءاً من البريق و الدهشة. أيضا يبدأ إحساس السعار الجسدي في الاختفاء, و ذلك بدخول عامل جديد و هو إحساس الأمان و الطمأنينة بوجود شريك جنسي متوفر عند الطلب, فيبدأ الاطمئنان بأن ليل الحرمان الجسدي قد انتهى فيحل الهدوء محل التوتر و الاندفاع, و يبدأ تدريجيا اختفاء الجوانب الخيالية و انعكاساتها الذاتية و التجميلية على العلاقة.

هذه المرحلة كما ذكرنا تتميز بارتفاع وتائر الانفعال و الدهشة من اكتشاف الجديد و السعادة بإشباع الحرمان العاطفي و الجسدي. رغم قصر هذه المرحلة و رغم أن الخيال يشكل جزءاً منها, لكنها في الحقيقة تمثل واقعاً مهما في علاقة أي زوجين. حيث نجد أن البعض يصارع للعودة لعنفوان هذه المرحلة, لكن بالنسبة للأغلبية فإنها تمثل القاعدة القوية التي أسست لما يليها من مراحل, و التي تزرع الأساس و اليقين والشعور بالقوة المطلوبة للسير في مراحل العلاقة التالية.

(٢)مرحلة التكامل المتعرج

هي المرحلة الثانية والتي نجد الترجمة الحرفية لها «التكافل المر», و قد فضلتُ التكامل المتعرج. لقد اختير وصف هذه المرحلة بالمر مقارنة بالحلو في المرحلة الأولى, حيث أنني أؤمن بأن وصف المرحلة الأولى بالسلسة أكثر قرباً لشرح طبيعة المرحلة, لذا أجدُ وصف هذه المرحلة بالتعرج أقرب مطابقة من المرارة. هي مرحلة تتصف بأن العلاقة تقابلها لحظات عُلو و هبوط و تقدم و تراجع, فهي أقرب لتعرج المسار و ليس بالضرورة أن تتصف بالمرارة.

هذه المرحلة ينتهي فيها الحُلم الجميل و فترة العسل الممتد. حيث يبدأ الزوجان ملاحظة التفاصيل الصغيرة و الكبيرة بنظرة أكثر واقعية و أقل خيالية. إن هذه المرحلة ليست مؤشراً لضعف في العلاقة و لا تعني انحسارا فيها أو جهلا في معرفة الآخر, لكنها مرحلة حتمية للوصول إليها مهما كانت قوة العلاقة بين الزوجين, و مهما كانت درجة تقاربهما و معرفتهما لبعضهما البعض. هي مرحلة تطور طبيعي و نتيجة يبدأ فيها تجاوز الزوجين لمرحلة الحرمان العاطفي و الجسدي التي صبغت الفترة الأولى بازدياد و تائر الإشباع النفسي و الجسدي, و ما يصاحبها من سعادة غامرة تغطي على تأثير ملامح الاختلاف و التباين. الإنسان بطبعه يجيد التعامل مع العواطف الإيجابية و إلى درجة أقل مع العواطف السلبية. إن تجربة الإنسان و خبرته في التعامل مع مشاعر الغضب و الإحباط و القلق و التوتر في كثير من الأحيان قد تكون بالتجاهل و النسيان. هذا الأسلوب و هذه الخبرة لا تكون ناجحة في العلاقة الزوجية, حيث أنها علاقة لها خصوصيتها. فالعلاقة الزوجية تختلف عن باقي العلاقات, فعلاقة مستوى احتكاكنا اليومي بالآخر لا يشابه أي علاقة أخرى, و حجم التداخل عميق و متشابك , و فوق ذلك ندخلها و في ذهننا قناعة بأنها ستستمر مدى الحياة, لذا فإن السمات السالبة ستتكرر بصورة منتظمة و ليس من السهل نسيانها أو تجاهلها, كما لا يمكن الانسحاب من العلاقة و التقليل منها. إذن ظهور الاختلافات حتمية لا فكاك منها, و ما يزيد من تأثيرها ضعف تجربتنا جميعا كبشر مع المشاعر السلبية و خاصة في وضع جديد, حيث نعلم أنها ستتكرر و ليس من السهولة نسيانها أو الهروب منها أو التقليل من التعرض لها في أثناء العلاقة.

هذه المرحلة تتسم باكتشاف الآخر بكل تجرد و واقعية. مع هذه المعرفة تبدأ الاختلافات في الظهور وتتراكم. إن الطريقة التي يتعامل بها الزوجان مع هذه الاختلافات هي المحك الذي يحدد مستقبل العلاقة. فإذا استطاع

الزوجان القبول باختلافاتهما و عملا على خلق طريقة لتقبلها, سيساعدهما في المحافظة على التقارب و بناء العلاقة و الانتقال للمرحلة التي تليها في سلم النضج. أما إذا فشل الزوجان في التعامل مع اختلافاتهما نجدهما قد كتبا على نفسيهما البقاء في هذه المرحلة من الزواج, عالقين في تفاصيلها و غير قادرين على التطور و الوصول بالزواج لمراحل النضج. إن الفشل في التعامل مع الاختلافات نجده نتيجة لضعف ثقافة أدب الاختلاف لدى الأزواج,حيث يتمثل في أسلوبين سلبيين في التعامل مع الاختلاف هما التعامل الانسحابي المنضبط أو الانفعالي المنفلت.

الزوجان اللذان يقابلان اختلافاتهما بأسلوب الانسحاب المنضبط هما اللذان أتيا من خلفية لا تحبذ المواجهة, و ترى في المواجهة شرخا في العلاقة و تسبب لهما ازديادا في القلق والتوتر و الإحباط, لذا يسعيان لتجاهل القضايا و التقليل من تأثيرها و تجدهما يمارسان ضغطا قويا على نفسيهما و سيطرة حديدية على المشاعر السلبية من الظهور. هذان الزوجان نجدهما على المستوى الاجتماعي - ظاهريا- نموذجاً جيداً للزواج الناجح من حيث الاستقرار و انعدام المشاكل والخلافات. الحقيقه أن هذه الزيجات جميلة فقط على السطح, و لكن في دواخل الزوجين نجد كمية من المشاعر السالبة التي تغلي, و الغضب المكتوم و الإحباط. هذه العلاقة في حقيقتها تصبح مع الزمن علاقة باردة ظاهرها الاحترام والتهذيب, و يصبح الزوجان أقرب إلى اثنين ليسا أصدقاء بل رفقاء عمل يتشاركان سكناً واحداً. هذه الزيجات عادة تستمر باردة و قد لا تنتهي بالانفصال, و لكنها تستمر لتعيش بلا روح و لا طعم.

الطريقة السالبة الثانية في مواجهة الاختلافات هي الانفعالية المتفلتة, و من اسمها تعكس أسلوبها عالي الوتيرة في التعبير عن مشاعر الزوجين. و رغم أن الزوجين بينهما مستوى عالٍ من الصراحة و عدم إخفاء المشاعر, إلا أنهما يقعان في خطأ جوهري هو أن المشاعر التي تظهر

دوما هي المشاعر السالبة تجاه الآخر, و ليست المشاعر الحقيقية. لذا نجد المشاعر السائدة هي مشاعر الإحباط و الغضب تجاه الآخر, بينما المشاعر الحقيقية التي لا تظهر قد تكون إحساس عدم الأمان و الحاجة لأحاسيس الاحترام و التقدير, أو الخوف على العلاقة و الحاجة للاهتمام و الحب. إن طرح الاحتياجات الحقيقية و المشاعر الأصلية للفرد قد تقود الآخر للتفهم و التجاوب والعطاء, مما يطور العلاقة و يزيدها قوة. إن جعل المشاعر الثانوية كأنها هي الأساس من إحباط و غضب لا تخلق عند الطرف الثاني أي مردود إيجابي, بل نجد إما غضباً مضاداً أو جرحاً و استكانة و انكفاءً على الذات. نجد خير مثال يتكرر كثيراً في ظاهرة الغضب المصاحب للغيرة أن المشاعر الأصلية هي إحساس عدم الأمان في العلاقة و الحاجة للحب و الاهتمام.. فإننا نجد أن الغضب لا يصل بالزوجين لمرافئ الأمان بل دوامة من المشاعر السالبة, بينما لو كانت المشاعر الحقيقية هي المطروحة لوجدت صدى و تجاوباً أكثر إيجابية و حتما ستقود العلاقة خطوة للأمام.

هذه المرحلة في تطور الزواج قد يصعب على بعض الأزواج تجاوزها, و تصبح المرحلة الأخيرة في تطور العلاقة, وتفشل في التطور في سلم النضج للمرحلة التي تليها. الأزواج الذين يظلون محبوسين في هذه المرحلة إما أن تستمر علاقتهم أسيرة التفاعلات السالبة حبيسة للمشاكل, أو تنتهي بالانفصال.

في بعض الزيجات يتجاوز الزوجان الصراع و لكن لا يتجاوزان المرحلة الثانية. يتم ذلك عندما يحسم أحد الطرفين الصراع لمصلحته بطمس كل اختلافات الطرف الآخر, ليصبح هو الطرف المهيمن و الآخر مجرد صورة باهتة له دائرة في فلكه, مما تُحسم كل الاختلافات بتنازل ذلك الطرف و سيادة الرأي الآخر. يحدث ذلك كثيراً في مجتمعاتنا حيث يكون الزوج هو المسيطر وصاحب الرأي الواحد الذي يجب أن يسود, و الزوجة هي

الصوت الخافت و التابع الذي يتنازل ليتماهى مع رأي الزوج. هذه لا تعتبر تطورا ولا تجاوزا لمرحلة التكامل المتعرج, لأن الاختلاف لم يتنهي بل تم قمعه, والهدوء في داخل العلاقة هدوء مرضي ليس له علاقة بالتطور و النضج.

الزيجات الناجحة هي التي تقبل هذه المرحلة كمساحة وعرة في طريق الزواج, تستند على ما فيها من إيجابيات و تتجاوز السلبي لتصل لمرحلة النضج التالية..

(٣)مرحلة التفرد و التطور

هذه هي المرحلة الثالثة و التي يتجاوز فيها الزوجان مرحلة الصراع إلى مرحلة البناء الخَلَّاق.

إن العاملين الأساسين اللذين يشكلان مرحلة التفرد هي وعي الفرد لإيجابياته و سلبياته, وتأثيرها على العلاقة و رغبته الجادة في التعامل معها, بينما يمثل العامل الثاني هو القبول بأن الطرف الثاني إنسان مختلف مع ضرورة احترام سماته الإيجابي منها و السلبي. في هذه المرحلة يبدأ الزوجان بعد قبولهما بالاختلاف السير سويا, مؤمنين بأن الطاقة السلبية الناتجة من الاختلاف لا تصبح مشاعر ثانوية من الغضب و الإحباط, بل تصبح دافعا و رغبة حقيقية للتطور و التغيير. نجد مثال الاختلاف في حالة الغيرة الذي سبق ذكره, فالاختلاف تكون جذوره في إحساس عدم الأمان وعدم الثقة و الرغبة في مزيد من الحب و الاهتمام, فالتعامل الموضوعي في مرحلة التفرد يقود الطرفين لتجاوز المشاعر السالبة و الغوص للأسباب الحقيقية لتطوير ذاتيهما لمعالجة هذه الاحتياجات الموضوعية, و بذلك تقوى العلاقة بمشاعر الرضا لإشباع هذه الاحتياجات و يُقفل الباب على مشاعر الإحباط و الغضب.

هكذا يصبح التناول الواعي لمشاعر الضيق و الألم من نقاط الاختلاف في مرحلة التفرد طاقة بناء, و سبباً من أسباب السعادة والنجاح.

(٤)مرحلة التمازج و النضج

هي مرحلة النضج و نسميها مرحلة التمازج, حيث يسير الزوجان في علاقتهما بثقة في عقبات العلاقة و مطباتها, يستفيدان من كل اختلاف في اكتشاف نقاط القوة و الضعف في دواخلهما أو في العلاقة فيسعيا سويا لتجاوزها, و بذلك يصبحان أقرب و أكثر سعادة. إذن هي مرحلة يصبح الاختلاف الإنساني الطبيعي و المتوقع محطات قوة و جسور للتقارب يدخلها الطرفان بدون تخوف أو رغبة في قمع الآخر,و هدفهما تعبيد طرق التفاهم و التقارب. مرحلة التمازج يتم فيها التكامل المتجانس و لا يحدث فيها ذوبان بل يستمر كل طرف معتداً بذاته, مجتهدا في تطويرها , محترما ذاتية الآخر, واعيا تماما بأن التطور لكل واحد منهما يسير على مدار مختلف, لكن المحصلة أن أي خطوة في تطور الفرد تجعله أكثر قربا من الآخر.

في هذه المرحلة يمكن القول إن الحب الحقيقي يصبح متجسدا في مساعدة كل فرد في تطوير ذاته, و مساعدة الآخر و الوقوف معه و مساندته في أن يصبح في كل يوم أفضل من اليوم الذي سبقه, و أقرب لتحقيق صورة أفضل لشخصه كإنسان متطور الفكر و المشاعر.

هذا التطور و تجاوز المراحل يعتمد كثيرا على مقدرة الزوجين و ما لديهما من حماس و وعي لتطوير علاقتهما.

أثر العامل النفسي في تطور الزواج

يذكر عالم النفس الأمريكي د.سولومن(٣٤) إن الانتقال بين مرحلة و أخرى لا يعتمد فقط على المعرفة و تطور الوعي بنقاط الاختلاف و أهمية التطور و جدواه, بل يعتمد أيضا و بقدر كبير على التطور و النضج النفسي لكل زوج.

التركيبة النفسية التي تساهم في تجاوز المراحل هي مستوى النضج في تطور درجة الحميمية في كل فرد. تنقسم الحميمية لثلاثة أنواع لكلٍ

سماتها و وظيفتها في تطور التركيبة النفسية, و هي: الحميمية الذاتية و حميمية الخلاف و الحميمية العاطفية.

مفهوم الحميمية له أبعاد كثيرة, لكن بصورة مبسطة هو تلك الحالة من المشاعر الإيجابية التى تتسم بالقرب و التواصل و الأمان.

(أ) أثر حميمية الذات

حميمية الذات هي تلك المقدرة في أن يكون الفرد أقرب لنفسه و أحسن فهماً لمشاعره. الإنسان قد يظن أنه يعرف حقيقة مشاعره, و لكن في الحقيقة و في كثير من الأحيان يجد أنه لا يعرف إلا جزءاً ضئيلاً. حيث توصف بأنها معرفة رأس جبل الجليد و لكن ما تحته يكون عادة مجهولا, و كذلك المشاعر الثانوية قد تكون هي الطاغية بدون أن تظهر جذورها. خير مثال لذلك هو أن نجد مشاعر الغضب قد تسيطر على الزوجة عندما ترى زوجها يتحدث لامرأة أخرى, و يكون الغضب هو نوع المشاعر السائدة دوما رغماً عن أن أسبابه قد تكون إحساس الزوجة بالخوف و القلق و عدم الأمان في العلاقة. إن الزوجين قد يجتهدان في مصارعة مشاعر الغضب التي ظهرت, و لكن حتى إذا نجحا في السيطرة عليها فإن نجاحهما يكون غير مكتمل, لأن جذور القضية لم تُمس, و أحاسيس المشاعر الأساسية مازالت باقية. وجود المشاعر الأساسية المأزومة كما هي سيجعل جذوة الاختلاف مشتعلة, قد تخبو لفترة و لكنها ستظهر أعراضها مرات و مرات.

الإنسان في الغالب الأعم يستجيب للمشاعر الثانوية, و يكون ردة فعله تجاهها و هدفه السيطرة عليها, ولا يهتم بما خلفها إما جهلا بأسبابها أو عدم التمكُّن في تقصي الأسباب للوصول لجذورها. لذا فإن الحميمية الذاتية هي مقدرة الفرد في الغوص لأعماق المشاعر الظاهرة على السطح و معرفة جذورها.

الحميمية الذاتية يمكن تطويرها بتمارين معرفة الذات, و التعود على

عدم الاستجابة للمشاعر الظاهرية قبل التفكير في مكوناتها و معرفة ما وراءها.

إن الحميمية الذاتية لا تكتفي بمعرفة المشاعر الأساسية, بل يجب أن تشمل المقدرة في التعبير عنها و تمليكها للطرف الآخر. يجد الكثيرون صعوبة في التعبير عن المشاعر الأساسية لأنها تعبر عن احتياجاتهم الحقيقية, و يكتفون بالمشاعر الثانوية لوجودها على السطح رغم أنها أبعد تعبيراً عن حقيقة الذات. فمن الأسهل للزوجة أن تعبر عن غضبها من حديث زوجها مع امرأة أخرى من أن تعبر عن إحساس بالقلق و عدم الأمان و الرغبة في الحب و الاهتمام.

تطوير خاصية الحميمية الذاتية بمعرفة المشاعر الأساسية و القدرة على التعبير عنها يساهم في تجاوز نقاط الاختلاف, حيث أن المشاعر الحقيقية عندما يُستجاب لها ينطفئ فتيل هذه القضية و يمنعه من الاشتعال مرة ثانية, و يشعر الفرد بازدياد قربه من الآخر و ازدياد تفهم دواخله و تحقيق قيم الأمن و المحبة.

(ب) حميمية الاختلاف

حميمية الاختلاف تعني ببساطة كيف يستطيع الفرد أن يجعل مشاعر الاختلاف السلبية مشاعر إيجابية. إن مشاعر الفرد في لحظات الاختلاف تنتج سلبيتها من نقطة مهمة, فالاختلاف يحرك في الإنسان غريزة البقاء والصراع لحماية الذات. حميمية الاختلاف هي كيفية تغيير إحساس تحفز الذات ضد الآخر و رغبة حمايتها من التغلب على الآخر. استيعاب الفرد بأن الاختلاف هو محطة يفهم الطرفان دواخل بعضهما البعض,إذا حسن استغلاله ستجعل الطرفين أكثر قربا و فهما للطرف الآخر. إن فهم هذه الحقيقة أمر مهم في تطور حميمية الاختلاف, حيث أن انتفاءالنظرة السلبية للاختلاف تقلل من الحاجة للتعامل مع الآخر كخصم تسعى للفوز عليه. حينها ستتحول مشاعر التحفز لطاقة إيجابية

تصون العلاقة. عملية استيعاب جوهر الاختلاف الإيجابي و تجاوز رد الفعل السلبي هي مهارة يحتاج الزوجان إلى تعلمها لتطوير قيمة حميمية الاختلاف. أساسيات هذه المهارة تنبع في مقدرة الفرد على تعلم السيطرة و الهدوء الداخلي الذي يحميه من الوقوع في إسار المشاعر الانفعالية السالبة, و التدبر في المشاعر الحقيقية و التفاعل معها. إن مشاعر الغضب التي تظهر مع أحاسيس الغيرة لا يُسمح للفرد قراءة ماتحتها من مشاعر حقيقية إذا لم تمنع نفسك ابتداءً من الوقوع في براثنها بالسيطرة على أحاسيس الغضب بالهدوء, لتعطيك الزمن و التوازن لفهم المشاعر الحقيقية.

(ج) الحميمية العاطفية

المستوى الثالث من الحميمية الذي يستوجب إجادته و تطويره هو الحميمية العاطفية. إن مقدرة الفرد على معرفة حقيقة مشاعره بواسطة تطور الحميمية الذاتية مضافاً إليها مقدرته على التعامل مع الاختلاف بصورة إيجابية من خلال حميمية الاختلاف, يقود لتقوية حميمية المشاعر. تبدأ مشاعر الحب الناضج الهادي بالظهور, حيث تترسخ مشاعر المحبة الموضوعية تجاه السمات الإيجابية بلا شوائب غضب أو إحباط , فالسمات السلبية تفتح أبواب التقارب و الرغبة في التغيير و مساعدة الآخر في التطور.

التطور الحميمي في تعاملنا مع المشاعر بصورة عميقة و صادقة يقود لمعرفة أفضل بذواتنا و شريك حياتنا, و يجعل العلاقة قادرة على التطور و السير للأمام بين المراحل لتصل بها لمرحلة التمازج و النضج.

الفصل التاسع

أزمات و منحنيات في طريق الزواج



أزمات و منحنيات في طريق الزواج

هناك قضايا قد أجمع علماء النفس على أنها تمثل عقبات في طريق االزواج السعيد. و قد حاولنا أن نسميها منحنيات لأننا لا نعتبرها عقبة إلا لمن لا يعلم أساليب القيادة, و ليست خطرة إلا على من تعامل معها بجهل تأثيرها, أو عدم معرفة بخطورتها أو باستهتار لما ستقودك اليه. لذا كانت معظم المدارس النفسية في دروسها الإرشادية لما قبل الزواج تُركز على هذه النقاط العشر لتهيئة الزوجين لما قد يقابلانه و لتعليمهما بعض المهارات في كيفية التعامل معها.. بالطبع هذه النقاط قد توجد كلها أو بعضها عند بعض الزيجات, و تتفاوت حدة كل نقطة بين زيجة و أخرى.

هذه النقاط العشر هي:

(١)الإرادة و السيطرة و صراع القوة.

(٢)الدور و النوع و الحقوق.

(٣)التوقعات.

(٤).مفهوم «النسابة» و الأسرة الصغيرة و الممتدة.

(٥) الأعباء و المسؤوليات.

. (٦). المفاهيم و القناعات.

.(٧). الزمن و الحياة الاجتماعية و الأسرية.

. (٨) الرومانسية.

(٩) المالية.

(١٠)الغيرة.

(١) الإرادة و صراع القوة و السيطرة في أزمات الزواج

الإنسان بطبيعته لا يحتمل القيود و يسعى لأن يعيش كما يحلو له. إن الفرد عندما تتعارض أو تتناقض أفكاره و رغباته مع سلوكه يشعر بالتوتر و عدم الارتياح, لذا يسعى الإنسان في حياته دوماً بأن يتوافق سلوكه مع أفكاره و رغباته ليتحقق له التوازن النفسي.الزواج يؤثر في هذه المعادلة بدخول طرف جديد, فأصبحت هناك رغبات و أفكار أخرى قد تتعارض مع أفكاره يجب أن توضع في الاعتبار و تكون لها حساب. طبعا عندما تتفق أفكار الطرفين لا تكون هناك مشكلة تذكر, و لكن تظهر الأزمة عندما توجد أفكار متنافرة و يفشل الطرفان في رسم نقاط التقاء.

إننا هنا لا نبحث عن طبيعة هذه الأفكار و أنواعها, و سنتطرق لاحقا لبعض الأمثله مع محاولة قراءة سبل رسم نقاط تلاقٍ. هنا نريد أن نركز على طريقة الاختلاف و كيف يتجاوز الزوجان التباين في وجهات النظر, ليصبح صراعاً في القوة و السيطرة. هي الحالة التي يصبح فيها من المهم الفوز و الغلبة (مشيت كلمتي), أكثر من الاهتمام بجوهر الاختلاف و موضوعه. فالاختلاف بين الزوجين قد يتفاوت بين قضية هامشية لا تؤثر في الحياة الزوجية, و بين قضايا مصيرية.. بين الاختلاف في لون القميص أو الانتقال من دولة إلى أخرى. و لكن عندما يتغلب نمط الصراع في السيطرة لا تجد لسبب الاختلاف أثرا, بل يمكن للصراع و الاختلاف أن يصلا لنفس المستوى من الحدة و الانفعال بغض النظر عن الجوهر.

الأزمة هنا تعكس صراعا للقوى بين الزوجين حيث أصبح الهدف تحديد من هو الطاغي و المسيطر. و كلما ظهرت بوادر اختلاف و مهما كان حجمها, فإن التعامل معها يصل بسرعة إلى مراحل عالية من التوتر و الحدة, و هنا يصبح الزواج دوامة من التوتر و الصراع الدائم. الصراع على السلطة و القوى لا يقود لنتائج إيجابية و لا لحسم الاختلافات بين الطرفين, بل نتاجه هو إما استمرار التناقض و الخلاف أو فرض رأي أحدهما على

الآخر, مع بقاء التناقض و تراكمه مع الزمن.

الصراع للسيطرة هو جزء من التركيبة الفطرية لغريزة البقاء, لذا لا نستغرب وجودها في أي علاقة و خاصة في العلاقة الزوجية لما فيها من عُمق في التواصل و ثراء في تنوع القضايا المشتركة.. إذا هذا الصراع مقبولا في بدايات العلاقة فإن استمراره لا يعكس ضعفاً واضحاً فقط, بل قد يكون عاملا مهددا لاستمرارية العلاقة, لذا يجب التعامل معه بحذر و حسم و عملٍ على استئصاله أو بالحد الأدنى السيطرة عليه كلما ظهرت له إرهاصات أو مؤشرات تُنبئ بظهوره.

أي ظاهرة قبل أن نبدأ في علاجها والتعامل معها ينبغي أن نعرف أعراضها و سماتها.

الاختلاف العادي قد يتحول في لحظة إلى خلاف حول السيطرة, و يمكن أن نكتشف ذلك بوجود عاملين أساسيين, هما ارتفاع التوتر العاطفي من قلق و غضب و إحباط و شعور جارف بالرغبة في الفوز برأيه و أن يثبت أنه على حق, إلى درجة لا يهم طبيعة الاختلاف بل المهم أن يفرض كلمته وأن يخرج منتصراً...

الانتباه لوقوع أحد الطرفين أو كلايهما في صراع القوى يستدعي في بعض الأحيان الرجوع لجذوره, و مراجعة النفس لإيجاد إجابة عما إذا قاد هذا الموضوع إلى معركة أو انفعال لا يتناسب مع موضوع الخلاف.

موقع الزوجين من الصراع

يؤمن علماء النفس بأن الزوجين عندما يدخل أحدهما في صراع القوى فإنه يضع لنفسه موقفا مسبقا و محددا يستند عليه. هذا الموقع قد لا يكون واعيا به, لذا من الضرورة أن يفهم الزوج حقيقة إحساسه بموقعه و موقع الآخر. هي ثلاثة مواقع إما أن أحد الطرفين يرى نفسه في موقع أعلى أو في موقع أسفل أو في وضعٍ متكافئ.

(١)الأعلى و الأقوى

عندما يشعر الفرد بأنه الأفضل أو الأقوى من الطرف الآخر, يعتبر أنه من الطبيعي أن يتغلب رأيه و أن تسود إرادته, و يسعى لذلك دون أن يشعر. هذا الإحساس قد يكون نتاجا لعوامل عدة منها:

هذا الإحساس بالتفوق قد يكون نتاجاً لإرث ثقافي يؤمن بضرورة سيطرة طرف على الآخر, حيث نجد إرثا واسعاً من ضرورة القهر و الترويض من (ضَبْح الكديسة), (العين الحمراء).و قد يكون نتاجاً لنوع من التربية و التعلم من ما شهده في أسرته في توازن القوى بين الطرفين. يجب أن لا نغفل عن التركيبة الذاتية من إحساس داخلي بالضعف أو عدم الثقة بالنفس تجعل الرغبة بالفوز أمراً ضرورياً في أي تفاصيل و لو صَغُرَت حتي لا يفقد السيطرة. في بعض الأحيان قد يظن الفرد أن الطرف الآخر يتعامل بتعالٍ, وقد يكون محقاً في ذلك أو لا و لكن المهم أن النتيجة واحدة, حيث يصبح الصراع في القوى لكسب التفاصيل الصغيرة نوعاً من أنواع الحماية كضربة استباقية خوفاً من أن يكون محايداً فيلتهمه الآخر.

(٢) . الأضعف

في بعض الأحيان يشعر الفرد بأنه الحلقة الأضعف في العلاقة, لذا ينزلق في صراع القوى عند أي موقف و ذلك خوفا من أن يسيطر عليه الآخر و يطمس ذاته. يحدث في نفس العلاقة أن يكون الطرف الثاني أيضا يشعر بأنه هو الأضعف في العلاقة, لذا يكون ردة فعلهما دوما دفاعا و خوفا من الذوبان في الآخر و الانقياد, فيظهر كلٌ مخالبه عند أي موقف, و هو شعور المتخوف من شريكه حيث لا يحتمل أن يفوز عليه بنقاط الاختلاف لأنها ستُكرس إحساسه بالضعف.

(٣). الوضع المتكافئ

قد يشعر الاثنان بالتكافؤ و لا يمنعهما ذلك من أن ينزلقا في دائرة صراع القوى, و ليس شرطا نتيجة لعوامل ذاتية, بل يمكن أن يكون الموضوع الذي يستند عليه الاختلاف و ما يحمله من قيمة عاطفية و اجتماعية يشكل للشخص نجاحاً أو هزيمة ذاتية, فيتصاعد الخلاف و يفقد موضوعيته.

حتى يستطيع الزوجان الوصول لنقاط تفاهم و اتفاق فمن الضروري أن يصلا لقناعة بأن ما يحدث هو صراع للقوى و كسب للمواقف, و ليس اختلافا في قضية محددة.لذا عليهما أن يتعلما مهارة تشريح هذا التناحر بتذويبه و فصله من جوهر القضية. يستطيع الفرد أن يخرج من حلبة صراع القوى ليضع الخلاف في حجمه الطبيعي بتذويب التناحر و السيطرة عليه و إرجاعه لمستوى الخلاف العادي, و ذلك باتباع أربع نقاط أساسية.

طرق تذويب التناحر

(أ). ابتداءً من الضروري تعلم طرق السيطرة و كيفية إخراج المشاعر المنفلته من القضية المطروحة, و ذلك استنادا على قناعة أن الانتصار لرأي الفرد أو خسرانه لا يصاحبه خسارة لشخصيته. عندما يكون الاختلاف غير مرتبط بحالات من القلق أو الشحن العاطفي, يصبح من السهل تجاوز أحاسيس الغضب و التوتر. و حينما يفقد الاختلاف شحنات التوتر, يتضاءل حجم الاختلاف و أهميته و تضمحل قيمة أن يكسب الفرد هذا الاختلاف أم لا. و حتى إذا خسر الفرد الاختلاف فلا مرارة تحدث ولا إحساس بالهزيمة ولا أثر نفسي, لأن الخلاف أصبح ليس له بعد ذاتي أو قيمة خاصة. قد نجد صعوبة نسبية في أن نصل لمرحلة عزل مشاعرنا تماما من القضية موضوع الاختلاف, و لكن يمكننا بقدر كبير أن نمتلك جزءاً من الحياد العاطفي النسبي أو القليل من التأثير على نظرتنا للقضية.

(ب). عند الوصول للحياد العاطفي النسبي نستشرف المرحلة الثانية و هي تهيئة التركيبة العقلية للفرد في التعامل مع الاختلاف, و فيها يطرح الفرد على نفسه تساؤلاً و يبحث في دواخله بكل صدق وتجرد.. ما الأهم لديه الآن الفوز في الاختلاف أم القرب من الآخر؟ مستوعبا أن الصراع في لعبة القوى و فرض رؤيته قد يقود للفوز, و لكن حتما بتأثير سلبي على الآخر.

(ج). الشعور بعدم أهمية الفوز في الخلاف على حساب قرب الآخر و البدء بتطبيق قوانين السيطرة على الاختلاف مع اكتساب مهارة أدب الاختلاف و تطبيقها.

هنا تبدأ الموضوعية تتسلل مع قيم التنازل, حيث كل يسعى طرف لكسب القرب من الآخر مع جزء و لو قليل من المكسب من القضية المختلف عليها, و هنا تبدأ ثقافة التنازل و تجاوز الذاتية من أجل الطرف الآخر و حتما هي خطوه كبيرة في طريق الجانب الإيجابي للعلاقة.

(د). بعد القبول بمراحل تقدير الاحتياج للشريك لأن تحقق بعض المكسب من نقطة الاختلاف, فإذا كان رغم ثقافة التنازل أصبح من الصعب الوصول لنقاط التقاء, يصل الاثنان لاحترام حق الآخر في الاختلاف, و الاتفاق بأن يستمر باب الخلاف مفتوحا و عدم الصراع لحسمه, بل الاستمرارية في احترام كل طرف لرؤية الطرف الثاني حتى و إن لم تتفق مع دوافعه.

(٢).الأدوار و أزمات الزواج

مؤسسة الزواج تستند على طرفين مختلفين نوعياً, حيث يمثل الزوج جنس الذكورة و تمثل الزوجة جانب الأنوثة. هذا التقسيم النوعي جعل من الذكورة والأنوثة سمات متباينة تعيش تحت سقف واحد.

الحقيقه التي لا يمكن تجاوزها أن كل فرد حسب إختلافه ممن الآخر سيكون له إحتياجات ومن ثم أدوار متباينه لتحقيق هذه الإحتياجات.

ساهمت دراسات علم الاجتماع في معنى هذا التقسيم و تأثيره على

العلاقات داخل الأسرة قد تطورت و تدرجت في فهمها لهذا التنوع. نجد الآن في مجتمعاتنا تسيطر فكرة مدرستين يمكن أن نطلق على إحداهما المدرسة التقليدية و الأخرى المدرسة الحديثة. لا يعني أنهما المداراس الوحيدة, و لا يعني أنهما آخر ما توصلت إليها أبحاث علم الاجتماع, و لكننا سنُركز عليهما لأنهما تقريبا تمثلان المدرستين الرئيستين في الوعي الاجتماعي للواقع السوداني.

المدرسة التقليدية

و هي تؤمن بأن الفوارق البيولوجية بين الجنسين تصاحبها سمات نفسية و عقلية تتوافق مع هذه التغييرات. هذه المدرسة تولدت منها النظرة التركيبية التي أشرنا لها سابقا, و من ثم فهي تدافع عن الإنسان و أنه مركب بيولوجياً و نفسياً لتخلق إنسانا بسمات محددة للقيام بوظائف تتطابق مع تركيبته. تقول المدرسة التقليدية إن المرأة تحكمها الهرمونات الأنثوية, و هي التي ربطت الاستروجين و ظهور العلامات الأنثوية و تراكم الدهون, بل بعض الدراسات أكدت ارتباطها بتغيير في ملامح الوجه و نعومة الجلد ورقة الصوت. هذا التأثير الهرموني أيضا ارتبط بانحسار الرغبات العدوانية و ازدياد أحاسيس القلق و الخوف. من الجانب الآخر نجد الرجل الذي يشكله هرمون التيستسرون, و هو المسؤول عن ظهور علامات الرجولة من تغير في الصوت و شعر الوجه و نمو العضلات, مع الاستناد على أن بعض الدراسات تؤكد ارتباط الهرمانات الذكورية بالعنف. باختصار فإن المدرسة التقليدية ترى أن الهرمونات الأنثوية هي التي صنعت الزوجة و قد شكلتها لتؤدي وظائف محددة, فهي أقل بنية عضلية و أكثر دهوناً و ذات طبع بعيد عن العنف و أقرب للخوف و القلق. هذه السمات و التركيبة تجعل من دور الزوجة البعد عن الصراع و المواجهات, و توفير الدعم العاطفي و تقديم الخدمات التي لا تستدعي ملكات جسمانية عالية. لذا فالدور المثالي للأنثى يصبح وجودها في المنزل

تحت حماية الرجل, و تقدم للأسرة الدعم العاطفي والنفسي و الخدمات المنزلية. هذا الضعف الأنثوي قد وُجِدَ ليخدم وظيفته حيث يوصف بأنه التركيبة الأمثل التي تستطيع بها الأنثى القيام بدور الأمومة. من الجانب الآخر تُفَسَّر أن التركيبة العضلية و النفسية للذكر تجعل الدور المثالي للزوج هو دور الكسب و الحماية و مواجهة الصعاب, و ذلك لمقدراته العضلية و بمقدرته الأكثر قابلية للعنف إذا اقتضى الحال. إن المدرسة التقليدية ترى أن الرب أو الطبيعة قد أبدعت في رسم سمات و أبعاد نفسية للذكر و الأنثى تجعل من الطبيعي أن يكون تقسيم العمل و الأدوار يتناسب مع هذه السمات.

يؤكد أصحاب المدرسة التقليدية بأن التركيبة العضلية للرجل هي الأقوى و يُثبتها العلم, و خير مثال أن في المسابقات الرياضية الأولمبية نجد أرقام الرجال في كل المناشط تتفوق على أرقام النساء و بفارق شاسع.. أيضا ارتباط سمات العنف و الحدة بالرجل تجعله الأقوى نفسياً و الأكثر تحملا و صمودا أمام الضغوط و المصاعب. إن الرجل أقوى بدنياً و يميل للعقل و لا ينجرف نحو عاطفته, لذا هو الأجدر بالإدارة و القيادة بَحُكم حكمته و توازنه. أما المرأة فهي الأفضل في مشاعر العاطفة و العطاء, لذا فهي تتفوق في الأدوار الإنسانية من أمومة و تمريض. إذن بالنسبة للمدرسة التقليدية فالأدوار داخل العلاقة الزوجية محسومة ومرتبة على حسب التركيب البيولوجي و النفسي, فالرجل للقيادة و الإدارة و مقابلة الصعاب و هي مهام الزوج, و المرأة للعطف و الحنان والاهتمام و هو دور الزوجة. الخلاصة أن الزوج مملكته في العمل خارج المنزل و الزوجة في داخل المنزل.

المدرسة الحديثة

المدرسة الحديثة تعارض رؤية المدرسة التقليدية بصورة جذرية. إن المدرسة الحديثة يمكن أن تلخص فكرتها من مقولة المفكرة الفرنسية سيمون دي يوفوار في كتابها الجنس الآخر (إن المرأة لا تولد أنثى و لكنها تصبح كذلك). هي تعني بذلك أنه مع وجود الفروقات البيولوجية بين الرجل و المرأة لكنها ليست الأساس للتقسيم بين الذكورة و الأنوثة, بل تصبح كذلك باكتسابها السمات البيولوجية و النفسية التي يهيئها لها المجتمع. هذه المدرسة التي تفرعت منها نظرية التشيؤ التي أشرنا لها سابقا, حيث تبدأ بالتأكيد على أن الهرمونات الجنسية ليست محددة و محصورة, فيتيستسترون للرجل و استروجين للمرأة, بل هي حالة من غلبة أحد الهرمونات في وجود الآخر. إذ أن المرأة رغم سيادة الهرمونات الأُنثوية, فإنها تحمل في دواخلها هرمونات ذكورية و لها دورها المهم في فسيولوجية المرأة. أيضا نجد أن الرجل يحمل في دواخله هرمونات أُنثوية لها دورها في فسيولوجية الرجل. تقول المدرسة الحديثة إن هذا التوازن الهرموني في داخل الفرد ليس نتاجا لموروث بيولوجي فقط به تحدد مستوى و مقدار الهرمون, بل تؤكد أن الظروف البيئية لها دور أساسي في تحديد ذلك. تدعم هذه المقولة أن مستوى الهرمونات الذكورية يسجل ارتفاعا نسبيا في وسط النساء اللاتي يمارسن الرياضة و خاصة رفع الأثقال, مع التأكيد بأن هؤلاء النسوة لا يختلفن عن غيرهن في مقدرتهن على الإنجاب والإرضاع. إذن التغير في نسبة الهرمونات الذكورية ليس لها أثر سلبي على دورها الوظيفي و الفسيولوجي كامرأة. لذا تقول المدرسة الحديثة إن الضعف الجسماني للمرأة مقارنة بالرجل هو نتاج طبيعي لتاريخ طويل من ابتعاد المرأة عن العمل العضلي الشاق خارج المنزل ساهم في سيادة و زيادة في هرموناتها الأُنثوية و ضعف في تركيبتها العضلية مقارنة مع الرجل. و يؤكدون ذلك بأن النساء اللاتي يمارسن تمارين عضلية لكمال الأجسام

و رفع الأثقال تتغير عضلاتهن و تتضخم, و تقل التراكمات الدهنية المرتبطة بالشكل الأُنثوي المتعارف عليه. تؤكد المدرسة الحديثة أن الطفل لا يتشكل جسديا فقط, بل يتم تشكيل وعيه و مشاعره بواسطة المجتمع كما ذكرنا سابقا, من أنواع اللعب و من أنواع الاهتمامات و حتى في أنواع المشاعر المسموح بها و المرفوضة, و كما ذكرنا يتربي الولد على اللعب بالمسدس و البندقية و البنت بالعروسة و أدوات المطبخ. كما تم تشكيل وعي الولد على أن البكاء عيب و تحفيزه للعب خارج المنزل, بالمقابل للبنت يتم تعميق مفاهيم العيب والخجل المرتبطة بالجسد و البقاء داخل المنزل.

إذن نحن أمام مدرستين إحداهما المدرسة التقليدية التي تحدد للرجل مسؤوليات دوره خارج المنزل و المرأة داخله, و المدرسة الحديثة التي تؤمن بأن دور الجنسين واحد داخل المنزل و خارجه و عليهما تقاسم الأعباء و المسؤوليات بينهما.

نحن هنا ليس في مقام التفضيل بين المدرستين أو تحديد أيهما أصح, ما يهمنا وجود هاتين المدرستين و تأثيرهما على العلاقة بين الزوجين.

الزواج الذي تتطابق فيه قناعات و سلوك الطرفين يمكننا ببساطة أن نقول إنه قد تجاوز أزمة صراع النوع. و لا يعتبر هذا الصراع ذو وجود فعلي في تشكيل حياة الأسرة, بل يصبح ذا وجود واضح و تأثير عندما يكون هناك تباين في الرؤى و السلوك بين الزوجين, و قد يظهر هذا التباين على أحد التجليات في الشرائح الثلاث الآتية:

(أ).أن يكون أحد الزوجين مؤمناً بالنظرة التقليدية و الآخر بالنظرة الحديثة.

(ب).أن يؤمن الطرفان بجزء من المدرستين, فمثلا يُقِرَّان بضرورة و حق عمل المرأة في المجتمع, و لكن في نفس الوقت يتفقان بأن عمل المنزل هو مسؤولية المرأة.

(ج).نجد أن البعض يؤمن بالنظرة الحديثة و لكن يفشل الزوج في التأقلم مع متطلبات هذا الواقع.

الشريحة الأولى

يوجد تناقض في الرؤى حيث يكون الصراع في دور الزوج و الزوجة سمة و طابعاً للعلاقة. كما نجد تزايد التوتر من الأعباء المنزلية و ما يتبعها من أدوار تمتد من الطبخ و ترتيب المنزل وتربية الأطفال و الاعتناء بهم. ليس بالضروره أن يكون الزوج غير عابئ بهذه الأدوار أو ينكر مشقتها على الزوجة ,و لكن نجده عادة يشعر بالارتياح والتوازن النفسي باعتبار أن هذه الوظيفة ليست له و هو غير مؤهل للقيام بها. الزوج عادة يرى امتعاض الزوجة غير مبرر و غير منطقي و لا يشعر بالتعاطف مع شكواها, أو على أقل تقدير ينظر إليه كنوع من ملحقات الوظيفة لا تختلف عن ضيقه من تراكم العمل عليه في المكتب أو المتجر, و هو شئ طبيعي يفترض أن يتعايش معه الإنسان في تأقلمه على متطلبات الوظيفة, ويجب عليه أن يجد طريقة للتعامل معها خاصة أن المرأة تكون متفرغة لأداء هذه الوظيفة, و لا يهم في نظر الزوج إن تغيرت معطياتها بالعمر أو تغير حجم الأسرة. الزوج هنا قد لا يؤمن بعمل المرأة خارج المنزل حتى و لو أنجزت مهامها المنزلية.

الشريحة الثانية

هنا نجد أن الزوجة قد اكتسبت جزءاً من حقها في العمل خارج المنزل, و لكن مع استمرارية مسؤولياتها بالعمل المنزلي. عادة ينشأ الصراع عندما يصبح من الصعب الموازنة بين وظيفة الزوجة في المجتمع و المطلوب منها في المنزل. نجد أن سيادة النظرة التقليدية للرجل تجعله يشعر بأن عمل المرأة خارج المنزل ليس ضرورة و ليس من الأساسيات, لذا يرى أنه مجرد عبء إضافي تقوم به الزوجة ليس مطلوبا منها, و لا يمانع فيه ما دام لا يتعارض مع وظيفتها الأساسية في إدارة المنزل. ما يقوي هذا الفهم أن بعض النساء يرين في عملهن خارج المنزل ليس له علاقة بميزانية الأسرة و دخلها, و هو دخل لاحتياجاتها الخاصة بها, و تؤمن بأن ميزانية الأسرة و دعمها كلها

على الزوج و هي مسؤوليته و من حقها عليه و من واجباته. لذا نجد الزوج يرى أنه ما دام هذا العمل ليس له علاقة بالأسرة, فلا غرابة أن لا يُظهر تعاطفا في أي تقصير في عمل الزوجة في المنزل طالما هو قائمٌ بمسؤولياته, و هي توافقه على حدود مسؤولياته بدون دعم منها و لذلك فهو يتمسك بما يراه أنها حقوقه و مسؤولياتها في رعاية بيت الزوجية. عندما تتذمر الزوجة من العمل خارج المنزل يكون الرد جاهزا لدى الزوج, و هو أن تترك العمل وتركز على مسؤولياتها الاساسية و وظيفتها الأصلية في الإشراف على المنزل و الأسرة.

الشريحة الثالثة

نجد في هذه المجموعة أن الزوجين يؤمنان بالنظرة الحديثة في المشاركة و حق المرأة في العمل, و لكن عندما نأتي لمستوى التطبيق يفشل الزوج في تجاوز الإطار التقليدي, و تكون مساهمته في العمل المنزلي محدودة إن لم تكن معدومة. الخلاف هنا لا يكون على رفض الزوج في المشاركة, و لكن عادة في سيادة إرثه التقليدي و العرف الاجتماعي الذي يجعله - دون أن يشعر- قليل المشاركة و المساهمة في مسؤوليات المنزل.

هذه النماذج الثلاثة التي تتجلى فيها أزمة الصراع على مفهوم التقسيم الوظيفي و اختلاف النوع, رغم تباينها نجد أن المدخل للتعامل معها يعتمد على نفس المنهج في إدارة الحوار بين الزوجين و تطبيق أساسيات أدب الاختلاف.

التعامل الأمثل مع هذه القضية - نسبة لتشابكها- يعتمد على مستويين ,أحدهما مستوى طويل المدى و ليس له سقف للنهايات, و مستوى قصير المدى يستدعي التعامل معه اليوم قبل غدٍ لتأثيره السالب على العلاقة بين الزوجين.

المستوى طويل المدى يركز على حل اختلاف المفاهيم خاصة بين الآراء المتضاربة, و هذا جزء من تطور طبيعي في أي علاقة زوجية بفتح مساحات واسعة و ممتدة في الحوار و بناء جسور التقارب. في هذا المستوى ليس مهما أن يصل الطرفان لاتفاق, بل المهم أن تستمر القنوات مفتوحة مما

يزيد التقارب كما يزيد فهم الآخر. يجب أن يفهم الزوجان ضرورة عدم قفل باب الحوار و التواصل, و أن الوصول لاتفاق ليس هدفاً في ذاته بل هي غاية قد لا تتحقق.

ما نحتاج للتركيز عليه هو المستوى قصير المدى, حيث أثره المباشر على العلاقة و كيفية خلق أرضية مشتركة, خاصة أن استمرار الوضع سيكون مرتبطا بزيادة وتائر الضغط البدني و النفسي و هي حتما ستكون ذات أثرٍ سالب على الطرفين و على الزواج.

في التعامل مع المستوى قصير المدى يجب التركيز على اللحظة الحالية و الواقع و التعامل معهما من خلال ثلاث نقاط ارتكاز أساسية جوهرها تليين المواقف, و هي الاحترام و الحب و البراغماتية أو العملية.

هذه المراحل يجب التعامل معها بهدوء وعدم استعجال, و يتم فيها استكمال استحقاقات كل مرحلة و تحقيق أهدافها قبل الانطلاق للمرحلة التي تليها.هذه المراحل كما يلي:

المرحلة الأولي في تليين المواقف

هي مرحلة الاحترام, وما نقصده هو أن يضع الزوجان نصب عينيهما الاحترام, و جعله هاديا لكل خطى تفكيرهما. أي أن كل طرف يحترم قناعة الآخر حتى إن لم يتفق معه أو لم يقبلها, فعليه أن يؤمن بإن الآخر شخص ناضج و واعٍ و عاقل, وقد اختار هذه القناعة و هو في دواخله واثق من صحتها و صادق في تبنيها. إذن احترام الآخر وخياراته هو الأساس.

المرحلة الثانية في تليين المواقف

هي نقطة الحُب, و لا نقصد أن يبدأ الزوجان في بناء مشاعر لم تكن موجودة, بل نتحدث عن الانتباه لمشاعر قد تكون موجودة في لحظات ضعف, أو غطتها مشاعر سالبة من إحباط و غضب أو تراكمت عليها تفاصيل الحياة من روتين و معاناة ففقدت جزءاً من بريقها. إذن على الزوجين بدء إزالة الشوائب, و إرجاع لعلاقتهما بهائها و عنفوانها و ألقها. هذه المرحلة قد تأخذ وقتا لمعرفة العوامل التي قد تكون ساهمت في تراجع

قـوة الحُـب و عنفوانـه. بعـد تحديـد هـذه العوامـل إن كانـت عـوامـل ضغـط معلومـة و مشـاعـر سـالبـة , أو ضـاعـت مـع روتين الحيـاة و البـدء في تفكيكهـا وعلاجهـا.

بعـد تجـاوز المرحلتين و اسـتصحـاب قيـم الاحترام ومشـاعـر الحـب بين الطرفين, يبـدأ النظـر لقضيـة مسـؤوليات الزوجـة و الـدور الوظيفـي. حيـث أن الطـرفين مـازالا يحمـلان رؤيـتين مختلفـتين, و يجـب النظـر للقضيـة مـن زاويـة أخـرى,فنبـدأ بوضـع النقـاط الإيجابيـة للعمـل في الخـارج مـن بنـاء الشـخصيـة و الـوعـي و تحقيـق الـذات و بنـاء حيـاة اجتماعيـة بالاضافـة للجانـب المـادي. و كمـا نـرى أن النقـاط هنـا لا تسـتند على قضيـة خلافيـة فكريـة, بـل مجـرد التأكيـد على قيمـة المسـاواة للزوجين و حقـوق المـرأة. بعـد الاتفـاق على منطقيـة هـذه النقـاط, ننتقـل لرصـد صعوبـة العمـل المنزلي و اسـتحالـة التوفيـق لأسـبـاب محـددة, مثـلاً توسـع الأسـرة و ازديـاد الالتزامـات الاجتماعيـة و الإرهـاق الجسـدي و النفسـي المصـاحـب لهـذه الأعبـاء. و يتـم النقـاش تفصيليـاً حتى يـؤمن الـزوج بمسـتوى المعـانـاة التي تمـر بهـا زوجتـه في محاولتهـا خلـق التـوازن.

نصـل لختـام هـذه المرحلـة بـأن يُوجـه التسـاؤل للـزوج: مـاذا يسـتطيع أن يفعـل ليقلـل معـانـاة الشـخص الـذي يحبـه؟ كمـا نـرى أن السـؤال في هـذه المرحلـة ليـس لـه علاقـة بقنـاعـة الـزوج أو مطالبتـه بتغيير قنـاعـاتـه, بـل هـي مطالبـة بـأن ينظـر حولـه لحـال الشـخص الـذي يحبـه و يحـترم خيـاراتـه و هـو في وضـع نـاتـجٍ مـن أن خيـاراتـه جعلتـه يجـد مشـقـة في الاسـتمراريـة.

المرحلة الثالثة في تليين المواقف

هنـا تبـدأ مرحلـة التنـازل و المسـاومـة, حيـث نجـد الـزوج مثـلاً قـد يتبرع بـأخـذ الأطفـال و القيـام ببعـض الأعبـاء التي تجـدهـا الزوجـة كافيـة لتخفيـف العـبء عليهـا. ليـس مهمـاً في هـذه المرحلـة الاتفـاق الكامـل, بـل العمـل على مـا اتُفـق عليـه و مراجعتـه مـع الزمـن و النظـر في تأثير هـذا الترتيـب على مقـدرة الزوجـة

على التحمل. هذا الاتفاق على المستوى الآني لا يمنع استمرارية الحوار في جوهر الاختلاف الأساسي مع استمرار التباين في الرؤى.

(٣). الأسرة الممتدة أو النسابة و أزمات الزواج

الطرفة الشعبية و المزاح يقول إن (النسيبه نصيبة) أي مصيبة, رغم أن ثقافتنا السودانية تحتفي بدور الأسرة الممتدة , عكس ما يحدث في كثير من المجتمعات العربية التي رسمت للحماة صورة تقارب الشيطان في الدهاء و المكر و الرغبة في السيطرة. نجد عدم سيادة هذا الفهم في الثقافة السودانية, و الذي يقابله بصورة عكسية تجسد قيم الفرح و الاحتفاء بأهل الزوج و الزوجة. رغما عن هذا الواقع الإيجابي, لكن نجد في الحقيقة أن في كثير الزيجات تلعب الأسرة الممتدة دوراً سالباً إذا لم يتم التعامل معه بحذر. هذا الدور السلبي قد ينجح الزوجان في التغلب عليه, وفي بعض الأحيان قد يفشلان في ذلك فتكون الأسرة الممتدة سبب صراعٍ دائم قد يقود لهدم بيت الزوجية.

على الزوجين ابتداءً أن يعلما أن الزواج واقع جديد له قوانينه, و أن محاولة الآخرين التعامل مع الزواج يجب أن يتم بموضوعية تحترم خصوصية علاقة الزواج, و على الزوجين أن يتفهما دوافع الآخرين و ردود أفعالهم.

توقع الزوجين لأنواع العلاقات السالبة من الأسرة الممتدة تجاه الزواج قد يساعد كثيراً في التعامل معها بموضوعية و رسم حلول لها حتى قبل حدوثها.

نجد أن هناك حوالي عشرة مظاهر سالبة في علاقة الأسرة الممتدة مع الزواج, تتدرج في حدتها و قوتها من الرفض الكامل إلى مجرد صعوبة في التكيف و التمازج حيث نرى عدة أسباب للتوتر.

أسباب التوتر في الأسرة الممتدة

(أ). رفض الزوج أو الزوجة التعامل مع الاسرة الممتدة, و قد لا يخلو هذا التعامل من حدة و عدم حماس. و عادة ينتج هذا الواقع إما نتيجة لمشاعر الغضب أو الإحباط التي عادة ما تنبع نتاجاً لمواقف بدرت من أحد الطرفين أو أسرتهما, أو قد يكون نسبة لرغبة الأسرة في شخص آخر و لم يكن لرأيهم أو خيارهم أي نجاح أو قبول. إن مشاعر الإحباط و الحسرة قد تنبع أيضا من إحساس أن بنتهم أو ابنهم يستحق أفضل من ذلك, لأن الأسرة قد ترى أن الزيجة غير متكافئة مادياً أو اجتماعياً.

(ب). وجود مشاعر من الإحباط والغضب نتيجة لموقف قد لا يمنع الاعتراف بالزواج, بل يتم القبول به كأمر واقع لكن يصعب عليهما التعايش معه. لذا مهما حاول الزوجان بناء قنوات التواصل, يكون حاجز عدم القبول الذي يسيطر على العقول و النفوس ظاهراً على السطح في شكل ردود أفعال جافة و غير ودودة, كأنها تقول: «إننا قبلنا الزواج لكن لا نستطيع التعامل معك بصورة طبيعة, لأننا في دواخلنا لا نحبك بل كنا نتمنى عدم وجودك, و ما نحمله تجاهك هو شحنات من الغضب و الإحباط».

(ج).ظهور شحنات من الإحباط والغضب لدى الزوج أو الزوجة نتيجة لحقيقة أو توهم بعدم الترحيب و القبول. هذا السلوك يعطي الأسرة تبريراً نفسياً للتناقض الموجود في عقلهم اللاواعي,كإنهم يقولون لأنفسهم «انظروا نحن لسنا أسرة سيئة لا تحب زوجة ابنهم أو زوج بنتهم, بل نحن نفعل الصواب برفضنا لهذه الممارسات السيئة التي نراها,و إن سلوك الزوج و الزوجة يؤكد أننا كنا على حق عندما غضبنا أو أحبطنا من هذه الزيجة».

(د).نجد بعض الأسر المحاصرة بمشاعر الغضب و الإحباط تتجاوز مرحلة الأقوال لتبدأ فعلياً في هدم الزواج, فنرى الأسرة أما تزين لهما الطلاق

بإعتباره الحل الوحيد, أو تُحَرِّض الزوج للاقتران بالزوجة الثانية.

(هـ).في بعض الأحيان قد يكون السلوك السلبي ليس له علاقة بالزوجين أو بشكل علاقتهما, بل نجد جذور الأزمة في الأسرة الممتدة نفسها. حيث نجد بعض العلاقات بين الأسرة و بنتها أو ابنها بها مستوى من الارتباط المرضي الذي لا يحتمل فكرة الاستقلالية أو الابتعاد. هذا الارتباط المرضي عادة ما يكون متبادلاً بين الأم و بنتها أو ابنها, وقد يكون له جذوره و تمدد مع الزمن ليؤدي وظائف محددة. فالأم التي قد عاشت الحرمان في طفولتها أو تفتقد الأمان في زواجها, قد تكون علاقتها بأطفالها تعويضاً لذلك, لذا فإن خروجهم من حياتها سيخلق فراغاً لا يمكن تعويضه, و لا تستطيع قبوله أو التعايش معه. وسط هؤلاء نجد الزوج أو الزوجة هو الطفل الذي لم يكبر في نظرهم و الذي يحتاج لرعايتهم الدائمة, يعيشون في مراقبة و متابعة له و مقارنة لا تتوقف, بل نجدهم لا يخفون امتعاضهم من أن الطرف الآخر لا يقدم لطفلهم الكبير ما يحتاج من حب و اهتمام.. لذا هم دائما موجودون لتعويض طفلهم أو طفلتهم من الحرمان الذي يرون أنهم يعيشانه في حياتهما الجديدة.

من الجانب الآخر قد نجد أن الزوجة أو الزوج نسبة لتركيبتهما النفسية من توتر اجتماعي أو عدم ثقة في النفس, قد نشآ تحت ظل الأم أو الأب ولم يعيشا استقلالية يجدان فيها ذاتيهما, و كان الأب أو الأم دوماً مَوْجُوْدَيْنِ لتقديم الحماية و الدعم. هنا ليس من الغريب أن يشعر الزوجان بصعوبة الاستمرار في أي واقع اجتماعي جديد لوحدهما و يتحملان مسؤولياتهما, لذا نجدهما لا يستطيعان الفِطام من هذه العلاقة فيصبحان أكثر حرصا على أن تكون الأسرة الممتدة ليست قريبة منهما فحسب, بل تصبح جزءاً من دائرة الزواج و عضواً فاعلاً متداخلاً في كل تفاصيله.

(و). أحيانا نجد أن بعض الأسر الممتدة منغلقة على نفسها و متمسكة بتقاليدها, لا تمتلك المرونة أو الحماس للآخر. لذا قد يجد الزوج أو الزوجة

صعوبة في الاندماج ليس رفضاً لشخصيهما, إنما هي سايكولوجية تقبل الغريب و مدى الحماس له, و إلى أي درجة تحتمل سمات الاختلاف مهما صغُرت في عاداته و تقاليده, بل أحيانا مجرد شعور أنهما غريبان عن واقعهم قد يخلق حاجزاً يحتاج لفترة من الزمن حتى يتم هدمه.

(ز).في المقابل لشعور الغربة نجد نقيض ذلك, فعندما لا تحترم الأسرة الممتدة خصوصية الزواج, بل تشعر بأنه من حقها أن تكسر كل الحدود و لا ترضى في وجود فاصل بينهم و دائرة الزواج و خصوصياته التي يصعب عليهم احترامها. بل نجد محاولات مستمرة لا تعرف التراجع لدمج الزواج لداخل الأسرة الممتدة ليصبح جزءاً منها.. و يا ويل الزوج أو الزوجة لو حاول رسم بعض حدود الخصوصية, فعندها سيواجه بحملة شعواء و اتهامات بأنه يحاول الانعزال و الاستفراد ببنتهم أو «ابنهم « و إبعادهم عن حضن الأسرة و زرع بذور الجفاء.

قبل أن نتعامل مع وضع النسابة و تفاعلهم مع الزواج, علينا النظر لما يحدث بعمق, لأن الحلول دوماً توجد في ثنايا الأسباب.إن عملية البحث يجب ألا تكون مجرد سياحة في الذهن و استعادة للمواقف, بل هي نظرة نقدية نتوخي فيها الحياد بقدر الإمكان, و نحاول فهم وجهة نظر الأطراف الأخرى, و كيف يمكن لابنهم أو «بنتهم» أن يساهم بقدر كبير في تفسير وجهة نظرهم و ردود أفعالهم. محاولة القراءة الموضوعية لأسباب الخلاف من الضروري أن نتعامل معها بحذر شديد, و أن لا تكون سببا لازدياد الاختلاف و اشتعاله.على كلا الزوجين توخي الحذر عندما يحاول أحدهما تفسير سلوك أسرته وردود أفعالها لنصفه الآخر, فمن السهولة بمكان أن يفقد الموضوعية و يبدأ بدلاً عن أن يفسر سلوك أسرته فيقوم بإظهار التعاطف مع موقفهم. أيضا من السهولة أن يرفض الزوج أو الزوجة رأي نصفه الآخر خاصة عندما تتكشف له رؤية جديدة أو تفسير يجعله يفكر في إمكانية أنه ربما قد أخطأ في حق نسابته, و من السهل اتهامه بأنه منحاز

لأسرته و أنه لم يكن موضوعياً.

عندما نصل لأسباب السلوك المرفوض عادة ما يكون ذلك أكثر من نصف الحل.

العلاقة السالبة تنتج من مواقف معلومة, لذلك يجب النظر في كيفية إزالة هذه الشوائب, و مسح ما في القلوب من مشاعر بالنظر لما حدث و محاولة تقويمه. فإن كان هناك سوء فهم يصبح تصحيحه واجباً,و إن كان هناك خطأ فالاعتراف بالخطأ هو بداية التعافي. بعدها يتم النظر لأفضل الطرق للاعتذار, و الذي قد يكون صريحاً و مباشراً, أو في بعض الأحيان بصورة غير مباشرة بتغيير تعاملنا و إضفاء لمسات إيجابية في العلاقة تثبت اهتمامنا المختلف.

في كثير من الأحيان لا نجد سبباً معلوماً أو موقفاً محدداً قد قاد للتعامل المأزوم هذا.. لذا يجب النظر بعين مفتوحة لكل الأسباب المحتملة , دون الاحتكام لنظرية الارتياب و الإيمان بأن النسابة لهم أسبابهم الخفية و مصالحهم في التعامل بهذه الطريقة.

النظرة الموضوعية و المنفتحة في كثير من الأحيان ستكشف لنا أن هناك عوامل أخرى كثيرة تساهم في خلق آثار سالبة على علاقة الزواج, تؤثر على النسابة بدون وعي منهم و دون انتباه لتأثيرها و تشكيلها لنوع و نمط علاقاتهم. من هذه الأسباب قد نجد بعض جذور التوتر.

(أ) جذور التوتر و قلق الانفصال

هي عادة و ليست حالة مرضية, و قد تحدث عند الأطفال لكنها عند الكبار تظهر تجلياتها في عدم المقدرة على التعامل مع فراق من نحب. كتب كثير من علماء النفس عن ظاهرة العش الخالي, و تأثيرها في المجتمعات الغربية الذي يظهر مبكراً مع مغادرة الأبناء منازل الأسرة و بدء حياتهم الخاصة. في مجتمعاتنا و في ما يخص المرأة, يَرَوْنَ الأ تغادر منزل العائلة الا بعد الزواج. إن مشاعر العش الخالي عادة تتأثر بوجود بعض الإخوة

و الأخوات في منزل العائلة, كما تتأثر بقوة العلاقة و نوعها مع الابن أو الابنة. مظاهر العش الخالي و التي وُجِدَ أنها تؤثر على الأم أكثر, ربما لأنها التي كانت حياتها مكرسة لأطفالها و مشاكلهم, لذا فإن كثيراً من ذاتيتها تتحق من خلال وجودهم في حياتها, و غيابهم من حياتها سيعني بالضرورة خلق فراغ عريض لغياب الهدف و المعنى الذي كرست حياتها من أجله. أيضا يتعمق إحساس العجز و عدم السيطرة لأنها فقدت المقدرة على تشكيل حياة الأطفال و رسمها, و فوق ذلك نرى مجموعة من المشاعر و الأحاسيس المتباينة التي قد تسيطر عليها أحاسيس الفقدان أو الحرمان العاطفي من التواصل المستمر أو القلق على ما يحدث لأبنائها و بناتها بعيداً عنها..

قلق الانفصال عند بعض الناس قد يظهر في صور سالبة في محاولات التشبث أو إيجاد مكان دائم لهم بصورة قسرية في زيجة أبنائهم و بناتهم.

(ب). الخسارة و جذور التوتر

الخسارة هنا لاتعني الخسارة المادية, رغم أن الخسارة المادية قد تكون من العوامل الواضحة و المؤثرة على الأسرة عند زواج أحد افرادها و تحمله أعباء جديدة. لكن الخسارة لها بعد و عمق يتجاوز الماديات للخسارة الاجتماعية و العاطفية,و التي قد تظهر في تراجع وضع الأسرة الاجتماعي ومدى اهتمام الآخرين بهم, مما قد يؤثر حتى على نمط حياة الأسرة و مستوى التفاعل في داخلها و مستوى الرضا و القبول العاطفي بحياتهم.

(ج). التنافس و الملكية و جذور التوتر

بعض الأسر تسود في دواخلها إحساس الملكية تجاه أبنائهم وبناتهم, و كيف أنهم قد اجتهدوا في تربيتهم و في قرارة أنفسهم إحساس بأنهم الاستثمار الذي وضعوا فيه كل شقاء العمر طوال السنين. يصاحب هذه النظرة في بعض الأحيان إحساس الثمرة التي تعبت الأسرة في رعايتها,و عندما نضجت و حان قطافها يأتي شخص غريب لم يجتهد معهم ليستمتع

بها جاهزة و ناضجة. لذا تكون في داخل الأسرة أو بعض أفرادها إحساس الملكية, و أنهم الأحق و الأولى. هذا الإحساس يقود لجو من التنافس و المقارنة بين ما يقدم الزوج أو الزوجة لأسرته الجديدة و لأسرته الممتدة.

(د). جذور التوتر و انهيار ضلع المثلث

ما نقصد بذلك أن الحياة في داخل الأسرة الممتدة تكون ثلاثية الأبعاد, الأب و الأم و الأبناء. بعد زواج الأبناء تصبح العلاقة ثنائية بين الأب و الأم, وفي كثير من الأحيان قد يجعلهم الوضع الجديد أكثر قرباً و اهتماماً ببعضهم البعض , و تعود العلاقة كما كانت بينهما كزوج و زوجة. في بعض العلاقات غياب الأبناء قد يكون له أثر سالب على العلاقة, فقد تظهر كثيرٌ من الشروخ و التناقضات لم يكن هناك وقت للاهتمام بها, حيث كان دور الأب و الأم و وظيفتهما على حساب دور الزوج و الزوجة. بعد أن عادت الحياة لطبيعتها كزوج و زوجة, بالإضافة لهذه الشروخ, فإن الزوجين قد يكتشفان مساحات متمددة من الاغتراب و البرود كانت تغطيها وجود الأبناء. هذا الواقع الجديد و الحقيقة العارية لضعف الحميمية بين الأبوين في الأسرة الممتدة و ما يصاحبها من توتر و إحباط, في معظم الأحيان لا يسعى الزوجان لبناء ما انهدم, بل يسعيان للبحث عن المخدر الذي كان يخفي مواقع الآلام و هو محاولة استعادة العلاقة الثلاثية و تحاشي العلاقة الثنائية و ما يصاحبها من الألم و البرود.

إن الانتباه لهذه العوامل وسط الأسرة الممتدة تساعد في فهم دوافعهم, و من خلالها يمكن استنباط أفضل الطرق لمعالجة و رسم العلاقة معهم.

التواصل مع النسابة كما ذكرنا بقدر ما قد يكون عاملا إيجابيا يضيف للعلاقة الزوجية بعداً مهما,و لكن في بعض الأحيان يكون سبب التعاسة الأول. لذا من الأهمية بمكان أن يسعى الزوجان لبذل كل الجهد الممكن لجعل من وجودهما عامل سعادة و فرح و إضافة إيجابية لزيجتهم, و ذلك بالاهتمام بالعلاقة مع النسابة حتى قبل أن تبدأ, عن طريق تهيئة النفس

و ترتيب العلاقة.

تراكم التجارب قد أثبت أن التعامل بمنهج محدد و تصور معلوم يساهم عادة في خلق العلاقة الإيجابية التي نحلم بها مع النسابة, و هي حتما أفضل كثيراً من انتظار ظهور العقبات و السعي لحلها, برسم ملامحها في بناء الإطار الصحي و المتين.

إطار التعامل مع الأسرة الممتدة

(أ). النقطة الأولى هي إقرار الزوجين بأن العلاقة الزوجية هي الأساس, و أي علاقة أخرى تكون ثانوية بالنسبة لها. هذا لا يعني بأي حال عدم أهمية الأسرة الممتدة أو سهولة التضحية بها عند أي منحنى, إنما يعني أهمية العلاقةالزوجية باعتبارها الأساس الذي تدور حوله بقية العلاقات.

(ب).التعامل مع الأسرتين الممتدتين كوحدة واحدة, حيث تتعامل الزوجة مع أهلها و في بالها احترام زوجها و تقديره كخط أحمر لا تقبل أن يتجاوزه أحد و أنها هي وزوجها جزء واحد, و بنفس القدر يكون الزوج مع أسرته طارحا نفسه هو و زوجته كجسم واحد لا يقبل المساس به و يسعد بحسن التعامل معه.

(ج).ضرورة الاتفاق بين الزوجين في رسم خطوط لعلاقتهما, و رسم تفاصيل ماهو ملك خاص للعلاقة و ماهو مفتوح و مسموح للآخرين. إن أسرار العلاقة و خصوصياتها يجب أن يلتزم الطرفان بتقديسها, فلا يسمحان لأسرتيهما بمحاولات الدخول فيها, و لا يحق لطرف منفرد أن يُقدم تفاصيل خاصة عن حياتهما مهما كانت بساطتها, إذا لم يضمن رضاء الطرف الآخر و موافقته.

(د).توزيع الأدوار حيث يجب على الزوجين أن يعلما بأن لكل منهما مسؤوليات و أداور معلومة و محددة يجب أن يقوم بها كل طرف بتقديم الجانب الإيجابي لأسرة الآخر من احتفاء و كرم و تقدير, فالزوجة مسؤولة

عن أهل زوجها و على الزوج مسؤولية تجاه أهل زوجته. أما في القضايا الحساسة المرتبطة برسم الحدود أو العتاب على تجاوزات و تفلتات, فيقوم بها الزوج مع أسرته و الزوجة مع أسرتها.

(هـ) تذكر من هم و من أنت, فينبغي دوما أن تضع نصب عينيك السؤال التالي: من هم و من انت؟ هما والدا نصفك الآخر و شريكك في الحياة, و إن سعادتهما و رضاهما حتما سيؤثر عليه. هي ليست معركة بين خصمين, و من الأهمية ألا يكون فيها منتصر و مهزوم, لأنه إذا حقق أحدٌ فيها كل ما يريد سيعني بالضرورة أن الآخر قد خسر الكثير. إن فرح طرف سيعنى حزناً و توتراً لدى الطرف الآخر, مما سيقود إلى أن يسلبك فرحتك بتأثيرها على نصفك الآخر, لذا يجب أن يكون سعيك بأن تحقق أهدافك مع رضاء نسابتك و بدون أن تزرع أحاسيس المرارة في نفوسهم. ذلك لن يتم إلا إذا كانت هناك قابلية للتنازل و المرونة و النظر ليس للمكاسب الآنية, بل النظرة المستقبلية لعلاقة ستدوم و تعيش مع الزمن. مع نظرتك للعلاقة باعتبار أنها ليست معركة, فلا تضطر لاظهار مخالبك فيها, لذا ستحتاج لأجمل ما تملك من وداعة و محبة في التعامل معهم. من أساسيات ذلك السيطرة على أي مشاعر سالبة أو انفلات لمشاعر الغضب أو رغبات الهجوم و التشفي بل إعلاء قيمة التسامح و المحبة.

(٤). التباين و الاختلاف الفكري و منحنيات الزواج

لا نتوقع أن يكون الزوجان متطابقين فكرياً, بل يمكن القول إنه ليس بالضرورة وجود التطابق الفكري لينجح الزواج. هناك أساسيات في تركيبة كل شخص يمكن أن نسميها بصمته الفكرية, و هي التي تمثل شخصيته, و فيها تتجسد القناعات الجوهرية, فيجد من الصعوبة التعايش مع شخص يمتلك بصمة فكرية متناقضة أو متنافرة مع بصمته الفكرية. مثلا إذا كان شخصاً بصمته الفكرية الجوهرية هي الإيمان بالله, فإنه يصعب عليه التعايش مع من تكون بصمته هي الإلحاد و عدم الإيمان بالله. بعض

البصمات الفكرية قد تحتمل التعايش مع المضاد لها, إما لعدم أهميتها لدى حاملها أو أنها لاتمثل ركناً مركزياً في شخصيته. فمثلا قناعة أهمية الكرم و مساعدة الآخرين لدى أحد الزوجين قد تجعله يتعايش مع النصف الآخر الذي يتصف بالبخل و الذاتية. يجب التذكير بأن هذا المثال لا يعني أن البخل على إطلاقه مشكلة بسيطة يسهل التعامل معها.

تظهر المشاكل عندما يبرز تناقض في القناعات بين الطرفين, إما لاكتشاف قناعات لم تكن معلومة أو تطور بعض القناعات لتصبح مؤثرة و قوية في شخصية أحد الزوجين, و تبدأ محاولات إقناع النصف الآخر بقبول هذه القناعات أو التعاطف معها و ما يصاحبها من سلوك. يظهر التوتر عندما يبدأ التحاورأو التواصل, فيجد صاحب القناعة صدوداً أو حائطاً من عدم القبول أو الهجوم المضاد.

عندما تظهر علامات التوتر نتاج اختلاف في الرؤى أو السلوك, يجب على الزوجين عدم تجاهل هذا التناقض أو الركون على أن الزمن قادر على تغيير الأفكار و السلوك, بل ينبغي أن يتعامل الزوجان مع الاختلاف بينهما بصورة واعية و مدروسة, و اتباع خطوات موضوعية لتجاوزه أو التعايش معه. إن الخطوات العلمية لتجاوز الاختلاف تتمثل في الالتزام بقوانين الاختلاف.

إطار الاختلاف و قوانينه

(أ). سلم الأولويات

و هي الخطوة الأولى التي يجب أن يبدأ الزوجان بترتيب أولوياتها و وضع قضية الاختلاف في موقعها الطبيعي. ينبغي أن يضعا في ترتيب الأولويات مقارنة بين أهمية العلاقة و ضرورة استمراريتها. هذا التمرين العقلي تأتي أهميته في وضع الخلاف في موقعه الطبيعي, و إعطاء الزوجين معياراً يستطيعان به قياس الأهمية الحقيقية لحجم الاختلاف. هذا المعيار و مقارنة الاختلاف الفكري بحجم العلاقة يجعل الزوجين يمارسان ضبطاً لوتائر الاختلاف و إعادة صياغة حجم توقعاتهما و تفاعلهما مع الاختلاف

و تأثيره, و يصبح السؤال الذي يكون متحكماً و ضابطاً للإختلاف هو «إلى أي درجة أنا حريص على كسب هذه القضية إذا كان هذا بالمقابل سيقود إلى تأثير على العلاقة؟؟

(ب) .الاحترام

رغم أنها قيمة أساسية في أي علاقة إنسانية, الأ أن في كثير من الأحيان تتراجع أهميتها و قد تختفي دون أن نشعر. الاحترام في بعض الزيجات أو عند بعض الأفراد لا يعرف الاحترام بما فيه من قيم و أركان, بل يصبح مُعَرَّفاً بالنفي أو بمعنى آخر مُعَرَّفاً بما ليس فيه, و يصبح الاحترام يمثل عدم الإساءة و التقليل من المكانة. إن التعريف الحقيقي للاحترام هو التقدير حتى في لحظات الاختلاف. هذا التقدير ليس شعوراً داخلياً فقط, بل يجب أن يتجسد في سلوكنا و أقوالنا. في لحظات الاختلاف يجب أن يكون من مرتكزات الحوار تقديرك لرؤية الآخر مهما شعرت بأنه أخطأ, و أن الفكرة لا تستند على المنطق أو العقل, بل الأساس هو أنها فكرة قد صادفت قبولاً و اقتناعاً عند الآخر, و إن إحترامك لشخصه يعني احترامك لأفكاره و عدم التقليل أو السخرية منها, واضعاً في حسابك أن التقليل و السخرية من الفكرة هي درب وعر سيقود للسخرية من صاحب العقل الذي تقبل هذه الفكرة و اقتنع بها.

(ج) .التحاور أم الفوز

الأساس في التواصل مع الآخر أن يكون الهدف معلوماً و الغرض واضحاً, فالنهايات المعلومة تحدد نوع البدايات و الأدوات المستعملة لتحقيقها. يجب أن يكون واضحاً للزوجين أن الهدف من طرح رأينا و مناقشة الرأي الآخر ليس فرض رأينا, و إن النقاش ليس هدفه الفوز و التغلب على الرأي الآخر. الهدف الذي ينبغي أن لا يغيب عن الزوجين أن التحاور يجب أن يكون هدفه خلق التقارب و الوصول لأرضية وسطية ترضي الطرفين, و الانتباه لأن التقارب هو الهدف الحقيقي الذي يجعل الزوجين أكثر مرونة لتقبل الآخر و تفتحاً للبحث عن مناطق الالتقاء, بدلا عن الانتباه لنقاط الخلاف.

(د) .زوجك ليس خصمك

رغم بساطة الفكرة و وضوح المعلومة, لكن الحقيقة أن كثيراً من الأزواج في جو الحوار يصبح نصفهم الآخر خصماً و ليس حبيباً. عدم الانتباه لهذا الانزلاق يغير صورة الزوج ليصبح خصماً و متصفاً بكل السمات السلبية المرتبطة بالخصومة.

فالخصومة في تركيبتها هي أقرب لأن تكون في مدارج العداء و لا علاقة لها بدروب المحبة و المودة, لأنها تقود إلى أن يَتَمَتْرَس كلٌّ في مكانه, و تدعو للهزيمة والانتصار و لا مساحة في تركيبتها للتقارب و المحبة.

(هـ).من أهم قواعد التحاور هي الالتزام بأدب الاختلاف و قواعد التواصل الموضوعية و المنطقية التي تقود لنقاط التقاء, و تكون سبباً للتقارب و ليست مدعاة للتنافر. قد كتبنا بتفصيل أكثر عن التحاور و أدب الاختلاف في الفصل الثالث.

(ز) .الزمان و المكان

الحوار و التواصل لا ينفصلان عن الظروف المحيطة بهما, حيث يجب اختيار الزمان و المكان المناسبين. عندما نتحدث عن المكان المناسب يخطر في ذهننا غرفة النوم التي يمكن أن نصفها بمحراب الزوجية,و يجب أن تكون مكاناً مقدساً للتواصل الودود. هذا المحراب الذي يجب أن يخلع كل زوج نعليه على بابه, و يترك كل سلبياته تجاه الآخر في أعتابه, و أن يدخله بقلب صافٍ و إن كان مُحملاً بالهموم و الآلام و ليس للآخر طرفا فيها ولا دور, حتى يعطيه الفرصة لمسح الآلام و امتصاصها. لذا من الأفضل أن تخلو غرفة النوم من النقاشات الحادة و التحاور السالب في الآراء المتباينة. إذا جلس الزوجان في أي مجلس خارج غرفة الزوجية, و حتى إذا لم ينته الحوار و لم يصل إلى نهايته, ينبغي أن يُقْفَل الموضوع في مكانه و أن يُفتح في زمن آخر, و ألا نَحْمِلَهُ معنا لغرفة الزوجية.. هذا الترتيب سيجعل من غرفة الزوجية الملاذ الذي يضمن فيه الزوجان السلام و راحة البال, و

هو المكان الذي تتهيأ فيه كل العوامل و يجد الإنسان راحته الفسيولوجية في النوم و سعادته البيولوجية و النفسية في العلاقة الجسدية و الارتياح العاطفي و الهدوء في التناغم و عدم التنافر. هذا الوضع سيجعل من آخر اليوم و غرفة النوم مسرحاً لطقوس تعيد توازن الإنسان يومياً, و تزرع الفرح و تغسل ما بدواخله من توتر و ضغوط. اختيار مكان التحاور يجب أن يتسم بالهدوء و الخصوصية, بعيداً عن الآخرين ليقلل من احتمالات التطفل و انقطاع الحوار. تحديد الزمان هو عامل حساس و مهم, حيث أن اختيار الزمن الخطأ قد يقود للنتائج الخطأ, بغض النظر عن جوهر الاختلاف و العكس صحيح, فاختيار الزمن المناسب سيقود لنتائج إيجابية بغض النظر عن موضوع الاختلاف. من أهم عوامل الزمن المناسب هو اختيار الوقت الذي يكون فيه النصف الآخر مهيئاً و مستعداً للحوار, لذلك يجب تحاشي أوقات التوتر النفسي من غضب و توتر أو اكتئاب وحزن, و اختيار الوقت الذي يكون فيه الزوج أقرب لطبيعته النفسية. من الأهمية بمكان أن لا يكون الطرف الآخر مشغولا أو مهموما بقضية محددة تمنعه من التركيز و الانتباه. الزمن في اختياره يتطلب تحديد مساحات محددة حتى لا يصبح عجلة تدور طوال اليوم أو الأسبوع بلا انقطاع. إذن أفضل الطرق لبدء أي حوار في نقاط اختلاف هي تحديد زمن محدود و دعوة الشريك للجلوس مع إعطائه الحق في عدم القبول, بغض النظر عن أسبابه من انشغال أو عدم استعداد و جاهزية. عدم القبول للجلوس ليس شيكاً على بياض لِيُعْطِي البعض فرصة التهرب و عدم الحوار و عدم حسم الاختلافات. إن أي اعتذار يجب أن يصاحبه تحديد واضح لموعد بديل و مناسب للجلوس سوياً.

(ك). الحسم

من أهم نقاط الحوار عدم القلق بضرورة حسم الخلاف أو استعجال زمن الانتهاء منه. يجب أن يكون الأساس محاولة للتلاقي في منطقة وسطى للتفاهم, قد نصلها أو قد لا نصلها. ليس هناك ضرورة بوجوب الوصول بأي طريقة, لذا ينبغي أن نكون مهيئين بأننا قد لا نصل لنقاط تلاقي. حينها يصبح من حقنا أن نتفق في استمرارية التحاور بدون سقف زمني, أو القبول بأننا مختلفين في هذه القضية و ليس هناك مساحة للاقتراب أكثر من ذلك. هذا قرار يتخذه الطرفان سويا و لا يفرضه أحد على الآخر, و عادة إذا استمر الحوار في هذا الموضوع لا يصاحبه أي تقارب بل دوران في نفس النقطة, مما قد يقود لضياع الزمن و احتمال ظهور أحاسيس الإرهاق و التوتر. لذا يصبح خيار الاتفاق على عدم الاتفاق خياراً عملياً و مفيداً للطرفين.

(ل). خصوصية الخلاف الديني

يعتبر الاختلاف في القناعات الدينية حالة خاصة من اختلاف الرؤي, حيث أن بعض القناعات الدينية هي من أنواع القناعات المغلقة غير القابلة للتغيير, لذا ليست هناك مساحة كبيرة للتنازل فيها أو نقاط وسطية للالتقاء, فتكون أبواب الحوار موصدة. هذا يجعل الحوار ينتهي قبل أن يبتدئ بنتائج قطعية لا تحتمل التغيير و التنازل. هذه القضايا ليست متفق عليها من حيث أهميتها العقائدية, بل تعتمد على قناعة الفرد و فهمه للمقاصد الدينية. فمثلا نجد بعض القضايا ذات الطبيعة المغلقة مثل زي المرأة و الاختلاط و الديون الربوية, فنجد البعض قد يكون مُنغلقا في إحداها و متساهلا مع الأخرى, رغما أنه ليس هناك معيار شرعي ليحدد أيها أكثر خطورة و لا تحتمل التنازل و التساهل. الحوار أو محاولات الحوار في القضايا المغلقة هي مستنقع رمال متحركة حتما سيقود لغرق الزوجين,لأن صعوبة خلق قنوات التحاور في القضايا المغلقة يجعل منها

بؤرة للتوتر و خميرة للعكننه و الخصام.

لذا فإنه من الضروري أن تُحسم قضايا القناعات المغلقة و تحديد ماهيتها, لأن عليها يستند بناء الزوجية باعتبارها مُسَلَّمَات. تصبح بقية القناعات الدينية هي قضايا خلافية لا تسمح بالتحاور حولها مثلها و مثل بقية القضايا الأخرى. إذن من الأهمية بمكان أن يتحدث الزوجان قبل الزواج عن قناعاتهما المغلقة, و التي قد تصبح عائقا حقيقيا في تطور العلاقة إذا لم تُحسم قبل بداية الارتباط و الدخول في العلاقةالزوجية.

(ه). التفهم و التأقلم و أزمات الزواج

لا يكفي أن يعلم الزوجان أن الحياة الزوجية مختلفة عن حياة العزوبية, بل عليهم استيعاب هذا الاختلاف و تأثيره على كل منهما. إن جوهر التغيير ينبع من خروج الفرد من دائرة الذاتية إلى دائرة الآخر, و مغادرة حركة الحياة التى كانت تنطلق من منصة «الأنا» إلى منصة «نحن». هذا التغيير يجب أن يتم على كل مستويات الفرد من عقلي و عاطفي و سلوكي. كثير من الاختلافات تنبع من عدم اكتمال دائرة المثلث هذه, حيث يكون الزوج أو الزوجة مؤمناً و مقتنعاً بضرورة العمل بمنهج مختلف أو طريقة جديدة بعد الزواج, لكن هذه القناعة الجديدة قد لا تكون جذابة بل قد ترتبط بمشاعر سالبة لا تساعد هذه الفكرة على التنفيذ. في بعض الأحيان قد تصاحب القناعة الجديدة مشاعر إيجابية, لكن تنفيذها قد يصبح صعباً نتيجة لطغيان قانون العادة و التعود أو الخوف من التغيير.

من وسائل النجاح في التأقلم مع واقع الزواج أن نسلك منهجا علمياً و موضوعياً في التعامل معه يستند على أربع قواعد هي: تحديد مواقع التغيير, و ترتيب الأولويات, و رسم طريق جديد و ختاماً مناقشته و تطبيقه مع قابلية التغيير و التطوير استنادا على قوانين التأقلم. أبسط قوانين التأقلم في الزاواج تعتمد على التفاهم و الحوار و المرونة.

الزواج يرمي بظلاله على كل جوانب حياة الفرد, لذا نتوقع أن يحدث

تغيير في كل مفاصلها. سنتطرق لثلاث قضايا ليست هي الوحيدة, لكنها كثيراً ما تتردد في عيادات المشاكل الزوجية. هذه القضايا الثلاث هي الموارد المالية و الصرف, والعلاقات الاجتماعية و الهوايات, و أخيراً البقاء في المنزل.

إذا نظرنا إلى الجانب المالي, يجب أن نبدأ على حقيقة أن واقع الزواج يعني تغييراً في أولويات الصرف و ذلك استنادا على الفهم الاجتماعي لمسئوليات الزواج. تختلف المسؤولية على حسب فهم الزوجين و ثقافتهما و واقعهما, فإما هي مسؤولية كاملة على الزوج أو بمساعدة الزوجة في بعض الأُسر. القضية المالية قد تبدأ في الخلاف حول ضعف الموارد و ضرورة الاجتهاد لزيادة الدخل ليتناسب مع واقع الزواج و المسؤوليات الجديدة. هذه النقطة من المهم الاتفاق عليها بعد الزواج مباشرة حتى يعلم الزوجان مواردهما الحقيقية, و أن لا يدفع الطرفان بعضهما البعض للعراك حول ضرورة دعم الموارد, و هي قد تكون شبه مستحيلة ولا طريقة لتحقيقها. لذا القبول بالواقع المادي و الواقعية في التعامل مع إمكانية زيادة الموارد يجب الاتفاق عليها قبل الزواج ما أمكن ذلك. كثير من الخلافات قد تنشأ من الوعود البراقة من تحسن الواقع المادي, و التي ليست بالضرورة أن تكون نابعة من الكذب أو الخداع أو محاولة تلميع صورة الزواج و تجميل المستقبل, بل قد تكون مستندة على نوايا صادقة في العمل الجاد لزيادة الدخل و الموارد. حجر الأساس و البداية الصحيحة أن تبدأ العلاقة و تُؤسَّس باعتبار ما هو موجود من موارد, و غير ذلك تصبح مجرد أمنيات لا يُعَوَّل عليها مهما كانت صادقة. النقطة الثانية التى تحتاج للترتيب و التأقلم قضية من هو المسؤول عن الصرف و حجمه و طرق توزيعه. نجد أن بداية الخلاف تنبع من رغبة أحد الزوجين بالتحكم في الصرف و مقداره, و أوجه الصرف و تحديد درجة أهميتها من عدمه.

القضية الثانية التي تثير كثيراً من الاختلاف هي قضية العلاقات الاجتماعية مع المجتمع و الأسرة الممتدة أو الأصدقاء. العلاقة مع الأسرة

الممتدة تحتاج إلى كثير من الحذر و التعامل الموضوعي. إن أرتباط الزوجين بأسرتيهما خاصة الأم و الأب تحكمها عوامل كثيرة من عمق ارتباط الزوجين بهما, و اعتمادهما على أبنائهما و بناتهما في تصريف حياتهما. لذا يصبح زواج الأبناء و البنات مؤثراً, ليس عاطفياً فقط, بل في مقدرتهما على التعامل مع تفاصيل الحياة اليومية. فالأم التي تعتمد على بنتها في زيارات الأسرة أو زيارات الطبيب, والأب الذي يعتمد على ابنه في اصطحابه للعمل أو الاجتماعيات, سيصعب عليهما التخلي عن هذه الالتزامات بين عشية و ضحاها. كذلك الأصدقاء و زملاء العمل الذين كانوا يمثلون مساحة كبيرة في حياة الزوجين, قد يصبح من الضروري ترتيب هذه المساحة التى حتما سيأخذ الزواج منها نصيباً مُقدراً, و يكون من الاستحالة توفير نفس مساحات الزمن التي كانت موجودة قبل الزواج. العلاقات الاجتماعية قد تكون مرتبطة بمناشط و هوايات مشتركة أو اهتماماً فردياً, و حتما ستأخذا حيزاً من زمن الزوجين. هذا الزمن و الاهتمام لا محالة سيتغير بعد الزواج, و تصبح القضية إلى أي درجة يتقبل الزوجان هذا التغيير.

القضية الثالثة التي تثير كثيراً من الخلاف هي البقاء في المنزل, و هي نقطة تؤثر على الزوج بصورة أكبر. في الثقافة السودانية نجد أن الرجل كائن مجتمعي لا يستطيع أن يبقي في المنزل لفترات طويلة, و يرى نفسه حبيساً مفتقداً لحريته. هذه الحياة طليقة الحركة غير المقيدة بالمنزل لا تتناسب مع واقع الزواج و مسؤولياته, فتصبح الأزمة دوماً في مقدرة الرجل خلق التوازن المطلوب بين وجوده في المنزل و في خارجه.

عندما نتحدث عن ترتيب الأولويات, فإن كثيراً من الأزواج لا يختلفون مع مبدأ ضرورة فعل ذلك بعد الزواج. ينبع الاختلاف من أن معظم الأزواج ينظرون لترتيب الأدوار من وجهة نظرهم دون اعتبار لرؤية نصفهم الآخر. ترتيب الأدوار و الوظائف و النجاح في التأقلم مع الواقع الجديد لن ينجح إذا لم يتخلص الفرد من ذاتيته و نرجسيته, و رَسَمَ لنفسه بكل موضوعية دوراً يمثل رؤية الاثنين, أو يجد درجة من القبول لدى الشريك أو النصف

الآخر.

أولى خطوات النجاح هي عندما نبدأ تقسيم الأدوار و ترتيب الوظائف التي تستند على ذاتية محايدة غير مُستلبة بالنرجسية أو الأنانية الضيقة.

قضايا العلاقات الاجتماعية و الهوايات و البقاء في المنزل رغم تباينها لكنها تصب في نقطة واحدة, و الحلول تنبع من نفس المصدر ألا و هو إدارة و تنظيم الزمن, و هي قضية محورية سنعود إليها في صفحاتنا القادمة.

أما النجاح في القضايا المالية والصرف فتعتمد على قاعدة أساسية هي توزيع المسؤوليات و الموارد, و مع كل مسؤولية تأتي حرية التصرف في داخل حدود المسؤولية, مما يوفر أحاسيس الاستقلالية واحترام الذات. نجد تقسيم الموارد لأربعة أقسام حسب المناشط في الحياة الزوجية, حيث يُعطى الزوج و الزوجة نصيب محدد لاحتياجات كل منهما الشخصية, والجزء الثالث لاحتياجات المنزل و الأسرة, و الأخير يُدَّخَر للمستقبل أو للتعامل مع أي طارئ أو احتياج غير متوقع. أهم عامل في تقسيم الموارد و المسؤوليات هو أن من يكون مسؤولاً عن أي وظيفة من هو أكثر مقدرة و دراية, فقد تختار الزوجة مسؤولية ميزانية البيت, و الزوج مسؤولية التوفير, و قد يكون العكس فهي تُحَدَّد حسب الرغبة و الامكانات و لا تُفرض.

رسم خارطة طريق للأدوار رغم أنها يجب أن تأتي بالتشاور و القبول لكنها ليست قانوناً ثابتاً غير قابل للتعديل. لذا من الضرورة أن يعلم الطرفان أنه ليس مهماً من هو المسؤول بل المهم أن يعلما أن المسؤولية ليست ثابتة, بل ترتبط استمراريتها بمدى النجاح في إدارتها. إذا فشل طرف في النجاح في تحمل مسؤوليته, عليه القبول بأن تؤخذ منه هذه المسؤولية و لو إلى حين.

(٦). تنظيم الزمن و أزمات الزواج

عندما نتحدث عن تنظيم الزمن فإننا دون أن نشعر نتحدث عن الفرد و ذاتيته, و مقارنة ذلك مع الآخرين. لذا فالزمن يُعَبِّر عن قيم أساسية في الزواج تنعكس عليه و تظهر معه. هذه القيم مثل التفرد و الاستقلالية و التبعية والزواج و المجتمع.

التفرد هو قيمة الإنسان كوحدة واحدة متميزة بأفكار و مشاعر لا تتطابق مع شخص آخر. هذه الوحدة من الطبيعي أن تكون لها احتياجاتها التي تُعَبِّر عنها, و هي لا يمكن بالضرورة أن تجد كل الإجابات في داخل الزواج. التفرد يعني تراكم أفكار و هوايات تمثل الفرد و تشكل شخصيته, و لا يمكن أن يلغيها أو أن يعيش بدونها, بل أن واحدة من الاحتياجات الطبيعية أن يشعر الفرد برغبته في أن يكون وحيداً مع نفسه, ليعيش في عالمه و دواخله أو حتى الرغبة في الانفصال عن العالم و من دوامة الحياة و لو لمجرد دقائق. لذا يصبح وجود زمن خاص للفرد - إن كان متزوجا أو غير متزوج - رغبة مُلِحَّة و حاجة منطقية للتواصل مع الذات. هذا الزمن رغم أهميته للتطور الذاتي للفرد داخل العلاقة, إلا أنه يمثل صمام أمان للزوجين يقدم لهما مساحة للنظر في دواخلهما, و يساعدهما في الحفاظ على ذاتيتهما المتفردة و يحميهما من طمسها و خطورة الذوبان في الآخر. الزمن للفرد في داخل الزواج هو انعكاس طبيعي لدوره الاجتماعي, فالزواج ليس وظيفة تستلب الفرد و توفر له كل احتياجاته.. فكل إنسان لا يكون زوجا أو زوجة فحسب, بل هو ابن و صديق و موظف و زميل و جار, و كلها أدورار و وظائف اجتماعية تعبر عن احتياجات طبيعية متباينة في نوعيتها, لكنها ضرورية للفرد, ولا يستطيع الزواج أن يكون بديلا لها لاستحالة أن يقدر نصفك الآحر تمثيل كل هذه الأدوار.

إذن من الطبيعي أن يكون للزوج و الزوجة احتياجات ذاتية و اجتماعية لا تتحقق داخل مؤسسة الزواج, فينتج عن ذلك ضرورة أن يكون لكل

من الزوج و الزوجة وقته الخاص لتحقيق هذه الاحتياجات. المشكلة تكمن عندما يفشل الزوجان في رسم الحدود بين الزمن الخاص لكل طرف و الزمن الجماعي للعلاقة و الأسرة.

تنشأ الأزمة عادة عندما يحدث تداخل أو تعارض بين الزمن الخاص و زمن الأسرة. ابتداءً يجب أن يفهم الزوجان ضرورة أن يكون هناك زمن خاص لكل منهما, حيث أن الزواج لا يُلغي ذاتيتهما ولا أفكارهما و أحلامهما. الفهم الذي قد يتبناه أحد الزوجين أو كلاهما بأن الزمن الخاص هو رفاهية لا حاجة لها أو انتقاص من زمن الأسرة فهم خاطئ لا يتطابق مع الواقع و لا التركيبة الطبيعية للإنسان, بل يتناقض مع الفهم العلمي و الصحي للعلاقة. فالعلاقةالزوجية لا يفترض أن تُلْغِي ذاتية أحد الزوجين, بل يتمازج الطرفان مع احتفاظهما بذاتيتهما. لذا نجد أن بعض الأزواج -استنادا على هذا الفهم الخاطئ- اذا اقتطع زمناً خاصاً به ينتابه إحساس سالب بالخطأ أو التوتر و عدم الارتياح, بل قد يصل لأحاسيس عُقدة الذنب. إن الزوجين قبل أن يجلسا لتنظيم برنامجهما الزمني و تخصيص لكل منهما زمنه الخاص و زمن للأسرة, عليهما الاتفاق على نقاط أساسية هي قوانين الزمن الذهبية و هي:

* أولا: إن الزمن الخاص حاجة طبيعية و حق لكل طرف في العلاقة.

* ثانيا: وجود زمن خاص لكل شريك ليس انتقاصا في العلاقة و لا يعني فشلها في توفير احتياجات الفرد, بل على العكس يعني أن العلاقة وصلت مرحلة من النضج و الوعي لتعلم أن من أهم قوانينها الزوجية الناجحة هي إثراء الاحتياجات الذاتية و السعي لإشباعها.

* ثالثا: الشفافية و الوضوح من كل طرف حول احتياجاته و الزمن الذي يكفي لانجازها.

* رابعا: احترام احتياجات الآخر حتى و إن لم تكن مُقنعة, فيكفي أنها تمثل شيئا في شخصيته.

* خامسا: الوصول لاتفاق يعتمد على المرونة و المقدرة على التنازل, واضعين في الاعتبار أن زمن الأسرة له الأولوية.

الوصول لبرنامج يقسم الزمن يتضمن ثلاثة محاور: زمن للزوج و زمن للزوجة و زمن للعلاقة التي يجب الاهتمام بها.

من أساسيات هذا التقسيم أن زمن الأسرة يمثل الجانب الأساسي و الأكبر مقارنة بالزمن الخاص للزوجين. في هذا المدخل ينبغي أن يتساوى الزمن الخاص للزوجين, فإن كان الزوج يحتاج إلى ست ساعات في الأسبوع لمشاهدة كرة القدم أو لعب الكوتشينة, فيصبح مثله للزوجة زمنها الخاص في ذلك الأسبوع يكون ملكاً لها تفعل فيه ما تريد, كأن تزور صديقتها أو تمارس الرياضة. الزمن المخصص لكل زوج يكون زمناً مفتوحاً ليتفرغ له بالكامل, و يقوم الطرف الآخر بالالتزام بتهيئته و حمايته ليستمتع به دون مقاطعة أو اتصال.

بهذا الاتفاق ينتفي إحساس القلق و التوتر, و ينعدم أسلوب المطاردة والمحاصرة و السؤال عن المكان و ميعاد العودة أو أسباب التأخير.

هذا سيقود لاستمتاع الزوج بزمنه الخاص و إن قَصُر, حيث سيكون خالصا و صافيا من الشوائب فلا تحايل حتى يضمنه و لا متابعة تُنَغِّص عليه, و لا محاكمات و تحقيقات بعد عودته للمنزل.

من إجابيات هذا النظام أن الزوج الذي قد يكون من النوع الذي لا يشعر بأزمة في تزايد زمنه الخاص على حساب زمن الأسرة سينتبه إلى أن الزمن الذي استقطعه لنفسه سيقابله وقت يقدمه للأسرة ليضمن لها مقدار ما أُخذ من الزمن. هذا التفاهم سيجعل مِثْل هذا الزوج حريصا على أن يكون متوازناً في زمنه الخاص, و لن يجعله مفتوحاً على حساب زمن العلاقة و الأسرة.

زمن الأسرة يتضمن في داخله تقسيمات كثيرة تعتمد على كل علاقة بما لها من خصوصية و تفرد. يجب أن يجلس الزوجان لتحديد كيفية تقسيم

الزمن بين احتياجات الأطفال من رعاية و تربية و ترفيه, و احتياجات التواصل مع الأصدقاء و الأسرة الممتدة.

من أهم النقاط التي يجب الانتباه لها بين الزوجين أن زمن الأسرة يجب أن يتضمن زمناً خاصاً يمكن أن نطلق عليه زمن العلاقة, و هو الزمن المحدد للزوجين لإثراء العلاقة التي بينهما, و يمثل حجر الزاوية في نجاح العلاقة الزوجية, لذا سنخصص له مساحة أوسع في صفحاتنا القادمة.

(٧) أزمات الزواج الرومانسية

تختلف المراجع في تعريف الرومانسية بين أنها نوع من أنواع الحب, و بين من يرى أنها مرحلة من مراحل الحب العُذري مقارنة بالجانب الجسدي.

في العُرف الاجتماعي تعارف الناس على اعتبارها كلمة تعني تلك الممارسة التي يقوم بها أحد الزوجين أو العاشقين للتعبير عن مشاعره للطرف الآخر. هذا التفسير ليس حِكراً على واقعنا الاجتماعي بل هو فهم سائد في ثقافات متعددة تتبنى نفس المفهوم.

الرومانسية بهذا المصطلح نجدها تتكون من ثلاثة أركان أساسية هي العفوية و المكانة و المُتلقي.

الركن الأول للرومانسية

العفوية تمثل ركناً أساسياً بوصفها تعكس الرغبة الذاتية و التلقائية في الممارسة. تنتفي الرومانسية إذا كانت رد فعل لطلب أو استجابة لرغبة الطرف الآخر. انتفاء العفوية قد يفتح باب الشك في مصداقيتها و احتمال وجود غرض من طرحها. من أساسيات اللفتة الرومانسية أنها مقصودة لذاتها و ليس لها مقصد أو دافع آخر. فأي لفتة ترتبط بمحاولة اعتذار أو تحقيق طلب مُحدد تفقد عفويتها و تُدْخِل بذرة الشك في مصداقيتها.

الركن الثاني للرومانسية

الركن الثاني للرومانسية أنها تعبير عن إحساس إيجابي داخلي تجاه

الآخر فيه تقدير لمكانته. هذه المكانة التي ارتبطت بالمحبة قد تصل بالإنسان لرجة أن تكون أحاسيس الاحترام و التقدير طاغية عليه, فيشعر بالرغبة في تفريغ هذا التوتر الجميل و إيصال ما يشعر به للطرف الثاني نتيجة هذه الصورة الإيجابية.

الركن الثالث للرومانسية

الركن الثالث و هو أن وسيلة التعبير يجب ألا تنفصل عن ثقافة المتلقي و وعيه. إن الرومانسية التي يعبر عنها أحد الزوجين بطريقة لا تتوافق مع تركيبة المتلقي قد تفقد معناها و قد تفشل في إيصال الرسالة. فمثلا إذا كان أحد الزوجين غير مهتم بالثقافة و الاطلاع, فإن تقديم كتاب من طرف للآخر لن تصبح لفتة رومانسية مهما حملت في جذورها من مشاعر أو نوايا صادقة و إيجابية. إذن من الأهمية بمكان أن يقرأ كلا الزوجين ميول شريكه و رغباته, ليستطيع أن يترجم مشاعره في لفتة رومانسية تصادف هوى في قلب المتلقي, و بها يكتمل المعنى و تصل الرسالة أو اللفتة الرومانسية كاملة المعنى و المحتوى. عدم المقدرة على قراءة تركيبة المتلقي قد تجعل كثيراً من اللمسات و اللفتات الرومانسية لا تصل إليه, و هذا قد يقود المتلقي إلى الشعور بأن شريكه يفتقر للرومانسية في العلاقة. مسؤولية التقارب في قراءة نفسية الآخر هي مسؤولية الطرفين, فعلى المتلقي أيضا ألا يحاصر نفسه في تصوراته الخاصة و لا يرى أن الآخرين قد تكون لهم رؤية مغايرة. فعلى سبيل المثال قد ترى الزوجة أن الرومانسية لها قوالب محددة للتعبير عنها, مثلا في كلمات محددة (روحي أو حياتي), (حبي أو أحبك) أو في نوع هدايا من ورود أو حُلي, و هي بذلك تُلْغِي أي لفتة لا تنطبق عليها هذه القوالب الثابتة. على الجانب الآخر قد تكون وسيلة التعبير عند الزوج مختلفة و لا تنطبق عليها تصورات الزوجة, و بالتالي لن تصل إليها رغم اكتمال أضلاع الرومانسية. مثلاً الزوج الذي يشعر بالتقدير و المحبة لموقف قد قامت به الزوجة و بكل عفوية و مشاعر

صادقة وقف أمامها و قال لها: (تعبت نفسك ليه؟),(ربنا يحفظك لأولادك) فهي تعابير لاتقل في دواخله من كلمات(أحبك) أو(ياروحي أو يا حياتي).

إذن من الضروري أن يتحرك الزوجان تجاه بعضهما البعض لتتقارب مفاهيمهما و تتوحد رؤاهما. فالذي يريد أن يُعَبِّر عن محبته عليه ألا يغفل عن أقرب الطرق لتقبل الآخر و تركيبته النفسية. أيضا المتلقي عليه أن تتوسع قوالبه الضيقة لتستوعب أي محاولة عفوية من شريكه تحمل شحنة من المشاعر الإيجابية, بغض النظر عن الطريقة و مهما كانت تصوراتها أو توقعاتها بعيدة.

الرومانسية هي جرعات متقطعة للتعبير عن المشاعر الإيجابية تجاه الآخر- رغم تقطعها- و لكنها جرعات مهمة مشحونة بالطاقة الإيجابية, و التي حتماً لها دور ملموس في بناء علاقة سعيدة و متوازنة.

هذه الطاقة الإيجابية التي تُضْفِيها الرومانسية على العلاقة نجدها تترك بصماتها على ملامح كثيرة في تطور العلاقة, لكننا يمكن أن نلخصها في أربعة جوانب مهمة.

إيجابيات الرومانسية

* أولاً: الرومانسية تساهم في خلق شعور عند الطرف الآخر بأهميته لدى شريكه. هذا الشعور بالأهمية يعمق إحساس الثقة بالذات خاصة لتعميق مشاعر التقدير و الاحترام.

* ثانياً: نجد أن الرومانسية تُشْعِر الطرفين بأحاسيس الإنجاز و الاكتفاء, فالمشاعر الإيجابية التي يتلقاها المتلقي تشعره بأنه قد حقق شيئاً إيجابياً يستحق التقييم, و أنه مُقَدَّر فلا يعاني من شعور النقص أو البحث عن التقدير عند الآخرين.

* ثالثاً: تساهم لمسات الرومانسية كجرعات منشطة للعلاقة. حيث أنه من الطبيعي أن تمر العلاقة بحالات من الهدوء و الروتين الذي يجري على وتيرة واحدة, لذا إضافة جرعات عالية من المشاعر الرومانسية بصورة

متقطعة تساهم في إثراء العلاقة بطاقات إيجابية تُنَشِّط مستوى التفاعل و ترفع من وتيرة المشاعر. الرومانسية للكثير من الأزواج هي محطات انتباه تكسر حاجز الروتين و جموده, و تذكر الطرفين بقيمة المشاعر التي يمتلكانها. البعض يعتبر الرومانسية هي البهارات التي تُعطي للعلاقة نكهتها و طعمها المميز.. كلما تعودت أرواحنا على المودة و التواصل, تأتي الرومانسية بإضافة مذاق ليس مختلفاً عما هو موجود, بل تزداد به جرعته و مستوى تركيزه فيثير الانتباه و يُلهب المشاعر.

*رابعاً: الرومانسية بما تقدمه من جرعات الاحترام و التقدير و الاكتفاء مع كَسْرِها رتابة الروتين, تساهم كل هذه العوامل مجتمعة في الحفاظ على مستوى الحب بين الزوجين. إذن يمكننا أن نقول إن الرومانسية تمثل جزءاً أساسياً من جسد العلاقة الناجحة.

غياب الرومانسية قد يكون مؤشراً لوجود ضعف في تركيبة العلاقة و تطورها. في نفس الوقت قد يكون الضعف في عدم الاهتمام بقيمة الرومانسية نتيجة لأزمة في تركيبة أحد الزوجين, أو سمة في شخصيته, تتميز بعدم مقدرته أو تعوده على التعبير عن مشاعره. هناك شريحة أخرى تختفي الرومانسية بينها نتيجة لعوامل الترهل و الذبول الطبيعي لأي سلوك لا نهتم به, فينزوي و يسقط في مجاهل النسيان. عند هؤلاء لا تمثل الرومانسية جزءاً مهما في مفهومهم للعلاقة, لذا يتم إهمالها حتى تغيب عن العلاقة و يختفي أي أثر لها على الذاكرة.

الرومانسية ليست عُشباً برياً ينبت بلا رعاية, بل هي سلوك إنساني يحتاج للرعاية و الاهتمام لينمو و يقوى عوده, و كما يمكننا ضخ الحياة و إعادة الروح للرومانسية التي ذبلت فإننا أيضا يمكننا نفخ الروح في العلاقات التي كانت أصلا خالية منها و زرعها من جديد

أولى خطوات بناء الرومانسية هي الاقتناع بضرورتها في الحياة الزوجية و الحماس لزرعها و رعايتها.

الإجابيات التي ذكرناها سابقا تمثل الحافز الذي يدفع الزوجين للانتباه

و فتح مداركهما بضرورة الرومانسية في حياة أي زوجين لأثرها الملموس و المعلوم في تقوية العلاقة و استمراريتها و تطورها.

أيضا من العوامل التي يجب التركيز عليها أن غياب الرومانسية لا يعني فقط انعدام الإيجابيات والحرمان منها, بل إن غيابها في ذاتها له آثاره السلبية على العلاقة.

من أكثر الأعراض المرتبطة بعدم الرومانسية نجدها تتمثل في البرود و الجمود في العلاقة, حيث يصبح محكوماً بروتين الوظائف و التكاليف الزوجية. من السهولة بمكان أن تستلب هذه الوظائف حياتهما فيصبح الزوج منغمساً في دور الأب و مسؤولياته, وفي الجانب الآخر تلعب الزوجة دور الأم و تقوم بمسؤوليات الأسرة. هذه المسؤوليات تصبح هي الدافع و القوة التي تحرك الطرفين, و حتى التواصل بينهما يكون في مشاركة هذه القضايا. عادة الرومانسية تكون هي الجسر الذي يربط الاثنين على مستوى يتجاوز أدوارهما الوظيفية في الأسرة, بل يذكرهما و يربط بينهما على مستوى علاقتهما الخاصة و فتح لعالم اثنين تربطهما علاقة حب و مودة. في غياب الرومانسية يتراجع التواصل على هذا المستوى العاطفى, و تدور عجلات العلاقة بدون أن يشعر الطرفان بأن كلا منهما يتطور بمعزل عن الآخر, ولا يستغربان عندما يجدان نفسيهما و قد قام بينهما حائط من البرود و عدم التدخل في تفاصيل الآخر و مشاعره. هذا الانفصال و عدم التواصل العاطفي سرعان ما يقود إلى فتور الحميمية بين الطرفين, وتصبح العلاقة في غياب المكون العاطفي أقرب إلى موظفين في مؤسسة كل لديه أعباء و تكاليف محددة يقوم بها, و ليس من بينها إثراء التواصل مع الشريك أو الطرف الآخر.

مرحلة البرود العاطفي لا تقف عند هذا الحد, بل قد تفرز كثيراً من المشاعر السالبة الناتجة من إحساس الفراغ العاطفي و ما يقود إلي مشاعر عدم الأمان و ما يصاحبه من الشك و القلق على مصير الزواج و

إلى أي اتجاه يسير؟

إعادة الرومانسية للعلاقة أو غرسها من البداية ليست مهمة صعبة و مستحيلة. النقطة الأساسية بعد الأيمان بضرورتها للعلاقة هي الانتباه بأنها لا تنبع من فراغ, بل تحتاج للانتباه و الحماس من الطرفين.الرومانسية في جوهرها تعبير عن الاحترام و التقدير لذا فهي نقطة البداية. ينبغي أن يكون كل طرف متيقظاً و منتبهاً لإمكانات الطرف الآخر الإيجابية, و البدء في التركيز عليها و البحث عنها و الوقوف عليها عند حدوثها في أي مسلك من القضايا و المواقف البسيطة إلى الأكبر حجماً و عمقاً, من تقديم كوب من الشاي أو جملة طيبة في حق الأسرة, أو الجهد في توفير موارد للأسرة. بعد ذلك يجب ربط هذه المواقف الإيجابية و أثرها في حياة الفرد عامة, أو شعوره اللحظي عندما يفتح عينه و ذهنه لهذه الحقيقة الحاضرة أو الغائبة عن وعيه,و عندها سيمتلئ قلبه بالدفء و السعادة لوجود الطرف الآخر في حياته و ما يضفي عليه من سعادة في كل موقف. انتباهنا للمواقف الإيجابية يجب أن يذكرنا بأن الإنسان رغم أنه لا يفعل الخير أو السلوك الإيجابي بحثاً عن التقدير, لكن حتما سيشعر بالسعادة عندما يعلم بأن سلوكه قد أسعد إنساناً آخر, و ما بالك إذا كان هذا الطرف الآخر هو شريك أو شريكة حياته. الرومانسية لحظة إنسانية تَرُدُّ فيها على مجهود إنسان قام بإسعادك بأن تزرع السعادة في قلبه عندما تُعلمه بأنك بهذا الموقف و بوجوده أكثر سعادة و فرحاً بالدنيا.

الخطوة المهمة في بناء الرومانسية هي الشفافية و التواصل, فلا غضاضة أن تُخطر طرفك الآخر بأفكارك و أحلامك و ما تتوقعه من سلوك و تصرفات, و طبعا ليس بالضرورة أن يقبل الطرف الثاني بالاستجابة لأحلامك, و لكن ستجعل شريك حياتك أقرب فهماً لنفسياتك و أفضل معرفة للأشياء التي تجلب الارتياح و السعادة. و لا غضاضة أيضا إن قام بها الزوج أو الزوجة متعمداً أو إرضاءً, لأنها مع الزمن ستكون بتلقائية و

ليس استجابة لطلب بل مرتبطة بالعفوية في سلوكنا الذي نفعله لنُسعد الآخر.

يجب في دروب تعلمنا لرغبات الآخر أن نحترم هذه الرغبات حتى و إن تناقضت مع ما نراه مصدراً للسعادة, فإنك لا تسعد في نفسك بل يقودك هاجسك و هو سعادة الآخر. وصول الرومانسية لغاياتها يحدث عندما تبدأ بالالتزام مع نفسك على أنك ستقابل المشاعر و المواقف الإيجابية بالتقدير و المحبة, و ستسعى لإيصال هذا الشعور. طبعا لا يعني هذا أن تقابل كل موقف باستجابة, فمن حقك أن تكون لمساتك الرومانسية متقطعة و متباينة في كل فترة أو بعد تراكم سلسلة من المواقف, و هذه سمة يحددها كل فرد على حسب تركيبته و تركيبة نصفه الآخر و توقعاتها.

يقع كثيرٌ من الأزواج في خطيئة الاعتقاد بأن الرومانسية مسؤولية ذكورية يفترض على الزوج أن يقوم بها و يتحمل مسؤوليتها. هذا الفهم خاطئ جملةً و تفصيلاً, فالزوج مثل الزوجة يحتفي بالشعور الإنساني في إسعاده للآخر, و لمسات التقدير من شريكه تعبر عن إحساسه بالسعادة.

(٨)الغيرة و أزمات الزواج

هي تلك الحالة و الشعور السلبي الذي يجد فيه الإنسان نفسه عندما يكون هناك تهديد حقيقي أو متخيل لأن يفقد شريكه لمصلحة شخص آخر.

رغم أن الغيرة قد تظهر بنفس السمات و الأعراض, لكن يجب الانتباه بأنها قد تكون رد فعل لموقف حقيقي لوجود شخص أو مؤشر فعلي لاحتمال فقدان الزوج, أو قد يكون شكاً متوهماً ليس له أساس من الصحة و يستند على الخيال و التخوف مما قد سيحدث. التعامل مع الغيرة يجب أن يضع في الاعتبار هذا التباين بين التي لها أساس من الواقع و بين التي تستند على الخيال, فلكل أسبابها و طرق التعامل معها. توصف الغيرة بأنها حالة لأنها تتكون من ثلاثة مكونات, عاطفية و عقلية

و سلوكية. تظهر التغييرات العاطفية بأشكال متباينة من أحاسيس القلق و التوتر أو أحاسيس الإحباط و الغضب. هذه الأحاسيس قد تصاحبها كل التغييرات الفسيولوجية المرتبطة بالانفعال من ضربات قلب و ازدياد سرعة التنفس و شد في العضلات و برودة في الأطراف. الجانب العقلي هو الأفكار و القناعات المصاحبة, من الاعتقاد بالفشل في العلاقة أو احتمال أن تتغير مكانته في الأهمية أو الاستبدال بشخص آخر..هي مؤشر لنهاية العلاقة عند التأكد بأن شريكه قد فتح الباب لعلاقة جديدة و شخص جديد. الجانب السلوكي قد يتمثل في تصرف أو إشارة جسدية تعبر عن عدم الرضا ,أو بالتدخل المباشر مع شريك الحياة بمحاولات التأكد,أو الحصار و فرض لوائح و سلوك جديد, أو في شكل عقوبات لتمنع هذه العلاقة من الاستمرار.

علماء النفس قسموا أنواع الغيرة إلى مستويين أو نوعين..النوع الأول و تعرف بالغيرة العاطفية, و فيها يتولد الإحساس الأولي أو رد الفعل العاطفي, و لا يتجاوز رد الفعل ذلك و لا يصل للمستوي العقلي أو الغيرة السلوكية. النوع الثاني هو الذي تكتمل فيه المستويات الثلاثة من المستوى العاطفى و يسود الجانب العقلي المسيطر و رد الفعل السلوكي الواضح.

يقول علماء النفس إن حالة الغيرة قد تكون حالة لحظية مؤقتة و لا تستمر كثيراً, أو قد تستمر لفترات طويلة بل قد تصبح جزءاً من العلاقة بين الزوجين لا تفارقهما و تكون مكوناً أساسياً من مكونات العلاقة.

على مدى التاريخ كانت الغيرة جزءاً أصيلاً في الحياة الإنسانية.حاول علماء النفس في الفصل بين الغيرة المقبولة و غير المقبولة. كما نرى أن البعض قد تحاشى استعمال كلمة (طبيعية) و اختار بدلا عنها كلمة (مقبولة). إن كلمة طبيعية من الصعب استعمالها لوصف حالات الغيرة دون تحديد, و ذلك لأن استعمالها قد يعتبر طبيعياً عندما تحدث أو تنتج من ظرف معلوم في وجود شخص, أو كرد فعل لسلوك حقيقي من نصفك الآخر تجاه إنسان غيرك ينبئ بنوع من التقارب و يهدد استمرارية علاقتك,

لكنها حتما لا تصبح طبيعية إذا تجاوز رد الفعل للمعقول و المتوقع. فمثلا عند وجود شخص ظهر في حياة أحد الزوجين, فمن المتوقع حدوث رد فعل من شريكه و تعتبر هذه غيرة طبيعية. لكننا حتماً لا يمكن أن نصفها بالطبيعية إذا كان فيها مثلا سلوك عدواني من عنف و إيذاء و اعتداء. أما في حالة إذا كان هذا الخوف متوهماً و تجاه شخص في الخيال أو تجاه سلوك لم يحدث على أرض الواقع, فإنه من الاستحالة أن نصف رد الفعل مهما كان محدوداً بالطبيعي.

يقفز للخاطر تساؤل هو: هل للغيرة أي دور إيجابي في العلاقات عامة و في العلاقات الزوجية التي نتناولها هنا؟

يقول علماء النفس إن هناك دوراً إيجابياً للغيرة في العلاقات الزوجية, و هو دور محدود في ظروف محددة. الغيرة ذات الأثر الإيجابي تسمى بالغيرة المقبولة, مقارنة بالغيرة غير المقبولة ذات الأثر السلبي. الغيرة لا يمكن أن تكون ذات دور إيجابي أو بالأحرى تتناقض مع التي تكون غير طبيعية أو تقوم بدون أساس موضوعي, و تعتبر غير طبيعية لذا فهي مصنفة كغيرة غير مقبولة بلا جدال. أيضا نجد أن الغيرة التي تستند على واقع و ليس خيال و التي تعتبر من غير الطبيعية نتيجة لردة فعلها غير المقبولة, فهي حتما تكون ذات تأثير سلبي على العلاقة. يحدد علماء النفس الغيرة المقبولة و ذات الأثر الإيجابي و هي الغيرة العاطفية, و التي لا تستمر طويلاً و لا تصبح هاجساً فكرياً, بل تكون محفزاً لتفكير إيجابي لبناء العلاقة و ليس لهدمها. هذا الشعور بالغيرة يكون إيجابيا باعتباره جرس إنذار ينبه الطرف الآخر بضرورة الحذر و النظر لنقاط الضعف في العلاقة و الثغرات التي تسربت إليها, و احتمالات الإعجاب بشخص آخر و فتح الباب لإيجاد بديل حتى و لو على مستوى التفكير. عادة نجد ما يعرف بالغيرة الإيجابية, و تكون من نوع الغيرة العاطفية و التي يتعمق فيها إحساس القلق و التوتر من فقدان النصف الآخر, و هذه نجد فيها الجانب العقلي

أو المكون العقلي لرد فعل الغيرة, فيكون عقلا تفكيكياً يحاول إيجادِ العِلل و الحلول حتى لا يفقد الآخر, لذلك تكون ردود الفعل السلوكية مواقف إيجابية في اتجاه بناء العلاقة و ترميم ثقوبها. إن علماء النفس و استنادا على نظريات علماء الاجتماع يعتقدون أن الغيرة العاطفية اكتسبت إيجابيتها و استطاعت السيطرة على عدم الانزلاق في الجانب السلبي لها, و هي نتاج لخبرات و تراكم معرفي من القدم. كان الزوج حريصاً على حماية مملكته من زوجة و أطفال من التعدي حفاظاً على النوع, و مع صعوبة الحصول على الغذاء انحصر جهده في سلالته, لذا كان يحرص على منع أي ذكر من الاقتراب من زوجته. قِدَم هذا السلوك و كثرة حدوثه جعل من حسم هذا التنافس بالغلبة الجسدية مُنهكاً و غير محبذ خاصة مع تقدم الأزواج في العمر, و أصبحت التجربة المتراكمة تسير في خط إصلاح العلاقة و تقوية أسوار المنع الداخلية من كسب الزوجة و جعلها خط الرفض الأول. مع الزمن أصبحت مظاهر تقرب الزوج و الزوجة من شخص آخر تُحرك قرون الاستشعار عند الشريك, و يبدأ رد الفعل التلقائي من القلق و التوتر العاطفي و الذي لا يحبذ وسائل الهجوم بل يستكين لمراجعة العلاقة لإعادة بناء أسوارها الدفاعية الداخلية و تقوية جسورها. إذن تصبح الغيرة هنا إيجابية التأثير كجرس إنذار للطرف الآخر لمراجعة العلاقة و تطويرها. هذا الدور الإيجابي لا ينفي الحقيقة الازلية بأن الغيرة عامة هي حالة سلبية لأنها ترتبط بعدم الثقة في الآخر و إحساس الخوف من فقده, و هذا مؤشر لضعف العلاقة و عدم نضجها. في بدايات العلاقة قد يكون متوقعا أن تتضاءل أحاسيس الغيرة مع الزمن و مع ازدياد الثقة و معرفة دواخل الطرف الآخر.إذن مع مرور الوقت يصبح هدف العلاقة التحرك في طريق الثقة, حيث تتضاءل فيه حالات الغيرة حتى تصل لمراحل إما معدومة نهائياً أو نادرة الحدوث.

حتى فيما يعرف بالغيرة الإيجابية أو المقبولة, فإنها تصبح غير مقبولة

عندما تتكرر و تصير شعوراً عادياً يحدث بصورة منتظمة و سمة للعلاقة لا تتغير و لا تقل مع الزمن. في هذه الحالة يجب الانتباه لها و العمل بصورة جادة لمعرفة جذورها و أسبابها و العمل على التغلب عليها.

هناك عديد من النقاط قد لاتكون سببا مباشرا في حالة الغيرة, و لكن يمكننا القول إنها تمهد التربة لظهورها و جعل الإنسان أكثر قابلية للتعرض لها و السماح لها بالتغلغل في علاقته.

جذور وتربة الغيرة

العامل الأول في جذور الغيرة

عندما يكون للزوج أو الزوجة توقعات و مفاهيم غير موضوعية أو غير منطقية عن الزواج, فليس مستغرباً في غياب المعلومة العلمية و الفهم الموضوعي للزواج أن يدخل الفرد العلاقة و هو مُشبع بكثير من الأحلام الوردية و الأماني التي تغذيها أعوام من الحرمان العاطفي و الجسدي. هذه الأماني تكون من القوة بحيث أنها تصبح ثوابت و قوانين يقيس عليها الزوج و الزوجة نجاح الزواج أو عدمه. عندما لا تتطابق هذه الأحلام أو المعايير غير المؤسسة مع الواقع ينفتح الباب للتفكير بأن الطرف الآخر غير سعيد أو هناك احتمال بأنه قد يغادر العلاقة في أول سانحة, و أنه أصبح غير مخلص و مهيئاً نفسياً للقبول بأي بديل يطرق بابه. قد يتطور التفكير و يتعمق في هذا الاتجاه متصورا بأن الطرف الثاني قد بدأ فعليا في التفكير في شخص آخر. هذا الجو الذي يفتح الباب لجرثومة عدم الثقة في العلاقة و تصبح تربة خصبة للشكوك و البحث عن إجابات, فتكون الغيرة واحدة من الاحتمالات مما يفتح لها الباب لتبدأ التغلغل في العلاقة.

العامل الثاني في جذور الغيرة

نجد أيضا ما يهيئ الأرض للغيرة هو وضع تصور خيالي للزوج و الزوجة قبل الزواج, و يصابان بالصدمة عندما يجدان فارقاً بين الحقيقة و ماكنا

يتوقعانه. رغم أنه من الطبيعي أن نكتشف أبعادا جديدة لم نعلم بها من قبل في شخصية من نحب, أو ظهور بعض السمات الجديدة أو اختفاء بعضها كتطور طبيعي مرتبط بالزمن, أو كرد فعل طبيعي لعوامل جديدة أو متغيرات تمر بالإنسان. نجد البعض لا يقبل هذا التغيير أو الاختلاف بين صورة من نحب و حقيقة ما نجد على أرض الواقع. عند البحث عن تفسير لذلك نجد أن التفكير قد يمضي بعيداً بأحدهما باحتمال أن الطرف الآخر مُقصر في تقديم أجمل ماعنده للعلاقة لأنه لا يهتم بها أو أنه يهتم بشخص آخر خارجها. عندها يُفتح الباب للغيرة لتبدأ في التسرب بين الشريكين.

العامل الثالث في جذور الغيرة

بعض الزيجات نجدها تقوم على فهم مغلوط عن توازن القوى بين الزوجين و إلي أي درجة على أحدهما ضرورة الانصياع لسيطرة الآخر والالتزام بتوجيهاته و قراراته. هذه الفكرة قد تصبح مشكلة حقيقية عندما يصاحبها إحساس أحد الزوجين بعدم التوازن و عدم الارتياح في العلاقة إذا لم تكن له السيطرة الكاملة عليها, بل قد يصل لدرجة من الإحساس بضرورة ملكية الشريك حتى يشعر بالاستقرار. عندما لا تتحقق له هذه النزعة نحو السيطرة يتكون في دواخله هاجس أن الطرف الآخر إذا وجد هامشاً من الاستقلالية و الذاتية و حرية الحركة فإنه سيكون غير مخلص للعلاقة, لأن الإخلاص في ذهنيته لا يتحقق إلا بقوة القوانين و السيطرة التي يفرضها على الآخر و التضييق على حريته لأقصى درجة. في حالة عدم تحقيق ذلك يصبح باب الغيرة مفتوحاً على مصراعيه.

العامل الرابع في جذور الغيرة

يتمثل في التركيبة النفسية للزوجين, حيث نجد أن بعض الأزواج تتكون شخصيتهم من بعض السمات السالبة التي تؤثر على طبيعة علاقتهم. من أكثر السمات ذات التأثير السلبي نجد إحساس عدم الأمان و الخوف

من الخيانة و التجاهل, و هذا الإحساس قد يكون شعورا متجذرا أو مكتسبا. مشاعر عدم الأمان المتجذرة قد تكون نابعة من طفولة متصفة بالفقد و الحرمان, أو سيادة العلاقات غير المستقرة, أو ناتجة عن شعور داخلي بالنقص و عدم التكافؤ أمام الآخرين. نجد أن إحساس عدم الأمان المكتسب قد يكون إفرازا للزواج نفسه عندما يتعمق في داخل أحد الزوجين أنه غير مناسب لشريكه, و أقل من توقعات الشريك ماديا أو اجتماعيا أو شكليا.. هذا الشعور بالنقص قد يكون نتاجاً لتلميح من الشريك أو قد تكون فكرة متوهمة في خياله.هذا الإحساس بعدم الأمان يجعل الفرد دائما في حالة مقارنة خاسرة مع الآخرين, و التي تساهم بشكل كبير في السماح لجرثومة الغيرة بالتغلغل في العلاقة.

العامل الخامس في جذور الغيرة

هو تراكم التجارب و الخبرات السابقة من أحاسيس الحرمان و الفقد و التربية و العلاقات الأسرية من أيام الطفولة و المراهقة. هذه التجارب تجعل الفرد له قابلية لأن يكون عُرضة للخوف من الحرمان أو القلق من فقدان الأحبة و المقربين.. و بنفس القدر نجد ترسبات التوتر و الابتعاد عن الآخرين. كل هذه التجارب النفسية تجعل الفرد أكثر قابلية لعدم الثقة في الغير أو الخوف من فقدان العلاقات الحميمة. هذا التوتر و عدم التوازن يجعل القابلية أكبر للشعور بعدم الأمان و فتح الباب لمشاعر الغيرة.

التعامل مع الغيرة و محاولة السيطرة عليها في بداياتها قبل أن تتغلغل في العلاقة و تسمم جسم التواصل ضرورة لا شك فيها و حقيقة لا جدال حولها.

مرحلة التعافي و علاج الغيرة تبدأ بالانتباه لوجودها في العلاقة و التفريق بين الغيرة العاطفية التي قد تقود لتطوير العلاقة, و بين الغيرة المرضية ذات الأثر السالب.

الطريق للتعافي من الغيرة واضح, و لكن يعتمد للنجاح فيه على الرغبة في تجاوز هذه الآفة, و الخروج من حلقتها الشريرة يتمثل في اتباع خطوات التعافي المعلومة.

خطوات التعافي من الغيرة

الخطوة الأولى للتعافي

محاولة قراءة الواقع بصورة غير عاطفية و متابعة جذور الغيرة, و أن نحاول الإجابة على أسئلة محددة.. هل غيرتك تجاه كل الناس أم تجاه شخص محدد؟

إذا كانت تجاه مجموعة من الناس..اسأل نفسك لماذا؟ هل هو شعور داخلي يجعلك لا تثق في الآخرين؟؟ هل تشعر أن لهم سمات أنت تفتقدها؟ هل تعتقد أن شريك حياتك لا يثق في إمكاناتك و ينجذب للأفضل؟؟ أم هي قناعة داخلية بأن شريك حياتك هو ملك لك و لا يحق لأحد الاقتراب منه؟؟

إذا كانت الغيرة تجاه شخص محدد يصبح التساؤل: لماذا هذا الشخص تحديدا؟؟

هذه التساؤلات و محاولة الإجابة عليها بموضوعية يمكن أن تكون نقطة البداية المتوازنة.

الخطوة الثانية للتعافي

الخطوة الثانية و التي قد تسير مع الخطوة الأولى في نفس الوقت هي الشفافية و بناء جسور الثقة, و ذلك بكشف أحاسيس الغيرة و التعامل معها كإحساس سلبي رغم ما يحمله أحيانا من رسالة إيجابية تعني الاهتمام بالنصف الآخر, مع ضرورة الاتفاق على أنها ليست الطريقة المثلى للتعبير عن الاهتمام. محاولة طرح الأسباب الحقيقية وراء حالة الغيرة مع مراعاة إبعاد الجانب السلبي عنها و إعادة صياغتها يكون بتحديد الهدف الإيجابي

الذي قد ضل طريقه. مثلا رغبة السيطرة قد تعاد صياغتها لتصبح محاولة أن يكون الآخر محور اهتمامه دائما. و أيضا شعور النقص مقارنة بالآخرين يمكن صياغته بأنه محاولة الرغبة في أن يجد مساحات أكبر و نظرة أعمق لاستكشاف ما بداخله من سمات إيجابية بدلا عن البحث عنها لدى الآخرين. هذه الشفافية تساعد في بناء الثقة,حيث تختفي محاولات إخفاء حالات الغيرة و الخجل منها باعتبارها حالات ضعف أو إنكارها و إعطائها مسمى آخر.

الخطوة الثالثة للتعافي

هي السعي سويا في متابعة جذور حالة الغيرة من ترسبات الماضي أو جزء من تركيبة الشخصية, و المضي قدماً لمحاولة إيجاد الحلول العملية للتعافي منها. فمثلا موروثات الطفولة من الخوف لفقدان الأحبة أو ترسبات المراهقة التى تربط تحقيق الأهداف بالسيطرة على الآخر و ذلك باستنباط وسائل و أساليب في العلاقة تعزز إحساس الأمان بأن الشريك قد أتى إليها ليبقى, مع استمرار تأكيد ذلك قولاً و فعلاً , و أن الأهداف التي تُنفذ بالاتفاق و التفاهم أطول عمراً و أكثر صموداً مع الزمن من التي تكون نتاجا لسيطرة طرف على الآخر و فرض رؤيته.

الخطوة الرابعة للتعافي

تكون في إعادة ترتيب قناعات الفرد و مراجعة سلسلة القناعات الخاطئة ليؤكد لنفسه أن الحب لا يتولد بالخوف و السيطرة بل بالثقة و الأمان, وإنه مهما سعي للسيطرة على أفعال الطرف الآخر سيفشل, و مهما كان مستوى نجاحه في ذلك لكنه حتما لن يسيطر على الأفكار و المشاعر.

الخطوة الخامسة للتعافي

طريق التعافي يبدأ بالسيطرة على سلوك الفرد و الاتفاق على خطوات ملموسة تتطور و تتعدل مع ازدياد وتائر الثقة و التفاهم. في حالات الغيرة

نفقد السيطرة على تصرفاتنا و قراراتنا, و يكون الانفعال و عدم الثقة هو المحرك, لذا يجب الجلوس مع الشريك و مراجعة هذه القرارات من تقييد الحركة أو تحديد و حظر العلاقات أو رسم أنواع التصرفات و ردود الأفعال الاجتماعية. معظم هذه القرارات يجب النظر إليها بعين المنطق و الموضوعية و إعادة العفوية للحياة الاجتماعية غير المكبلة بقوانين الغيرة.

قد يكون التغيير الكامل غير سهل التنفيذ في خطوة واحدة, بل يحتاج للتدرج بصورة تتوافق مع بناء جسور الثقة بين الطرفين و تناقص الانفعالات النفسية المنفلتة.

الخطوة الأخيرة للتعافي

النقطة الأخيرة هي الاستفادة من حالة الغيرة لتطوير الذات, و مراجعة كل الترسبات السالبة في الشخصية ابتداء من أحاسيس الخوف و القلق تجاه الآخرين و من صعوبة بناء جسور الثقة مع ضرورة العمل الواعي في بناء الثقة و الشفافية, و أخيراً ألا نترك زمام القيادة في شخصيتنا يفلت من غضب و قلق و إحباط. من أهم القواعد التي يجب أن تُبنى عليها قواعد التعافي أن لا ندخل في سباق المقارنة مع الآخرين, لأن هذا السلوك يهدم العلاقة ولا يستند على المنطق, حيث أن الاختيار تم بين الطرفين ليس لأنك أعظم إنسان في العالم فلا تسعى جاهداً لإثبات ذلك, بل اعلم أن الاختيار تم لأنك أفضل شخص يتناسب مع احتياجات الشريك, و ذلك ليطمئن قلبك فليس لك منافس و ليس غريبا أن تكون الأول في هذه الميزة. تذكر دوماً أن شريك حياتك قد اختارك أنت ولم تكن مفروضاً عليه, فليس هناك حاجة لديه ليفكر في غيرك, و حتى إن حدث هذا فهو واقع طارئ يجب الانتباه لأسبابه.

لم نتطرق للغيرة التي تنتج من مواقف حقيقية فيها مؤشرات بأن أحد الشريكين لديه بوادر اهتمام عاطفي تجاه شخص آخر, لأن في مثل هذا الموقف لا تعتبر الغيرة هي الأزمة, بل الأزمة الحقيقية هي البحث عن

أسباب الضعف في العلاقة التي تجعل أحد الطرفين يفكر في بديل أو شريك عاطفي آخر.

الغيرة و إن كانت على مستواها العاطفي ذات رد فعل إيجابي و لو استمرت لمجرد لحظات, فهي ظاهرة سالبة يجب تجاوزها و التخلص منها. يجب ابتداءً القول إن إيجابيتها تعكس خللاً في العلاقة لأنها تحتاج لمثل هذه المؤثرات للانتباه لنقاط ضعفها للتحرك في طريق التطوير.ثانياً أن هناك مساحة شك و لو كانت بسيطة في داخل الفرد بأن شريكه قد يفكر لحظه في بديل. قمة نضج العلاقة التي يفترض أن تكون هدفاً لكل زوجين حين لا يمر بخاطرهما أبدا أي احتمال بأن الآخر سيفكر في بديل له. هي القمة التي يجب السعي لتحقيقها, حيث أن مستوى العلاقة لا مساحة فيها للخوف و الخيال, بل مساحة من الثقة في دواخل الطرف الثاني و دوافعه, و قناعة راسخة بأنه لو حدث أن طاف في خاطر الآخر تفكير في شخص ما فإن ما بينهما من مستوى صدق و شفافية في العلاقة سيأتي ليطرحها إما كضعف يبحث له عن علاج أو أزمة مستفحلة تعني نهاية العلاقة.

(٩)التواصل والتعبير و أزمات الزواج

يعتبر التواصل المتوازن أهم سمة من سمات الزواج الناجح. يمكننا أن نقول بكل ثقة إن التواصل هو الأساس الذي تقوم عليه العلاقة و الأرضية التي يعيش عليها الزواج. إذا نظرنا للعوامل الأساسية الأخرى في الزواج من الحب و الاحترام و الصدق والثقة و التضحية جميعها تُصبح بلا قيمة في انعدام التواصل. فمثلا لا معنى للحب إذا لم نستطع إيصاله للطرف للآخر, و لا معنى للصدق و الثقة إذا لم يعلم بها. كل هذه القيم مهما كانت عظمتها تفقد قيمتها إذا لم نستطع أيصاله له ليعلم بها. إذن كل القيم الجميلة و الأساسية في الزواج تحتاج إلى أن يعبر عنها و إيصالها للآخر.التواصل هو القدمان اللذان تسير بهما مشاعرنا و أفكارنا و تنقلها

للشريك, و هو الجسر الذي يربط بين الاثنين كلما زادت قوته ازدادت متانة العلاقة بين الزوجين. طريقة التواصل ترمي بظلالها عليه,و هي كالصندوق الذي نحمل فيه الهدايا, فإن كان جميلا ذا رائحة جذابة سيضيف للهدية جمالا و بهاء,و أما إذا كان قبيح المنظر و الرائحة فحتما سينفر الإنسان منه و يرفض ما في داخله مهما غلا ثمنه.

لذا نجد أن التواصل الراقي و المتوازن يستطيع إيصال أصعب الرسائل بصورة مقبولة و مفهومة. على الجانب الآخر فإن سوء وسائل التواصل قد يفشل في نقل الأفكار و المشاعر, و حتى عندما ينقلها تكون مشوهة و قد تحمل المعاني التي تتناقض مع جوهر الرسالة فلا تجد من المتلقي سوى الرفض.

التواصل بين الزوجين قد يكون لفظياً أو فعلياً, فنجد الزوج قد يعبر عن مشاعر حبه و تقديره بكلمات صريحة مثل (روحي و حبيبتي) و(يا عسل), و آخر يمتلك نفس الأحاسيس و يعبر عنها بشراء هدية أو تجهيز كوب شاي أو قهوة و إحضارها بدون طلب.. يختلف البشر في مقدراتهم و إمكاناتهم في التواصل مع الآخرين. البعض قد يجد صعوبة في التعبير عن نفسه بصورة عامة والبعض يفضل التعبير اللفظي, و الآخر يفضل التواصل الفعلي. كثيراً ما نجد اختلافاً في طريقة التواصل و ماهو متوقع. فالشريك الذي يتوقع التواصل اللفظي قد يجد صعوبة في استيعاب الرسائل المضمنة في التواصل الفعلي, و حتى إذا وصلت نجد حالة من عدم القبول باعتبار الرسالة ناقصة, و يكون دوما في انتظار الرسالة بالوسيلة التي يفضلها هو. فالزوجة التي تتوقع التواصل اللفظي قد لا تقبل أو تكتفي بمواقف أو افعال تعبر عن المحبة, و تشعر دوما بأنها في حالة حرمان عاطفي مهما كثرت أفعال شريكها المعبرة عن الحب.

أيضا نجد أن المشاكل قد تنشأ عندما يحدث تناقض و عدم تناغم بين التواصل اللفظي و الفعلي فيفقد التواصل معناه, فلا يمكن أن يقبل

الزوج كلمات الحب و الوجه يحمل مشاعر الغضب و التوتر.

التواصل بين الأزواج يتم على ثلاثة مستويات يمكن أن نسميها: المستوى الوظيفي و المستوى العاطفي و المستوى الخلافي.

نجد أن المستوى الوظيفي يمثل التواصل على مستوى وظيفة الزواج تركيبته و مهامه. هو تواصل فيه نقل المعلومات المجردة, مثل: شاهدت اليوم حادث حركة في طريقي للعمل.. أو اعتقد أن السماء ستمطر اليوم.. حيث هي معلومة مجردة من أي علاقة مباشرة بالزواج أو علاقة الاثنين, ولا تحمل في ذاتها أي مدلول أو مشاعر مرتبطة بالزواج, لكنها في كثير من الأحيان لا تكون رسالة محايدة بل قد تحمل في دواخلها و تعبر عن معانٍ كثيرة, فهي من ناحية المعلومة قد تكون لها ارتباط بموقف أو ذكرى في العلاقة أو طريقة التواصل غير اللفظي و لغة الجسد أو لحظة التواصل, و قد تكون مشبعة بكثير من المعاني المعبرة عن رسالة محددة. مستوى التواصل الوظيفي نجد فيه نقل معلومة مجردة غير عاطفية و لكنها متصلة بالزواج. خير مثال التواصل عن أعباء المنزل و مهامه و تكاليفه من شراء أغراض و إصلاح وترتيب و تخطيط. رغم أن هذه قضايا عملية لكن عادة في جوهرها نجد معها محمولاتها العاطفية و مشاعر الرضا و القبول, فلا ينفصل التواصل في نقل المعلومة و المشاعر المرتبطة بها. مثلاً عندما تطلب من شريكك القيام بمهمة أو عمل ما للأسرة, هذا الطلب لن يخلو من مشاعر الغضب أو التوتر و القلق إذا كان هناك احتمال كبير بعدم التنفيذ. أيضا يمكن أن يكون محملاً بمشاعر المودة و الترقب الجميل إذا كان هناك توقع كبير بحتمية الإنجاز و الاستجابة. إذن التواصل على مستواه الوظيفي رغم أن الهدف منه إيصال المعلومة و لكنه لا يخلو من الجانب العاطفي, حيث أنه ليس هدفا في ذاته. المكون العاطفي على الرغم من أنه ليس المكون الأساسي في التواصل الوظيفي, لكن الذي لا شك فيه أن له تأثيراً قوياً في أيصال المعلومة. فبقدر إيجابية المشاعر كانت الرسالة أكثر قابلية أن تُفهم و أن تتم الاستجابة لها. فالزوجة التي تطلب من الزوج

مهمة ما فإن احتمال الاستجابة بلا جِدال سيكون أكثر احتمالاً إذا كان الجانب العاطفي الذي وضعت فيه الرسالة إيجابياً و غير سلبي.

هناك المستوى العاطفي للتواصل ونجد به ثلاثة مستويات هي الارتباطي و التعبيري و الحميمي.

التواصل الارتباطي

مستوى التواصل الارتباطي هو ذلك الخيط الذي يربط الزوجين ببعضهما البعض حيث يجعل كل طرف يشعر بأن الآخر معه في دائرة اهتمامه و تفكيره في تلك اللحظة. هذا النوع من التواصل قد يكون لفظيا أو غير لفظي. نجد التواصل الارتباطي اللفظي قد يكون جملة كاملة أو مجرد كلمة مثل:(متعب؟؟ مالك؟؟ زهجان.. مبسوط؟؟ بتفكر في شنو؟؟). هذه الرسائل في جوهرها تفيد الطرف الآخر بأنني أفكر فيك و أنك في دائرة اهتمامي. نجد التواصل الارتباطي غير اللفظي يتم بصورة منتظمة, فيمكن أن يحدث في جلسة مائدة الطعام أكثر من مائة تواصل غير لفظي يتراوح من نظرة أو ابتسامة أو تغير في ملامح الوجه من غضب أو تساؤل أو تقديم الطعام أو تحريك الأواني. التواصل الارتباطي لا يكون محايداً أبداً, فعادة ما تكون وسيلة التواصل رغم أن هدفها وجود الآخر في دائرة وعيه و اهتمامه, لكنها أيضا تحمل معها وضعه من قبول لوجوده أو رفض أو غضب أو توتر أو إحباط. في كثيرٍ من الأحيان يكون الهدف من التواصل ليس فقط لتأكيد الوجود بل نوع الوجود.. بمعنى أنا موجود و سعيد أو موجود و لكن غاضب منك أو محبط أو غير راضٍ عنك.

التواصل التعبيري

المستوى الثاني من التواصل العاطفي هو المستوى التعبيري, و فيه الرسالة تحمل في داخلها شرحاً للحالة النفسية للفرد و ليس لها علاقة مباشرة بالطرف الثاني. هدف الرساله يتجاوز وجود الزوجين في دائرة الاهتمام إلى مستوى فتح الباب للآخر ليعيش معه دواخله..فالرسالة هدفها شرح دواخل الفرد و إضافة الشريك في دائرة مشاعره, و قد تكون

مطروحة في مباشرة لفظيه مثل(أنا متضايق.. أنا تعبان.. أنا تذكرت موقف مؤلم..)، و قد يكون غير لفظي في شكل دموع و بكاء،أو قلق و توتر، أو ضحك و ابتسام. عادة التواصل غير اللفظي في التواصل التعبيري يكون جزءاً من الرسالة، و عادة يتبعها تفصيل لفظي لحالة الفرد. فالتواصل التعبيري هدفه تمليك الآخر ما بالدواخل. و لما كان التواصل غير اللفظي غير كافٍ للتعبير عن كل ما بدواخل الفرد، أصبح التواصل اللفظي جزءاً مهماً و أساسياً في التواصل التعبيري.

التواصل الحميمي

المستوى الثالث من التواصل العاطفي هو التواصل الحميمي، و هدفه إيصال مشاعر الفرد تجاه الآخر و مستوى قربه. لذا فهو قد يكون إضافة للحميمية أو خصماً عليها حسب نوع العواطف إيجابية كانت أم سلبية. المشاعر السلبية من غضب و إحباط و كراهية يمكن التعبير عنها لفظياً و غير لفظي. مشاعر الحميمية السلبية تتراوح بين الرفض و الانتقاد إلى مستوى الإقصاء و العنف. إن التعبير السالب و غير اللفظي يصل إلى قمته في مراحل العنف البدني مع الانتباه بأن العنف قد يكون لفظياً و لكنه أكثر إيلاماً من العنف البدني.

التواصل الإيجابي الحميمي قد يكون لفظيا في التعبير عن المحبة و الاهتمام و التقدير، أو قد يكون غير لفظي في التعبير الجسدي عن هذه المشاعر الإيجابية، و يصل لقمته في التعبير الجسدي الجنسي عندما يكون معبراً للاحتياج الفسيولوجي و التقدير النفسي للآخر.

النوع الثالث هو التواصل الخلافي. و هو الجسر الذي يربط بين الاثنين في محاولتهما تقريب وجهات النظر في نقطة خلافية. الطريقة التي يتناول بها الطرفان موضوع الاختلاف لها دور كبير و أثر ملموس في كيفية الوصول بالحوار لنقاط إيجابية. لذا ركز علم النفس على طريقة طرح نقاط الاختلاف و سماها بأدب الاختلاف.

يمكن تقسيم أدب الاختلاف إلى ثلاثة محاور, الأول عبارة عن قوانين و قواعد عامة, و المحور الثاني عن الأشياء الواجب الالتزام بها, و الثالث يُركز على الأشياء التي يجب تجنبها و الابتعاد عنها.

المحور الأول

في القوانين العامة نجد هناك مرتكزات أساسية يجب التركيز عليها:

إطار و قوانين الاختلاف

(أ). الحوار أفضل من الكتمان

إن الحوار أفضل من الكتمان, فمن الطبيعي أن يحمل الأزواج كلٌ في دواخله كثيراً من نقاط التباين و الاختلاف. قد يختار البعض عدم الإفصاح عنها نتيجة لعوامل متعددة, فهناك من لا يحتمل المواجهة, و هناك من كانت تجاربه السابقة في محاولة تقريب الاختلاف فاشلة و ذات أثر سلبي, و فوق ذلك هناك من يظن أن الزمن خير وسيلة لتجاوز الاختلاف باعتبار أن الزوجين قد يتجاوزا نقطة الاختلاف أو قد تتغير قناعاتهما أو أن النسيان سيمحي الاختلاف من الذاكرة. كل الدراسات تؤكد أن النسيان الكامل للخلافات الجوهرية غير موجود, نعم قد يخف أثرها و قوتها و لكن مصير الخلاف أن يبرز مرة أخرى إلى السطح. إن أي خلاف لا تصل فيه لنهايات لن يجدي معه التجاهل و الزمن أو أنصاف الحلول, بل سيكون قنبلة موقوتة و معركة مؤجلة تنتظر اللحظة المناسبة للظهور مرة أخرى.

(ب)اختيار الزمن و المكان

اختيار الزمن و المكان المناسبين يساهم في أن يقدم الطرف الثاني أفضل ما لديه. فالمكان المزدحم الخالي من الخصوصية, و الزمن الذي يكون أحد الشريكين أو كليهما مشغولاً بموضوع آخر, أو تتحكم فيه مشاعر سالبة من قلق و إحباط و غضب أو خلافه, حتما لن يساعد في بناء حوار و تواصل صحي و معافى.

(ج).ترتيب الأولويات

و يُقصد بها أن يكون موضوع الحوار يتناسب مع اهتمام الطرفين في ذلك الوقت. فلا يعقل أن يكون الخلاف في شراء حذاء جديد هاجساً مع وجود أزمة في إيجاد رسوم الدراسة للأطفال.

(د). الحياد العقلي

أن يجلس الطرفان في أرضية عقلية محايدة غير محكومة أو مشحونة برغبة الفوز أو كسب الحوار أو فرض الرأي. يكون معيار الحياد في حالة التوازن النفسي و الصفاء و عدم وجود إحساس بالفوز والخسارة أو التحفز و الإحباط.

(ه). هدف الحوار

ضرورة وضوح هدف الحوارفي شرح مافي نفسك و موقفك من هذا الموضوع, و فهم الرأي الآخر و إيجاد طريق في المنتصف يحقق جزءاً من رؤية كل طرف إذا أمكن. لذا ينبغي أن يكون الحوار هدفه البحث عن نقاط إيجابية في الرأي الآخر للاستناد عليها في رسم جسور الالتقاء, و عدم التركيز على نقاط الاختلاف و إثبات ضعفها لتعميق خطوط التباعد.

(و).الكسب و الخسارة

لابد أن يكون في الحسبان أن التطور في العلاقة و التقارب بين الزوجين هو الأساس, و لا يُقارن بكسب نقاط الاختلاف لمصلحة رأيك أو لمصلحة الرأي الآخر.

(ز).جو الاختلاف

جو الاختلاف ليس بالضرورة أن يبتديء سلبياً متكئاً على نقاط الاختلاف للهجوم عليها فقط, بل من الأفضل الابتداء بالتركيز على نقاط الاتفاق و النقاط الإيجابية, و ذلك لهدم أجواء التناحر و العمل على أجواء التقارب.

(ح). أسلوب التعبير

التعبير عن الاختلاف ليس بالضرورة أن يكون جافاً, بل مختلطاً بكثير من المرح و المزاح.

(ط). عدم الاتفاق

إذا لم تصل لنقاط تقارب فمن الأفضل أن يتم الاتفاق على عدم الاتفاق و احترام الرأي الآخر و ترك باب الحوار مفتوحاً.

(ى) مقولة اليوم التالي أو فلننتظر للغد

تعتمد هذة المقولة على أن أي حوار حول خلاف لا يُطرح في نفس لحظته ليكون مثل الطبق الساخن من الفرن,و ما يحتويه من سخونة تجعله غير صالح للتناول لذا الأفضل تركه لمدة قبل تناوله. كذلك القضايا الخلافية في لحظة حدوثها, فغير سخونتها العاطفية قد تكون مليئة بالشوائب التي تحتاج إلى تنقية و مراجعة قبل طرحها. قانون اليوم التالي يُعطي الفرد فرصة مراجعة نفسه و إعادة قراءة نقاط الاختلاف و التخلص من الجانب الذاتي قبل طرحها للحوار.

المحور الثاني

أدب الاختلاف والإلتزام

يعتمد نجاح أدب الاختلاف على الأشياء التي يجب الالتزام بها, و القواعد التي يجب الاستناد عليها و اتباعها أثناء فترة التحاور.

أدب الاختلاف: الركن الأول

الاهتمام بالتركيز و الاستماع للطرف الآخر. فقبل الرد من أفضل الأشياء تلخيص ما سمعته و إعادته للتأكد بأن هذا هو المقصود.

أدب الاختلاف: الركن الثاني

حافظ على هدوئك و انفعالاتك مع مراقبة أي تغيير في مشاعرك و ظهور أحاسيس الغضب و القلق و التوتر,و مراقبة تغيير في الجسم مثل ضربات القلب أو سرعة التنفس أو شد في العضلات أو تعرق. عند أي إحساس طاغٍ بهذه المتغيرات يجب ايقاف الحوار إلى أن تعود لطبيعتك.

أدب الاختلاف: الركن الثالث

الانتباه للغة و الألفاظ المستعملة من طبقات الصوت و ارتفاعها مع التعابير الحركية و لغة الجسد, حتى لا تحمل أي منها سمات العنف القسوة و التجريح و الاستهزاء. في لحظة حدوث أي تَفَلُّت و ظهور شيئ من هذه السمات ينبغي الاعتذار في الحال, و التفكير في إيقاف الكلام إذا أثر على مجرى الحوار.

أدب الاختلاف: الركن الرابع

إذا بدت بوادر عُنف أو انفعال أو تفلت من الطرف الآخر يجب تنبيهه بأن له الحق في إيقاف الحوار حتى يهدأ أو يتغير الجو أو يتأجل إلى مرة أخرى.

أدب الاختلاف: الركن الخامس

الحوار يجب أن يكون عن المواقف و المواضيع و ليس الأشخاص. فالانتقاد يجب أن يكون حول الموقف و الموضوع مع تثبيت الاحترام للشخص أو الطرف الآخر.

أدب الاختلاف: الركن السادس

الحوار يجب أن يكون محدداً و معلومة جوانبه. من الضروري التركيز و الالتزام بالموضوع المحدد و يجب عدم فتح المواضيع الأخرى المتراكمة و قضايا الخلاف السابقة و محاولة ربطها بموضوع النقاش للوصول لتعميم و رؤية محددة.

أدب الاختلاف: الركن السابع

استعمال صيغة المتحدث(أنا) و تحاشى صيغة المخاطب(أنت).. و ذلك لأن صيغة المتحدث دوماً تعبر عن حقيقة, بينما صيغة المخاطب تعبر عن رأي. و الحقيقة دوماً صواب و الرأي قابل للخطأ و الصواب. خير مثال لذلك الحوار حول التدخين بين صيغة المتحدث(أنا خايفة على صحتك من السجائر.), بينما نجد في صيغة المخاطب (إنت بتضيع في صحتك مع التدخين).. كما نرى لا يستطيع الطرف الآخر أن ينفي الحقيقة بأن المتكلمة خائفة على صحتة, و لكن يمكن أن يجد ألف تبرير و تفسير خطأً كان أو صواباً لنفي أن التدخين مُضر للصحة.

المحور الثالث الحذر والإبتعاد

يستند على الأشياء التي يجب الابتعاد عنها مع اعتبارها خط أحمر يجب أن لا نقترب منه, مثالا لذلك:

(أ).لا تفرض الحوار و لا تحاصر شريك حياتك, بل اجعل الحوار في زمن مقبول و مهيأ له و ليس مفروضاً عليه.

(ب).لاتترك عواطفك هي التي تقود رغبتك في الحوار,و لا تجعل هاجسك تفريغ توتر أو غضب أو رغبة داخلية في الانتصار. إذا شعرت بأن العواطف هي المحرك أو الدافع نتاج ردة فعل أو حاجة للتفريغ أو التوازن المفقود, عليك أن تتوقف. لذا من الأهمية بمكان أن تسأل نفسك عن دافعك الحقيقي للتحاور, مع ضرورة أن تكون أميناً مع نفسك لتستكشف الدافع المحرك, و لتقرر الاستمرار أو التوقف إذا كان يقع في أحد هذه الخطوط الحمراء.

(ج).لا تحاول السخرية أو التقليل من الرأي الآخر,و لاتواصل في الحوار إذا شعرت بأن الطرف الثاني يتألم أو يتعب من استمرارية الحوار.

(د). لا تُدْخِل أي طرف آخر في الحوار بدون إتفاق مع الشريك, مع ضرورة احترام خصوصية أي معلومة أو موقف له و أن لا تُملكها لأي شخص ثالث.

(هـ). لاتجعل من الحوار معركة كرامة أو كبرياء, و أن تكون مهيئاً للاعتراف بالخطأ و الاعتذار إذا استدعت الظروف ذلك.

(و).أن لا يكون الحوار مبنياً على قناعاتك الشخصية و ما تتصور أنه الحقيقة, و الاستنتاجات المبنية على افتراضاتك و قراءتك للواقع. ينبغي في بداية النقاش أن تقوم بطرح رؤيتك, و أن لا تواصل في طريق الحوار إلا إذا استوعبت رأي الطرف الآخر و فهمت رؤيته. فإذا رفض وجهة نظرك, يجب القبول بذلك دون الاصرار بأن رؤيتك هي الصواب, رافضاً أن تقبل بأن هناك احتمال آخر. مثلا إذا كان الزوج يرى رغبة الزوجة في العمل لا فائدة منها, و إنما مجرد برنامج اجتماعي لتقضية الوقت,و كانت الزوجة ترى أن للعمل قيمة ذاتية في تطوير شخصيتها و شعورها بالرضا و احترامها لذاتها, فيحق للزوج ألا يقتنع بأسباب الزوجة و لكن لا يحق له أن يصر على أن افتراضه هو الصحيح, و أن يكون الحوار مستنداً على فرضيته هو و يجزم بأن هذا ما يدور في ذهن زوجته و لا يقبل الحوار على أرضية ما طرحته الزوجة.

(ز). ينبغي أن لا يسود في النقاش أسلوب المحاضر و المتلقي أو الأستاذ و التلميذ. يجب ألا تلعب دور المحاضر و أن يكون الحوار من جانب واحد بدون أن تكون هناك فرصة متوازية للآخر لطرح رأيه, و أن تتذكر دوماً أن التحاور هو عملية تواصل بين طرفين و هو أخذ و عطاء.

(ح).الابتعاد عن أسلوب العنف السلبي, حيث يجعل الفرد من عدم تفاعله سلاحاً مؤلماً يعلم أنه يزيد توتر الطرف الآخر.

(ط).لا تقفل باب الحوار بنهاية النقاش العقلي إذا كانت هناك آثار و نتائج واضحة من المشاعر السالبة من الإحباط و الغضب. فغسل آثار الحوار السالب أهم من النتائج المتفق عليها. القبول على مواقف محددة و إن كانت تتوافق معك فيجب ألا تسعدك إذا تركت الطرف الآخر كسير الخاطر أو محاصراً بالفشل و الهزيمة.

(ي).عدم وضع بعض المواضيع خارج قائمة التحاور و تحاشي أن يُرمز لها أو يُقترب منها. هذا التحاشي عادة يكون إما خوفاً من الموضوع أو من نتائجه. المواضيع المعلقة لا تختفي مع الزمن بل تبقى و تترك أثراً لا يخفى على تطور العلاقة.

أهمية التواصل بين الزوجين يجب ألا تجعلنا نهمل حقيقة أن الحوار لإزالة الاختلاف رغم أهميته يجب أن يكون هناك توازناً حتى لا يستهلك العلاقة. الحوار في قضايا الاختلاف لا يكون دوماً إيجابياً إذا لم يوضع في الإطار المناسب. إن إيجابيته لا تعني أن الكثرة منه مفيدة للعلاقات الزوجية بل العكس قد يكون صحيحاً, ففي بعض الزيجات نجد أن كثرة الحوار و التحاور في الاختلافات يصبح أزمة في حد ذاتها. لذا ينبغي الاهتمام بأن يكون التحاور في قضايا الاختلاف يتناسب مع مقدرة الطرفين و رغبتهم في التحاور.

هذه الموازنة ضرورية حتى لا تفتح الباب للهروب من الحوار, و لكن في نفس الوقت حتى لا تصبح إرهاقاً نفسياً و سبباً للخلاف ذاته.



الفصل التاسع

العلاقات الزوجية و محطات التدهور



العلاقات الزوجية و محطات التدهور

حاول علماء النفس النظر في مراحل التدهور في العلاقات و تحليل مكوناتها و العمل على تجاوزها قبل أن تقود العلاقة إلى الفشل. هذه المحطات أو الممارسات إذا تم الاهتمام بها ليس فقط ستمنع الزواج من الانهيار, بل ستساعد في فهم الآخر و بناء الجوانب الإيجابية و تقوية العلاقة و ضمان تطورها.هذه المحطات المتعددة حاولنا حصرها في خمس محطات رئيسة:

١.التواصل المأزوم.

٢.الخوف من التواصل.

٣.قلعة الأسرار.

٤.جنة الخيال.

٥.البرود و الملل.

(١).التدهور و التواصل المأزوم

قام معهد غوتمان(٣٥) للدراسات النفسية بدراسة المؤشرات التي قد تنبئ بتدهور العلاقة. و قد وجدوا أن العلاقات التي تنتهي بالطلاق أكثر من ٩٥٪ منها تمر بأزمة حقيقية في طريقة التواصل. قام جون و جوليا غوتمان بتقسيم التواصل المرضي أو التواصل المأزوم إلى أربعة أنواع. هذه الأنواع من التواصل المأزوم أو المراحل الأربع السالبة للتواصل هي:

*التجريح أو النقد السالب.

*التحقير و الازدراء.

*الاستكانة و الدفاع.

*الصمت.

قد أطلق غوتمان على هذه الأنواع الأربعة «مؤشرات الانهيار»,أو كما

وصفهم بفرسان الشر الأربعة, مثل القصص الأُسطورية عن الفرسان الأربعة (من حروب و أوبئه و وحوش و مجاعة كل على جواده) الذين ترسلهم الآلهه للإعلان عن نهاية العالم.

يعتبر جون و جوليا غوتمان هذه العوامل الأربعة هي مؤشر قوي ينبئ بانهيار العلاقة. كما ذكر جون غوتمان أنه عند تخصيص ثلث زمنك اليومي للرياضة و الاهتمام بجسدك و بصحة علاقتك الزوجية حتما سيقودك لحياة أكثر سعادة و صحة. الاهتمام بالصحة الزوجية من أهم أركانه أن تُخلق العادة في الانتباه و التفكير و العمل في تجاوز أي إشارات لظهور رسل الشر الأربعة.

فارس الشر الأول (الانتقاد السالب)

النقد لغة هو البحث في مكامن الظاهرة و تحليل مكوناتها عاكساً رؤية في جوانبها الإيجابية و السلبية.النقد الإيجابي يرمز عادة للنقد الذي يدعو و يقود للتغيير للأفضل, بينما السلبي منه يُعري الضعف و يقود للتحطيم و الهدم.

في العلاقات الزوجية يمكن أن نربط النقد الإيجابي بالشكوى التى تقود للإصلاح و التطور, و النقد السالب هو الذي لا يساعد في التطور بل يقود للتجريح و إيلام الآخر. إن أي قضية خلافية بين الزوجين فيها عدم الرضا و تكون مساحة للانتقاد يمكن أن يتناولها الزوجان بصورة انتقاد سلبي أو إيجابي. فمثالا لذلك إذا تأخر الزوج في الحضور للمنزل, فنجد مثالا للشكوى من هذا الموقف في صورة نقد إيجابي (ماذاحدث؟ ماتتصور كمية قلقي عليك عندما تأخرت). على الجانب الآخر نجد النقد السلبي يظهر في شكل (ماذا حدث؟؟ أنت أصلا ما بتهتم تتصل و تشرح الحاصل ليك).

هذا المثال يشرح كيف أن النقد الإيجابي و السلبي لنفس القضية يقود لنتيجتين مختلفتين, و يطرحان رسالتين يمكن أن نقول متناقضتين. حيث نجد في المثال الأول أن النقد الإيجابي يستند على مشاعر الزوجة

و اهتمامها بالزوج بدون الإشارة لشخصيته أو دوافعه. بينما استند النقد السلبي في توصيل رسالة التجريح لشخصية الزوج بالإهمال و عدم الاهتمام و ربما الأنانية, دون الإشاره لأحاسيس الزوجة و موقفها .إذن نفس الموقف الرافض لسلوك الزوج يمكن تناوله بنقد إيجابي لا يمس شخصية الزوج و يعبر عن مشاعر الزوجة, أو بصورة نقد سالب و تجريح لشخصية الزوج و لا يشرح مشاعر الزوجة.

إذن من الأهمية بمكان الانتباه و التفريق بين النقد الإيجابي باعتباره حق أصيل للفرد في التعبير عن رؤيته و مشاعره حيال موقف أو فكرة مساهماً في تطوير العلاقة و تقارب الزوجين, و الابتعاد عن النقد السالب الذي يُهاجم الآخر ولا يضيف للعلاقة بل يؤثر عليها سلبا و يساهم في إضعافها.

سمات النقد السالب و مكوناته الثلاثة نجدها في تركيبة الرسالة و طريقة صياغتها. حيث نجده دائما يبدأ بكلمة (إنت) أو تكون المحور الذي تنطلق منه الرسالة. هي رسالة فيها المباشرة اللفظية أو غير اللفظية تعبيراً بلغة الجسد توجه رسالتها لشخصية الآخر و ذاته. ثانياً عادة ما نجد فيه الأحكام القطعية و المقولات المعممة(دائماً) (نهائياً) (أبداً), و هي مؤشر لاثبات أن الخلل متكرر, مما يؤكد أنه خلل في شخصية الطرف الثاني. النقطة الثالثة وهي إهمال الموقف أو الفكرة و التركيز على حاملها, و عدم الاهتمام بتفكيك الموقف أو الفكرة لتساعد على فهم دوافع الآخر بل التركيز على شخصه و تصرفاته.

التجريح أو النقد السالب يقود إلى نتائج معروفة, لأن الطبيعة البشرية دوماً ترفض الهجوم و لا تقبل التجريح. إن التجريح في تركيبته دعوة للتسليم و التنازل مع تقليل للمكانة و الإمكانات. هي دعوة مستبطنة ضد إحساس الإنسان الفطري بالبقاء والدفاع عن النفس. لذا فإن التجريح عادة يخلق ردة فعل موازية له من الآخر الذي يسعى لحماية نفسه

منطلقا بغريزة البقاء و الحفاظ على الذات. تكون ردة الفعل إما خارجية أو داخلية. في ردة الفعل الخارجية نجد الطرف الآخر يُخرج أنيابه و يأخذ في استعمال سياسات أن «الهجوم خير وسائل الدفاع», فيبدأ في الرد بالهجوم و التجريح المضاد.

هنا يبدأ تكوين الحلقة الشريرة و تأخذ كرة الثلج في التضخم و الاندفاع, و مع كل تجريح تضيف تجريحاً مضاداً من الآخر, لتصل لمرحلة دوامة من التجريحات و الهجوم المتبادل الذي يصعب إيقافه أو الوصول لجذوره. في رد الفعل الداخلي للتجريح نجد بعض الأزواج على حسب تريكبتهم لا يحبون المواجهة و لا يستطيعون مقابلة التجريح بهجوم مضاد, فيقومون بتقوية دفاعاتهم الداخلية لتساعدهم على التحمل. حيث نجد الانكفاء الداخلي و خلق حوار داخلي مع النفس يقلل من تأثير تجريح الآخر بتشويه صورته و التقليل من مقدراته. هذا الجهد يقوم ببناء مشاعر الاحتقار لمصدر التجريح للتقليل من أهمية ما يقال, و عادة الاحتقار هو أول المشاعر التي تبدأ بهدم جسور الحب و تستبدلها بمشاعر الكراهية. يصاحب هذا جهداً واضحاً في تحاشي الآخر و تقليل المواجهة لتحد من جرعات التجريح, مما يخلق دوماً مساحة من التباعد بين الطرفين. هذا التباعد يقود لبناء حواجز من الجفاء وعدم التواصل. أيضا يقوم الآخر ببناء حاجز عاطفي من الغضب يساعده على التماسك و لا يسمح للتجريح أن يؤثر على الذات الغاضبة و المتحفزة.

هذا الخطوة من الانتقاد السالب و التجريح تفتح الباب لدوامة التجريح المضاد و تراكم كثير من المشاعر السالبة, مما يقود لخلق جو عدائي حتى بعد انتهاء لحظات التواصل و الحوار. هذا الجو السالب يصبغ العلاقة بإحساس (الأنا) والآخر و تبدأ أحاسيس (نحن) بالاضمحلال, و مشاعر الابتعاد العاطفي في الازدياد, و تقل فيه مشاعر التمازج و التعاون و تظهر مشاعر التنافر و التحدي.

التجريح لا ينبت من فراغ, بل نجد له جذوره في شخصية الفرد و تاريخه. الإنسان الذي نشأ في طفولة و تربية تعتمد الهجوم على الشخصية و ليس المواقف, يكون مهيئاً نفسياً و عقلياً على أن هذه هي الطريقة المُثلى للتواصل في زمن الاختلاف. فالفرد الذي عاش طيلة طفولته و هو يسمع(إنت كذاب) (إنت فاشل) (إنت جبان) (إنت قليل الأدب), ليس غريباً أن تكون هذه هي وسيلته و طريقته في حسم الاختلاف والتعبير عن عدم قبوله لفكرة أو موقف ما. أيضا نجد أن الفرد الذي يمتلك سمات ذاتية تتسم برغبته في السيطرة و عدم إحساسه بالأمان في العلاقات إذا لم يكن في موقع القيادة و دفة السيطرة, هذه السمات في الشخصية تجعل الفرد يعبر دوماً عن أحاسيسه من خلال رفضه لمواقف الطرف الثاني لعدم وجود مساحة لديه تحتمل أن يكون للآخر مواقف مختلفة, إما لعدم توقعه ذلك أو لخوفه من أن يسيطر شريكه عليه. فيصبح حواراً مستبطناً به هجمة استباقية و ممزوجاً بعنف لإظهار قوته و رفضه لأن يسمح للآخر أن ينافسه أو يصارعه.

النقد السلبي والتجريح قد يبدأ بمواقف متقطعه في العلاقة, و لكن عدم التعامل معه بوعي قد يقود لأن يصبح سلوكاً يومياً وجزءاً أصيلاً في العلاقة لا ينفصل عنها.

من أكثر العوامل التي تجعل من النقد السالب سمة سائدة هو عندما يفشل الطرفان في التعبير عن احتياجاتهما مباشرة, إما لعدم معرفتهما لوجود هذه الاحتياجات الحقيقية أو لخوفهما أو عدم رغبتهما في الإفصاح عنها. خير مثال نجده في الزوج الذي ينتقد سالباً شكاوى زوجته المستمرة عن جسدها أو صحتها أو آلامها, فعندما يحاول إيقافها من الحديث في هذا الموضوع نجده يبرر تجاهله لها أو رغبته في إسكاتها فيصفها (إنتِ بتحبي المرض),(إنتِ كبرتي),(إنتِ مُستهبلة),(إنتِ بتضخمي الحاجات). إذا رجعنا إلى دوافع هذه الردود الجارحة قد نجد مشاعر بعضها إيجابي و بعضها

قد يكون موضوعياً و ليس بالضرورة أن يكون جارحاً, كأن تُطرح في شكل نقد إيجابي مثلاً (و الله أنا بشعر بالقلق عليك لمن تشتكي من صحتك),(لمن تشتكي من صحتك بشعر بالتوتر و الغضب من نفسي لأني ما بعرف أعمل شنو). كما نلاحظ فشل الزوج في الانتباه لمشاعره الحقيقية التي قادته للتوتر, فبدلا من البحث عن أسباب خوفه على صحة الزوجة أو الخوف على الموارد أو الضيق من إحساس العجز و عدم المساعدة, اختار أقصر الطرق بقمع الآخر من التعبير عن شكواه التي تسبب له التوتر.

هذا الفشل في فهم الفرد لدوافعه و استبداله بالحسم و الرد الجارح, يصبح مع مرور الوقت هو السائد في العلاقة, و تصير العلاقة هي تراكم من الانتقادات السالبة تعكس قصة لزيجة يسود فيها الانتقاد السالب و التجريح, ليس نتاجاً لاختلافات جوهرية بين الزوجين, و ليس انعكاساً لتناقض حقيقي بينهما و لا تعبر عن دوافع الزوجين بقدر ما تعبر عن فشلهما في معرفة دواخلهما و في التعبير عنها.

يجد البعض صعوبة في التعامل مع النقد السالب. عادة ينبع الفشل في التعامل معه لعدم توقعه في كثير من الأحيان, و عدم الرغبة في دخول معركة مع نصفه الآخر من ناحية أخرى. حيث أنه لا توجد علاقة يمكن أن نقول مُحَصَّنَة من النقد السالب, و أن التجريح نادر الحدوث في العلاقات المتوازنة, بل العكس يمكننا القول إن بذرة الانتقادات السالبة يمكن أن تكون موجودة حتى وسط العلاقات المتوازنة, و لكن المهم هو في كيفية التعامل معها و التخلص منها. إذن من الأفضل أن يكون كل طرف مرتبط بعلاقة مستعداً لها, منتبها لإمكانية حدوثها , واضعاً في ذهنه أفضل الطرق للتعامل معها.هذا يجعل الزوجين قابلين لأن يكونا في موقع المتلقي للانتقاد السالب. إذن هي ليست محاولة عدم حدوثها نهائياً, بل عن كيفية حسمها في مهدها عند ما تحدث, و منعها من الانتشار أو التضخم. أفضل طرق الحماية هذه تعتمد على أربعة عوامل و دفاعات.

الوقاية من التجريح

*النقطة الأولى هي كيفية صنع حد دفاعي يمنع التجريح من الدخول للذات, و ذلك باستعمال أساليب وقاية مثل الفكاهة للتقليل من حدة الانتقاد, و إضافة جو من المرح و الفكاهة على الجو المتوتر.

* النقطة الثانية هي تقوية الدفاعات العقلية حتى لا يخلق التجريح أثراً. الانتقاد السالب يعكس أزمة المتحدث و ليس المتلقي, كما أن التجريح هو انعكاس لفشل المتحدث في طرح احتياجاته بصورة واضحة.

*النقطة الثالثة هي ضرورة أن يعكس المتلقي دوما تأثير النقد السالب عليه حتى يعلم المتحدث أن أي تعليق أو كلمة خارج السياق لها تأثيرها على الآخر.

*النقطة الأخيرة هي ضرورة رسم نظام إنذار مبكر بين الطرفين بتحديد كلمة أو جملة تقال عندما يشعر أحدهما بأنه قد انتُقد بصورة سالبة, و أن النقد قد ترك جُرحاً أو أثراً غير مقبول.

كل فرد في العلاقة أيضا عليه مسؤولية أن ينتبه لنفسه و يتحاشى بقدر الإمكان أن لا يكون مصدراً للنقد السالب, و ذلك بِتبني الأركان الأربعة للحوار الصحي بين الزوجين.

أركان الحوار الصحي

الركن الأول يتمثل في الإحساس بأن الزوجين في فريق واحد, لذا نقاط الاختلاف يجب أن تبدأ بتأكيد مسؤوليتك و رؤيتك و ما شاهدت أو فهمت من الطرف الآخر و ما تتمنى حدوثه. فمثلا بدلاً عن (أخلاقِك بقت ضيقة مع الأطفال) يصبح المدخل الإيجابي (أنا بشعر بالقلق عليكِ لمن أشوفِك تعبانة من ضغوط الأطفال.. كيف أساعد عشان أخفف عليك؟؟).

الركن الثاني يعتمد على أن البعض يجد صعوبة في الاعتراف بأحاسيسهم و عدم مقدرتهم تقبل ضرورة كسر كل الحواجز و القوالب المسبقة عن الزواج و الرجولة و الأنوثة و القوانين العامة, و أن يشعر الفرد بإحساس

العفوية و عدم التعسف و عدم الخجل من التعبير عن حاجته للأمان و الحب, و تخوفه من أحاسيس القلق و الضعف و التوتر. حيث نجد كثيراً من الأزواج المُشبعين بأحاسيس الذكورية الخشنة عندما يريد أحدهم أن يُعبر عن موقف قلق على زوجته التي تخاف من فحص الدم مثلا أو العلاج بالحقن, فبدل أن يعكس خوفه عليها و يساعدها لتتجاوزه نجده يخاطبها قائلا (بطلي العوارة دي). أو عندما يكون بحاجة لدعم مالي و مساعدة منها فإنه لا يطرح حجم حاجته لمساعدتها, نجده يطرحها بصورة سالبة مثل(ليه إنتِ بخيلة كده؟).

الركن الثالث هو الذكاء العاطفي و الانتباه لمشاعر الشريك قبل أن يشتكي من تأثير النقد السلبي. ينبغي أن يطور الفرد في دواخله مستوى الحساسية لأي متغيرات في حالة الشريك تنبئ عن ردة فعل سالبة أو تعبر عن رفض و عدم قبول لكلمة أو تعبير ما.

الركن الأخير هو الاستمرارية و المداومة في تكرار النقاط أعلاه, و عدم التخلي عنها يوما نتيجة لفشل في قراءة الموقف أو نتيجة لما تتطلبه من جهد و مراقبة واعية لتصرفاتنا و تعابيرنا.

فارس الشر الثاني (الازدراء و الاحتقار)

يمكن اعتبار الازدراء نوع من أنواع النقد السالب, و لكنه أكثر حدة و عنفا مع تغيير نوعي, حيث يختلف منه أو يزيد عليه بأنه مرتبط بشعور التعالي من طرف على الآخر, وجزء أساسي في حالة النقد السالب إيصال الرسالة بدونية المتلقي مقارنة مع المتحدث, و يسمى هذا النوع الخاص من النقد السالب بالاحتقار و الازدراء.

يظهر الازدراء في أشكال متعددة رغم الانطلاق من جوهر واحد و رسالة واحدة و هي التقليل من شأن الآخر. فقد تتمثل ابتداءً في الشعور الطاغي عند أحد الزوجين بتفوقه على الآخر و بأنه أفضل منه.أحيانا قد يشعر أحد الزوجين بعدم الرضا و القرف من شريك حياته, و بأنه يستحق أفضل

من ذلك. هذه الأحاسيس قد تستمر حبيسة الصدور إلى فترة ثم تبدأ في الظهور في شكل سخرية و احتقار لفظي مباشر باستعمال أسماء و صفات تتسم بالإذلال.استعمال حركات تعبيرية دوما لها مدلولاتها, فقد نجد في تعابير الوجه و اليدين تعبيراً عن التعالي و الاحتقار. أحيانا قد تبدر من الفرد مواقف و ممارسات في دواخلها تعكس رغبة في الازدراء و عدم احترام الشريك رغم أنه ليس هناك تصريح مباشر و واضح, مثلاً نجد المقاطعة في الكلام أو عدم إكماله. الازدراء له تأثير سلبي في توازن القوى بين الزوجين, حيث يجعل أحدهما يشعر بتعاليه على الآخر بينما قد يشعر الطرف الثاني بالدونية و الضعف أمامه. هذا الشعور يقود لإيقاف مشاعر الحب من التدفق, و تبدأ في التناقص التدريجي و تبرز معها أحاسيس العجز و الضعف تجاه العلاقة, مع تزايد أحاسيس البعد و التراجع فيها. مشاعر الاحتقار غير أنها سلبية, فإن لها تأثيراً ساماً حيث تصبح مثل الجرثومة التي تصيب جسد العلاقة في مقتل و تبدأ في الانتشار.

على كل طرف في داخل العلاقة الزوجية مسؤولية التعامل الجاد مع أي بوادر من سمات الازدراء و التحقير, و ذلك باتباع نفس النصائح و الخطوات التي أوردناها آنفاً مع تواصل النقد السالب, بالإضافة لذلك بعض الخطوات الأخرى مثل الاهتمام بمعرفة أي جوانب سلبية في الشخصية تجعل الفرد له قابلية للتجريح و الازدراء. فبعض الشخصيات لها سمات من البرود الاجتماعي و العنف و ضعف الإحساس بالآخرين, و هذه السمات تحتاج لمراجعة, و في بعض الأحيان قد يحتاج الفرد لمتخصصين للمساعدة في التخلص منها. النظر للسمات السلبية يجب أن لا يجعلنا نهمل تطوير بعض سماتنا الإيجابية من الأمانة و الاعتراف بأي تقصير أو تجاوز, مع التركيز على سمات التواضع و المرونة... كما أنه من الضروري الاهتمام بكيفية إعادة صياغة التجريح في شكل تواصل إيجابي يُفصح عن الرغبات و الاحتياجات.من الأهمية بمكان أن تبدأ

عملية تغيير المشاعر السالبة المرتبطة بالازدراء إلى مشاعر إيجابية, و ذلك بجهد واعٍ يبحث فيه الشخص عن الجوانب الإيجابية في شخصية شريكه, مع الرجوع للذكريات و استحضار السمات الإيجابية التي كانت تُبهر و تُعجب قبل بزوغ جرثومة التحقير. و أخيراً من المهم تأسيس ثقافة التقدير للأشياء في الشريك و في العلاقة مهما كانت هذه الأشياء صغيرة, وذلك باحترامها و الاحتفاء بها بصورة منتظمة.

فارس الشر الثالث (الدفاع الهروبي و التبرير)

المقصود بالدفاع الهروبي هو تجاهل جوهر القضية المطروحة, و التركيز على استعمال وسائل هروبية لتحميه من مواجهة الموضوع المطروح. هي جزء من تركيبة النفس البشرية عند الإحساس بالخطر أو الهجوم, فيكون رد الفعل الغريزي هو الدفاع و تقليل الخسائر أكثر من التركيز على أسباب الهجوم.

نجد الوسائل الدفاعية الهروبية متنوعة و متعددة, و لكن يمكننا أن نذكر ستة أمثلة منها:

(١).**تحويل الاتهام**.. مثال لذلك عندما تشتكي الزوجة من عدم اتصاله بها هاتفياً عندما كانت في بيت أسرته.. نجد الزوج يُحَوِّل التساؤل أو الاتهام في اتجاهها بالتأكيد بأنها هي التي كان يُفترض أن تتصل به, و أنه كان في انتظار إتصالها طوال اليوم.

(٢).**خلق أعذار** منطقية و لكن وهمية... ففي نفس التساؤل السابق مثلا نجد الزوج يستعجل في رمي اللوم على أن هاتفه لم يكن به طاقة و لم يكن لديه شاحن في تلك اللحظة.

(٣).**التشكيك في الاتهام**.. و هنا يقوم الزوج بالتأكيد على أنه لم يكن هناك مِثل هذا الاتفاق بل إن الإتفاق كان على أن من يجد زمنا عليه أن يتصل.

(٤).**تضخيم الاتهام**.. و هنا يتم التركيز على مساحات لم تتطرق لها

الزوجة (تقصدي إني غير مسؤول و لا يُعتمد عليه؟).

(٥). إيجاد حالات شاذة للموقف.. و هنا يحاول الزوج أن يجعل موقف الاتهام مجرد حالة شاذة بالاستناد على مواقف قد تكون حقيقية و لكنها لا تجاوب على قضية الخلاف (أنا كل يوم بتصل بيك في الزمن المحدد و الأسبوع الماضي لمن ذهبتي لأسرتك أنا الاتصلت بيك)

(٦).العنف..و هنا يحاول الزوج مواجهة الزوجة بالعنف ليفرض عليها التراجع (ليه إنتِ دايما حادة و متزمته و ما بِتْقَدِّري ظروف الآخرين بس بيهمك أن تتم الأشياء بالصورة التي تُرضيكِ دون مراعاة للاخرين).

الأسلوب الدفاعي كما ذكرنا به الجانب الغريزي النابع من غريزة البقاء و رد فعل لحماية الذات من تهديد قد يكون حقيقياً أو تهيؤً. هذا الأسلوب يصبح هو السائد لدى البعض نتاج لعوامل عديدة. من أهم هذه العوامل تركيبة الفرد ونمط شخصيته, حيث أن الشخصيات القلقة و التي تفضل الانزواء و عدم المواجهة هي أكثر استعمالا لوسائل التواصل الدفاعي. هذه الجوانب في شخصية الفرد تساهم فيها تجارب الطفولة و التربية و العلاقات الاجتماعية في مراحل البناء, و كيف اكتسب الفرد مقدرات التعامل مع الواقع أم الهروب منه. إن واقع العلاقةالزوجية نفسها و مدى قوتها أو ضعفها و إلى أي درجة تسود فيها ثقافة الثقة و الوضوح و الاحترام تؤسس التربة المناسبة لمواجهة التفاصيل و ليس الهروب منها. نجد أن تركيبة الفرد و أسلوبه في طرح القضايا قد تساهم في جعل المتلقي أكثر قابلية للوقوع في حالة الدفاع بدلا عن مواجهة القضايا. خير أمثلة لطريقة الطرح المتفاعلة مع تركيبة المتحدث التي تسهل أو تمهد لردود الأفعال الهروبية نجدها فيما يلي:

(أ). الدوغمائية

هي القناعة أو الرؤية بأن الأشياء و القضايا المطروحة للطرف الآخر محسومة لا تقبل أي احتمال آخر، حيث أن القناعات الخاصة تصبح حقائق لا تقبل حتى النقاش.

(ب). الضبابية

و هي عدم الوضوح في طرح القضايا مع تعتيم الحقائق و عدم إيراد كل المعلومات المتوفرة. فالزوجة التي تطرح تساؤلاً (عندما حضرت أمس هل قفلت الباب من بعدك؟؟)،و التساؤل بهذا الشكل يوحي بأن المعلومة ليست كاملة و لا يعلم المتلقي ما سيتبعها من مصائب، مما يقوده إلى الإجابة الدفاعية الهروبية تخوفاً من تحمل المسؤولية. فربما التساؤل ينبع بأن أحداً قد ترك الباب مفتوحاً مما سبب صريراً و ازعاجاً، أو ربما دخل لص و سرق بعض المجوهرات. لذا فالإجابة عن السؤال غير المكتملة معلوماته تجعل المتلقي حذراً في الإجابة خوفاً من المسؤولية، فيختار الأسلوب الدفاعي و الهروبي.

(ج). التعالي

بالنظرة للآخر، يشعر المتلقي لأي حديث يصدر إليه بأنه هجوم، لأنه يفتقد لإحساس الندية و أساس الاحترام لتبادل الآراء و الحوار المتوازن. لذا ترتفع الرغبة في الدفاع للحفاظ على التوازن المفقود.

(د). المسؤولية

و هي طرح القضايا بصورة كأن المتحدث يحاول التنصل من أي مسؤولية و يطرح القضية بصورة تبحث عمن يتحمل مسؤوليتها.لذا أول ما يخطر في ذهن المتلقي «لست أنا من سيتحمل المسؤولية» و يكون الدفاع أفضل المداخل.

(هـ). السيطرة

هي سمة لكثير من الأزواج الذين لا يشعرون بالأمان إذا لم يجدوا الطريق ممهداً لكل آرائهم, فيطرحونها بطريقة لا تخلو من الرغبة في السيطرة أكثر منها في الحوار. هذه الرغبة في السيطرة تجعل فرصة تبادل الآراء المنطقية ضعيفة , و يكون الدفاع الهروبي أقرب وسيلة لمحاربة السيطرة و المحافظة على الذات.

(و). الهجوم

في الحوار من الطبيعي أن يَقْتُل الهجوم فرص التحاور و تبادل الآراء بصورة موضوعية, لذا يكون الاحتماء بالأساليب الدفاعية رد فعل متوقع.

نجد أن أسلوب الدفاع الهروبي حتى إذا ساهم في إيقاف مشاعر التوتر اللحظي و التخوف من الحوار, لكن الذي لا شك فيه أن له أثره السلبي على العلاقات الذي لا يخفى على أحد. من أكثر الآثار وضوحاً أن القضايا تصير معلقة و الحوار لا يصل إلى نهاياته. لذا تتراكم الاختلافات و حتما ستصل لمرحلة لا تستطيع العلاقة أن تحتملها فتؤدي للتصدع أو الانهيار. في كثير من الأحيان نجد أن الدفاع الهروبي يفشل حتى في توفير تهدئة مؤقتة للخلاف, بل قد يقود لردود فعل عدوانية و غاضبة من الطرف الثاني الذي قد يشعر بأن ذلك الطرف غير صادق أو غير جاد في التعامل مع القضية المطروحة. عندما يصبح الدفاع الهروبي هو السمة العامة, نجد أن الطرف الثاني يشعر بعدم الاحترام و التقدير للقضايا المطروحة و للشخص الذي طرحها و لمشاعره, لذا ليس غريبا أن يؤثر على العلاقة و يؤدي لتراجعها.

لتجاوز هذا الأسلوب الدفاعي الهروبي هناك ست خطوات يجب الانتباه إليها و العمل بها للمساعدة في العلاج.

طرق تجاوز الدفاع الهروبي

(١). التركيز على الحوار الإيجابي أو المحايد الذي يخلو من النقد السالب و الازدراء, و يقلل من الحاجة لأساليب دفاع هروبية.

(٢).الحديث بوضوح و تثقيف نفسك و شريك حياتك عن الدفاع الهروبي و خطورته على العلاقة, و أهمية مراقبته و ضرورة التشافي منه إذا ظهرت بوادره.

(٣).الأساس هو أن نقبل اختلافاتنا كزوجين و نحترم هذا الاختلاف و حق كل طرف في حمل رؤى مختلفة و متباينة ليست بالضرورة أن تكون مقنعه للطرفين.

(٤). السيطرة على العواطف و تجاوز التوتر و التحفز قبل الانغماس في أي تواصل و حوار, حيث أن الدفاع الهروبي ينبت في تربة من الخوف القلق أو التحفز للدفاع عن الذات. مقدرة الفرد في تجاوزالحالة المشاعرية السالبة تقفل الأبواب أمام الحاجة للدفاع الهروبي.

(٥).قبل أن تفكر في الرد يجب النظر إلى أي درجة من المسؤولية تقع على عاتقك و ينبغي عليك الاعتراف بها و القبول بدورك فيها.

(٦).ابحث دوما عن جذور أي رسالة و بادر بطرح رؤيتك الإيجابية, و أن تنظر لجوهر الأزمة و محاولة إظهارها والبحث عن حلول. فعندما تقول الزوجة(إنك دائما تحضر متأخراً) بدلا عن القفز إلى(ده ما حاصل) يمكن أن يصاغ الرد الإيجابي في شكل (نعم الفترة الماضية سرقني العمل و لا يفترض أن أترك العمل يسيطر عليَّ مما جعلك تشعرين بأنني أهملتك أنتِ و الأسرة؟؟).

أساليب الدفاع الهروبي حتما تؤثر سلباً على الزواج, و لا يمكن أن يتجاوزها الزوجان بدون أن يتعاونا في ذلك. فبقدر ماهو أسلوب يعتمد على ردة فعل المتلقي, لكن للمتحدث دوراً أساسياً في تركيبته و طرق طرحه للحوار.

فارس الشر الرابع (الصمت)

الصمت العابر في العلاقات الزوجية قد يكون طبيعياً و يحدث بصورة تلقائية عندما لا يجد أحد الزوجين ما يقوله من الدهشة و الاستغراب أو الحيرة و الغضب. عادة يُعتبر ردة فعل مفهومة عندما لا تستمر طويلا و لا تكون مقصودة, و يمكن فهمنا لها إذا نظرنا للحوار و الموقف الذي نبعت منه. و عادة بعد فترة قصيرة يعود الفرد للحوار و التواصل, و قد يُعتبر الصمت هنا جزءاً من وسائل التحاورأو إيصال الرأي. الصمت الـمَـرَضِي الذي نتحدث عنه أو فارس الشر الرابع هو الصمت الذي يكون مقصوداً كرد محسوب للحوار و رفضاً للتواصل. و عادة يستمر لفترة أطول و يعتبر هو في ذاته رداً على موضوع التواصل.

هنا يكون الصمت في جوهره قراراً بالانسحاب من الحوار وعدم التواصل ورفض المشاركة. إن حالة الصمت قد تظهر في أبسط أشكالها في رفض للحديث, و قد يصاحب ذلك عدم الإنتباه للمتحدث و التركيز متعمداً بعيداً عنه, أو التركيز مع المتحدث مع عدم الرد و الكلام. في بعض الأحيان قد يكون الصمت باستعمال كلمات محدودة مع الموافقة السلبية لأي موضوع مستبطناً رسالة «أنني لا أريد أن اتناقش معك ولا أرغب في إعطائك رأي». قد تتمثل حالة الصمت في الامتناع عن تقديم أي نوع من المشاعر محتفظا بكل تفاعلاته في نفسه. فلا يفرح لشئ سعيد و لا يهتم لحدث مثير و لا يلفت انتباهه موقف ما, بل هو مجرد صخرة صماء خالية من المشاعر. بعض حالات الصمت تظهر في شكل رفض للاستجابة لكل الموثرات و الإشارات الاجتماعية, مع تجاهل متعمد لعدم التعامل أو التبادل لأي مشاعر أو تفاعل اجتماعي, فلا رد على تحية و لا ابتسامة مقابل تفاعل أو ابتسامة من الشريك.

الصمت في بداياته عندما يظهر في علاقة الزوجين يصاب الطرف الآخر بمشاعر متباينة, و متعددة تتراوح بين الاستغراب و الدهشة و الغضب.

عندما يجد الطرف الصامت أن الصمت قد خفف عليه حدة المواجهة أو ساعده في تجاوز أزمة حوار لا يود الدخول فيها, فإن هذا المكسب سيؤدي لتكرار حالات الصمت كوسيلة تحاور. هنا ستصبح حالة أزمة في العلاقة و مع تفاقمها حتما ستقود العلاقة لمنزلق خطير.

الصمت على المدى الطويل سيقود لتدهور في العلاقة بين الزوجين, حيث سينشأ حاجز يقلل من التواصل و يجعل كل طرف يحمل آراءه و إحباطاته و أحلامه عن العلاقة. في انعدام التواصل اليومي سيتخيل كل طرف ما في عقل الآخر, و سيتصور و يحاول أن يقرأ ما في دواخله و ستصير العلاقة ليست على حقيقة الشريك بل تستند على ما في خيال كل منهما عن الآخر بلا إثبات و لا دليل, فتنمو الأوهام و الأفكار الخاطئة فلا غرابة أن يصبح كل منهما غريباً عن شريكه.

تتعدد الأسباب في استخدام البعض الصمت كوسيلة للتحاور, فقد يكون عجزا عن التفاعل مع الحوار أو قد يكون تعبيراً عن موقف محدد من الحوار و التواصل.

الحالة الأولى: الصمت للعجز

نجد أن حالات العجز التي قد تقود لحالة الصمت تتمثل في ثلاث صور:

*الصورة الأولى نجدها عندما يكون الموقف ملئ بالمشاعر لدرجة تسيطر على المتلقي حدة المشاعر و الأحاسيس فلا يستطيع أن يعبر عن هذا الفيضان الذي يتجاوز إمكانياته. فمثلا الزوجة التي تخاطب الزوج بطلب مثل (أنا ماعاوزه والدتك تزورنا و لا أطفالي ما يمشوا ليها), هذا الحوار قد يخلق مشاعر قوية من الدهشة أو الغضب لدرجة أن لا يستطيع الزوج الرد أو التحاور.

*الصورة الثانية عندما يكون الحوار أو الموقف حرجاً,أي ليس لدى الشخص ما يتحاور فيه, فيفضل أن يهرب أو يبتعد عن النقاش حتى و لو إلى حين ليرتب أفكاره. و مثال لذلك عندما تقول الزوجة لزوجها (لمن

بغسل في الملابس لقيت صورة البنت دي في جيبك و فيها إهداء ليك).. هنا مشاعر القلق و التوتر أو الخوف قد يقود لحالة من الصمت و عدم التجاوب.

*في الصورة الثالثة يكون أحد الزوجين يفتقد المقدرات الاجتماعية في التعبير عن نفسه في حالات محددة, فالبعض يشعر بالخوف أو التوتر و بالشلل و عدم القدرة للاستجابة للهجوم و التجريح أو الغضب.

الحالة الثانية: الصمت الرافض

في الجانب الثاني نجد حالة الصمت تظهر كتعبير مقصود من الرفض في أشكال محددة, أو لتعبر عن رسالة محددة جوهرها عدم التواصل كسلاح ضد الآخر, و نجدها كرسالة تعبر عن نوع من أنواع العنف السلبي, حيث يكون الصمت عقابا مقصوداً. أيضا قد يُقصد به رسالة للتحقير و الازدراء, كأنها تؤكد للطرف الثاني عدم الاهتمام به و عدم احترامه. في بعض الأحيان قد يعبر الصمت عن محاولة أو وسيلة للسيطرة على الموقف و إجبار الطرف الآخر على التراجع و نسيان موضوع الحوار, أو قد تعني الضغط عليه و إجباره على الانكسار و التنازل أو الاعتذار.

عندما يستعمل أحد الزوجين سلاح الصمت يصاب الشريك عادة بالجمود, و عشرات الأسئلة تدور في ذهنه عن كيفية التصرف. تتراوح الأفكار بين الهجوم أم الصمت و الانسحاب. إن الدراسات قد أثبتت أن أفضل الطرق في التعامل مع الصمت يتم خلال اتباع الخطوات الخمس المنطقية و المعلومة النتائج.

خطوات علاج الصمت

***الخطوة الأولى لعلاج الصمت**

ينبغي على الفرد التعامل مع واقع الصمت بهدوء و عدم انفعال, و على الزوج أن يتجنب محاولة ضغط الشريك الصامت لكسر صمته. محاولات الضغط العاطفي من تساؤل و حصار أو غضب لن يساعد في كسر حالة الصمت بل قد يؤدي الي نتائج أسوأ.

***الخطوة الثانية لعلاج الصمت**

أن لا تحاول استنتاج الأسباب و الدوافع وراء حالة الصمت, فمحاولة قراءة ما يدور في عقل الزوجة أو الزوج الصامت عادة مصيرها الفشل مما قد يزيد الوضع سوءاً.

***الخطوة الثالثة لعلاج الصمت**

و هي التأكد بأنهما قد تجاوزا مرحلة الانفعال, و بعد وقت كافٍ يرجع الطرفان لحالة الحوار العادي, و يجب عليهما الجلوس سوياً و معرفة أسباب الصمت و عدم تجاهل حدوثه.

***النقطة الر ابعة لعلاج الصمت**

ينبغي التذكر دوماً أن حالة الصمت مسؤولية صاحبها, و عليه أن لا يشعر بالذنب أو المسؤولية. لكسر حالة الصمت عليك أن تتعلم كيف تسيطر على مشاعرك و تهدئة انفعالاتك و ردود أفعالك عندما يكون شريكك في حالة الصمت هذه.

***النقطة الخامسة لعلاج الصمت**

هي ضرورة الاستفادة من هذه التجربة و مناقشة نصفك الآخر في توقعاته منك عندما يكون في حالة الصمت, و ماهي أفضل الطرق لمساعدته لهدم هذا الجدار.

الشخص الذي يدخل في حالة الصمت عليه المسؤولية الأولى في تجاوزها, لذا يجب عليه أن يقوم بدور إيجابي في محاربة هذه الوسيلة, و استعمال كل الطرق لحصارها و منع حدوثها مستقبلاً. يمكن رسم إستراتيجية بسيطة للتعامل معها من ثلاث نقاط.

الوقاية من حالة الصمت

النقطة الأولى

تتمثل في مراقبة الشخص لنفسه و البحث عن مؤشرات تنبئ بقرب حدوثها, إما في نوع القضايا التي تناقش أو في التغييرات الفسيولوجية التي تسبق حالة الصمت. بعض الأشخاص يلاحظون ازدياد في مشاعر التوتر قبل أن يصلوا لمرحلة الصمت, و عادة ما يظهر التوتر و معه زيادة في عدد ضربات القلب أو سرعة التنفس أو التعرق أو برودة الأطراف. هذه المؤشرات قد تكون بمثابة جرس إنذار يمكن أن يساعد على الاستعداد لمنع أو عكس حالة التوتر, و ذلك إما بالإسترخاء لفترة قصيرة أو محاولة تمارين استرخاء العضلات و التنفس العميق.

النقطة الثانية

يجب أن لا يشعر الفرد بالارتياح أو المكسب نتيجة لعملية الصمت, بل عليه أن يرجع لموضوع الحوار في أسرع وقت. فتكون الرسالة المكتسبة من التجربة أن الصمت لم يفد و لم يحسم موضوع الحوار أو يلغيه, و ربما يؤجله و لكن مصيره العودة لأرضية الحوار.

النقطة الثالثة

المهم هو رسم تصور لما يُفترض حدوثه إن تكررت حالة الصمت, و أن يشارك زوجته فيما هو متوقع منها من دعم و انتباه للقضايا التي تزيد التوتر, ليس لتحاشيها بل للاتفاق في كيفية التعامل معها ابتداءً بالكتابة و الرسائل والتدرج حتى ينكسر حاجز القلق و الخوف المصاحب.

الخوف من التواصل

من الطبيعي أن يشعر أحد الزوجين في لحظة ما أو موقف ما بالخوف من التواصل مع نصفه الآخر. حيث أن الطبيعة البشرية و ذاتية كل فرد تجعل دوماً استحالة التطابق في كل شئ. لذا ليس مستغربا أن تظهر بعض الأشياء و القضايا التي قد يخاف أحد الطرفين مشاركة الآخر فيها. هذا الإحساس عادة يكون لحظيا أو لفترة قصيرة, و بقليل من التفكير الموضوعي يتجاوزه الفرد. يصبح هذا الشعور مشكلة إذا استمر لمدة أطول و لم يستطع الفرد تجاوزه, ليكون جزءاً من تركيبة العلاقة, و بدأت تتكون حواجز و صارت هناك قضايا و جزر مُحَرَّمَة يصعب التحدث عنها. حينها يكون الخوف من التواصل جرثومة من أمراض العلاقة التي تستدعي العلاج و الانتباه. نجد أن الخوف من التواصل أو الحديث له أسباب عدة يمكننا أن نعدد بعضاً منها, فقد يكون السبب جوهرياً في تركيبة الزوجين أو في ضعف العلاقة و ضعف مستوى الوضوح و الشفافية.

نجد من أكبر أسباب الخوف من الكلام هو ضعف العلاقة, و قد تكون أكثر وضوحاً في بدايتها , حيث يكون كل طرف متمسكاً ببعض جوانبه الذاتية, إما خجلاً أو قلقاً و خوفاً من تمليكها للطرف الآخر, أو لأن الموضوع نفسه غير مقبول اجتماعيا للطرف الثاني (مثلاً شُرب الخمر أو استعمال الصعوط), أو نتيجة لخطورة المعلومة و تأثيرها على الزوجة (مثلاً أن يكون للزوج زوجة أخرى و علاقات أخرى خاصة في فترة الخطوبة). بعد تجاوز الخوف من رد الفعل و معرفة دواخل الآخر, قد يكون عدم التواصل نابع من عدم ثقة في أن هذا الطرف قادر على الاحتفاظ بسرية المعلومة أو عدم قدرته على حُسن التصرف. نجد خير مثال لذلك في إخفاء الزوج لمصادر دخل الأسرة و منصرفاتها, فيكون الخوف أحيانا من أن الزوجة قد لا تحسن التصرف في الموارد أو الخوف و عدم المقدرة على الاحتفاظ

بخصوصية الميزانية داخل إطار الأسرة. من أكثر المواضيع التي يخاف الزوجان من الحديث عنها عندما يكون معلوما أن الموضوع سيخلق رد فعل سلبي عند الطرف الثاني لدرجة قد تشمل الهجوم و الانتقاد أو التأثير على العلاقة. هذه عادة تكون حزمة متعددة و متباينة من القضايا على حسب علاقة الطرفين و عدد الخطوط الحمراء في علاقتهما التي يجب عدم تجاوزها.

الخوف من التواصل سيقود لبناء حواجز بين الزوجين, و بناء مناطق معزولة و ممنوع للاخر الاقتراب منها. هذا الواقع سيقود العلاقة إلى مناطق أكثر وعورة, فمثلا وجود قضايا لا يستطيع الزوجان الافصاح عنها قد تجعل أحدهما أكثر عرضة لأن يبحث عن شخص يشاركه همومه, و ليس بالضرورة أن يقود هذا البحث الي الخيانة, و لكن حتما يقود إلى ضعف جسور الثقة بين الزوجين في قضايا محددة و تقويتها مع شخص آخر, رغم أن هذه القضايا من صميم العلاقة الزوجية. مثال لذلك الخوف من الحديث في المواضيع المالية, مما يجعل الزوج أو الزوجة كرد فعل تعويضي يسعى لتمليك همومه و دواخله بما يخص الأموال لشخص ثانٍ, فيمكن أن يُرى اعوجاج الوضع عند مناقشة و مشاركة الزوج همومه المالية, بينما يكون شريك الحياة المهموم بهذا الموضوع و متأثراً به خارج دائرة التحاور. الأزواج الذين يخافون من التحاور نتيجة ضعف جسور الثقة مع الآخر سيتركون جرثومة عدم الثقة تنهش في العلاقة. حيث نجد أن قائمة المواضيع تبدأ في الازدياد, و تبدأ عملية التشكيك في مقدرات الآخر و تصبح معظم أفكار و أحياناً بعض تصرفات الشريك عُرضة للمتابعة و المراقبة. أما الذين يتخوفون من نتيجة الحوار و ما قد يعود عليهم من رد فعل سالب من هجوم و نقد بل و تجريح و عنف سيؤدي بالضرورة إلى وجود مساحات في العلاقة غير مسموح الاقتراب منها, مما سيخلق علاقة بها كثير من المساحات و الجزر المعزولة مع تراكم كثير من

الرغبات المكبوتة و الأحلام التي وئدت قبل ازدهارها. أخيرا نجد أن الذي يتخوف من التحاور خشية أن يجرح مشاعر الطرف الثاني, فإنه قد كتب على نفسه و على علاقته دوماً أن تكون في مستوى أقل من طموحه و من أحلامه. مثال لذلك الزوجة التي تحلم بأن تعمل و أن تكون لها وظيفة خارج المنزل, و لكنها تخشى من طرح هذا الرأي تهيباً من غضب زوجها الذي يقابل به هذه الفكرة, فنجد أن احتفاظها بهذا الحلم في دواخلها خوفا من عواقب إخراجه للعلن, بذلك تكون قد كتبت على نفسها تبديد أحلامها و تقبل واقعٍ أقل من مستوى توقعاتها. هذا التنازل الذاتي يجعل العلاقة تسير في مستوى أقل من طموحات الزوجين و أحلامهم.

ظاهرة التخوف من التواصل قد تبدأ في مواقف بسيطة و لحظات طارئة, و هو ناقوس الخطر للأزواج للانتباه لها و أن لا يتركوا لها الباب مفتوحا لتدخل و تأخذ موقعا بينهما. يجب ابتداءً أن يعلم الزوجان أن التخوف و تحاشي طرح قضايا للطرف الثاني ظاهرة سلبية يجب محاربتها, و هي مسؤولية يجب عدم التراخي فيها, و كلما كان التعامل معها في بداياتها و عدم تجاهلها كان التخلص منها أسرع وأسهل. في بداية العلاقة من المفيد للزوجين الاتفاق على طريقة محددة للتعامل مع مشاعر القلق و الخجل من النقاش, و كيفية احترام هذا الإحساس و عدم السخرية من الآخر عندما يطرحه, و تشجيعه على ذلك و تقديره لتجاوز صعوبة الاعتراف بذلك. يمكن النقاش بطريقة مبسطة في خطوات يتفق عليها الطرفان, حيث بناء الشفافية أفضل الطرق لهدم حاجز عدم التواصل.

خطوات بناء الشفافية

الخطوة الأولى للشفافية

أن يقف الشخص مع ذاته و يبحث عن السبب الحقيقي الذي يجعله يتحاشى طرح الموضوع المحدد, و أن لا يستعجل الإجابات حتى يصل لحقيقة دواخله.

الخطوة الثانية للشفافية

هي اختيار الوقت المناسب ليجلس مع زوجه و يشرح أحاسيسه, مع ضرورة طرح ذلك في قالب يعكس إحساسه و رغبته في تجاوزها و ليس محاولة للتنصل من مشاعره و وضعها على كتف الآخر. فبدلاً من أن يكون الطرح في توجيه أصابع اللوم (أتحاشى الحديث في ذلك الموضوع لأنكِ سريعة الغضب), يجب أن يتحدث من منطلقه هو(أتحاشى الحديث في ذلك الموضوع لأني أخاف أن أغضبك).

الخطوة الثالثة للشفافية

أن يركز الفرد على القضية التي تثير الخوف مع الانتباه لعدم الانحراف لأي قضايا أخرى أو الدخول في تفاصيل العلاقة بصورة عامة.

الخطوة الر ابعة للشفافية

الطرف الذي يكون في موقع المستمع عليه مسؤولية أن يعكس للطرف الخائف صدق اهتمامه, و السماع بكل انتباه و عدم محاولة التقليل من أهمية الإحساس(إنت اصلك دايما بتقلق و تخاف بدون سبب).

الخطوة الخامسة للشفافية

و هي ضرورة أن لا تتضخم المسألة لدرجة أن تستلب وقتاً كبيراً, أو أن تصبح أساساً للتواصل و الحوار. يمكن أن تُعامل القضية بموضوعية و رسم حدود من البداية (نعم رغم أهمية مشاعر خوفك يجب أن لا نجعلها تسرق من علاقتنا الكثير فلنعطيها نص ساعة و ليس أكثر من ساعة و نحاول أن نجد لها حلولاً في ذلك الزمن إن استطعنا).

هذه الخطوات تساعد في تجاوز القلق بالوضوح, لكن من المهم أن يعلم الزوجان أنه ليس هناك حل سحري لبناء الشفافية, و ليس هناك طريقة هي الأفضل و الأمثل, لكن هناك قواعد من عدم التجاهل و الاحترام لمشاعر الآخر والتعامل معها بجدية. و ختاما كل شئ يتحسن بالتكرار و الإخلاص في الالتزام بالخطوط العامة.

المحطة الثالثة في هدم العلاقة (قلعة الأسرار)

النقاط السالبة في العلاقة نجدها تتمثل في مرحلة ظهور قلعة من الأسرار بين الزوجين عصية على الدخول و ممنوع الاقتراب منها. لقد ذكرنا بناء قلعة ولم نقل وجود أسرار, و ذلك إيمانا منا بأن الأمثل عدم وجود أسرار بين الطرفين, لكنها مرحلة في تطور العلاقة قد يصلها الزوجان في أول أعوام زواجهما أو بعد فترة و أعوام من التعثر. حيث أن الزواج يبدأ و هناك مساحات من القلق و عدم معرفة الآخر, فليس مستغرباً أن تكون هناك نقاط قد لا يشعر الشخص بالراحة في إظهارها فيسعى لإخفائها و هذا مقبول نسبياً مادام كلا الزوجين يسعى لتقليل كمية الأسرار بينهما, و ازدياد مساحات المكاشفة كلما توطدت العلاقة مع الزمن. إذن المرفوض ليس وجودها و لكن الأزمة في استمراريتها و ازديادها.

ابتداءً يجب أن نفرق بين الأسرار والخصوصية. فالخصوصية هي حاجة إنسانية نفسية و اجتماعية قد يكون لها تفسيرها العقلاني المفهوم و قد لا يوجد,حيث يحتاج الإنسان إلى مساحة معلومة لا يتعدى عليه أحد بالتدخل أو المراقبة, بينما الأسرار هي رغبة واعية في إخفاء جانب يتعلق بالفرد مباشرة أو غير مباشرة عن الآخرين.

نجد أن مساحة الخصوصية قد تتأرجح ازدياداً و نقصاناً في داخل العلاقة الزوجية. و ليست بالضرورة أن تكون مؤشراً أو لها علاقة بقوة العلاقة أو تطورها.

الخصوصية حق يجب احترامه وعدم التعدي عليه, بينما الأسرار ظاهرة سلبية يجب التعامل معها بحذر مع ضرورة السعي لتجاوزها في معظم الأحيان.

لذا يصبح توضيح الفرق بين الظاهرتين مُهماً, لأن كل ظاهرة يجب التعامل معها بصورة قد تكون متناقضة مع الأخرى. فالخصوصية يجب أن تُحترم و أن لا تُنتهك ,و ليس للزوج حق أن يفرض أو يطلب من زوجته هدم جدار خصوصياتها. بينما الأسرار ليست مجرد حق, بل في كثير من الأحيان لا يصبح للزوج حق أن يطلب معرفة هذا السر و أن يُكشف له.

إن الظاهرتين ليستا دوما بهذا الوضوح, بل قد يحدث تداخل و ضبابية في ما بين الخاص و الأسرار, و هذا ما يقود لكثير من الخلافات بين ماهو حق ليس للكشف و بين ماهو ضرورة أن يُكشف و حق للآخر أن يعلمه. نجد مثالا للخصوصية الواضحة المعالم في رغبة الزوجة أو الزوج في تغيير ملابسهما في خصوصية بدون وجود الطرف الآخر, و هذا حق لا نستطيع أن نرفضه. و مثال آخر هو الرغبة في فترة هدوء أو الابتعاد لمدة محدودة للراحة أو استجماع الأفكار في لحظات القلق والتوتر و الانفعال و التعب. رغم أن هذا حق منطقي بوصفه جزءاً من خصوصية الفرد, لكن يجب الانتباه بأن لا يتعدى ذلك حقوق الآخرين. فمثلا عند الرغبة في نقاش قضية أو القيام بتكليف ما, فلا يصح أن يصبح حق خصوصية فترة الراحة نوعاً من الهروب و عدم الاستجابة, لذا يجب أن يكون هناك توازن في احترام كل حق لدرجة لا تؤثر على الآخر. المنطقة الرمادية التي يحدث فيها الاختلاف عندما يرى البعض أن هذا الموقف يعتبر جزءاً من الخصوصية يجب عدم انتهاكه, بينما يرى آخرون أنه نوع من الأسرار لا يفترض أن توجد في الزواج و يجب كشفه.

خير مثال نجده كثيراً في عالمنا اليوم الاختلاف في كلمات السر لرسائلنا الالكترونية أو صفحاتنا الإسفيرية أو محادثاتنا في وسائل التواصل الاجتماعي. حيث يقف أحد الزوجين مدافعاً عن الخصوصية باعتبار أن ما هو موجود في عالمه الخاص ملكه هو و ليس ملك لشريكه, مثل أخبار أصدقائه و صورهم و أحوالهم, و من حقهم أن لا تطلع زوجته على

تفاصيلهم, و من جانب آخر أنه ليس هناك سبب لكي تصر زوجته على معرفة تفاصيل لا تهمها. بل نجد في بعض الحالات أن الزوجات يؤكدن بأن صديقاتهن قد اشترطن عليهن أن لا يطلع أحد على رسائلهن أو صورهن خاصة الأزواج. عادة تظهر المشكلة عندما يكون من الصعب الفصل بين أمرين, هل للزوجة أو الزوج مصلحة أو علاقة بمعرفة تفاصيل التواصل؟. مثالا لذلك قروب (مجموعة) المكتب و أصدقاء العمل, فنجد الأزواج قد يقبلون بقانون الخصوصية لو كانوا من نفس الجنس مثلاً كلهم رجال بالنسبة للزوج أو كلهن نساء بالنسبة للزوجة, و لكن قد يشعرون في حالة المجتمع المختلط أنه ينتفي حق الخصوصية و ينفتح الباب لشُبهة الأسرار.

في هذا الوضع الرمادي حيث لكل طرف تقييم مختلف, أحدهما يرى أنها خصوصية ينبغي أن تُصان, و آخر يرى أنها أسرار يجب أن توضع للعلن. هنا يجب الوصول لطريقة اتفاق تتناسب مع وعي الطرفين و ثقافتهما و مبادئهما مع الوضع في الاعتبار تطور العلاقة. حيث الأساس في رسم طرق الحل يعتمد على قوة جسور الثقة بين الزوجين, و التي نتوقع هشاشتها في بداية العلاقة, و ازدياد متانتها مع الزمن. من السذاحة أن يُحسم هذا الاختلاف بقرار تعسفي دون قبول واقع العلاقة و تطورها مع احترام رؤية الآخر, فالتمسك بالحق في الخصوصية و رفض التنازل لرسم طريق مشترك حتماً لن يقود لدروب التقارب بين الطرفين و بناء علاقة ناضجة و متوازنة. لذا قد يكون الحل هو في الاتفاق ليتطابق مع حقيقة تباين مستوى القبول و ضعف الثقة, حيث تصبح مساحة الخصوصية محدودة, و القبول بأنها حق مكتسب على الزوج أن يحرزه بالعمل و الممارسة و الإثبات, و من الصعب المطالبة بكل ذلك دفعة واحدة بل هو تدرج يزداد مع الزمن و يتوافق مع مقدرته في تعميق جسور الثقة و معرفة الآخر لدواخله بصورة أفضل. لذا سنجد مع الأيام أن الزوجين قد تجاوزا رغبة البحث العام في مساحاتهما الخاصة, و قبلا بحقيقة أن بعض

المساحات خالية من الأسرار فلا غضاضة من الإقرار بحق الخصوصية فيها. هكذا نتدرج في مراتب الحل مع ازدياد وضوح الفواصل بين الخاص و الأسرار.

يجب القبول بأن هناك مساحة في الخاص من الصعب إدخال الطرف الثاني فيها, خاصة عندما تختص بأسرار شخص ما, أو أسرار عمل حيث لا يمتلك الزوج أو الزوجة الحق في كشفها لشريكه, و يجب أن يقبل الطرفان بخصوصية هذه المنطقة و عدم التعدي عليها أو إيجاد حلول عملية. فمثلا الزوج الذي يعمل طبيباً أو محامياً أو محاسباً و تصله رسائل و تساؤلات من عملائه من خلال وسائل التواصل الاجتماعي المختلطة مع الرسائل الأخرى, فإما أن يصل الزوجان لطريقة أو قبول لخصوصية هذه الرسائل, أو الامتناع عن استخدام وسائل التواصل الاجتماعي لصعوبة المحافظة على خصوصيتها في حالة فشله للوصول لتصور في كيفية حماية هذه الرسائل و الوثوق بها واحترام طبيعة خصوصيتها.

يجب الانتباه إلى أن هناك أحيانا بعض الأسرار و التي لها علاقة بالطرف الآخر قد يكون من الأفضل عدم كشفها و الاحتفاظ بسريتها, و ذلك إما لعامل الوقت أو طبيعة الموضوع. حيث نجد أن بعض القضايا من الأفضل أن تُكشف في وقت محدد و ذلك انتظاراً حتى تتضح تفاصيلها أو يأتي الوقت المناسب للكشف عنها. مثال لذلك الزوج الذي وجد فرصة عمل في بلد آخر و لم يعلم كل التفاصيل و انتظر محتفظاً بالمعلومات حتى تكتمل ليقدمها متكاملة.. أو أنه لم يشعر بأن الوقت مناسب لطرحها لزوجته لأنها على أعتاب إمتحانات قد تحدد مستقبلها و لا يريد أن يشغل تفكيرها بطارئ جديد, فقرر عدم طرحها و تأجيل اتخاذ القرار فيها للوقت المناسب, في مثل هذه الحالة قد يكون عذراً مقبولاً, لكن حتما لا يمكن أن يكون مقبولاً إذا قام باتخاذ قرار لوحده و احتفظ به سرا لنفسه, هنا يصبح الاحتفاظ بالسر غير مبرر مادام أنه أدى إلى اتخاذ قرار من

طرف واحد. هناك بعض الأسرار رغم أن لها علاقة بالطرف الآخر لكن قد يطلب صاحبها مباشرة أن يحتفظ بها لنفسه و ألا يخبر بها الطرف الثاني، و خير مثال لذلك البنت التي تخبر أمها بعلاقة عاطفية أو الابن الذي قابلته مشاكل و شارك فيها والده، هنا يجب احترام طلب السرية و عدم كشفها، و إذا شعر الأب أو الأم عدم مقدرته الاحتفاظ بالسرية أن يخبر ابنه و تخبر الأم بنتها قبل أن يشاركوهم أسرارهم.

السؤال المهم لماذا هذا الاهتمام بالسرية و الأسرار في العلاقةالزوجية؟

اتفق علماء النفس بأن وجود أسرار في العلاقة له أربع نتائج سالبة لا يمكن تجاهلها.

الآثار السلبية للأسرار

الأثر الأول

و هو التأثير على حبل الثقة بين الزوجين الذي يصبح ضعيفاً عند شعور الطرف الآخر بأن هناك شيئا مخفيا عنه. هذا الإحساس دوما يرتبط بالشعور بأن شريكه لا يثق فيه، لذا لم يكاشفه بكل ما لديه. هذا التفكير بأنه ليس أهلا للثقة يفتح الباب للطرف الثاني بأن يتصرف استنادا على هذه القناعة مشككاً في جدوى المصارحة و التقارب مع شخص لا يثق فيه، و يتساءل لماذا يجتهد مع إنسان لا يقدره؟. هذه الدوامة من أحاسيس عدم الثقة المتبادلة تتضخم مع الزمن لتصل مراحل يصبح قانون العلاقة الطبيعي هو عدم المصارحة،و تصبح الشفافية و المكاشفة هي العارض أو النادر.

الأثر الثاني

يتمثل في التأثير الذاتي على حمل السر المحدد. حيث يكون عادة عبئاً نفسياً من القلق و التوتر من خوف الانكشاف أو أحاسيس الندم و عقدة الذنب بالاحتفاظ بأسرار عن شريك الحياة. أيضا نجد أن الأسرار دوما

ترتبط بالتغيير في السلوك من الغضب غير المبرر إذا ذُكر الموضوع, أو التهرب من النقاشات و الكذب أحيانا. الكذب كما يقولون حبله قصير, مما يزيد من مساحات عدم الثقة. كما أن للكذب المتواصل ضغطه النفسي على الفرد مع محاولاته المستميته صُنع سلسلة أكاذيب تدعم بعضها, مع الانشغال و التفكير في ضرورة عدم الانزلاق و الخطأ في أحاديثه حتى لا يكشف نفسه.

الأثر الثالث

نجد الحكمة في المقولة الراسخة بأن تربة الأسرار تزرع الشك و تُنبت ثمار القلق و عدم الثقة. حيث أن الذي يحتفظ بأسرار لنفسه يفتح الباب للتساؤل عن ماهي الأسرار التي يحتفظ بها شريك حياته. إن القبول بطبيعية الاحتفاظ بالأسرار يجعل الفرد يمارس إسقاطاته و يؤمن بأن الآخر أيضا يحتفظ ببعض الأسرار لنفسه و تبدأ دوامة الشكوك لدى الطرف الثاني.

الأثر الرابع

و هو أن الأسرار تجعل العلاقة مع مرور الزمن تبتعد من جذورها, و تصبح معلقة في الهواء بعيدة من الواقع. حيث أن الطرفين في وجود ثقافة الأسرار و وجود بذور الشك يصبح الفرد يتكهن بطبيعة هذه الأسرار و يرسم في خياله إجابات ليس لها علاقة بالواقع. بمرور الوقت تصبح العلاقة تستند على ما في عقولنا و ما أنتجه خيالنا من تصورات عن الآخر, و ليس استنادا على معرفتنا به و حقيقة واقعه و إمكانياته.

الإجابة قد تبدو واضحة بأن العلاقةالزوجية يجب أن تخلو من الأسرار بين الزوجين, و لكن عادة يظهر التساؤل»و ماذا إذا كانت المكاشفة فيها حماية للطرف الآخر من الألم و الضرر النفسي؟«. مثلا إذا كانت الأسرار تتعلق بعلاقات نسائية للزوج و قد انتهت هذه العلاقات, فكشفها الآن لن يقود إلا للضرر النفسي و الألم.

في هذه الحالة يجب النظر إلى ثلاثة عوامل أساسية قبل الاستمرارية في الاحتفاظ بالأسرار من عدمه.

قانون التعامل مع الأسرار

النقطة الأولى

إذا كانت المصارحة و الكشف عن الأسرار لها أثرها الإيجابي على الفرد و إحساسه بالطمأنينة و عدم القلق من كشف الأسرار, مع أحاسيس الرضا التي تساعد على تجاوز عقدة الذنب المرتبطة بالفعل و التي قد تزيدها محاولة الإخفاء.

النقطة الثانية

إذا كان إخفاء ما حدث لن يساعد في حل القضايا التى أدت للحدث, و ستظل قضاياها معلقة و خطيئة قابلة للتكرار.

النقطة الثالثة

إذا كان الاحتفاظ بالسر سيعني بالضرورة استمرارية دوامة الكذب, و التي حتما ستزيد مع الزمن لتصير أكثر صعوبة في التعامل معها و تصبح العلاقة تطفو في سلسلة من الزيف و الأكاذيب. هذه العوامل مجتمعة تفرض على الزوج مراجعة قراره بعدم الكشف عن أسراره و الاعتقاد بأن ذلك قد يكون خيراً محضاً في مصلحة العلاقة و لا خوف من أي آثار جانبية أو شوائب.

يصبح التعامل مع الأسرار بصورة جادة و السعي للتخلص منها هو هاجس الزوجين. رغم أن الجزء الأول من بداية التشافي يبدأ من الزوج الذي يحمل السر, لكن المسؤولية تصبح ثنائية و على الطرفين أن يشتركا في العمل عليها.

ابتداءً لمن يحمل سراً عليه أن يبدأ بالتفكير العميق عن الموقف و تفاصيله مع الأسباب التي قادته لعدم التصريح به. ثانياً يجب تهيئة

الشريك باختيار الزمن و الجو المناسب لعرض هذا الموضوع, و في طرحه ينبغي أن يكون أمينا و يذكر الحقائق بدون تزييف أو تزيين, و مستعدا لكل الاستفسارات من نصفه الآخر, و أن يتقبل ذلك بأريحية و رحابة صدر. في تناول الموضوع يجب الانتباه لوضع نفسه على قَدْرِ المسؤولية و أن لا يحاول البحث عن أعذار. بعد ذلك عليه أن يكون مستعدا لتقديم اعتذار واضح و التزام بعدم التكرار. إن الكشف عن السر هو المرحلة الأولى التي تليها خطوات في دروب التعافي, من أهمها الاهتمام برد الفعل النفسي لدى الطرف الآخر من مشاعر سالبة مثل الغضب و الاحباط و القلق و الخوف من الفشل. يجب القبول بأن المشاعر السالبة قد تستمر لفترة و يجب التعامل معها و ليس تجاهلها و محاولة مواجهتها و السيطرة عليها. العقبة الأكبر ستكون في بناء جسور الثقة التي اهتزت, و ينبغي التركيز على ذلك و أن لا نتركها لعوامل الزمن و النسيان و ذلك بالتركيز على الوضوح والشفافية و الانتباه للتفاصيل التي قد تقود لتكرار ما حدث و محاصرتها قبل أن تحدث. فمثلاً الذي كان يخفي أسراراً عن علاقات أو إدمان أو سوء تصرف في الأموال يجب أن يتعامل مع هذه القضايا بجدية و يبحث عن مساعدة متخصصة إن احتاج لذلك.

على المتلقي أن يكون واعيا بأن عملية الافصاح عن الأسرار هي عملية شاقة, فعليه أن لا يجعلها أكثر صعوبة و مشقة بالحفاظ على المشاعر السالبة من الانفلات, و التأكيد على الجانب الإيجابي في عملية الإفصاح عن السر و التقدير للقيام بها بما يصاحبها من مشقة و عنت. على المتلقي أيضاً أن يتذكر دوما أن الأزمة هنا هي أزمة شريك حياته الذي يحاول إصلاح أخطائه, و أن ألمه و إحباطه مقدر و له الحق في ذلك. السيطرة على المشاعر السالبة قد تحتاج إلى وقت, و يجب أن يصاحبها التوازن في رفضنا للسلوك و محاولتنا السيطرة على عدم استمرارية المشاعر السالبة, لذا من المهم أن لا نترك فرصة لرغبة الانتقام و التشفي بالسيطرة علينا

حتى لا يشعر الآخر بالندم على الافصاح عن السر. من المهم الاتفاق على تحديد جدول زمني يتم فيه التوافق على قفل هذا الموضوع حتى لا يصبح جرحاً مفتوحاً معرضاً للالتهاب, مع الحذر بأن لا يصبح جزءاً من رصاص هجومنا على الطرف الآخر في أي بوادر خلافات زوجية قادمة.

المحطة الرابعة في التدهور (البرود)

يمكن أن نصفها بمرحلة البرود و الملل في العلاقة. حالة البرود في الزواج قد تكون حالة من عدة أسباب و عوامل, فقد تكون انعكاساً لمرحلة العجز و التدهور في العلاقة و اضمحلالاً في الأحاسيس, و يمكنها أيضا أن تُعبر عن حالة من السلبية يفتقد فيها الطرفان الحماس للتفاعل مع العلاقة أو تطويرها في لحظة تساوى الصراع بين إدمان الروتين و الرغبة في التجديد.

مرحلة البرود و الملل قد تظهر بواحدة أو أكثر من السمات الآتية:

(١).الإحساس الذاتي بالملل و الرتابة, و هو قد يظهر كشعور لحظي لا يستمر كثيراً و لا يعتبر مؤشراً مرضياً, بل قد يكون مجرد الحاجة للتغيير أو الراحة قد تؤدي لزواله.

(٢).الملل و البرود المستمر, و عادة يكون هذا الإحساس لدى الطرفين, حيث نجده يتجسد في عدم الشعور بالآخر و انعدام الرغبة بالتواصل. و غالباً لا يكون هناك سبب واضح و ملموس و ليس هو ردة فعل لخلاف أو مشكلة. هذا البرود يظهر في عدم الحماس العاطفي و الجسدي للآخر,و ليس بالضرورة أن يكون هناك انقطاع في التواصل, بل نجد تواصلاً يومياً و ميكانيكياً و لكن يفتقد للعمق و الحميمية.من الناحية الجسدية قد تكون العلاقة منتظمة و لكنها رتيبة و مملة كواجب ثقيل مفروض على الطرفين يتمنى كل منهما لو أُعفي منه.

المحطة الخامسة في التدهور (جنة الخيال)

تتمثل جنة الخيال عندما يهرب أحد الزوجين إلى الخيال ليتعايش مع الواقع الذي لا يستطيع أو يحاول تغييره. و عادة تكون فكرة الخيال الأساسية هي السعادة في غياب الطرف الثاني من عالمه نهائيا .أو أن الحل الوحيد هو فقط سيتحقق إذا تغيرت طباع و سلوك شريك الحياة, و أيضا يقوم باشباع إحباطاته و حرمانه برسم بديل سيعيش معه سعادته المفقودة. هذا البديل قد يكون لا وجود له و من صنع الخيال, و يسعى في البحث عن مثيل له في الواقع أو قد يكون شخصاً معروفاً لديه و يمارس إسقاطاته عليه, و يبدأ في رسم صور زاهية له و يجعله الأمل الوحيد و المُنقذ للحياة, و يقارن بينه و بين شريكه في كل لحظة و في كل موقف مشبعاً بالحسرة على اختياره السيئ. في تلك اللحظة يصبح كل الأمل في السعادة هو الارتباط بهذا الشخص. لذا ليس غريباً أن نجد بعض علماء النفس يقارنون هذه الحالة بالخيانة الزوجية رغم الاختلاف في مستوى التجسيد و التطبيق و الممارسة.

إذن هي محطة تعني الاستسلام للواقع و فقدان الأمل في التغيير. يؤمن الفرد بأنه غير قادر على التغيير لأن الأزمة كلها بسبب الطرف الثاني و مسؤوليته الكاملة, و هو مجرد ضحية لا حول لها ولا قوة. هذا الوضع المرتبط بالإيمان بالعجز عن التغيير لا يجد له مخرجا غير الهروب للخيال. في هذه الحالة نجد الفرد تحاصره كثيرٌ من مشاعر الغضب تجاه الواقع و الحنق على شريك حياته. كلما ازداد الهروب للخيال و ازداد الإيمان بالسعادة في غياب الشريك, كلما ازداد الغضب على العلاقة الزوجية و الغضب من الشريك الذي حرمه من هذه السعادة و هذا الفردوس المفقود. هذه المحطة ترتبط بدرجة وثيقة بالوقوع في الخيانة الزوجية أو التفكير في الزوجة الثانية.



الفصل العاشر

بداية النهاية



بداية النهاية

يُجمع علماء النفس على أن هناك نقاطاً و مؤشرات تشير إلى تدهور العلاقة الزوجية لدرجة تدعو للقلق, و يمكن أن نصفها بمرحلة بداية النهاية. هي نقاط أجمع علماء النفس على أنه إذا لم ينتبه الزوجان لها فهي بلا محالة ستقود لتدهور العلاقة و انهيارها.

من هذه النقاط سنحاول التطرق لأكثرها أثراً و هي:

(١). العنف.

.(٢)الخيانة و انعدام الثقة.

.(٣).التقارب المتوتر.

.(٤).الصمت التام.

(١). العنف و نهاية العلاقة

ظاهرة العنف في أي علاقة تمثل مؤشراً خطيراً يجب التعامل معه بالسرعة و الحسم المطلوب لما له من تأثير ليس فقط على العلاقة, بل على صحة الضحية الجسدية و النفسية و الاجتماعية.

إن العنف هو أي حالة يستعمل فيها الفرد قوة وضعه الجسدي أو الاجتماعي أو النفسي لزرع الألم والضعف عند الطرف الثاني, و ذلك لتحقيق مصلحة ما لا تضع في اعتبارها ذات الآخر أو كرامته.

يرتبط العنف في الأذهان بالعنف الجسدي, و لكن حقيقة نجده يحتوي في دواخله على كل أنواع التعدي على الآخر, مثل العنف اللفظي و النفسي. نجد أن العنف عادة يسير في خط تراكمي متصاعد قد يبدأ بمشاعر من القلق و التوتر بين الزوجين تظهر في تغييرات جسدية من تعرق و ازدياد في ضربات القلب و شد في العضلات مع زيادة مشاعر التوتر, و تبدأ في التأثير

على نبرات الصوت ارتفاعاً ثم تتغير طبيعة اللغة و يبدأ العنف اللفظي في شكل هجوم على الآخر مثل(إنتِ غبية.. مبذرة) (إنتَ بخيل.. جبان). مع ارتفاع وتائر العنف اللفظي تبدأ لغة الجسد في التعبير عن هذا الانفعال و الغضب في تعابير الوجه, و إيماءآت و حركات لتزيد من قوة الكلمات و تأثيرها. مع تراكم العنف اللفظي و الإيحاء الجسدي ينفتح الباب للعنف الجسدي المباشر من دفع و خنق و شد و ضرب. بعد حدوث العنف قد يقف الزوجان عند هذه اللحظة,و ينسحب المعتدي غاضباً و تبقي الضحية متألمة تلعق جراحها. هنا قد يتوقف الحدث و قد يقود للانفصال أو الاستمرار مع بعضهما البعض, و عدم التطرق لما حدث تاركين للزمن أن يزيل الجراح. في معظم الأحيان لا يقف العنف هنا بل يتحرك لإكمال ما يعرف بدائرة العنف, حيث يقوم المعتدي بالاعتراف بخطئه كاملاً أو يضع جزءاً من اللوم على الضحية باعتبار أن أفعالها قد قادته لذلك, بعدها يقوم بالالتزام بعدم تكرار هذا الفعل. و على الرغم من أن البعض قد يلتزم بذلك و يكون العنف حالة عابرة لا تتكرر, لكن المُثبت أن دائرة العنف عادة تتكرر بصور متباينة و مستديمة.

رغم التأثير السلبي للعنف على الضحية و على العلاقة لكننا نجد أن العنف ظاهرة مزمنة. استمرار العنف كسلوك متكرر و ظاهرة مُزمنة في الزيجات رغم بشاعته نجد العلاقة قد تستمر لفترة, حيث كان من المتوقع أن يكون سبباً في نهاية الزيجات التي تتعرض إليه مباشرة. إن استمرار الزواج رغم تأثير العنف السالب يقودنا للتفكير في التربة التي تسمح للعنف بالاستمرار و التمدد مع الزمن.

نجد أن هناك كثيراً من العوامل قد تجعل الأزواج و الضحية بالتحديد أكثر قدرة على التعايش مع العنف. هذا التعايش الذي لا يصاحبه علاج جذري للعنف لا يقود للتعافي, بل بالعكس سيساهم في جعل العنف يكتسب شرعية و يصبح أمراً ثابتاً من مكونات العلاقة. كلما استمرت فترة

العنف في العلاقة و حتى و لو كانت متقطعة كلما قادت لنتائج سيئة و زادت حدة مردودها على الضحية و على الأسرة.

من العوامل التي تجعل الضحية تتعايش أو تتقبل العنف إحساس الصدمة و الوهم بأن هذا كان موقفاً واحداً و لن يتكرر, لأن الزوج لم يفعلها قبل هذا اليوم. تتناسى الضحية أن هناك أول مرة لأي شئ و عدم حدوثه أمس ليس دفاعاً عن حدوثه اليوم. لا نشك أنه قد يكون موقفاً معزولاً وقد لا يتكرر, لكن لا يعني أن هناك ضماناً لعدم تكراره مجرد أنه حدث أول مرة, لذا عدم قبوله و الإصرار على علاجه هو الحل الأمثل. يصاحب وهم المرة الأولى عادة إحساس بالإنكار و عدم التصديق بأنه لا يمكن أن يكون قاصداً لإيذائي(لأنه يحبني), و لكن لا يمكن أن يتوافق الحب و الألم!. تتناسى الضحية أن المعتدي على حسب قناعاته قد يكون ممارساً للعنف بعقلية مأزومة تعتقد بأنه يمارس العنف للحفاظ على الحب و على العلاقة. في بعض الأحيان يتعمق في داخل الضحية إحساس بأن ما حدث من عنف كان شيئاً غير طبيعي و ليس جزءاً من علاقتهما, بل هو وليد اللحظة و نتيجة للظرف المحدد, و كما تتناسى أن الظروف ليست تحت سيطرتنا بل نفس الظرف قد يتكرر مستقبلاً فهذا يعني أن تتوقع العنف حينها. من أكثر العوامل التي تجعل لضحايا العنف قابلية للاستمرار في العلاقة و محاولة تناسي الألم هي مقدرة المعتدي بأن يغرس في دواخلهم أنهم كانوا السبب في العنف الذي وقع عليهم..و نجد تعابير مثل(كله منك),(أنا حذرتك),(إنتِ ما بتسمعي الكلام.. و جبرتيني على كده). هذه التعابير نسبة لعدم وجود تفسير منطقي يبرر العنف, نجدها قد تجد لنفسها موقعاً في عقل الضحية الباحث عن إجابات, و يتناسى النقطة الأساسية أنه لا يوجد إنسان يستحق العنف حتى لو طلب ذلك صراحة, و إن فَعَلَ فليس مبرراً للمعتدي أن يستجيب. نجد أن العنف في ذاته نفسياً كان أو جسدياً يؤثر على ثقة الفرد بنفسه, لذا فإنه يزيد من إحساس

الضحية بضعفها و هوانها وعدم ثقتها في ذاتها و مقدراتها مما يجعلها أكثر قابلية للتعايش مع العنف و القبول به. أيضا نجد أن للمجتمع والثقافة و التقاليد دوراً كبيراً في جعل الضحية تتعايش مع العنف في وجود قبول اجتماعي للبعض بهذا السلوك بتقليل أثره باعتباره ليس سبباً كافياً لهدم الأسرة, بل خطأ بسيط يجب الصبر عليه, و أن الزوج مع الزمن سيتغير و سيكتشف خطأه. بعض الضحايا رغم الألم من العنف يجدون أنفسهم في موقف شائك و توازنات صعبة. في بعض الأحيان يظنون أنه ليس لديهم خيار سوى الرضوخ, فالضحية التي تخاف من «التَّابو» الاجتماعي لكلمة الطلاق و تهاب من المسؤولية الاجتماعية و المالية المترتبة عليه, قد تضطر أحيانا إلى أن تقبل العنف و تتعايش معه لكي تحافظ على زواجها باعتباره أفضل الخيارات المطروحة.

العنف عادة لا يأتي من فراغ. هناك عوامل ذاتية و ظرفية تساعد في حدوثه. الاهتمام بالسمات الذاتية للزوجين و ملاحظة التركيبة النفسية لكل منهما سيساعد في الانتباه إلى أي مدى تساهم في ازدياد وتائر التوتر في العلاقة. الشخصية التي لا تستطيع السيطرة على الغضب و التي تصل بصاحبها لمراحل من الانفعال و يصبح الغضب هو المسيطر عليها نجدها أكثر قابلية للعنف من غيرها. أيضا الشخصية التى تسود فيها أحاسيس عدم الأمان و ضعف الثقة في الذات نجد في دواخلها نزعات السيطرة على الآخر, و أحاسيس الغيرة الزائدة. نزعات السيطرة هي إحساس مرضي لا يشعر الزوج أو الزوجة فيه بالأمان في داخل العلاقة إلا إذا كانت له الكلمة الأخيرة في كل شئ. حيث نجده مشغولاً بتفاصيل حياة الآخر من نوع الأصدقاء والبرامج المستقبلية للأسرة و زيارات الأهل و كل شئ ,و لا يحتمل الاختلاف معه لذا يلجأ للعنف لضمان فرض سيطرته. أما الذين لهم نزعات في ازدياد التخوف من الخيانة مع زيادة درجات الغيرة, نجدهم كثيري الأسئلة و المتابعة و المراقبة, و تزداد نسبة العنف وسطهم لضمان الطاعة و تقليل إحتمالات خيانة الشريك.

العنف النفسي

يظن بعض الأزواج أن العنف هو العنف الجسدي فقط, لذا يتم التعامل مع العنف النفسي باعتباره مصيبة أخف. العنف النفسي رغم آثاره السلبية في ذاته لكنه أيضا يعتبر جزءاً متداخلا في العنف الجسدي و الذي تزداد معه وتائر حدوثه. لذا يجب الاهتمام بالعنف النفسي و التعامل معه لِوحده كظاهرة سالبة و ذات تأثير على الفرد و على العلاقة. نجد العنف النفسي قد تتباين طريقته و أساليبه من ألفاظ أو مواقف أو إيحاءآت, لكن جوهره و أهدافه و نتائجه معلومة. حيث نجد أن جوهر الرسالة للآخر «بأنكِ فاشلة بلا قيمة و ليس لك نفع في الحياة إلا بوجودي».هذه السمات في الشخصية قد تصبح سائدة لدرجة أن الحياة الزوجية تصبح تراكماً للعنف النفسي المتصل. في بعض الأفراد قد تكون هذه السمات غير طاغية, و لكنها تظهر بصورة واضحة تستدعي القلق لأنها يمكن أن تكون مؤشراً يجب على الزوجين الانتباه له قبل أن ينزلقا في هاوية العنف.

نجد أن الخمر و المخدرات لها ارتباط وثيق بازدياد العنف بين الزوجين. رغم أن تنامي التعاطي و الإدمان هما مؤشران لتصاعد وتائر العنف, و لكن هذا لا يعني أن الاستعمال المتوسط يعني أنه بلا تأثير في مستوى العنف.

دائرة العنف قبل أن تبدأ بالدوران فإن الضحية عادة يكون في حالة ترقب وتحفز استعداداً للدفاع عن نفسه. لذا في حالة العنف المستمر أو المتوقع في أي لحظة تجد الضحية معرضة لمشاعر القلق و التوتر و الاكتئاب. هذه المشاعر قد تستمر لتصبح أعراضا لأمراض نفسية عدة من القلق الي الاكتئاب.

العنف بين الأزواج بجانب تأثيراته الجسدية فإن له نتائجه النفسية و الاجتماعية. الكدمات و الجروح والإصابات الجسدية نجدها منتشرة وسط

ضحايا العنف, و عادة نجد الضحايا يحرصون على إخفاء آثار العنف باختيار أنواع الملابس و النظارات التي تغطي أثر العدوان. العنف يزيد ارتباطه بمعدلات الطلاق, و في حالة استمرار الزواج نجده أيضا مرتبطاً بارتفاع نسبة العنف تجاه الأطفال, كأن العنف أصبح سمة غالبة و ثقافة سائدة وسط الأسرة. من الناحية الاجتماعية نجد في الدول الغربية أن البحوث قد أثبتت ارتفاع نسب التشرد و فقدان المأوى و العمل مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعنف بين الأزواج.

العنف في العلاقات الزوجية قد وجد اهتماماً كبيراً على نطاق العالم لتأثيره السالب على الفرد و الأسرة و المجتمع. عادة الهدف من العلاج هو السلامة أولاً ثم التخلص من أي عوامل نفسية مصاحبة و التركيز على برامج تغيير السلوك.

الهدف من السلامة أن يركز على حماية الضحية من العنف المباشر قبل حدوثه, و توفير طرق الأمان إذا حدث, مع الاهتمام بسلامة الأطفال و بقية أعضاء الأسرة من العنف المباشر أو من تأثير مشاهدته.

هذه المحاذير لا يمكن حدوثها إلا إذا اقتنع الزوجان بوجود مشكلة, و تم الاتفاق عليها في لحظة هدوء وصفاء قبل حدوث العنف و على طرق تجاوزها.

عادة أفضل الوسائل هي إيقاف دائرة العنف قبل دورانها, و في بداية ظهور علامات التوتر والانفعال ينبغي الاتفاق على إشارة للتنبيه, و التي عليها تتم الاستجابة و الانتباه لتمنع وتائر التوتر من الازدياد, و حتى لا تصل لمراحل العنف. فمثلا نجد إشارات مثل(إستهدي بالله) (ماتتعب نفسك). مع إشارة التنبيه يتفق الزوجان أن على أحدهما مغادرة المكان. تصبح المشكلة إذا رفض المعتدي للضحية مغادرة المكان, هنا يصبح من الضرورض الاستعانة بمساعدة من الخارج. ففي بقية دول العالم يكون أفضل الحلول هو الاتصال بالشرطة, أما في بلدنا وُجدت صعوبة عند

كثير من الأزواج القبول بتدخل الشرطة, ليس فقط من المعتدي بل حتى من الضحية بوصفها تصعيداً له أثره القانوني و الاجتماعي, حيث لا يريدون أن يقعوا في دائرته. عادة يكون البديل شقيق المعتدي أو صديقه.

بعد الترتيب على كيفية التعامل مع حادثة العنف نفسها و التأكد من سلامة أفراد الأسرة, يبدأ الاهتمام بمعالجة المعتدي. إن علاج سلوك المعتدي لا يعني أن هناك دائما سبباً مَرَضِيَّاً يحتاج لعلاج دوائي, بل يعني أن السلوك هو سلوك مَرَضِي و يحتاج لتغيير بواسطة جلسات العلاج و الإرشاد النفسي و السلوكي.

يجب الانتباه لعلاج أي مظاهر لمرضٍ نفسي قد يكون مساهماً في ظهور العنف من أنواع الغيرة المرضية أو من أمراض الإدمان أو تعاطي الكحول و المخدرات أو بعض الشخصيات و السمات السايكوباتية المتسمة بالعنف.

الضحية تحتاج للمساعدة والمساندة, ابتداءً يجب تقييم وضع الضحية و النظر لأي آثار سلبية جسدية كانت أم نفسية نتيجة للعنف, مع التركيز على الظواهر المعلوم حدوثها نتاجاً له. هذه النتائج قد تكون في شكل أعراض محددة مثل ارتفاع وتائر القلق و التوتر و الخوف, أو تأثير سلبي على النوم و القدرة على الاسترخاء. هذه الأعراض قد تكون معزولة و متفرقة أو قد تصل لمرحلة أنْ تصبح مرضاً نفسياً مثل القلق و الاكتئاب. حينها يصبح من المهم مراجعة الطبيب النفسي لاختيار المناسب من علاج دوائي أو نفسي أو الاثنين معا.

من أهم التأثيرات النفسية التي يجب الانتباه لها الشعور بعقدة الذنب عند الضحية, مع الإحساس الخاطئ بتحمل جزء من مسؤولية العنف الواقع عليها..(برضه أنا عندي دور),(أنا السبب). يجب أن يركز العلاج على أساس أن العنف سلوك غير مبرر يتحمل المعتدي مسؤوليته كاملة. أيضا من التأثيرات السالبة التي تحتاج للاهتمام التأثير على الثقة في النفس و إحساس الضعف و انعدام القدرة أمام المعتدي.

علاج العنف لا يكتمل بدون النظر للعلاقة و تحديداً بتقييم أدب الاختلاف و أسلوب الزوجين في التحاور و تجاوز اختلافهما. على الزوجين التعلم و اكتساب المهارات في كيفية التحاور بطريقة موضوعية تستند على الاحترام و التقارب و تتجاوز أحاسيس التنافر و التنازع.

في كثير من الأحيان تكون هناك ضرورة للعلاج الأسري, أي للأسرة كلها أو لبعض أفرادها بصورة منفصلة خاصة الأطفال لمساعدتهم في تجاوز تأثير العنف الأسري عليهم, حتى و إن لم يكونوا ضحايا له. فقد ثبت أن مشاهدة العنف الأسري وحده كافٍ لإحداث تأثيرات سالبة على الأطفال.

في درب النهاية (الخيانة) العامل الثاني

بداية النهاية هي قضية الخيانة الزوجية. رغم أنَّ الفارق كبير بين الخيانة و بين التوهم بالخيانة المرتبطة بالغيرة المرضية, لكن نجد أنْ تأثيرهما و التعامل معهما يتشابه إلى درجة كبيرة. هنا سنركز فقط على الخيانة و تأثيرها و سنتعرض للغيرة في موضع آخر. الخيانة هي دخول أحد الزوجين في علاقة عاطفية أو جسدية مع شخص آخر غير شريك الحياة. رغم أنه ليس هناك فرق في مستوى الخيانة, لكن التأثير يختلف بين الخيانة المعلومة للطرف الثاني و بين الخيانة التي تتم أو تمت في الخفاء بدون معرفة الشريك. إن الخيانة المعلومة للطرف الثاني قد يختلف تأثيرها إذا كانت المعرفة قد نتجت من اعتراف أحد الزوجين أو اكتشاف الطرف الآخر ذلك ذلك.

الخيانة الجسدية عادة لا لبس فيها, حيث أنَّ الخطوط الحمراء واضحة و الحدود في حرمة التواصل الجسدي معلومة تفاصيلها, و لا توجد مساحة لسوء الفهم أو التفسير الخاطئ. الخيانة العاطفية على الجانب الآخر في غياب الجانب الجسدي قد تفتح الباب للاختلاف في التعريف و التأكيد على حدوثها من عدمه. حيث نجد أنَّ أحدهما قد يؤكد بأن العلاقة مجرد زمالة أو صداقة, و ليس لها علاقة بالحب و الارتباط

العاطفي. في هذه الحالة يصعب التعامل معها كخيانة حتى و لو لم يقبل الطرف الآخر بهذا التفسير, و حتى و لو لم يكن ذلك صادقاً في تبريره. إذن الخيانة العاطفية تصبح مؤكدة فقط عندما يكون فهم الزوج أو سلوكه الواضح بأن مشاعره تجاه هذه المرأة هي مشاعر حب, و في دواخله الرغبة بأن تكون شريكة حياته. هذا النوع من الخيانة و إن بدأ كخيانة عاطفية عادة تتغير سماتها بمرور الزمن لتصبح خيانة جسدية. الخيانة رغم أنها ظاهرة واضحة المعالم و لكن في دواخلها صور متباينة و تجليات مختلفة, و كلٌ لها تأثيرها أو أحيانا أسبابها المختلفة. حيث نجد الخيانة تختلف في أشكالها من خيانة مع شخص واحد لفترة طويلة أو مع أشخاص متعددين لفترات متباينة أو موقف واحد لم يتكرر.

تمتلئ كتب علم النفس و المجلات النسوية بعلامات الخيانة و أعراضها و كيفية اكتشافها, لكن الحقيقة أن الإثبات الوحيد للخيانة هو الاعتراف أو مشاهدة الخيانة الجسدية. ماعدا ذلك تصبح عملية من الاستنتاج و التقصي, قد تُصيب أو قد تُخطئ . عادة نجد بعض الزوجات واللائي يعشن في الشك دوماً يرددن نفس المقولة و التعابير(صاح ما شُفْتَ لكن متأكدة),(كل حركاته بتثبت كده.. ربنا عرفوه بالعقل), (أنا ما غبية.. و الله بفهم حركاته قبل ما يعملها). عادة نصيحتنا تصب في حالة عدم وجود دليل علينا التعامل مع الخيانة باعتبارها غير موجودة, و أن لا نُسمم علاقتنا بالشكوك مهما قويت.

الخيانة هي مسؤولية مرتكبها و يتحمل عواقبها. فهي خيار واعٍ و ليس مفروضاً على أحد. البحث عن الأرضية التي تنمو فيها الخيانة ليس بحثاً عن تبرير لمرتكبها أو عذراً لصحابها, إنما هي محاولة لقراءة العوامل التي قد تجعل الفرد أكثر قابلية لاختيار هذا الطريق. في قراءتنا لهذه العوامل نحاول أنْ نساعد الزوجين لتحاشي الظروف التي تؤثر على العلاقة, و التي تجعل من الخيانة خياراً محتملاً. النظر في هذه العوامل مسؤولية الزوجين

و العمل على تجاوزها مسؤولية مشتركة, فمن اختار عدم الاهتمام بها و اختار دروب الخيانة بديلاً فهذا خياره و يتحمل مسؤولية اختياره كاملة.

التربة الخصبة التي تنمو فيها الخيانة عادة تكون في العلاقات الزوجية المتضعضعة, و التي تعاني من أزمات جوهرية في تركيبتها. سيادة ثقافة العنف الجسدي و العاطفي تجعل العلاقة الزوجية ليست طاردة و حسب, بل تجعل الضحية يبحث عن ملجأ عاطفي يوفر له الأمن و الحماية و يعوض أحاسيس القلق و التوتر التي تسيطر عليه. أيضا نجد في العلاقات التي تعيش في برود و جمود عاطفي أن الزوجين يعيشان حياتين منفصلتين, و قد تقود مشاعر الحرمان العاطفي و الجسدي للتفكير في الخيانة كتعويض و بديل للواقع الذي يعيشه. البرود في العلاقة كما ذكرنا سابقا هو نفسه قد ينبع من عوامل متعددة من الاختلاف الحاد في شخصية الزوجين مع فشلهما في خلق أرضية للتواصل, مما يجعل الصمت هو القانون السائد و الحائط الذي يمنع الزوجين من التعبير عن احتياجاتهما العاطفية و الجسدية, فيصبح التفكير في الخيانة باعتبارها البديل لهذا الواقع المأزوم. في بعض العلاقات تنمو أحاسيس عدم الاحترام و الشعور الداخلي بعدم التقدير و الاهتمام, و بغض النظر عن مصداقية هذه الأحاسيس من عدمها لكن الشعور بها يجعل الفرد غير متوازن في التعامل مع الآخرين, و أكثر قابلية للدخول في علاقة أخرى تقدم له ما يفتقده من الاحترام و التقدير.

من العوامل التي تجعل بعض الأزواج يختار طريق الخيانة هي أحاسيس الملل في العلاقة ,و الملل قد يكون عاطفيا أو من العلاقة الجسدية. بعض الأزواج يتعامل مع الملل كتطور طبيعي في العلاقات ليس منه مفر و لا علاج. هذا الفهم يعطي البعض جزءاً من الرضا النفسي المُزيف بأن الخيانة هي حل ليس منه مفر و إنما قد فُرض عليه. في بعض الأحيان تمثل الخيانة تجربة لإثبات الذات أو تعزيزاً للثقة في النفس. حيث نجد البعض مع

تقدم العمر و تجاوز مراحل الشباب أو التغيير في الشكل و الملامح يصبح في أذهانهم هاجس أنهم مرغوبون أو ما زالوا يمتلكون الجاذبية و الحيوية و القوة و روح الشباب. هؤلاء عادة يكونون عُرضة للوقوع أمام عبارات الإطراء والإعجاب و تَمِس في دواخلهم وتراً حساساً, فتكون الخيانة علاجاً لمشاعر النقص الداخلية و محاربة لأي شكوك في إمكاناتهم و مقدراتهم أو أثر الزمن عليهم, و يوصف البعض هذه الحالة بالمراهقة المتأخرة.

في مساحات ضيقة نجد البعض يتعامل مع الخيانة كتفريغ لشحنات الغضب و الإحباط, و كنوع من التأديب أو الانتقام من الشريك لموقف ما أو سلوك محدد.

كما ذكرنا أن العوامل التي تجعل البعض يسعى في دروب الخيانة كثيرة و متعددة, و لكن الأساس أنها ليست عذراً و لا تبريراً يستطيع الفرد أنْ يستند عليه. هي عوامل تساعد في الفهم و لا تبرر الفعل الذي قام به صاحبه بكل وعي و اختاره بديلاً من أن يقوم بمواجهة هذه العوامل و محاولة تجاوزها.

الذي يطرحه كثير ممن مروا بتجربة الخيانة سلسلة من التساؤلات تبحث عن إجابة. حيث يكون محورها عن هل هناك إمكانية أن يعود الحب كما كان؟ و هل مسيرة الزواج ستستمر أم كُتب عليها الوقوف والفراق؟. وهل يستطيع الزوجان أن ينسيا هذه التجربة؟. و هل يستطيعان أن يغفرا و تعود الحياة كما كانت؟؟

هذه الأسئلة يجب التعامل معها بحذر و بدون تحيز عاطفي أو موقف مبدئي. و ذلك لأن الخيانة سلوك معقد تتداخل فيه عوامل كثيرة تؤثر على النتائج المستقبلية و تأثيراتها على الزوجين. بالإضافة لذلك نجد أن تركيبة الزوجين و ثقافتهما و قناعاتهما الخاصة تلعب دوراً مهماً في تشكيل ردة فعلهما تجاه الخيانة.

بصورة عامة نجد أن الخيانة التي نتجت من سلوك هروبي و محاولة

تعويضية لأزمات محددة في العلاقة لها فرصة تَقَبُّل و استعداد للغفران أكبر من العلاقات التي تستند على احتياج ذاتي و حاجة لعلاقة الخيانة نفسها و ليس لها علاقة بأي أزمات في العلاقة الزوجية. أيضا نجد أنَّ الخيانة الوحيدة غير المتكررة أو العلاقة القصيرة في عمرها لها فرصة أكبر للتجاوز من علاقات الخيانة المتعددة أو العلاقة الواحدة طويلة العمر.

إذن لا يوجد قانون عام يحدد إمكانية التعافي للعلاقة الزوجية بعد الخيانة. و رغم أنها من العوامل القوية للتأثير السلبي على الزيجات, لكن يصبح المحك الحقيقي هو استعداد الطرفين للعمل سوياً لبناء العلاقة, مع الأخذ في الاعتبار نوع الخيانة و تفاصيلها و الظروف التي ساعدت في وجودها.

بعض الأزواج تمثل الخيانة بالنسبة لهم خطاً أحمر عندما يتم تجاوزه,و لا رجعة بعد ذلك و تعتبر نهاية العلاقة. هؤلاء لا يحضرون للاستشارة النفسية لأن الزواج بالنسبة إليهم قد انتهى ولا رجعة في ذلك.

الذين لديهم الاستعداد للعمل لاصلاح العلاقة يجب أن يكونوا موضوعيين في توقعاتهم, فلا ترتفع أسقف الأمل بأن العلاقةالزوجية ستتجاوزالخيانة و لن تتكرر ثانية, وفي نفس الوقت يجب عدم الاستكانة للمشاعر السالبة المتشائمة بأن من خان مرة حتما سيكررها لذا يجب عدم الوثوق الكامل فيه.

حتى لا يحاصرنا التشاؤم أو نُحَلِّق مع التفاؤل, يجب على الزوجين النظر لتجربة الخيانة بصورة موضوعية, و رسم دروب التشافي و رفع سقف التوقعات استنادا على هذه المعطيات.

هذه العوامل و التساؤلات تعطي خلفية طيبة للزوجة لتقرأ بها احتمالات المستقبل. عليها أولا أن تستند على أساس صلب و هو كيف ظهرت الخيانة للعلن؟ هل كانت باعتراف منه أم كشفته الظروف و الأحداث؟ و ماهو شعور الزوج؟ هل حقيقة ظهرت عليه مشاعر الندم و الرغبة

الصادقة في الاعتذار؟ أم هي مشاعر الحرج و الخجل بعد أن انكشف؟ و بدلا من الاعتذار هل نجده يميل للتهرب و الإنكار؟. أيضا من الأهمية بمكان معرفة إذا كان الزوج يؤمن بفداحة الفعل, و يعلم كمية الألم و الجراح التي خلفها في قلب شريكة حياته و الشرخ الذي أحدثه في العلاقة. و هل نجده يتحمل المسؤولية و يعلم أن عليه عبئاً كبيراً بأنْ يكسب الثقة مُقَدِّراً أنَّ لشريكة حياته ألف عذر ألا تثق فيه بسهولة أو في فترة قصيرة من الزمن. من الجانب الثاني نجد أن هناك من كشفته الظروف, و هناك من يحاول تخفيف حقيقة الخيانة و تقليل حجم مسؤوليته و محاولة أنْ يضع جزءاً من اللوم على شريكة الحياة. و أيضا قد نجد هناك من لديه مستوى الندم ليس عالياً, و نجده أحياناً يحاول أن يجعل من سلوك الخيانة شيئاً عادياً أو هو رد فعل منطقي.

من المهم أنْ يتحدد موقف الزوج مع من ارتكب معها فعل الخيانة, و هل سيستمر في التواصل معها أم سيقطع كل حبال الصلة؟

من العوامل المهمة التي ستحدد فرص النجاح و ترميم العلاقة هي إلى أي درجة يُؤمن الزوج بأن عليه التغيير و النظر للعوامل السالبة في الزواج و محاولة تجاوزها بصورة جذرية, مقارنة مع من لا يرى أنْ قراره بإنهاء علاقة الخيانة و التزامه بذلك سيكون كافياً, و أنْ وعده سيكون ضماناً لأن تعود الحياة لطبيعتها و لا حاجة للنظر لأي قضايا أو عقبات في درب الزواج, إما لأنها غير مهمة أو لاعتقاده بأنها ستنتهي تلقائياً بانتهاء علاقة الخيانة.

هناك بعض العوامل و النقاط التي يجب التعامل معها بحذر أو بتعمق باعتبار أنها قد تكون مؤشراً سالباً يُنبئ بنتائج غير إيجابية في مسار العلاقة. هنا سنأخذ الزوج في موقع الخيانة بوصفه الأكثر تردداً للعيادة لهذا السبب, و لا يعني هذا أن الزوجة لا تقع في هذه الخطيئة. من أهم هذه النقاط أنْ الزوج لم يعتذر عن خطيئة الخيانة و لم يُظهر شيئاً من

مشاعر الندم. يجب الانتباه أن هناك بعض الناس لديهم مشكلة في التعبير عن مشاعرهم و دواخلهم و ربما يكون الزوج من هذه المجموعة التي تجد صعوبة في التعبير عما في دواخلها, لذا قد يستحيل عليه إظهار مشاعر الندم أو الاعتذار. هنا يجب الا نخلط بين هؤلاء و بين الأزواج الذين لا يرون في الخيانة خطأ يستحق الندم أو سلوكاً يستوجب الاعتذار. لذا يجب أنْ لا تترك الزوجة هذا الأمر مفتوحاً للتفكير و الاستنتاج, بل ينبغي أنْ يكون هناك وضوح و شفافية و حوار مباشر لتعرف الزوجة حقيقة مشاعر الزوج, و هل هي فشل في التعبير عن الاعتذار و الندم أم هي مؤشر لغياب هذه الأحاسيس من أساسها. إن غياب أحاسيس الندم أو الرغبة في الاعتذار هي من المؤشرات السالبة التي ترتبط بفرص و احتمالات أكبر لتكرار الخيانة أو الفشل في تجاوز ماحدث.

من المؤشرات السالبة عدم الإحساس بأن هناك تغييرا يجب أن يحدث. هذا التغيير يستدعي النظر بكل وضوح للعوامل التي دفعت الزوج للخيانة, و محاولة إصلاحها و تجاوزها. بعض هذه العوامل قد تكون مرتبطة بالزوج نفسه أو مرتبطة بالعلاقة. و هنا يجب أنْ يتحمل الزوج المسؤولية الأكبر, و أن لا يحاول أن يرمي اللوم على الزوجة بصورة أخرى. الاعتراف بوجود مشاكل في العلاقة لا يعني اعترافاً بحق أي الزوجين في الخيانة, فكما يُفسر الحاجة دافعاً للفرد للسرقة و لكنها لا تبررها و لا تكون عذراً, لأن الفرد اختار السرقة على العمل الشريف. فالزوج الذي يشعر بضغوط في العلاقة فهذا لا يبرر البحث عن علاقات خارج الزواج لأنه اختار ذلك مقابل اجتهاده و العمل على تطوير علاقته الزوجية. لذا فإن عدم الإحساس بضرورة التغيير و مسؤولية الزوج في ذلك هي مؤشر سالب لا يُبشر بنجاح العلاقة.

من المظاهر السالبة أنْ تكون الخيانة قد حدثت في بداية العلاقة الزوجية و استمرت بعد ذلك لفترة, خاصة إذا ما كانت مع نفس الشخص.

إنَّ استمرار العلاقة أو الخيانة مع نفس الشخص و لفترة طويلة نسبياً تكون مؤشراً لوجود جانب عاطفي في العلاقة.إن العلاقات التي تكون مع شخص واحد لفترة أطول و باعتبار وجود بُعد عاطفي تكون أكثر صعوبة في النسيان و التجاوز. العلاقات المتعددة مع شخصيات مختلفة تكون عادة مؤشراً بأنها علاقات جسدية فقط. و هذا لا يعني أنَّ العلاقات الجنسية المتعددة مع أشخاص مختلفين هي أكثر سهولة في التجاوز, هي قد تكون أسهل من ناحية عدم وجود شخص محدد الذي قد يخلق نوعاً من الارتباط و الحنين, لكن لايعني عدم تكرارها. تظهر التعقيدات في أنْ أصحاب العلاقات المتعددة رغم أنه لا يوجد بينهم ارتباط و حنين, لكن توجد أزمة التركيبة النفسية و الفهم المغلوط للعلاقة الجنسية. نجد أن مفهومهم للعلاقة الجنسية هي علاقة جسدية ميكانيكية الجانب العاطفي فيها ضعيف إنْ لم يكن معدوما. يُمثل الجنس بمفهوم العلاقة الجسدية التي يزيد في إثارتها عملية الصياد و الفريسة و التغيير و التبديل. إحساس الصياد و الرغبة في امتلاك أي فريسة يضع بصمته عليها تكون هي الثقافة و التركيبة التي تشكل وعيه. تزداد الإثارة بكمية السعي و الانتظار للحصول على الفريسة. من جانب آخر نجد الفهم الجسدي للجنس يقود الزوجين عادة للوقوع في فخ التعود على أجساد بعضهم البعض. هذه العقلية تجعل البعض يشعر بأنَّ العلاج لهذا التعود هو البحث عن الإثارة في وجود أشكال و أجساد مختلفة. بهذا التفكير حتى إذا شعر الفرد بخطيئة الخيانة, لكن في دواخله نجده يشعر كأنه قد يحرم نفسه من جنة التعدد لجحيم العلاقة الأحادية. لذا بالنسبة لهذه العقلية فإن الاعتراف بالخيانة و الالتزام بالعمل على تجاوزها لن ينجح إلا إذا صاحبه تغيير في تركيبته العقلية و النفسية من ناحية النظرة للجنس من علاقة جسدية تجد إثارتها في التعدد, إلى علاقة عاطفية تتحقق متعتها في التعبير جسدياً للمشاعر تجاه شخص واحد.

من العوامل السالبة في إمكانية التشافي من الخيانة إذا كانت شخصية الزوج تميل للتعالي و حب السيطرة, و التي تجعل الفرد غير قادر على القَبول بالتنازل أو تغيير سلوكه أو ممارساته من أجل العلاقة. هذه العقلية تجد صعوبة حقيقية في أنْ ترى أنّ مصلحة العلاقة و الآخرين يُفترض أنْ تعلو على رغباته, و أن رغبات الزوجة في الأمان و بناء الثقة لا تعني انهزامه أو تسليم القيادة للزوجة. ينبغي على الزوج المهووس بالسيطرة أن لا يرى في التزامه ضعفاً و استسلاماً, بل يجب أن يراه على حقيقته كقرار شجاع يضغط فيه على ذاته و يسيطر على انفلاتاتها من أجل مصلحته هو في بناء علاقة زوجية متوازنة و سعيدة.

عندما يتفق الزوجان على إعطاء الزواج فرصة بالسير في طريق التعافي في محاولة بناء ماهدمته الخيانة, عليهما الانتباه لنقاط أساسية.

طريق التعافي من الخيانة

النقطة الأولى

أولا على الزوجين أنْ يعلما أنها ستكون رحلة شاقة و لن تنتهي بسرعة. النظرة الواقعية أنْ يتوقعا استمرارها لمدة شهور إنْ لم نقل أعواماً. في هذه الفترة ستتراكم كمية من المشاعر المتضاربة تختلف في حدتها بين غضب و إحباط و ألم و قرف و اكتئاب. المحصلة فيها أن الألم سيكون موجوداً معظم الوقت, و هذا الألم إذا لم يجد الزوجان طريقة للتعامل معه قد يصبح جزءاً من حياتهما و سمة من سمات العلاقة. لذا ينبغي منذ البدء الاتفاق على طريقة يتفق عليها الزوجان لكيفية السماح لكل هذه المشاعر بأن تجد طريقها للخارج, مع الحرص على أنْ لا تكون سبباً في دفع العلاقة للوراء. حيث يمكن الاتفاق على أن تكون الرياضة و المشي وسيلة للتخلص من الغضب, و الكتابة وسيلة لتفريغ مشاعر الاحباط, و الاسترخاء و الاختلاء بالنفس وسيلة للسيطرة على مشاعر القرف و التوتر.

النقطة الثانية

على الزوج احترام حق الزوجة في التخلص من هذه المشاعر السالبة, كما أنْ عليها واجباً بأن تكون عملية التفريغ محدودة بزمن مُعَيَّن مقبول للطرفين, حيث لا يُؤثر على وتيرة و حركة الحياة اليومية.احترام حق الزوجة في التعبير عن مشاعرها يجب أن يصاحبه التزام من جانبها, و هو محاربة المشاعر السلبية و السلوك غير المقبول. من أكثر المشاعر و السلوك غير المقبول هي الكراهية و الرغبة في الانتقام, و ذلك بالسيطرة عليها دوماً في بداياتها و تذكير النفس بالجانب الإيجابي في العلاقة, و ضرورة عدم الوقوع في هذه الهاوية التي ستضر الزوجة نفسها قبل أنْ تهدم العلاقة.

النقطة الثالثة

رغم سيطرة المشاعر السالبة و المؤلمة يجب أنْ تكون هناك ثوابت لا تراجع عنها. ابتداءً لا تَوَقُّف أو تراجع عن السير في درب التشافي, و أن لا يكون هناك أي نوع من الابتزاز العاطفي «بأنني سأقف هنا و سأنهي العلاقة إذا لم يحدث شيئ أو أحصل على شئ محدد». مثلا إذا اتفق الزوجان على عدم الذهاب لمكان محدد مرتبط بالخيانة فلن يكون مقبولا أن يقول الزوج (أنا مخنوق.. و عاوز أمشي إلى فلان.. و اصلا إذا ما بتثقي فيني حتى الآن أحسن نقيف هنا).

النقطة الر ابعة

من أبجديات التعافي أن لا نُركز فقط في تجاوز سلبيات العلاقة, بل من الأهمية بمكان التركيز أيضا على الإيجابيات, و إنعاش ما ضعف منها أو زرع تقاليد جديدة للعلاقة تزيد من فُرص التواصل و التقارب.

النقطة الخامسة

يجب على الزوجين أنْ يتفقا على الصراحة الكاملة فيما يفكران فيه. الصراحة ليست بالضرورة تعني التجريح, و لكن تعني كشف ما بدواخلك بصورة تنقل صدق مشاعرك بدون جرعات من الهجوم. فمثلاً إذا كانت

الثقة مهزوزة بين الطرفين, لا يُفترض أنْ تحاول الزوجة تجميل هذه الحقيقة أو إخفائها, و يمكن بكل بساطة أن تضعها في قالب موضوعي (أفتكر الموضوع ده نتركه الآن.. لأننا في بداية طريق بناء الثقة بيناتنا).

إن واقعة الخيانة لن تتغير و ليس من السهولة نسيانها, و لكن من الضروري أن لا تكون موضوعاً مفتوحاً دائماً في مناسبة و غير مناسبة. بقدر ما يجب على الزوج أن يكون صريحاً في تمليك الزوجة تفاصيل ما حدث, لكنه أيضا على الزوجة أن لا تواصل في فتح الأبواب و طرح الأسئلة التي لن تقودها لأي نتيجة إيجابية, بل في كثير من الأحيان ستكون الإجابة مؤلمة و غير مفيدة مهما كانت.. مثلاً (عاوزه أعرف أجمل أنا و لا هي... أو عليك الله شفت فيها شنو؟).

النقطة الأخيرة

احترام سرية العلاقة الزوجية تفرض على الزوجة الحفاظ على سرية الخيانة. يجب أن لا تكشف تفاصيل ما حدث للأسرة الصغيرة أو الأسرة الممتدة أو الأصدقاء. كشف أسرار ما حدث لن يقدم أي إضافة و لن يساعد في دروب التعافي, بل سيزيد من جراح العلاقة و ستضيف على الزوج مشاعر الخجل و الفضيحة و عبء محاولة بناء صورته و استعادة شخصيته أمام الناس.

العامل الثالث في بداية النهاية (التوتر الدائم)

حالة الخصام و التوتر الدائم

كثير من علماء النفس يؤمنون بأنَّ التوتر و الاختلاف حتى درجة الخصام هو سلوك طبيعي في كل العلاقات, باعتبار أن الزواج هو رحلة لاستكشاف الآخر,و في هذه الرحلة من الطبيعي أن تُصاب بالدهشة و الغضب و الإحباط مما تكتشفه عن الآخر. هي محطات نتعلم فيها كيف نتوقف لنراجع أنفسنا و لنعيد حساباتنا مع أنفسنا و مع العلاقة. عادة تكون لحظات الخصام و التأمل هذه ذات أثر إيجابي على الزوجين إذا تم التعامل معها بوعي و موضوعية, حيث الاختلاف سيجعلهما أكثر تفهماً و قرباً لبعضهما البعض. تصبح ظاهرة غير طبيعية عندما تتكرر, و حينها ستكون دلالة على ضعف مفصلي في العلاقة لا يستقيم إلا بالعلاج. عندما يصبح التوتر و الخصام هو السمة السائدة هنا يصير الوضع مؤشراً خطيراً و مدعاة للقلق.

الخصام الذي يقود لمرحلة من التوتر الدائم أو السلام القائم على التباعد يعكس حالة من المشاعر السالبة التي فشل الزوجان في تجاوزها. التوتر الدائم هو المؤشر الفسيولوجي للاختلاف الفكري و العاطفي الذي يصل لمراحل من الانفعال و تجاوز القدرة على احتمال التواصل الطبيعي, و هو دليل على فشل التحاور مما جعل من التقارب سبباً في التنافر و التوتر. نجد الأزواج دائما يُعَبِّرون عن ذلك في تعابير مثل (زهجت من العيشة دي... ما أفتح خشمي إلا تردي على بي مشكلة). حقيقة أنَّ جوهر القضية هو وجود كثير من المواضيع العالقة و المشاعر الملتهبة التي تجعل من الزوج أو الزوجة في مرحلة غليان داخلي ينتظر أي فرصة أو منفذ للانفجار. كما أن رد الفعل السلبي للتوتر أو الانفجار هو الذي يُحدد مسار العلاقة. محاولة الرد أو التوتر المُضاد لن يفعل شيئاً سوى زيادة التوتر عنفاً. أيضا محاولة التجاهل و عدم الرد سيزيد من غضب الآخر

و سيجعل مستوى الغليان في ازدياد, و هذا إما سيقود لمواصلة الانفجار أو إذا توقف لانسحاب الآخر سيؤدي لزيادة الغليان الداخلي و الانتظار للمرة القادمة لتفريغ شحنات الغضب التي تضاعفت.

حتى إذا حاول الطرف المُتلقي للتوتر التعامل بهدوء و منطقية متسائلا عن أسباب الانفعال لن يجد رداً, باعتبار أن كمية التوتر لا تتناسب مع الموقف و لا تُفسره, لأن التوتر هو انفجار لتراكمات خرجت في تلك اللحظة و ليس بالضرورة أن تُعبّر عنها. تستمر هذه الحالة عادة لفترات طويلة لأن الزوج المتوتر لن يستطيع أن يُفسر مستوى انفعاله, و هاجسه في تلك اللحظة ليس البحث عن الأسباب بقدر ما هو البحث عن تفريغ لحالة الغليان الداخلي.

إن هذه الدوامة إذا استمرت على هذا المنوال ستجعل من الوضع بين الزوجين في شِجار دائم أو كما يصفونه في حالة نكد و عذاب.

الطريق الوحيد الآمن للخروج من هذه الحلقة الشريرة هي التعامل الواعي على مرحلتين:

الخطوة الأولى هي ضبط العواطف و الانفعالات بالسيطرة على النفس ,و عدم الانفعال و الانزلاق لدائرة الرد و التوتر المضاد. في نفس الوقت عدم تجاهل مشاعر الشريك و محاولة إيصال رسالة إيجابية بأن عدم تفاعله الآن ليس تجاهلاً أو تقليلاً لغضب الشريك, و لكن انتظاراً للوقت المناسب للزوجين عندما تهدأ المشاعر لمناقشة القضية.

عادة هذه النقطة لا تكون فعالة و مقبولة إلا إذا كان الزوجان قد رَسَّخَا بينهما أدب الاختلاف, و اتفقا على أن التحاور في زمن الانفعالات و التوتر من المحرمات.

الخطوة الثانية و هي عندما تسكن الانفعالات و المشاعر يجب أن يجلس الزوجان للبحث سويا عن جذور الاختلاف, و الاسباب التي خلقت مشاعر الإحباط و الغضب. معرفة الأسباب ستكون الدرجة الأولى في سُلَّم التشافي الذي يجب أنْ تتبعها خطوات واضحة, و التزام بتغيير أي مفصل في العلاقة يكون قد ساهم في خلق هذا الجرح.

المحطة الرابعة لبداية النهاية (الصمت التام)

العامل الرابع في مؤشرات بدايات نهاية العلاقة يتمثل في الصمت الكامل في العلاقة. الصمت الكامل يختلف جوهرياً من الصمت المؤقت الذي ذكرناه سابقاً و مرتبط بمواقف محددة أو خلاف محدد. الصمت الجزئي أو المؤقت رغم سلبية أثره على العلاقة لكنه عادة ينتهي بزوال الموقف أو المشاعر المحددة من غضب أو إحباط أو دهشة. هذه الحالة قد تتكرر, و مع الزمن قد تصبح حالة من الصمت الكامل. إن الصمت الكامل عادة ما يكون مؤشراً لدخول العلاقة في مراحل حرجة, إذا لم يتم التعامل معه فإنه حتماً سيقود لانهيار الحياة الزوجية.نجد أن الصمت الكامل هو مرحلة قد تكون جذورها بين احتمالين رئيسين هما اليأس من التغيير أو الابتعاد من المواجهة و المشاكل.

اليأس من التغيير عادة يظهر بعد فترة من الزمن, و تبدو فيه الاختلافات في العلاقة و تَبيئ كل محاولات التقارب بالفشل, إما نتيجة للاختلاف الواسع بين الزوجين أو عدم رغبة أحد الطرفين في تجاوز الاختلاف. هذه الحالة لا يستطيع الزوجان تجاوزها بدون حل عقدة الخلاف بواسطة من له خبرة في العلاقات الزوجية. حيث أن المساحة بين الرؤيتين عادة تكون واسعة و بها كثير من التداخلات.

في جلسات العلاج النفسي يجب ابتداءً أن يتقبل الزوجان بأن الهدف ليس الوصول لاتفاق جذري الآن, بل الهدف هو استمرارية التحاور و تحقيق درجة من التفاهم لرؤية الآخر, و المحاولة لتحقيق خطوة للتقارب في الفهم في كل مرة ما أمكن ذلك. فلسفة الحل تكمُن في تفكيك مكونات المشكلة و عدم التعامل معها كقضية واحدة, و النظر للدوافع و الجذور والنتائج. من الضرورة بمكان مراعاة أن النتيجة لا يمكن و لن تكون لمصلحة إحدى الرؤيتين, بل يجب أن يكون هناك تنازل يسمح لكل طرف أن يحقق شيئاً و لو بسيطاً لمصلحة رؤيته. أَذْكُر مثالا لزوجين حضرا

للعيادة و هما يعيشان في صمت كامل لأكثر من عام, و جوهر اختلافهما إصرار الزوج بأن تلبس الزوجة الحجاب و لكنها رفضت ذلك تماماً, مما جعلهما يعيشان في صمت في حياتين منفصلتين لا يتحدثان و لا يخرجان مع بعضهما, ببساطة صمت كامل. كان الزوج يقول (أشعر بالحرج عندما نذهب لمنزل أسرتنا و أجد أمي و أخواتي محجبات و زوجتي الوحيدة هي غير المحجبة.. و أشعر بالخجل أمام والدي و أخواني...). تتبنى الزوجة موقفاً واحداً و تحتفظ بنفس القناعة و الرد (لقد تعارفنا وهو يعلم أني غير مقتنعة بفكرة الحجاب و أنها ضد قناعاتي.. و أنا محتشمة.. فلماذا أغير في سلوكي عشانه أو عشان أخواته.. و ليه ما يحترم قناعاتي... و أنا شايفة الصمت نوع من محاولة للسيطرة عليَّ).

بعد عدة جلسات اتفقنا على الآتي:

(أ). على كل فرد أن يحترم خيارات الآخر.

(ب).الواضح أن من العوامل المؤثرة عدم مقدرة الزوج التعامل مع الضغط النفسي من واقع أسرته و مفاهيمهم حول زي الزوجة و سُلطة الزوج.

(ج).أكد الزوج أنه لا يريد السيطرة على زوجته و لها حق اختيار الزي الذي تريده, و لكنه لا يُنكر تأثير واقع أسرته عليه.

(د) اتفقنا أن للزوجة الحق بأن ترفض تأثير أسرة الزوج على حياتها, و تعتبره تدخلا و لو بصورة غير مباشرة..و لكن من الأفضل للعلاقة أن تقف الزوجة مُساندة للزوج ليتجاوز هذا التأثير بدلا أن تكون كرت ضغط عليه.

(هـ).طلب الزوج من زوجته أن تقف معه و ليس ضده. و أكدت الزوجة أنها تريد مساندة زوجها و لاترضى له الإحراج. طلب منها المعالج أن تُفكر في طريقة تدعم بها زوجها و إلى أي درجة مستعدة للتضحية من أجله. طلب الزوج منها أن تتحجب في زيارتها لأسرته و تلبس ما تشاء فيما عدا ذلك, لم توافق الزوجة على لبس الحجاب, و لكن وافقت على لبس التوب أو

الطرحة عند زيارتها لأهله .

(و).اعتبر الزوج هذا أقل من طُموحه, لكنه تنازل مقبول يَسْمَح بكسر مشاعر الغضب.. مقدراً أن زوجته بذلك احترمت صورته أمام الآخرين, رغم تعارض ذلك مع قناعاتها.

(ز).اتفقا على أن يكون الحوار في هذا الموضوع مستمراً, مع الالتزام بعدم الوصول لنقطة الصمت الكامل مرة أخرى.

ذكرت هذا المثال ولا أقول إن هذه روشته (وصفة) علاج للحالات المماثلة. بل يمكن أن أقول إنها قد تكون غير مناسبة تماما لأزواج آخرين, فقد يرى الزوج هذا التنازل أو اللبس الجُزئي استغفالاً أو عناداً, و قد ترى الزوجة موقف زوجها ضعفاً في شخصيته أمام أهله. كل هذه القراءآت محتملة, و لكن النقطة المهمة أنها كانت مناسبة لهذين الزوجين, و ما نستخلص منها أن التمترس في المواقع و إدمان الصمت يقود لحالة من الجمود و انتظار لحل جذري قد لا يأتي. هذا العناد لا محالة سيقود العلاقة لمزالق الانهيار, لذا الحل الحقيقي هو القَبول بالاختلاف و قراءة الواقع لمعرفة إمكانية إيجاد نقاط التقاء مهما كانت صغيرة, و لكنها كبيرة في ميزان العلاقة لأنها تؤكد للآخر أنه رغم اختلافنا فإنني أحترم خياراتك, و من أجل العلاقة فأنا مستعد لتقديم بعض التنازل لجعل علاقتنا تسير للأمام.. و هذا هو جوهر الحل. إذن على الأزواج محاربة واقع الصمت الكامل, فإن الزمن وحده غير كافٍ لتغيير المواقف, بل عادة سيزيد من حدة الاختلاف, و يكمُن الحل في السعي الجاد من الطرفين بكسر حاجز الصمت و فتح أبواب الحوار و الاتفاق على خطوات التقاء مهما كانت بسيطة و قليلة.

الاحتمال الثاني لحالة الصمت الكامل هو وسيلة حماية و حاجز صد ضد مشاعر سالبة أو سلوك مرفوض من الآخر أو من الاثنين معا.

الصمت في هذه الحالة قد يكون ناجحاً لفترة مُؤقتة في توفير السلام, و لكن حتماً سيصل لمرحلة سيتحطم حاجز الصمت باعتبار أن المعاشرة

اليومية و المواقف ستزيد من حِدة المشاعر المكبوتة و ستصل لمرحلة الانفجار. الجانب المهم الذي يغفله الزوجان أن الصمت حتى و لو نجح في قفل أبواب السلوك السلبي فإنه لن يفتح الباب على السلوك الإيجابي. الزواج الناجح ليس هو الزواج الذي يتحاشى المشاكل, بل هو الزواج الذي يُضيف للطرفين جُرعات من التوازن النفسي و يُشبع احتياجاتهما الاجتماعية و العاطفية. إذن من الضروري أنْ يجلس الزوجان و يعملا على رسم حدود العلاقة, و تنقيتها من المشاعر السالبة و السلوك المرفوض الذي يؤثر على الآخر, و الاتفاق على أنَّ الصمت لن يُزيل نقاط الاختلاف مهما طال الزمن ,بل قد يؤدي لتفاقم الوضع و ازدياد الشرخ في العلاقة.

الفصل الحادي عشر

الزواج و نقاط النجاح الذهبية



الزواج و نقاط النجاح الذهبية

كتب كثير من علماء النفس عن عوامل الزواج الناجح و السعيد. رغم تعدد العوامل و تباينها لكن يمكننا أنْ نقول إن معظمهم اتفقوا على أربعة عوامل يمكن أنْ نسميها الأركان الأربعة للسعادة. هذه الأركان الأربعة لضعف الثقافة النفسية نجد معرفة الزوجين بأهميتها ضعيفة.. فلا أحد جلس ليستمع محاضرة عن أساسيات الزواج, و لا قرأ كتاباً عن سايكولوجية العلاقات. لذا تكون المعرفه معظمها ذاتية تتداخل فيها الحقيقة مع الخيال و المنطق مع الأماني, فَتَكْمُن الأزمة في أنَّ قطاعاً كبيراً من الأزواج يظنون أنَّ هذه المعرفة تنمو مع الزمن بدون السعي للتعلم أو الاهتمام بها. في غياب المعرفة يُصبح الزواج يستند على كثير من الأوهام و المفاهيم الخاطئة. من هذه المفاهيم المتجذرة عند مجموعة كبيرة من المتزوجين الذين يؤمنون بأن الزواج هو قدر ثابت غير متطور, و قد كُتب على الزوجين ليبقى و لن يزول الا إذا قُمنا بهدمه, و الزواج الذي قام على اختيار طيب و نوايا صادقة سيصمد لوحده, و ستنمو في دواخله مع الزمن كل العوامل الطيبة التي ستقود لإزدهاره. كما ذكرنا سابقا فإن هذا الفهم المغلوط هو الذي يجعل الأزواج غير مهمومين بالسعي اليومي لتطوير أنفسهم و بناء العلاقة. هذا التوكل على الأقدار و ترك العلاقة يجعل نجاحها أقرب للمصادفة من التخطيط المدروس. إن كورسات الإرشاد للمتزوجين و جلسات التحليل النفسي لما قبل الزواج تعتمد أساساً على غرس مفهوم الإرادة الواعية, و المسؤولية الذاتية في بناء العلاقة و نجاح الزواج بوصفه حجر الزاوية في التغيير.

معرفة أركان نجاح الزواج الأساسية و العمل على تثبيتها و المحافظة عليها هي الضمان الوحيد على أن الزواج سيُحقق أهدافه من سعادة و توازن نفسي للزوجين.

الأركان الأربعة الاساسية التي يستند عليها الزواج الناجح هي:

(١).بناء أُسس للصداقة.

(٢).تأسيس لثقافة الاحترام و التقدير.

(٣) تجويد مهارة أدب الاختلاف.

(٤).ترتيب الزمن و الأولويات.

كما ذكرنا بأن هذه الأركان ليست العوامل الوحيدة لبناء علاقة سعيدة و ناضجة, و لكن نستطيع أن نقول إنها من أكثر العوامل التي اتفق عليها العلماء, لذا يصبح من الضروري الإلمام بها و محاولة الالتزام بها ما أمكن ذلك.

الركن الأول للزواج السعيد(الصداقة)

هو بناء الصداقة بين الزوجين و ذلك بتعميق إحساس الحاجة للشريك و تأكيد دور الزوج أو الزوجة في حياة الآخر. بناء الصداقة لن يتحقق إلا من خلال جهد مرتب و تركيز على التفاصيل و معرفتها, و بذا تتكون الصداقة.

طرق بناء الصداقة

(أ). صناعة الوجود الإيجابي و ذلك بخلق جو من الهدوء و التوازن و العفوية وسط الأسرة عندما تكون حاضراً. رغم أن النصيحة كتبت بلغة المخاطبة للزوج و لكن حتماً لا تعني أبدا أن عليه مسؤولية أكثر من الزوجة. في البدء يجب أن لا تجعل من وجودك مع زوجتك و أسرتك أثراً ثقيلاً على القلب و عبئاً و إضافة سالبة, و أن لا يرتبط وجودك بزيادة مشاعر التوتر و سِمة ترتبط في الأذهان بصفات الصرامة أو الجدية أو الضغط النفسي, بل يكون حضورك خفيفاً على الروح محبباً للجميع يتسم بالأريحية و يقلل

من التوتر و يضيف جواً من المحبة والأمان. للأسف نجد كثيراً من الأزواج لا يفرقون بين الاحترام و الإرهاب, فيرسمون لأنفسهم صورة تتسم بالحزم و الجدية و غياب المشاعر, فيكون وجودهم في المنزل مدعاة للخوف و الترهيب و زيادة وتائر التوتر, و يصبح الجو لطيفاً و وديعاً في غيابهم فيتمنى الجميع ذلك.

(ب). بعض الأزواج يكون وجودهم في حضرة الآخرين يتساوى مع غيابهم, لأن الأسرة تعيش في عُزلة و كلٌ له عالمه الخاص به, فتصبح الأسرة عبارة عن حلقات مغلقة كلٌ يعيش في داخلها. تراهم حتى و هم في غرفة واحدة لا يوجد بينهم تواصل أو تفاعل. ليس بالضرورة وجود الزوجين سوياً في مكان واحد أن يكون بينهما نقاش أو موضوع مشترك, و لكن بالضرورة أن يكون بينهما تواصل, و ذلك بجعل وجود قنوات التواصل مفتوحة تثبيتاً لوجودهما معاً و تداخل عالمهما. قنوات التواصل قد تكون مجرد نظرة محبة.. أو ابتسامة.. أو سؤال مُقتضب ذو إجابة سريعة و محدودة, هي قنوات يفتح الزوجان عالميهما ليكونا متداخلين (نحن هنا..و نحن معا),و يمكن بعدها أنْ يعود كلٌ لعالمه. إن التواصل المتقطع يجعل الزوجين يعيشان مع بعضهما في تلك اللحظات حتى و لو كانا مُنْشَغِلَيْنِ بعمل آخر, مؤكداً لشريكه أنه في خاطره و في عالمه. فالذي يقرأ يمكن أن يضع كتابه لبُرهة و يسأل عن أحوال الآخر, و الذي يشاهد التلفاز يمكن أن يصنع كوب قهوة و يجلس قليلاً مع الآخر, و هذا لا يكلف كثير عناء في أن تُمارس بعض التصرفات البسيطة التي تفتح الباب ليدخل الآخر لعالمه.

(ج). الاهتمام بتفاصيل الآخر و أحلامه و أفكاره و عمله مع الحرص على خلق جو من الدعم و التقدير و الاحترام لجهده. نجد أن الأزواج في كثير من الأوقات يخلقون حاجزاً من السرية و التكتم أو عدم المشاركة لهموم العمل مع الزوجة. أحيانا بدعوى عدم معرفتها بطبيعة عمله أو تخوفاً من أن تتدخل في عمله من عدم دراية, و في الغالب الأعم لعدم الشعور بأن

هناك حاجة لذلك. أيضا نجد الأزواج في بعض الأحيان لا يتعاملون مع العمل المنزلي كجهد يحتاج لتقدير و دعم , بل يعتبرونه واجباً مفروضاً لا يثير انتباههم و لايحفزهم لفتح باب حوار و تواصل, رغم أنه يمثل جزءاً كبيراً من حياة الزوجة و يأخذ مساحة كبيرة من وقتها, و لا يمكن أن تكون كل هذه المساحة لا تثير تفاعلاً من الزوج.

(د).ضرورة خلق أرضية من الأهداف و الأحلام المشتركة, لتغذية إحساس الشراكة في أهداف و مشاريع مشتركة داخل الأسرة و خارجها. من الأفضل أن يكون الزوجان دوماً في مشروع مشترك يُغذي قِيم الشراكة و التقارب بينهما , و يمكن أن يكون المشروع بناء منزل للأسرة أو الدخول في استثمار لزيادة الدخل, أما خارج الأسرة فقد يكون نشاطاً اجتماعياً مثل عمل طوعي أو برنامج ترفيه و متعة.

(هـ). الاهتمام ببناء تقاليد مشتركة و ذلك بالاتفاق على روتين و طريقة و زمن محدد للقيام بأدوار للزوجين و للأسرة, من برامج الترفيه و التواصل و الزيارات الاجتماعية و الرياضية و الاهتمام بتفاصيل المنزل كلٌ بدوره.

هذه السلسلة من المعايير و الخطوات تُساهم في بناء مشاعر الصداقة, و تزيد من وتائر الحب و المودة و تجعل الزوجين يعيشان حياة مشتركة تُغذي قيم التكامل و احتياج كل فرد للآخر.

الركن الثاني للزواج السعيد (الاحترام)

الركن الثاني للسعادة هو الاحترام و التقدير. يرى الكثير من الأزواج أن هذه من المسلمات التي يظنون أنها لاجدال فيها ولا يختلف اثنان في أهميتها و ضرورتها. رغم هذا الاتفاق و الاجماع لكن على أرض الواقع نجد أن التطبيق ضعيف. ينتج هذا الضعف من عدم الاهتمام الواعي و الحقيقي بهذه القيم. الاحترام هو الاعتراف بالقيم الإيجابية عند الفرد أو عند الآخر, مع الالتزام بعدم المساس بها أو تجاوزها. التقدير هو الإحساس الإيجابي تجاه سمات أو ميزات عند الذات أو الآخر. عدم الألمام

بالتفاصيل و التعريف الكامل لمعاني الاحترام و التقدير يجعل الالتزام بها عادة لا يُعطيها حقها و يشمل كل تفاصيلها. لذا الاهتمام بتعريفها و امتلاك ناصية تفاصيلها تجعل إمكانية تحقيقها كاملاً, و بها تتحقق تأثيراتها الإيجابية على الزواج. الاحترام في العلاقةالزوجية يمكن تقسيمه للأجزاء التالية, و التي رغم تداخلها لكن من المفيد تقسيمها للمساعدة في الشرح و التوضيح.

أبواب الاحترام و أنواعها

(أ).احترام الذات و الآخر شكلا و موضوعاً.

(ب).احترام المواقف و الأفكار.

(ج).احترام العلاقات الاجتماعية.

(د).احترام صورة الآخر و وضعه أمام المجتمع.

(هـ).احترام العلاقة.. خصوصيتها و تقاليدها.

(أ).احترام الذات و الآخر

نجد في قيمة احترام الذات و الآخر الأساس الذي تستند عليه كل معايير الاحترام الأخرى. على الفرد أن يبدأ من ذاته و يؤسس لنفسه حدوداً من المعايير الاخلاقية و الاجتماعية التي تُشكل أساس شخصيته و كيانه و لا يرضى المساس بها أو التخلي عنها. هناك كثير من القيم التي نستطيع أنْ نرسم بها شخصيتنا, من قيم الكرامة و الكبرياء و التعفُف و الأمانة. احترام الفرد لذاته في محافظته على قيمة الكبرياء تجعله لا يقبل الإهانة, و في محافظته لقيمة التعفف تمنعه من السؤال, و الأمانة تمنعه من السرقة. إن احترامنا لهذه القيم في ذاتنا لا يكتمل إلا إذا حافظنا عليها و احترمناها عند الطرف الآخر, و تحاشينا أي مساس بها فُتصبح من الأساسيات للزوج الذي يرى احترامه لذاته بأنه شخص ذو نزاهة و كبرياء و شرف, و عليه أن يُحافظ على هذه القيم لدى الزوجة فيحافظ على كبريائها, و لا يسئ أو يشكك في شرفها. هكذا تكتمل قيمة احترام الذات, حيث احترامها يتضمن

احترام الشكل و اللون و الملامح و الجذور الإثنية و العرقية و الاحتفاء بها. بعض الأزواج من جانب آخر يزعمون أنهم يحترمون أزواجهم, و لكن لا يتورعون عن السخرية و انتقاد ملامح شريك حياتهم أو التبخيس من أصوله العرقية أو الاجتماعية و الطبقية و هذا تناقض و انتهاك لقيمة الاحترام.

(ب). احترام المواقف و الأفكار

يدخل أيضا في قائمة الاحترام احترام أفكار الفرد و قناعاته و مبادئه. إن احترام الافكار يبدأ من احترامنا لفكرة معينة أو رأي محدد, و لا يعني نهائياً الاتفاق بل يعني اعترافنا بحق الآخر في أن يكون له رأي. إيماننا بهذا الحق و اعترافنا به و تطبيقه في سلوكنا سيفتح الباب لتعزيز قيم الثقة في النفس, و إضافة لقيمة التشاور و التفاكر المستديم بين الزوجين. عدم التشاور عادة يستند على هدم هذه القيمة, و نجد كثيراً من الأزواج - بكل بساطة - يُظهرون عدم احترامهم لفكر الآخر عندما يقولون (ياخي ما بتفهمي في الحاجات دي). نعم حقيقة قد لا يكون الطرف الثاني مُلماً بتفاصيل كل المواضيع و لكن لا يعني أنه ليس له رأي. فالزوج الذي لا يشاور زوجته في شراء سيارة لأنها لا تفهم في الميكانيكا يُلغي حقها نهائياً في أنها ستستعملها و ستُعجب بمكوناتها و ستساهم في ميزانيتها.

قد يكون الاختلاف في الأفكار أكثر عُمقاً مع تباين واضح, و للأسف نجد كثيراً من التعابير التي تحاكم أفكار الآخر بالازدراء و السخرية. فنجد مثلا تعبير (إنت متخلف... إنت رجعي.. إنت مغفل و معقد) أو (إنتِ ما بتفهمي... ده شنو الكلام الفارغ ده).

(ج).احترام العلاقات الاجتماعية

نجد أيضا جانباً مُهماً في مساحات الاحترام هو احترام العلاقات الاجتماعية للآخر من أهل و أصدقاء, و تحمل العَنَت و المضايقات باعتبار أن وجود هذه الشبكة الاجتماعية تُمثل امتداداً للشريك, مثل الأسرة أو الأصدقاء الذين اختارهم ليسيروا معهم في دروب الحياة. لذا نجد الكثيرين من الأزواج يتدخلون في فرض أنواع الأصدقاء و اختيارهم دون احترام الرأي الآخر.

(د).احترام صورة الآخر و وضعه أمام المجتمع

احترامك لصورة شريك حياتك أمام الآخرين يجعلك دوماً محافظاً و مُدافعاً عن أجمل ما لديه, داعماً له لتحقيق أفضل صورة ترضيه و تحقق له ذاتيته. فالزوجة التي تهتم بصورتها كإنسان اجتماعي يُقَدِّس صلة الرحم يصبح جزءاً من احترام الزوج لها مساعدتها في تحقيق ذلك, و المحافظة على صورتها الاجتماعية التي تخلق لها التوازن. من المهم مراعاة أنْ الاحترام لا يعني الانصياع للرغبات و الأفكار بدون نقاش و دون توازن, و لكن يعني الاهتمام بتحقيق جزء من الصورة يُرضي طموح الآخر و تصوره.

(ه).احترام العلاقة... خصوصيتها و تقاليدها

احترام الفرد لشريك حياته يعني احترامه للعلاقة التي تربطهما و احترامه لتقاليدها و خصوصياتها. فمثلاً إذا أسست لعلاقة بها تقليد أن تتصل هاتفياً إذا تأخرت في الحضور, أو أن تحضرا مناشط أطفالكما المدرسية سوياً أو أن لا تدعوا ضيوفاً للعشاء قبل التشاور, يجب عليك احترام هذه التقاليد و الالتزام بها. هذه التقاليد ليس مهماً حجمها و خطورتها صغيرة كانت أو كبيرة, و لكن احترامها يعطي للعلاقة خصوصيتها و للآخر مكانته.

العلاقة بين الزوجين عالم متكامل من الأحداث و المواقف والمشاعر المتباينة من قوة و ضعف و محبة و إحباط و دهشة. هذه المشاعر لها

قُدسيتها عند الفرد و يقبل أن تكون ملكا لشريك حياته, و لكن لا يقبل أن يملكها للآخرين. إن عُش الزوجية هو مكان مقدس ما يحدث فيه من تفاعلات يبقى في داخله احتراماً لخصوصياته و أسراره مهما صغرت أو عظمت.

قضية الاحترام متشابكة العوامل, لها وحدتها الذاتية بمعنى تحقيق جزء منها لا يغني عن الباقين, و التغاضي عن البسيط قد يهدم الكل. فالزوج الذي يحترم خصوصية العلاقة و تقاليدها و يحترم علاقات الزوجة الاجتماعية يهدم كل ذلك و يصبح لا قيمة له إذا كان يسخر من الزوجة في مستوى وعيها و تفكيرها. و الزوجة التي تحترم خصوصية العلاقة و صورة الزوج الاجتماعية و أفكاره و علاقاته فإنها تهدم كل ذلك بالسخرية منه, و عدم احترام خلفيته الطبقية و الاجتماعية أو جذوره العرقية. إذن فالاحترام قيمة متكاملة لا تتحقق نتائجها إلا إذا اكتملت كل مفاصلها, و التقصير أو إهمال أي جزء لن يقود إلا لانهيارها و اختفائها من تركيبة العلاقة.

التقدير كأساس للاحترام

الجانب الثاني المكمل للاحترام هو التقدير. حيث يمثل الشعور الإيجابي تجاه الذات و المواقف أو الأفكار. التقدير له أهميته في العلاقة الزوجية, حيث أنه إثبات وجود و دليل قيمة و حافز للاستمرار. قيمة التقدير كإثبات وجود يُقدم دليلا على وجودك في عالم الزوجية و ليس مُهملا. إنه مُؤشر يؤكد أنك في خاطر من تحب و دائرة اهتمامه, يُتابع وجودك من شكل و مشاعر و سُلوك و يتفاعل معها. فالزوج الذي يُعَلِّق على كوب شاي أعجبه يرسل رسالة للزوجة بأن ما فعلته له قيمة و أثر. أما التقدير في تحقيق الذات يتجلى عندما يعكس أحد الزوجين امتنانه و سعادته لوجود الشريك في حياته. كلمة تقدير بسيط تعني الكثير في مدارج تقدير الذات و الرضا بالنفس, فالزوجة التي تقول كلمات بسيطة مثل (ماعارفة من

غيرك كنت حاعمل شنو؟), هذه الجملة البسيطة قد تكون زاداً عاطفياً يزيدُ مشاعر الزوج بالراحة والأمان و السعادة. التقدير كحافز هو تلك اللحظات التي تُشْعِرك بالرضا عن النفس و تعطيك دافعاً و رغبة قوية في تكرارها و استدامتها, فالزوجة التي تهتم مثلا بتوفير مبلغ من المال ادخرته لوقت الحاجة عندما يُقابلها الزوج بدعاءٍ مثل (الله يحفظك), أو بهدية صغيرة فإن السعادة التي يخلقها هذا التعبير تُعطي القوة للزوجة للاستمرار و الإكثار من القيم الإيجابية التي جلبت هذه السعادة.

للتقدير عادةً مستويان, مستوى الجزء و مستوى الكل. حيث الكل هو التقدير للعلاقة في ذاتها و وجود الطرف الآخر في حياتك, أما الأجزاء فهي التقدير للمواقف المُحددة أو السلوك المحدد. رغم أن المستويين يعانيان من الضعف و التجاهل, لكن التقدير الكلي أكثر قابلية للتجاهل و النسيان من التقدير الجزئي في العلاقة الزوجية.

أزمة التقدير من ضعف و تجاهل أو نسيان يكمن في أحد احتمالين, أولهما عدم الإحساس بأهميته, و ثانيهما التعود على الواقع و السِمات و المواقف مما يسلِبها إيجابياتها. عدم الإحساس بأهمية التقدير ناتج عن تركيبة الوعي و جذوره الثقافية و الاجتماعية التى ترى في بعض الممارسات و السلوك واجباً لا يستحق الإشادة, و ليس قيمة تستحق التقدير. فالزوج الذي يرى أن عمل الزوجة في المنزل هو واجب عليها لا يهتم بإظهار التقدير لنظافة المنزل أو نوع الطعام أو حتى كوب الشاي المقدم له, و بنفس العقلية التي ترى بها الزوجة أن الصرف على المنزل هو مسؤولية الزوج لا تشعر بالحاجة للتعبير عن رضائها عندما يقوم بهذا الدور. إحساس الواجب المفروض على الآخر يجعل منه سلوكاً لا يَلْقَى الاهتمام به, و يراه الآخر كسلوك طبيعي. هذا الإحساس يقود العلاقات للجمود, لأن هذه الطبيعية تجعل من الآخر تِرساً في عجلة تدور لتؤدي هذه الوظيفة. لا يشعر الزوج بأهمية و قيمة شريكه إلا إذا توقفت الوظيفة أو الدور

الذي يلعبه. فمثلا مرض الزوجة أو غيابها يُنبه الزوج بقيمتها, و هذا قد يحرك مشاعر التقدير لما تقدمه له في حياته من توازنٍ و إضافة. رغم أنه من الانتقاص للإنسان أن يُقَيَّم بوظيفته لأنها تبتذل الإنسان لمستوى الوظيفة, فتصبح قيمة الزوجة تتناسب بمقدار جودة طبيخها أو نظافة منزلها, و الرجل بمستوى دخله و حجم موارده. هنا يصبح الإنسان مُختزلاً في وظيفته و ليست في قيمته المتكاملة كإنسان. حتى هذه القيمة التعريفية بوظيفته تتلاشى مع دوامة الحياة اليومية و بعد أن تذوب في روتين التعود و المتوقع.. فينتفى الإحساس بقيمة الطهو و التنظيم و الدخل الشهري,و تصبح ليست بذات قيمة تُذْكَر عندما يعود الروتين. كما قيل لا تشعر بقيمة الشمس إلا في أيام غيابها القارسة, و عندما تعود في الإِشراق قد تمر أيام و شهور دون أن تشعر بقيمة وجودها.

مستوى تقييم الآخر - للأسف- يصاحب المواقف المحددة أو السلوك المحدد غير المتكرر, فرغم عدم تأثره بآفة التعود فإنه أيضا لا يحدث إلا عند البعض و نادراً.

إذن آفة التقدير هو غيابها عن وعينا أو التعود على إيجابيات الواقع, فلا تُثير فينا رُوح الدهشة و الانبهار مما يؤدي إلى نسيانها و الإغفال عنها.

العلاج الناجع لاستعادة خاصية التقدير أن نكسر حاجز الروتين و أن نحافظ على رُوح المتابعة و المقارنة للاستمتاع بالإيجابيات التي في عالمنا, و إظهار الثناء للمواقف التي تجعل حياتنا أجمل و تجلب الراحة و السعادة.

التقدير لا يحتاج إلى أُسلوبٍ أو طريقة مُحددة. بل يعتمد على ثقافة الزوجين و مستوى وعيهما و رؤيتهما للحياة. البعض قد يُعَبِّر عن تقديره بنظرة أو ابتسامة أو كلمة أو جملة كاملة, و البعض قد يُعَبِّر عنه بحركة أو هدية أو موقف يصنع الفرح.

إن التعبير عن التقدير هو ما يعرف في ثقافة الحب و العلاقات بالرومانسية, و التي لا شكَّ أنها تُضيف للعلاقة بعداً من السعادة و المحبة.

على الزوجين الاهتمام الواعي بالتعبير عن التقدير لإيجابيات الشريك, على أن تبدأ كالتزام ببرنامج و عهد يقطعه الزوج على نفسه أن يُعبر عن كل موقف إيجابي, و أن يُراجع يومياً ما جرى و يحاسب نفسه إذا لم يقدم للاخر التقدير الذي يستحقه, و يعبر عن ذلك و يعاهد نفسه على أن لا ينسى. فما أجمل أن يتذكر الزوج تعب زوجته و هي تخدم ضيوفه, أو تدريسها للأطفال و هو يتابع الكرة.. لن يحتاج لأكثر من كلمتين (الله يبارك فيك). أو الزوج الذي يخرج لوظيفة ثانية مسائية لتوفير بعض احتياجات الأسرة, فإن استقبال الزوجة له بكلمتين (الله يحفظك.. أو.. ماتتعب روحك) تعني الكثير. قد يكون التعبير أحيانا غير لفظي في لمسات رضا و عرفان, و لكنها جميعها رسائل إيجابية تصب في مسار العلاقة تقارباً و محبة.

الركن الثالث: الزمن و الزواج السعيد

الركن الثالث في بناء السعادة الزوجية يتمثل في التعامل مع الزمن و إدارته. عندما نتحدث عن الزمن بالضرورة أن نتطرق إلى الأدوار و المسؤوليات في العلاقة الزوجية التي يُخصص لها هذا الزمن. حيث أن الزمن هو مؤشر لحجم الاهتمام بكل دور أو قضية في داخل العلاقة. الفشل في إدارة الزمن قد يظهر على مستويين, أولهما الفشل في إعطاء بعض أجزاء العلاقة ما تستحق من وقت أو احترام, و عدم الالتزام بما يُفترض أن يقدم من زمن و يكون هناك تجاهل لذلك أو نسيان.

عدم إعطاء بعض جوانب العلاقة ما تستحق من زمن هو في حقيقته ليس أزمة وقت, و لكنها أزمة أولويات..حيث تأخذ بعض الأشياء الصدارة في سلم الأولويات و هي تنال ما تستحق من وقت, و إنْ تَبقى جزء من الزمن فهو يمكن أن يُستغل فيما يليه من أولويات. من الطبيعي أن بعض الأشياء قد تكون في أسفل السلم فيُصيبها الاهمال, لأنه قد لا يتوفر لها الزمن أصلا. تنشأ الأزمة عندما تكون لهذه الأمور قيمة أعلى لدى الطرف

الآخر أو للعلاقة.

في بعض الأحيان قد لا تكون الأزمة أزمة أولويات بل أزمة أهمية. حيث أن بعض القضايا لا يُوفر لها زمن محدد لأنها من الأساس لم تكن في الخاطر, و لم تكن هاجساً كي يوجد لها الزمن. لذا عندما نرى الفرد مهتماً بما عداها نَظُن أن الزمن قد كان محدوداً و ليس كافياً للتعامل مع هذه القضية أو تلك, بينما الحقيقة أنها أصلاً لم تكن في سلم الاهتمامات.

البعض لا يستطيع الاهتمام بجوانب محددة بحجة الزمن, و هي حجة مردودة فظاهرها محدودية الزمن و قلته, لكن في جوهرها أن بعض القضايا قد استحوذت على زمن أكثر و على حساب غيرها من المواضيع و القضايا. مثلاً نجد الزوج الذي يشتكي بأن قِلة الزمن و زحمة العمل تمنعه من قضاء وقت مع الأسرة, و هو في نفس الوقت يستطيع إيجاد زمن لزيارة صديق أو حضور مناسبة اجتماعية.. أو الذي يعتذر لعدم وجود زمن للعب مع الأطفال, و لا يشعر بالتناقض عندما يجد و قتاً لمتابعة مباراة لكرة القدم.. و الزوجة التي لا تجد زمناً لمساعدة زوجها في عمل ما و لكنها قد تستغرق ساعات مع صديقتها في الهاتف.

إذن الأساس في التعامل مع الزمن هو تحديد الاهتمامات ثم ترتيب الأولويات و تقسيم ما تستحقه من زمن. الاهتمامات يمكن تقسيمها كالآتي:

*الزوج و الزوجة

*الأسرة

*العلاقة

(أ) زمن الزوج و الزوجة

إننا عندما نُقسم الاهتمامات الذاتية للزوج و الزوجة نستند على أنهما أفراد عاديون لهم أبعاد كثيرة في شخصياتهم, غير أنهما أزواج و زوجات. الإنسان بعد الزواج يحتاج لترتيب اهتماماته, و لكن لا يعني إنه سينزعها من دواخله. الزواج ليس عملية استبدال شخصية الفرد و لا إلغاء لمكوناته, بل هي عملية واقع جديد و وضع جديد يحتاج الفرد إلى التأقلم عليه. إن للزوج و الزوجة خيارهما تجاوز بعض الاهتمامات و العادات بعد الزواج, و هذا من حقهما و لكن حتماً لا يفترض أن يكون قسراً أو فرض أدوار بدون حماس و اقتناع. فالزوج الذي يُقرر أن يتوقف عن التدخين بعد الزواج أو قضاء أُمسية الخميس في بيت العزابة فهذا من حقه, و الزوجة التي تُقرر إيقاف برنامج قهوة الأسبوع مع جارتها فهذا من حقها, أيضا من حق الزوج أن يشعر بأنه يريد أن يحافظ على ذهابه المنتظم لمتابعة فريقه في كرة القدم, و للزوجة أن تشعر بأنها تريد المحافظة على قيامها بالتسوق. على الزوجين أن يحددا ما يتمنيان المداومة عليه بعد الزواج, و لكن تُصبح القضية في الزمن المتوفر لذلك. أيضاً على الزوجين احترام حقيقة أن زمنهما الخاص بعد الزواج قد أصبح محدوداً و ليس معدوماً, و عليهما تحقيق برنامجهما في خلال تلك الفترة, حيث أصبح للآخرين نصيبهم منه, و انتهى عهد أن زمنهما ملكٌ لهما يتصرفان فيه كما يشاءآن. إذا اتفق الزوجان على أن الزمن الخاص لكل منهما ليلة في الأسبوع أو ليلتان, تصبح مسؤولية الطرف الآخر مساندته و تحمل كل الأعباء ليكون الزمن الخاص وقتا كاملاً و خالصاً له. الزوج الذي له ليلة في الاسبوع ليذهب لمبارة كرة قدم أو للعب الكُوتشينة تلتزم الزوجة بالقيام بكل الأدوار في المنزل لتخصيص ذلك الزمن له, و العكس صحيح فالزوجة التي تستفيد من ليلتها الخاصة لزيارة صديقتها على الزوج البقاء في المنزل و القيام بأعبائه, و ضمان أن يكون زمنها خالصاً لها بلا نُقصان.

تحديد الزمن الخاص لكل زوج يُقلل من المُشادات و الطلب والرفض والغضب عندما يريد أحدهما القيام بشئ يرتاح له, مما يقود إما للقيام به و في القلب توتر و ضيق من عدم رضاء الطرف الثاني, أو ترك البرنامج من أساسه تجنباً للتوتر مما يخلق مشاعر التعاسة و الإحباط و الغضب. تحديد الزمن الخاص بالضرورة سيوقف أسلوب المطاردات و التعقب و سيل المكالمات والمتابعة و السؤال عن «أين انت؟؟ ومتى سترجع؟؟ و لماذا تأخرت؟؟»

سيكون بين الزوجين زمن معلوم, و إذا حدث ظرف يدعو للتأخير فالمتأخر مُطالب بأن يُخطر الآخر بذلك.

للزمن الخاص فائدته المهمة في توفير الوقت للفرد ليحقق فيه رغباته بدون حرج أو لوم أو عُقدة ذنب. أيضا هو الزمن الذي يحُاسَب عليه الزوج و الرصيد الذي سيُقتطع لتعويض أي زمن آخر فشل في الالتزام به.

(ب) زمن الأسرة

هناك زمن للزوجين معاً مُخصص للأسرة و الأطفال إنْ وجدوا. زمن الأسرة يتم فية الاهتمام باحتياجاتها من زيارات جماعية و ترفيه أو متابعة أحوال الأطفال الدراسية و الرياضية, مع الاهتمام بشؤون المنزل من الاعتناء به و قضاء حوائجه. زمن الأسرة رغم أنه قد يكون مُكرساً للأخرين من أطفال و أهل و أصدقاء, لكن محاولة أن يُقوم به الزوجان سوياً له أثره الواضح و الإيجابي على العلاقة بين الزوجين.

(ج) زمن العلاقة

نجد في ترتيب الزمن من أهم الأوقات و التي عادة يصيبها الاهمال والنسيان هو زمن العلاقة,و هو زمن للزوجين مع بعضهما البعض. و يمكن أن نقسمه إلى جزئين زمناً للصداقة و زمن للحب. فزمن الصداقة هو الزمن الذي يجد فيه الزوجان وقتاً للحديث و التواصل عن قضايا الأسرة و العمل و الأصدقاء و المجتمع و القضايا العامة, و هو زمن

يتشارك فيه الزوجان الحديث الخفيف و المرح اليومي عن تفاصيل الحياة ,و الحديث العميق عن قضايا و هموم خاصة و عامة. زمن الحب هو وقت يُفرغ تحديداً ليحتفي الطرفان بوجودهما في حياة بعضهما البعض, و يُعبران عن ذلك بقضاء وقت طيب أو القيام بأي نشاط يخصهما فقط, و قد يكون خارج المنزل لحضور فيلم أو مسرحية أو لتناول وجبة سوياً, أو داخل المنزل في جلسة حول فنجان قهوة و استعادة ذكريات أو مشاهدة فيلم أو برنامج. إذا فشل أحد الزوجين في الالتزام بأحد البرامج المحددة عليه أن يقتطع من زمنه الخاص في الأسبوع الذي يليه.

التقيد بالزمن بصورة حرفية مُهم في بدايات العلاقة, لأن هذا التقيد هو ما يخلق للعلاقة تقاليدها و يجعلها تسير بقوة دفعها الذاتي. عندما يفتقد الجميع هذا التقليد تصبح العلاقة بلا إطار, لذا وجب الاهتمام بتقاليدها, فإذا أصبحت عرضة للانكسار يجب أن يسعى الجميع للمحافظة عليها. مثالاً لذلك إذا صار لدى الأسرة تقليد تناول الوجبات سوياً مع ضروة اجتهاد كل أفراد الأسرة في الحضور, سيصبح مع الزمن من تقاليد الأسرة أن تلتقي يومياً مرة أو مرتين تتبادل الأفكار و الهموم و الذكريات. أيضا إذا كان من زمن الأسرة قضاء نهار الجمعة مع الأسرة الممتدة, مع الوقت سيصبح تقليداً للتواصل و المحبة. و إذا كان زمن الصداقة بين الزوجين يومياً في المغرب, لأصبح تقليد شاي المغربية يخلق جواً من التواصل, و يفتقده الزوجان إذا لم يحدث يوماً ما.

الأزمة الحقيقية في معظم الزيجات أن زمن الأسرة يتغول على باقي الأزمان, أو زمن الزوج الخاص يتغول على زمن الزوجة. عادة يكون الضحية زمن العلاقة في شِقيه زمن الصداقة و زمن الحب, رغم أن في الغالب الأعم أن زمن الحب هو الأكثر تضرراً, والأكثر تأثراً لدرجة أننا نجده مفقوداً تماما في بعض الزيجات.

من الضروري التوازن في إعطاء كل احتياج زمنه المحدد, و الالتزام بذلك

بلا تغول و بدون إهمال أو نسيان لبقية الالتزامات و الأدوار.

اختفاء زمن الزوج والزوجة يقود للتوتر و ازدياد المشادات و المشاحنات, و سيادة مشاعر القلق و الغضب مع تعمق الإحساس بأن الزواج سرق من الفرد حياته و اهتماماته.

انعدام زمن العلاقة يقود لعلاقة جامدة و باردة تُشبه المؤسسة التي يقوم الموظفون فيها بأدوارهم بكفاءة و لكن بلا رُوح و بدون استمتاع مما يقود للضجر و الملل, و تجعل كل فرد متحوصل في دوره و يعيش في كبسولة وظيفته بدون تواصل مع الآخر, و بدون أحاسيس للمحبة و الحميمية.

الركن الرابع للزواج السعيد (إدارة الاختلاف)

من أهم قواعد السعادة في الزواج المقدرة على إدارة الاختلاف و التنازع. و يعني ببساطة كيفية إدارة الاختلافات حتى لا تصل بالزوجين إلى مراحل التوتر أو التباعد, مع سهولة تجاوزها و سحب فتيلها قبل أن تصل لمرحلة التنازع. لقد تحدثنا في صفحاتنا السابقة بالتفصيل عن الاختلاف و أدب الاختلاف و أثره في تدهور الزواج, و سنحاول التركيز على الخلاصة لأهميتها في بناء السعادة من جانب آخر.

المقدره على امتلاك ثقافة أدب الاختلاف يمنع الاختلافات اليومية أن لا تتكرر, و تصبح سبباً للتنازع و تبعد الغضب و المشاعر السالبة من دائرة التواصل, مما يعطي مساحة للتعرف على دواخل الآخر في جو من الأمان و المودة.

مرحلة التنازع هي مرحلة من الاختلاف تصل درجة من الحِدة تتوقف فيها العلاقة من التحرك, فتصبح الأجواء مشحونة بأحاسيس عدم الأمان و التهديد للعلاقة بعدم الاستمرارية.

الاختلاف هو شئ طبيعي في أي علاقة بين طرفين, و الزواج ليس مختلفاً عن ذلك حيث أنها مؤسسة اجتماعية تشمل طرفين يمتلكان سمات متباينة, فمن المستحيل أن يكون هناك تطابق و من الطبيعي أن يكون

هناك اختلافات, لذا هو ليس فقط في تحاشي المشاكل بل كيف يُصبح الاختلاف قاعدة للتقارب.

الاختلاف قد يكون على مستوى السلوك أو الأفكار أو المشاعر. حيث قد يختلف الزوجان في سلوك محدد مقبول من طرف و مرفوض من الآخر. و مثال لذلك نجد التعامل و التصرف في الأموال, فقد يرى أحد الزوجين أن شريكه مبذر أو بخيل, بينما لا يتفق معه الشريك على ذلك. على مستوى الأفكار نجد الأمثلة كثيرة للمفاهيم التي يختلف فيها الزوجان, من القضايا العامة الفلسفية و الدينية و الاجتماعية و من القضايا الأسرية. إن أفضل مثال لذلك ما نراه من نقاط الاختلاف بين الزوجين في النظرة لدورهما و وظيفتهما في العلاقة أو مفهوم التربية للأطفال. الاختلاف في المشاعر كثير الحدوث, حيث نجد أن ما يغضب الزوج أو الزوجة تجاه موضوع ما قد لا يثير أي إحساس عند الطرف الآخر.التعامل مع القضايا الخلافية يختلف بين شخص و آخر, فالبعض بالنسبة لهم أن أي موضوع فيه تباين لوجهات النظر يجب حسمه لمصلحة أحد الطرفين. هي عقلية المعركة و التي ينبغي أن تنتهي بالفوز أو الخسارة, و ليس غريباً أن يكون كل طرف مصراً على الفوز و حسم الخلاف لمصلحته. بعض الأزواج يفضلون عدم مواجهة الاختلاف, بل يميلون للتقليل من شأنه أو إنكار وجوده تماماً أو تجاهله. هذه الطريقة قد تستمر لفترة و لكن حتما لن تكون حلاً جذرياً, فقضية الاختلاف ستستمر بل ستزداد في حجمها و تأثيرها حتى تصل لمرحلة يصعب فيها الإنكار و التجاهل. حينها تصبح قضية الاختلاف قد تضاعفت في حجمها و أصبحت أكثر تعقيداً و صعوبة.

يحاول البعض تلطيف الأجواء و تجميل أسباب الاختلاف بوضع طبقة من القبول السطحي للتعايش مع نقطة الاختلاف, بينما نجد في دواخلهم تزداد وتائر الاختلاف و أبعاده. هذه الطريقة لا تَحِلّ الخلاف جذريا, بل تساعد في التعايش الوقتي معه و لكن ستبقي أسباب الاختلاف مستمرة

مما يقود إلى استهلاك القوى و شعور الشخص بالتعب النفسي, و غرقه في دوامة من الاستنزاف و الاستهلاك النفسي. نجد في بعض الزيجات يميل أحد الطرفين أو كلاهما للتنازل من أجل إرضاء الطرف الآخر, و تقليلا لاحتمالات المواجهة و التوتر. هذه الطريقة عادة قد تساعد في تخفيف حدة التوتر لفترة قصيرة, و لكن يستمر موضوع الاختلاف موجوداً في الدواخل, و يُضاف إليه شعور الشخص المتنازل بالضعف و قلة الحيلة أحيانا أو بالغضب أحيانا أخرى. لا نستغرب أنْ ينفجر هؤلاء ذات يوم نَتَاج تراكم هذه المشاعر السالبة و القضايا غير المحسومة و التي تستمر في الغليان بالدواخل.

البعض يتعامل مع قضايا الاختلاف بالمواجهة و الرغبة في العمل عليها, و المشاركة بين الزوجين لوجود نقاط التقاء ترضي الطرفين. هذه الطريقة بلا جدال أكثر الطرق نُضجاً و فاعلية في التعامل مع الاختلاف باعتبار أنها تنجح في إبعاد فتيل التوتر و المشاعر السالبة, و المحصلة عادة يكون فيها مكسب لكل طرف, مما يحمي العلاقة من مشاعر الغضب و الإحباط.

الأساليب البسيطة من أدب الاختلاف قد تكون كافية لتجاوزها. إذا وصل الاختلاف لذروته و أصبح نوعاً من التنازع, يحتاج التعامل معه لوعي و أسلوب إيجابي لتجنبه. العلاقة التي يمتلك أفرادها المهارة و المقدرة في التعامل مع مرحلة التنازع تكون مُهيأة أكثر للسعادة و للنجاح.

عندما يصل الزوجان إلى مرحلة التنازع عليهما الالتزام بخطوات محددة للخروج من هذه اللحظة بأقل الأضرار الممكنة. قد ذكرنا نقاط السيطرة على الاختلاف و تذويب التناحر و تفاصيل أدب الاختلاف سابقاً, لكن سنجملها هنا بصورة عامة لأهميتها.

أولى الخطوات في السيطرة على واقع النزاع هي الهدوء و التحكم في المشاعر السالبة من غضب و توتر, و مايصاحبها من تغييرات فسيولوجية. لذا على الشخص ممارسة الاسترخاء الكامل و السيطرة على العضلات و

التنفس حتى يصل لمرحلة الهدوء الجسدي الخالي من الانفعال. الخطوة الثانية هي الانتباه لشياطين الحوار الأربعة من نقد و تجريح و تبرير و صمت, و الحذر من الوقوع فيها, مع سرعة معالجتها إذا ظهرت أي منها. النقطة المهمة و هي أن يكون دوماً في الحسبان أن الهدف هو معالجة الضرر, و ليس فتح مزيد من الجروح, لذا استعمال المشاعر الإيجابية من التفهم و الاعتذار و التنازل يجب أنْ تكون هي السائدة. الخطوة الثالثة تتمثل في طريقة الحوار, حيث يجب الالتزام بخطوط واضحة لا تجاوز لها, و على المستمع أو المتلقي أنْ يلتزم بالاستماع الجيد و إعادة الصياغة إذا لم يستوعب ذلك, مع التركيز على المشاعر و أسباب التوتر دون استعجال أو أحكام استباقية, مع التأكيد على فهم منطلقات الآخر و ذِكر ما فهمه من رؤيته لأسباب النزاع...أما المتحدث فعليه تحاشي توجيه الاتهام أو اللوم أو الحديث و الإشارة إلى (أنت), بل يجب التركيز على رؤيته ورغباته هو, فيكون الحديث و طرح القضية من زاوية المتحدث و احتياجاته فيعبر عنها بـ (أنا) في تعبير عن احتياجاته بصورة إيجابية.

المقدرة على تطبيق هذه الخطوات تحتاج لسمات محددة و صفات على الزوجين اكتسابها و تطويرها أثناء تطور علاقتهما,و ليس الانتظار حتى يصلا لمراحل النزاع فيجدان ضعف إمكاناتهما في هذه الميزات.

السِمة الأولى

السمة الأولى المهمة هي المقدرة على ابتداء أي تواصل حتى في مراحل النزاع بصورة هادئه و بسيطة خالية من التوتر.

السمة الثانية

هي المقدرة على السيطرة على مجرى الحوار و تأثيره النفسي, فيجعل على ذاته تهدئة النفس و منعها من الانجراف وراء المشاعر المنفلتة, و في نفس الوقت تكون له المقدرة على تخفيف حدة توتر الآخر و جعله يسيطر على مشاعره المتفلتة و أن يعيده لطبيعته.

السمة الثالثة

من المهم أن يدخل الفرد الحوار و في ذهنه قناعة تامة و توافق نفسي بأنه لا غضاضة أن يتأثر بالرأي الآخر, و ليس هناك ضرورة لفرض آرائه, و أن لا يأبه بالهزيمة اذا كانت المحصلة القبول برأي الآخر..

السمة الأخيرة

و هي الرغبة في التنازل,و أن تكون قوية, لأن العلاقة في دواخل الفرد أهم من كسب هذا الموقف أو ذاك الرأي.

من الأهمية بمكان التعامل مع الاختلاف لأنه ليس وسيلة وقائية لحماية العلاقة من التدهور, بل هو في الأساس وسيلة إيجابية لبنائها, و استمرار السعادة لأنها تساعد في قبول الاختلاف في جو صحي و تفيد في معرفة الآخر و معرفة دواخله. و بذلك يصبح الزوجان أكثر تفهما و قربا لبعضهما البعض مما يسهم في ازدهار مشاعر الأمان و المحبة.

الخاتمة

مفاتيح النجاح في دروب الزواج



مفاتيح النجاح في دروب الزواج

نحاول في نهاية هذا السِّفر أن نخرج بحروف قليلة و جرعات من الوعي, و معاني نصنع منها قلادة نضعها في أعناقنا و لا ننساها لتكون بلسماً و شفاءً لعلاقاتنا و دعاشاً يكتب لها الاستمرارية و النضار, و تكون حجاباً يحمينا من الانزلاق في متاهات التعاسة و تأزم العلاقات و الانهيار.

الحب

في بداية العلاقة و نحن نضع لَبِنَات مشاعر الحب هناك ثلاثة أعمدة أساسية و مهمة ليستقيم البناء و هي:

(١).الاحترام و التقدير.

(٢).الصداقة.

(٣).المرونة.

ماقبل الزواج

قبل الزواج و نحن نستكشف عوالم جديدة و نرتب أنفسنا لواقع جديد نَدْخُلُهُ برؤى مختلفة و متباينة, لذا نحتاج أن نضع نقاط تفاهم و قَبُول تجمع مفاهيمنا أو ترسم طريقاً وسطاً يربط بين الزوجين و يرضي طموحهما في الآتي:

(١).الأحلام و التوقعات.

(٢).الأدوار و المسؤوليات.

(٣).العمل و المال.

(٤).الأسرة و الآخرين.

الزواج

عندما يجمع الزوجين عُشٌّ الزوجية يجب أنْ يفهما حقيقة أساسية و هي أنْ العلاقة لا تنمو لوحدها, بل تتطور بمقدار اعتنائنا و اهتمامنا بها. هناك أركان خمسة يجب على الزوجين الاهتمام بها و التركيز عليها في كل لحظة من عمر العلاقة و هي:

(١).المشاركة

(٢).المبادرة و الاستمرارية

(٣).الثقة و الشفافية

(٤).الحوار و أدب الاختلاف

(٥).العطاء و التنازل

إذا كان هناك كثير من الايجابيات التي نستطيع أن ننهل منها لتغذية العلاقة و تزيين وجهها, فهناك أيضا كثير من السلبيات التي قد ترمي بظلالها على مجرى العلاقة.

بعض هذه السلبيات هي سمات في شخصيتنا قد نكتسبها مع الزمن و نضعها على رؤوسنا دون الانتباه إليها, لذا ذكرنا و حذرنا من بعضها بوصفها من جراثيم الفشل الواجب تجنبها, و مثال لهذه السمات و الأدوار:

- **المُحاسب** الذي يحسب على الشريك ما قدمه للعلاقة, و يسجل له أخطاءه و يقارن بما فعله هو و ما قدمه للعلاقة.
- **الحالم** الذي لا يعيش في واقعه و يرفض أن يتقبل الحقائق الماثلة أمامه, و يعيش دوماً على تصورات و أحلام ليس لها أساس.
- **الممثل** الذي يُظهر عكس ما في دواخله و يهرب من مواجهة الحقائق.
- **المعاتب**الذي لا يغفر ولا ينسى, و يعيش معاتباً في كل خطوة و يكون متحسراً على الألم الذي قد جرى له من ذلك الموقف أو ذاك.
- **السمسار**الذي لا يقدم أي خدمة أو موقف إلا و كانت في باله مصلحته, و دوماً ينتظر جزءاً من المكسب لذاته و يأتي الآخر في المرتبة الثانية.
- **المتعهد** الذي يضع معظم جهده و استثماره في الحياة بعيدا عن

العلاقـة, فيكون زمنـه و جهـده في مسـاحات ليسـت لهـا علاقـة بالـزواج.

- **المخاتل**الـذي يـراوغ للوصـول لأهدافـه و لا يعلـم دروب الصراحـة و الوضـوح.
- **المستسلم**الذي يرفـع الرايـة البيضـاء أمـام الاختلافـات و لا يسـعى جاهـداً لتجاوزهـا.
- **المصارع**الـذي يشـعر بأن العلاقـة هي منافسـة بين اثنين و يسـعى في كل موقـف للفـوز و الانتصـار.

إن أكبر الأفات في العلاقه هي

- الإيمان الخاطئ بحتمية الملل والتدهور مع الزمن
- الإستسلام للسلبيات في العلاقه والإحباط
- إنعدام إحساس مسئولية البناء والمتابعه.

نختتـم بحثنـا هـذا بنتيجـة لاخـلاف حولهـا وهي .....إن العلاقـة الناجحـه هي إكسير الحيـاة وألقـه..لا تنبـع من الفـراغ بـذرة لا تنمـو لوحدهـا بـل نحـن من نحـدد نـوع ثمارهـا وبريقهـا بالجهـد والرعايـه توفيرا للإيجابيـات وإزالـة السـلبيات والشـوائب فـإن فعلنـا..فسنسـعد بشـجرة الحيـاة رونقـا..حلـوة الثمـر والمنظـر تـزداد تألقـا وجمـالا مـع الزمـن.......

المراجع

1. Sally Roesch Wagner The Untold Story of the Iroquois Influence on Early Feminists: Essays Sky Carrier Press, 1996 .

2. Simon Bird and Katerina Karaskov 2017 Land of Lost Male Rights Where Women Rule kindle edition.

3. Tooker, Elizabeth. (1994) Lewis H. Morgan on Iroquois Material Culture:University of Arizona Press; First Edition (November 1, 1994).

4. Gossmann, Lionel (1984) "Basle, Bachofen and the Critique of Modernity in the Second Half of the Nineteenth Century", in: Journal of the Warburg and Courtauld Institutes.

5. McLennan, John F. 1970 [1865]. Primitive Marriage. An Inquiry into the Origin of the Form of Capture in Marriage Ceremonies. Chicago .

6. McLennan, John F. 1970 [1865]. Primitive Marriage. An Inquiry into the Origin of the Form of Capture in Marriage Ceremonies. Chicago .

7. Morgan Moses, Daniel Noah (2009). The Promise of Progress: The Life and Work of Lewis Henry Morgan. Columbia: University of Missouri Press.

8. Westermarck, Edward 1901The History of Human Marriage
Third Edition London Macmillan and Co. Limited.

9. Émile Durkheim; Albert Ellis 1963 Incest the nature and origin of the taboo,New York, L. Stuart [1963].

10. Emile Durkheim; Joseph Ward Swain 2013 The Elementary Forms of Religious Life.Stilwell : Neeland Media LLC, 2013.

11. Cynthia Eller 2001The Myth of Matriarchal Prehistory: Why an Invented Past Won't Give Women a Future Beacon Press; Illustrated edition (April 13, 2001).

12. Cohen, David (1989). "Seclusion, Separation, and the Status of Women in Classical Athens".

13. F. G. Wilfong 2010: Gender in Ancient Egypt, in: Willeke Wendrich (editor): Egyptian Archaeology, Blackwell Studies in Global Archaeology, Malden, Oxford 2010.

14. Judith P. Hallett, Fathers and Daughters in Roman Society: Women and the Elite Family (Princeton University Press, 1984).

15. Schaus, Margaret C., ed. (2006). Women and gender in medieval Europe: an encyclopedia. Routledge.
16. Engels, Friedrich (2010). The Origin of the Family, Private Property and the State. Penguin UK.
17. Alway SE, Grumbt WH, Gonyea WJ, Stay-Gundersen J (1989) Contrasts in muscle and myofibers of elite male and female bodybuilders. J Appl Physiol 67:24–31.
18. Lips, Hilary M. (1997). Sex & Gender: An Introduction (٣rd ed.). Mountain View, Calif.: Mayfield .
19. Sinclair I., Baker C., Wilson K., and Gibbs I. (2005) Foster Children: Where they go and How they do. London Jessica Kingsley..
20. Fine C (2005). Delusions of Gender: The Real Science Behind Sex Differences. Icon Books.
21. Sigmund Freud Three Essays on the Theory of Sexuality Paperback – June 3, 2011 Martino Fine Books (June 3, 2011).
22. Sigmund Freud The Interpretation of Dreams: The Complete and Definitive Text Paperback Basic Books; 1st edition (February 23, 2010).
23. Barbara L. Fredrickson Tomi-Ann Roberts OBJECTIFICATION THEORY Toward Understanding Women's Lived Experiences and Mental Health Risks First published: 28 July 200.
24. Karen Horney 1993 Feminine Psychology 1993 W. W. Norton & Company; Revised ed. edition (October 17, 1993).
25. Simone De Beauvoir 2011 The Second Sex Paperback –Vintage; 1st edition (May 3, 2011).
26. Nathaniel Branden 2008 The Psychology of Romantic Love: Romantic Love in an Anti-Romantic Age–Tarcher Perigee.
27. Erich Fromm 2006 The Art of Loving Paperback – Harper Perennial Modern Classics; Anniversary edition November 21, 2006.
28. Zick Rubin 1973 Liking and Loving: An Invitation to Social Psychology Holt Rinehart & Winston; Revised edition (June 1, 1973).
29. Robert J. Sternberg ,Karin Sternberg 2019 The New Psychology of Love Cambridge University Press; 2nd edition (January 31, 2019) .
30. Westermarck, Edward, 1921 The history of human marriage London :

Macmillan and co., limited.
31. Ismail,Ibtisam Sudanese women perception to boy image and its impact on health2012U.K unpublished PhD research.
32. Masters, W.H.; Johnson, V.E. (1966). Human Sexual Response. Toronto; New York: Bantam Books. 1981 edition.
33. Bader, E., & Pearson, P. (1988). In quest of the mythical mate: A developmental approach to diagnosis and treatment in couples therapy. Philadelphia: Brunner/Mazel.
34. Solomon, A.H. (2017). Hookup Culture. In Encyclopedia of Couple and Family Therapy. New York: Springer.
35. John PhD Gottman 1995 Why Marriages Succeed or Fail: And How You Can Make Yours Last Paperback –Simon & Schuster; 1st edition (June 1, 1995).

هذا الكتاب

دكتور مجدي إسحق

- من مواليد مدينة الكوة.
- استشاري الطب النفسي مع اهتمام خاص بقضايا الحب و الزواج و العلاقات العاطفية

إن الهدف من هذا الكتاب هو البحث في قضايا العلاقات العاطفية و مؤسسة الزواج, و محاولة الوصول لنظرة علمية تساعد القارئ على اكتساب المعرفة و الوعي العلمي بهذه القضايا. ربط المرأة بالعلاقات العاطفية في هذا الكتاب ليس إقرارا بأن المرأة هي المسؤول الأول أو أنْ الزواج يفترض أن يكون همها الأول, أو ليست لها هموم غيره. دراسة واقع المرأة و ربطه بالعلاقات العاطفية في هذا الكتاب إنما يعكس فقط الارتباط التاريخي بين المرأة و الأسرة, لكننا في جوهر الفكر ننادي بالأسرة المتكافئة المتوازنة التي يتشارك الرجل و المرأة في تأسيسها و المحافظة عليها على قدم المساواة.

من أصعب الأشياء أن تتناول قضايا المرأة في كتاب واحد, و ذلك لتشعب القضايا و تداخلها و تشابك العوامل التي تؤثر في هذا الواقع.أيضا من الصعوبة أن تفصل نفسك من هذا الواقع و تكون محايداً, و أن لا تترك لشخصيتك و تجاربك تأثيراً على المنهج العلمي المطلوب. و قد سعيت بكل جهد أن أَتَّبِعَ الصرامة العلمية و معها خبرتي في هذا المجال..

لدراسة العلاقات العاطفية و الزواج, كان ضروريا أن لا ندرسها في الفراغ المجرد بل في واقع معلوم, حيث المرأة و الرجل هما إفراز لثقافة و فهم محدد وجب علينا تفكيكه حتى نصل للعوامل الذاتية التي ساهمت

في رسم شخصيتهما, و كيف أثَّرَ ذلك في ضعف أو في قوة هذه العلاقات.

- هل هو كتاب عن تطور وضع المرأة عبر التاريخ؟
- هل هو دراسة عن تشكيل وعي المرأة و شخصيتها و تأثير العوامل التركيبية و التكوينية عليها؟
- هل هو دراسة لواقع المرأة اليوم من تقاليد و أعراف و إلى أي مدي ساهم في تشكيل رؤيتها؟
- أم هو كتاب عن المفهوم العلمي للحب و الجنس و الزواج و العلاقة بينهما؟
- أم هو كتاب يعكس بعض المشاكل و القضايا التي تقابل علاقات الحب و الزواج؟
- و هل سنجد فيه بعض الخطوط العريضة لكيفية التعامل مع هذه القضايا و ما فيها من عراقيل و منحنيات و ماهي أفضل الطرق لتجاوزها؟
- و هل يحمل الكتاب في دَفَّتَيْهِ نصائح علمية لكيفية بناء علاقة عاطفية متوازنة و حياة زوجية سعيدة و متوازنة؟

يمكننا أن نقول بكل ثقة ....

.... نعم......

لكل هذه التساؤلات....

لا نزعم أنه سيحمل في داخله كل الإجابات و كل التفاصيل, و لكننا نؤكد أنه سيحمل معه حصيلة أكثر من ثلاثة عقود في الطب النفسي و اهتمام خاص بقضايا الحب و الزواج, حاولت بكل جهدي أن أضعها في قالب مختصر يساعد القارئ على بناء فهم علمي لنفسه و لعلاقاته, و النظر لواقعه و محاولة الاستفادة من هذا الوعي الجديد و النصائح و الارشادات المبذولة و التمارين البسيطة في بناء علاقة عاطفية ناضجة, و يساهم في تأسيس حياة زوجية مشبعة بالحب و السعادة و المودة.



هذا الكتاب

مجدي إسحق

- من مواليد مدينة الكوة.
- استشاري الطب النفسي مع اهتمام خاص بقضايا الحب و الزواج و العلاقات العاطفية

إن الهدف من هذا الكتاب هو البحث في قضايا العلاقات العاطفية و الزواج، و محاولة الوصول لنظرة علمية تساعد القارئ من الجنسين على اكتساب المعرفة و الوعي العلمي بهذه القضايا.

إن دراسة واقع المرأة و ربطه بالأسره لايعني إختزال دور المرأه الإجتماعي لأننا ننادي بالأسرة المتكافئة المتوازنة التي يتشارك الرجل و المرأة في تأسيسها و المحافظة عليها على قدم المساواة.

هل هو كتاب عن تطور وضع المرأة عبر التاريخ؟

هل هو دراسة عن تشكيل وعي المرأة و شخصيتها و تأثير العوامل التركيبية و التكوينية عليها؟

هل هو دراسة لواقع المرأة اليوم من تقاليد و أعراف و إلى أي مدي ساهم في تشكيل رؤيتها؟

أم هو كتاب عن المفهوم العلمي للحب و الجنس و الزواج و العلاقة بينهما؟

أم هو كتاب يعكس بعض المشاكل و القضايا التي تقابل علاقات الحب و الزواج؟

و هل سنجد فيه بعض الخطوط العريضة لكيفية التعامل مع هذه القضايا و ما فيها من عراقيل و منحنيات ؟

و هل يحمل الكتاب في دَفَّتَيْهِ نصائح علمية لكيفية بناء علاقة عاطفية و حياة زوجية سعيدة و متوازنة؟

يمكننا أن نقول بكل ثقة ....نعم......

لكل هذه التساؤلات....

لا نزعم أنه سيحمل في داخله كل الإجابات و لكننا نؤكد أنه سيحمل معه حصيلة أكثر من ثلاثة عقود في الطب النفسي و اهتمام خاص بقضايا الحب و الزواج، حاولت بكل جهدي أن أضعها في قالب مختصر يساعد القارئ رجل كان أو إمرأه على بناء فهم علمي لذاته و لعلاقاته و محاولة الاستفادة من هذا الوعي الجديد و النصائح و الارشادات المبذولة في بناء علاقة عاطفية ناضجة ليساهم في تأسيس حياة زوجية مشبعة بالحب و السعادة و المودة.

د. مجدي إسحق

واقع المرأة السودانية قضايا الحب والزواج

